

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

تاريخ الجزائر العام

يشتمل على بيان واف مفصل لتاريخ القطر الجزائري في جميع اطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والطبية والدينية والادبية والفنية والاقتصادية والمعمارية والصناعية مع تراجم المبشرين وارباب الفرائح من مشاهير الجزائريين منذ أقدم العصور الى الآن .



الجزء الاول

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن
إلا وعندي من أخبارهم طرف

مكتبة الشركة الجزائرية - الجزائر
المعوي

مرازة و بوداود وشكاهما

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

طبعة ثانية جديدة

منقحة ومزيدة

١٣٨٤ هـ . ١٩٦٥ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك
اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد
كما جعلتها على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد

تقديم

رب أعني ...

أما بعد فباسم الحرية المقدس أتقدم ملياً اخواني حفظهم الله تعالى الذين هم كثيراً ما اسمعوني الحاحهم المؤكد في وضع كتاب موضع لتاريخ الوطن الجزائري الكريم جامع للعقائني التاريخية مجردة آتٍ بذكر تفاصيل الوقائع معللة بأسبابها ونتائجها منذ أقدم العصور الى الآن ... مع اشتراطهم عليّ بأن يكون ذلك في اسلوب سهل وتعبير حر ونظام عصري وطريقة واضحة ! ... ولعمري ان البعض من هذا في موضوع واسع كهذا لينوء بالعصبة اولى القوة فكيف بهذا العاجز الضعيف ! ... فاعتذرت للرفقة الكرام بشئ المعاذير فلم يقبلوا ، وشرحت لهم ضعفي وقصوري امام كل هذه القيود والظروف الضيقة فلم ينصفوا ، بل انهم ثبتوا مصممين على رأيهم راسخين فيه رسوخاً لا يغيره تنقل الزمان وتلونهُ ، ولا غلل الدهر وحوادثه ... بل ما زادم ذلك الا صلابة في التمسك برأيهم وحدة فيه ، ولسانهم الناطق يقول : لا ملجأ ولا منجى لك منه ولا سبيل الا اليه . فله الامر من قبل ومن بعد ! ... واخيراً رضخت لطلبهم واسعفتهم في اقتراحهم « مكره اخاك لا بطل » بوضع هذا السفر المتواضع ، مقتصرأ فيه على ذكر الامم فالامم من حوادث التاريخ الجزائري الماجد ، محكماً فيه الروح العلية والامانة التاريخية المحضة ،

متجرداً ما استطعت من كل نحس او انفعال كيفما كان نوعه او تعدد مثاره . جامعاً فيه ما لا يسع الانسان جهله . ولا يحسن - بالجزائري على الاخص - اغفاله ، مكتفياً في بعض المواضع بالاشارة الحاطقة الى ابرز الوقائع واهمها وذلك لضيق المجال عن التفصيل او لقلة فائدته ؛ مع الاماع الى سير العمران والحضارة الجزائرية وسيرة مشاهير الوطنيين من عابرة الجزائر في مختلف العصور والاحقاب .

اذ دراسة التاريخ تعتبر اعظم درس تمتع لتتبع احوال الماضي في خدمة المستقبل ، فهي تعطينا امثلة واقعية تطبيقية عن سير جميع شخصيات الماضي ، وحتى الاخطاء التي ارتكبتها الاشرار من الاسلاف تعطينا هي كذلك دروساً نفيسة عميقة البحث تبعث فينا داعي العبوة فنتجنب الوقوع في مثل تلك الاخطاء حاضراً ومستقبلاً ، والتاريخ يعيد نفسه كما قيل .

وقد مضى وفيه الحد الزمن الذي كان فيه الملوك والافراد يملكون زمام الشعوب ويفرضون سيطرتهم عليها كيفما شاءوا وشاءت لهم احوالهم واصبحنا بفضل الله علينا في زمن اضعف فيه السلطة بيد الشعوب فهمي وحدها التي تحكم نفسها بنفسها وتقرر مصيرها ، كما ان التاريخ وحده هو الذي يعطينا فكرة واضحة جلية عن سير المدنية والثقافة التي مر بها هذا الوطن خلال العصور ، فهو نعم الاستاذ في تنمية الافكار وتوسيعها ، وجذا الملقن والواعظ لبث الاخلاق الفاضلة ونشرها بين الناس وتثبيتها :

وانا الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وزمته جهد المستطاع عن كل تعقيد واهام ، سالكاً فيه مسلكاً سهلاً بسيطاً لا يحتاج فيه المتعلم الناشئ ولا القارئ العادي الى كدح ذهن ولا جهد فكر ولا اغنيات روية . ولا ادعي الفضل في ذلك ، حيث انني لم اجيء فيه بشيء جديد او مبتكر حديث وانا هو جمع وتدوين لما كنت سطرته لثقتي وجمعت من تاريخ وطني العزيز المشتت هنا وهناك ! ... مع تنسيق نصوصه الوثيقة ووضعها حسب نظامها الطبيعي من فجر التاريخ الى الآن . وتعمدت الاجاز في القسم الاول الخاص

بما قبل الاسلام لعدم تعلق الغرض الشديد به اليوم ، واسهت مشعباً
البحث في العصور الاسلامية اسهاباً يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام
بلاده وتبجيد تاريخه اللامع العظيم والثقة بمستقبله الزاهر النير ، مع نفخ
روح القومية فيه ، واعداده لوصول حاضره بماضيه ، حتى تتكامل فيه
اركان الحياة الاربعة : المحافظة على شخصيته وميزته ، وتقديس اسلافه
الاجداد ، والتمسك بدينه ، والعمل على الاشادة بوطنه ...

واعتقد انني بذلك خلصت تاريخنا الماجد من ان يبقى مكتوباً عرضاً
ضمن تاريخ الامم والشعوب والافطار المستعمرة ، او ان يكون كفصل
ملحق بكتاب مبعثر مشوه العرض ، ارجو ذلك ان شاء الله .

وليس لأحد بعد الله عز وجل علي في ذلك فضل او منة الا ما انا
مدين به للكتب ومؤلفيها الاعلام وهم الذين ذكرتهم منوهاً باسمائهم في
صدر هذا الكتاب وهوامشه ، او ما انا مقر به لربة البيت والعفاف
الخليلة الكريمة قربتي وشريكة حياتي ورفيقتي في السير بهذا العمل المتواضع
المنعمة المبرورة : ام غالب « ميمي خداج » - سقى الله ضريحها - من
المؤازرة العظيمة فيما كانت تمدني به من تحقيقات تاريخية وبحوث نفسية
تستخلصها من مطالعاتها المستمرة وقراءاتها المتتابعة لكتب الافرنج الباحثين
في موضوع تاريخ الجزائر ، فكانت رحمها الله تلخصها وتترجمها الى العربية
طيلة ايام اعدادنا لهذا التأليف وجمع شتاته من اوله الى آخره .

فكانت وهي بشاركتها هذه مبتهجة مسرورة من غير ان تبالي بما
تجشسه من اتعاب ومشاق بالاضافة الى نشاطها الدائم المستمر في القيام
بما يتطلبه البيت من الواجبات الضرورية والمصالح الكهالية ايضاً ، فكان
من الواجب المحتم عليّ نحوها - وقد اصطفاه الله اليوم لجوارده واختار لها
ما عنده - ان انوه باسمها شاكرآ لمساعدتها الجليلة ، ومجدآ لماثرتها الحميدة .

وما اغفلت ذلك - يعلم الله - في الطبعة الاولى لهذا الكتاب تهاوناً
بشأنها او غمطاً لحقها الطبيعي او هاضماً لعلها الجبار وفضلها المتزايد في
تكوين هذا الكتاب كلا والله ! ... وانما وقع ذلك منها عن تواضع

وخبل وتازل عن حقها - اكرم الله متواها - فتراني انا مرغماً على
مواطنها على ذلك ! ...

واليوم !! ... اليوم وقد ودعنا الى دار البقاء منصرفة الى جوار
ربها^(١) وجب علي اظهار ما كان لهذه السيدة المغفور لها من المشاركة
الفعالة في اقامة صرح القومية الجزائرية بتغذية (هذا التاريخ) بما زودتنا
به من العلم وبما كانت تبذل في اخراجه من جهد وتضحية بالغة - طيب
الله ثراها - ؛ وكل ذلك كان منها ابتغاء مرضاة الله وخدمة للعلم
والعروبة والاسلام .

وها انا اثبت اسمها الكريم هنا - تقديداً لله برحمته - أداء لأمانة
التاريخ ، وقياماً بمجربة الصنعة ، وتخليداً وتسجيلاً لذكراها الطيبة العبة
واعترافاً بليل عن غير محابة ولا تركية .

يود الله ضريحك يا ام غالب واسكنك فسيح جنته ، فانك والله
وان كنت غائبة عن عيني - وفي عالم الخلود فلا تزال ماثلة في صدري ،
مصورة في فكري ، ومثلة لناظري ، فلا اسلو عنك ولا انساك بصالح
الدعاء ابدأ ، واني استغفر لك ما دمت حياً الى ان التحقق بك !! ...
ثم يستغفر لنا ويدعو لنا من بقي بعدنا ، ان الله واسع المغفرة .

وها نحن اليوم بفضل الله وحسن عونه نقدم لهواة التاريخ ورواد
العلم والمعرفة هذه الطبعة الموسعة الجديدة من كتابنا هذا - تاريخ
الجزائر العام - محتالة في بردها القشيب كاملة غير منقوصة ، بل مزودة
غير منقوصة ، متشياً فيها على نسق ما عهده القراء مني في النشرة
الاولى لهذا الكتاب من وضوح في التعبير ، وسهولة في الاسلوب ، واطراد
في الفصول ، وانتظام في العرض ، واستيعاب في الجمع ، واحكام في

(١) اختلجتها النون فباء اثر استجمام بيتها عشية يوم الاثنين ١١ شوال ١٣٨٣ هـ = ٢٤
نغري ١٩٦٤ ، ورمها رحما الله بتربة الشيخ محمد بن عبد الرحمان الصوفي الازهري -
جناحية الحامة - الجزائر .

الوضع ، وصراحة في الحكم ، متعاشياً كل انحياز او امتياز مستمداً
العون والتوفيق من الباري عز وجل انه هو العليم الخبير ذو القوة المتين .
محتسباً فيما تكبدته في تحريره من المشاق ، وما اضعت في جمع حقائقه
وتأليفه من واجبات للنفس والاهل والاعلاق ! ...

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصباية الا من يعانيها
شاكراً للسادة المقترحين حسن ظنهم وثقتهم بي راجياً من الباري عز
وجل ان يحقق آمالهم وظنهم في هذا الكتاب ويفيض عليه من رضاه ،
انه على ما يشاء قدير نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

تحريراً في الجزائر ١٥ شعبان ١٣٨٣ هـ

ربى المين الزرقاء فالح جالفي يناير ١٩٦٤ م

رفع الكتاب

باسمك اللهم اشرّف برفع كتابي هذا واهدائه الى مقام رفعة حامل
قبس الهداية الاسلامية الى هذه الديار ، ومنقذها من وصمة الكفر والعار ،
والمعلي فيها كلمة الله ، والمجاهد في سبيل الله ، الى فاتح افريقية ، وقاهر
القوات الرومانية ، وكاسر عادية البيزنطية ، الى مزلزل اقدام القيصرية ،
وهازم جحافل جيوش الاباطرة وملوك البرابرة ، الى روح ذلك البطل
الخالد والامير الفاتح العظيم ، مفخرة الجزائر ، ودرّة تاج تاريخ مجدها
في الحاضر والغابر ، سيد الشهداء :

« عَجَبَ بْنَ مَافِعٍ الْفَهْرِي »

رضى الله تعالى عنه

الى هذه الشخصية التاريخية العظيمة ، والى تلك الارواح الجريئة الجبارة :
ارواح اولئك الشهداء الفاتحين ابطل التاريخ الجزائري الماجد ، اقدم هذا
السفر المتواضع من « تاريخ الجزائر العام » قاصداً بذلك لفت نظر شباب
الجزائر الناهض وتوجيهه الى دراسة تاريخه الحافل الجزل لينشأ على تقدير
أعمال اسلافه ، والتأسي بعظمائه الكرام . وان في ذلك لذكرى لمن كان
له قلب او القى السمع وهو شهيد .

المؤلف

أَهَمُّ مَصَادِرِ الْكِتَابِ وَمَرَا جِعِهِ

١٢٦٢	طبع بولاق	خليفة محمود	انحاف ملوك الزمان (معرب)
١٣٤٦	طبع الجزائر	محمد بن حماد	اخبار ملوك بني عبيد
	طبع مصر بدون تاريخ	سليمان الباروني	الازهار الرياضية
١٣١٢	طبع مصر	احمد الناصري	الاستقصاء
١٩٣٦ - ١٩٣٤	طبع مصر	محمد كرد علي	الاسلام والحضارة العربية
	مخطوط	لسان الدين بن الخطيب	اعلام الاعلام
١٩٥٠	طبع رباط	م. م. المشرقي	افريقيا الشمالية ...
١٨٦٦	طبع اويسالا الترويج	ابن ابي زع	الانيس المطرب
١٣٢٢	طبع الجزائر	يحيى بن خلدون	بغية الرواد
١٨٨١	طبع ليدن	ابن عذارى	البيان المغرب
١٩٠٨	طبع الجزائر	ابن ابو مريم	البتان
١٩٣٦	طبع مصر	امين سعيد	تاريخ الاستعمارين
١٢٨٠	طبع باريس	... ?	تاريخ افريقية والمغرب قبل الاسلام
	مخطوط	احمد ابن المطار	تاريخ بلد قسنطينة
١٣٥٠	طبع قسنطينة	محمد مبارك الميلي	تاريخ الجزائر
١٢٨٩	طبع تونس	محمد الزركشي	تاريخ الدولتين
١٨٩٦	طبع مصر	محمد فريد	تاريخ الدولة الثمانية
١٩٢٩	طبع مصر	اسرائيل ولفنسون	تاريخ القنات السامية
١٩٠٣	طبع الاسكندرية	محمد ابن الامير عبد القادر	تحفة الزائر
١٩٠٦	طبع الجزائر	ابو القاسم الحفناوي	تعريف الخلف برجال السلف
١٣٥٢	طبع مصر	كتاب حاضر العالم الاسلامي	تعاليق الامير شكيب ارسلان على

١٨٨٦	مطبوع	مخطوط	ابن رجب جاويز التركي	مخطوط	مهايد
١٣٤٢	مطبوع مصر	مطبوع	ابن الابار	مطبوع	فصحة لكتاب الله
١٨٩٦	مطبوع جوية	مطبوع	الدكتور احمد بك عيسى	مطبوع	مختصر في اصول التعريب
١٩٤٤	مطبوع تيطوان	مطبوع	سلي خطار الدحداح	مطبوع	حياة لاموريسير (مرص)
١٣٠٩	مطبوع مصر	مطبوع	محمد وهي	مطبوع	خلاصة شرح العرب
١٣٤٤	مطبوع تونس	مطبوع	سيدو	مطبوع	خلاصة شرح العرب (مرص)
١٣٣٩	مطبوع القاهرة	مطبوع	ح. ح. عبد الوهاب	مطبوع	خلاصة شرح تونس
١٩٢٠	مطبوع الجزائر	مطبوع	ابن فرحون	مطبوع	مطالع القمح
?	مطبوع ?	مطبوع	نشر م. ابن الى شنب	مطبوع	فخيرة الفية
		مطبوع	الامير عبد القادر	مطبوع	ذكرى الماتر
	مخطوط	مخطوط	ابن زرقة	مخطوط	ازمة القصرية
١٣١٦	مطبوع تونس	مطبوع	لبن الدين ابن الخطيب	مطبوع	رمح الحلق
	مخطوط	مخطوط	محمد التلساني	مخطوط	الزهرة الثائرة
			شرح عبد الرحمن الجامعي على ارجوزة الملقاوي في تاريخ فتح وهران		
١٩٣٨	مطبوع مصر	مطبوع	حين مؤنس	مطبوع	الشرق الاسلامي
١٣٠٢	مطبوع مصر	مطبوع	محمد بريم الخامس	مطبوع	صفوة الاعتبار
١٣٥٣	مطبوع مصر	مطبوع	شمس الدين السخاوي	مطبوع	المنه والامع
١٢٨٤	مطبوع بولاق	مطبوع	عبد الرحمن بن خلدون	مطبوع	السيرة ...
	مخطوط	مخطوط	محمد بوراس	مخطوط	عباب الاسفار
١٩٣٧	مطبوع مصر	مطبوع	عبد الحميد الببادي	مطبوع	علم التاريخ (مرص)
١٩١٠	مطبوع الجزائر	مطبوع	احمد التبريني	مطبوع	عنوان الرواية
١٩٣٤	مطبوع مصر	مطبوع	نشر عبد القادر نور الدين	مطبوع	غزوات عروج
١٩٤٧	مطبوع القاهرة	مطبوع	حين مؤنس	مطبوع	فتح العرب للفرص
١٩٤٢	مطبوع الجزائر	مطبوع	ابن عبد الحكم	مطبوع	فوح اريقية
١٩٢٥	مطبوع تونس	مطبوع	احمد توفيق المدني	مطبوع	قواطعة في اربعة عصور
	مخطوط	مخطوط	محمد بوراس	مخطوط	الفصل المرب
١٣٠٣	مطبوع مصر	مطبوع	عز الدين ابن الاثير	مطبوع	الحكام
١٣٥٠	مطبوع الجزائر	مطبوع	احمد توفيق المدني	مطبوع	كتاب الجزائر
	مخطوط	مخطوط	محمد الثاني	مخطوط	كشف البنائع
١٣٥٠	مطبوع تونس	مطبوع	ابن ابي دينار	مطبوع	المؤنس
١٩٥٦	مطبوع الجزائر	مطبوع	احمد توفيق المدني	مطبوع	محمد عين باشا

١٩١١	طبع الجزائر	عبد الله البكري	المالك والمالك
١٨٨١	طبع لندن	عبد الواحد المراكشي	المعجب
١٣٥٧	طبع مصر	ياقوت الحموي	معجم الادباء
١٨٦٦	طبع ليبك	ياقوت الحموي	معجم البلدان
١٣٦٦	طبع بطون	التهامي الوزاني	المقرب الجاهلي
١٣٤٤	طبع تونس	عثمان الكماك	موجز التاريخ العام للجزائر
١٨٦٤	طبع لندن	الشريف الادريسي	نزهة المشتاق
١٣٢٩	طبع القاهرة	احمد بايا التنبكي	نيل الابتهاج ...
١٢٩٩	طبع بولاق	ابن خلكان	وفيات الاعيان

Les origines Berbères — Louis Rinn — Alger, 1889.

Histoires d'Algérie — S. Gsell, Marçais, G. Yver — Paris, 1929.

Histoire de l'Algérie — E. Cat — Paris, 1929.

La question Algérienne — N. d'Orient, M. Lœw — Paris, 1936.

Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger — Joachim de Gonzalez — Alger, 1886.

Domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger — M. Walsin Esterhasy — Paris, 1840.

Les civilisations de l'Afrique du Nord — V. Piquet — Paris, 1917.

Histoire de l'Algérie — G. Esquer — Paris, 1950.

Histoire d'Alger — De Grammont — Paris, 1887.

Histoire de Constantine sous les Beys — E. Vayssettes — Constantine, 1869.

Histoire de l'Afrique du Nord — ch. André Julien — Paris, 1931.

طائفة من آراء مشاهير علماء الشرق والغرب في التاريخ

أهمية التاريخ في نظر العلماء والفلاسفة

علماء العرب :

التاريخ للزمان مرآة ، وتراجم العلماء للشاركة والمشاهدة مرقاة ، وأخبار الماضي لمن عاتته الموم ملهاة ، وقد أفاد التاريخ حزماً وعزماً ، وموعظة وعلماً ، وممة تذهب همأ ، وبياناً يزيل وهناً ووهماً ، وصبراً يبعث التأمي بن مضى ، واحتشاماً يوجب الرضى بما خفي وجلا من القضاء . « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب » .
الصلاح الصفدي

لم استعن على دفع كذب الكذابين بشيء مثل التاريخ .

حسان بن يزيد

اذكر من مضى واعتبر بمن خلا ، تزل غرتك . وتزد بصيرتك .

ابو منصور الثعالبي

الجاهل بالتاريخ راكب عمياء ، وخابط خبط عشواء ، ينسب الى من تقدم اخبار من تأخر ، ويعكس ذلك ولا يتدبر . احمد بابا التنبكتي

لا حياة لامة إلا بإحياء ماضيها . الدكتور حسين هيكل

لا مراة في ان التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية حتى ليصح
القول بأن الوطن هو تاريخ الوطن . عبد الرحمن صدقي

جاء في الحكمة اليونانية ان في تعليم التاريخ تعليم للفلسفة بالامثلة .

.....

انه لا يتصور على وجه الكرة وجود امة تشعر بذاتها ، وتعرف
نفسها قائمة بنفسها إلا اذا كانت حافظة لتاريخها ، واعية لماضيها ، متذكرة
لاولياتها ومبادئها ، مقيدة لوقائعها ، مسلسلة لانسابها ، خازنة لآدابها بما
لا يقوم به إلا علم التاريخ الذي هو الوصل بين الماضي والمستقبل ،
والرابط بين الآنف والمستأنف .
الامير شكيب ارسلان

ان قلم تواريخ العالم ووقائعه هو قلم المعاد الروحاني فانه يحضر ما مضى من
العالم وحوادثه وبعيده لك في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك .

ابن القيم الجوزية

واخذع الاحياء ما شئت فلن تجد التاريخ في المنخدعين
أحمد شوقي

التاريخ من أعظم العلوم أدباً ، وأعذبها منبعاً ، وأهناها مشرباً ،
وأنورها مطعماً ، وأحلاها في القلوب موقعاً ، لم تزل محاسنه تروق ،
وفوائده تفوق ، وفرائده تشوق ، به تعرف أخبار من سلف من العرب
والعجم ، وأحاديث ذوي المراتب والمهم ، وتستفاد منه محاسن الاعيان ،
وتفهم مواقف الشجعان ، ومقاتل الفرسان ، وأوقات مواليدهم ، ومدد
أعمالهم ، ومواضع منازلهم ، ومعاهد ديارهم ، وسيرة الكرماء في كل وقت ،
ومن اختص بفيض هباته بالهبة وغيره بالملت ، وكل عالم وعمن أخذ فنون
علمه ، وكل أديب ومحاسن نثره وبديع نظمه ، والنظر في السنة الشريفة
وأسماء رجالها ، ومراتب روائها ، وطبقات فرسان مجالها ، حتى كأن الواقف
عليه قد أدرك كلاً منهم في عصره ومصره ، ونظره في ساحة ميدانه
ومشيد قصره ؛ ورأى الآتية وأصبح للعلوم من أفواهم متلقياً ، وعلم

من كان يجده وهزله الى ورود العلياء مرتقياً ، أو كأنه قد شاهد كسرى في اوانه ، وهو يقص الرؤيا على موبذانه ، وعاصر سيف بن ذي يزن في اوانه ، وجالس ابن أبي الصلت ينشده على قصر غمدانه ، وفي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الامم السابقة ، وأنباء القرون الحالية ، ما فيه عبوة لذوي البصائر ، واستعداد ليوم تبلى فيه السرائر ، وقد اختار الله لنا ان نكون آخر الامم ، واطلعنا على أخبار من تقدم ، لنتعظ بما جرى على القرون الحالية ، ونعيا اذن واعية .

ابن شاكو الكتي

لا تستطيع الامم ان تهض نهضة صحيحة إلا اذا فهمت ماضيها أحسن فهم واتخذت منه في حاضرها قطرة الى المستقبل .

من تقرير اللجنة الثقافية للجامعة العربية

ان الامة التي يستهين أبناؤها بماضيها ، ويزهدون في أخبارها ، لا يؤمن حاضرها من استغفارهم ، ولا تصان كرامتها من استهتارهم ، كما لا نعلم نقوسهم من الموان ، اذ لا مناعة لعصبيتهم القومية ، ولا عصمة لعزتهم الوطنية ، ان حياة الامة هي سلسلة متصلة ووحدة لا تتجزأ ، فمن لا يعترف بماضيها ، لا يصلح ان يرعى زمام حاضرها .

من كلمة الامير جعفر الحسيني مندوب سورية في مؤتمر الآثار في البلاد العربية

ان من لا ماضي له لا حاضر له ، ومن لا حاضر له لا مستقبل له .

من خطاب احمد فخوري

مندوب اليمن في مؤتمر الآثار في البلاد العربية

ان للتاريخ أثرٌ كبيراً في الثقافة العامة ، فهو سجل الايام من سياسة وممران وفن وأدب .

عجة الهلال (دسبر ١٩٣٠)

عليكم بطلاعة التواريخ فانها تلقح عقلاً جديداً .

من وصية ابي حيان لاولاده

علم الملوك النسب والخبر ، ودروس كتب الحروب والسير .

حكمة عربية

التاريخ أمار لا يدركها الفناء ! ...

.....

التاريخ معاد معنوي يعيد الاعصار وقد سلفت ، وينشر أهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت ، وبه يستفيد عقول التجارب من كان غراً ، وبلقي من قبله من الامم وهلم جرأ ، فهم لديه أحياء وقد تضمنتهم بطون القبور ، وعنه غيب وقد جعلتهم الاخبار في عداد الحضور . ولولا التاريخ لجلت الانساب ، ونسيت الاحساب ، ولم يعلم الانسان ان أصله من تراب ، وكذلك لولاه لمائت الدول بموت زعمائها ، وعمى على الاواخر حال قدمائها ، ولم يحط علماً بما تداولته الارض من حوادث سماها ولمكان العناية به لم يخل من كتاب من كتب الله المنزل ، فمنها ما أتى بأخباره المجمة ، ومنها ما أتى بأخباره المفصلة ، وقد ورد في التوراة مفرداً في سفر من أسفارها وتضمن تفصيل أحوال الامم السالفة ومدد أعمارها . وقد كانت العرب على جهلها بالقلم وخطه ، والكتاب وضبطه ، تصرف الى التاريخ جل دواعيها ، وتجعل لما أول حظ من مساعيها ، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها ، وتمتاض برقم صدورها ، عن رقم سطورها ، كل ذلك عناية منها بأخبار أوائلها ، وإيام فضائلها . وهل الانسان إلا ما أسسه ذكره وبناءه ؟ ! ... وهل البقاء لصورة لمح ودمه لولا بقاء معناه ؟ ! ...

عز الدين ابن الاثير

علماء الغرب :

إذا تأملنا قصر حياة الانسان ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع في زمننا ، فلا شك اننا نشعر بأننا كنا نبقي اطفالاً في ادراكنا لو لم يقبض لنا هذا الاختراع الذي يرجع بخبرتنا الى جميع العصور الماضية ، والى اقدم الامم الحالية ، ويجعلها تمداً باسباب التقدم في الحكمة كما لو كانت تحت نظرنا واسماعنا . ان الرجل المطلع على التاريخ ليكن ان يقال عنه

من بعض الوجوه انه يعيش منذ بداية العالم وانه دائم الاستعداد من كل مملكة يمر بها مدداً يضيفه الى المدخر المخزون من معارفه .

دافيد هيوم

فيلسوف ومؤرخ واقتصادي ايرلندي

... وان امة تغفل تدوين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قراحتها لتورثها لحلفها لآيلة حتماً الى احط انواع الهزيمة معها كانت درجاتها في الحضارة والعمران .

الدكتور وفنسن

أستاذ لغات السامية بجامعة مصر

... وما التاريخ قديمه وحديثه الا بمثابة نظارات ينظر بواسطتها الى النفس البشرية والى العقل البشري تتبعاً لخطواتها في مضار الحياة ... وان المؤرخ هو الذي يلمس بيدي عقله قروح الانسانية ويعرف مواطن علاتها ، لانه يقرأ في كتاب الحياة فصولاً متنوعة تشمل جميع اطوارها وادوارها : وهو نفسه صحافي الازمنة الغابرة ، ومعلم الازمنة الحاضرة .

وليم كاتسفليس

التاريخ مشكاة الحقيقة ، وشاهد الماضي ، ورائد المستقبل .
سيبرون
خطب سياسي روماني

ان دراسة التاريخ تنشط الفكر وتفتحه وتساعد بطرق شتى .

الاستاذ اللي

لقد بان لي ان دراسة التاريخ دون سواها اصلح الدراسات لتعميد الانسان الفضائل الخاصة والعامة .
الفيلوكونت بولنجر
سياسي وفيلسوف انكليزي

ان التاريخ حري بان يكسبنا تصوراً صحيحاً لما هو عارض موقوف ،
بالقياس الى ما هو ابدى باق في حياة الانسان .
الرئيس كيرك
استاذ الفلسفة الاخلاقية بجامعة جلاسكو

من الحق ان العلم بالتاريخ من حيث هو يجمع الحوادث وملاكمها

لا يستغني عنه من يريد تكوين تصور كامل متزن للعالم بوجه عام ،
ان التاريخ هو وحده القادر على ان يضع ظواهر الحاضر في وضعها
الصحيح ، والتاريخ هو وحده القادر على ان يحل لعين الباحث ميدان
الحياة كاملاً غير منقوص ، والتاريخ هو وحده القادر على ان يمكن
الظاعن الذي يقضي يوم راحته تحت خيمة هذا الوجود الحقة من ان
يطلع على غرائب ما يحيط به من مظاهر الابدية . هوثو

استاذ التاريخ بجامعة لندن

ان التاريخ مدرسة السياسة ، وبدون مقدار يسير منه على اقل
تقدير لا يمكن الانسان ان يعنى عناية معقولة بالشؤون السياسية ، وبدون
حظ موفور منه لا يمكنه ان يصدر حكماً معقولاً في اي شأن من
شؤونها ، ان التاريخ دراسة هامة لكل مدني ، بل هو الدراسة الهامة
الوحيدة الخليفة لرجال الحكم والتشريع .

جوهي سيلي

مؤرخ انكليزي

ان حوادث التاريخ هي مصدر الاستنباط والاستنتاج الذي يعتمد
عليه العالم الاجتماعي .

اوغيوست كوميط

فيلسوف فرنسي

ان الشعب الذي يريد الرقي يجب عليه ان لا يقطع الصلة التي
تربطه بماضيه ، اي يجب ان يحترم تقاليده ويراعيها .

الدكتور غوستاف لوبون

من رسالة له خاصة كاتب بها الاديب المصري توفيق يزي

اذا اردنا ان ندرك معنى الامة الحقيقي ينبغي ان ننقد بها في الماضي
وفي المستقبل معاً ، واشد الفريقين قوة هم الاموات لانهم هم الاكثرون
عدداً وهم المؤثرون في عالم الحركات اللاتنبية الذي يخضع لسلطان العقل
والاخلاق في جميع المظاهر . فالامة مسيرة بتأثير امواتها اكثر مما هي
مسيرة بتأثير احيائها ، والاولون هم وحدهم الذين كونوها وهم الذين اوجدوا
ما في الاحياء من الافكار والشاعر قرناً بعد قرن ، واليهم ترجع اسباب

حركة اهل العصر ، لان هؤلاء لا يخضعون لمزاج اسلافهم المادي وحده بل هم متأثرون ايضاً بما كان لأبائهم من المشاعر والافكار . والحاصل ان الاحياء هم الاموات بلا جدال يشقون برذائلهم كما ينعمون بما كان لهم من الفضائل والمكرمات .
الدكتور غوستاف لوبون
من كتابه : سر تطور الامم

... فالامم نتيجة ماض طويل ومحصول ما خضعت له من البيئات المختلفة التأثير ، وبماضي الامم يفسر حاضرها .
الدكتور غوستاف لوبون
من كتابه : حضارة العرب

مَا هُوَ التَّيَّخُ؟..

التاريخ في اللغة بالهمز وبدونه والتواريخ كذلك بالواو معناه : الوقت ، وهو لفظ عربي صميم . اما ماهيته وتعريفه بالحد الاصطلاحي : فهو علم تعرف به احوال الماضين من الامم الحالية من حيث معيشتهم ، وسيرتهم ، ولغتهم ، وعاداتهم ، ونظمهم ، وسياستهم ، واعتقاداتهم ، وآدابهم ، حتى يتم بذلك معرفة اسباب الرقي والانحطاط في كل امة وجيل . فهو يتطلب الاحاطة بتطور الانسان في المجتمع خلال جميع العصور وفي سائر البلاد . ومادته اي العناصر الوجودية الضرورية التي يتكون منها كثيرة متنوعة اهمها الآثار القديمة من الابنية والهياكل والاحجار المنقوشة والمسكوكات المضروبة والملابس والازياء والادوات المنزلية وغيرها من كل ما هو من نوعها مثل التقاليد والعادات والاخبار والحوادث المروية والدواوين المجموعة والوثائق الخطية وكل ما تناقله الخلف عن السلف مشاهدة او مشاهدة مع حسن نظر وثبت كما قال ابن خلدون : يفضيات بصاحبها الى الحق وينكبان به عن الزلات والمغالط ، لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العشور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق ، وكثيراً ما وقع المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا لم يعرضوها

على اصولها ولا قاسوها بأشباها ولا سبروا بمعار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوم والغلط .

وليس التاريخ ايضاً مجرد سرد حوادث الحروب ووقائع الامم ، او التعرض لذكر اخبار الملوك والوزراء والكبراء وتعداد الغرائب والعجائب مما يندهش له السوقة وأشباهم من الناس ، ولا هو كذلك بمحض سوق حكايات عن تقلبات الدهر وتطوراته التي تعتري كل احد في حياته العادية او ما يتبع ذلك عادة من التألم لفجائع الزمن وجرائم الحدثان ؛ كلا !.. فان هذا كله من شأن الاخبار والاخباريين وشأن ما بين الاخباري والمؤرخ ؛ فان المؤرخ يفيدنا بأحوال المجتمع الانساني الذي هو عمران العالم وبما يعرض لطبيعته من التقلبات مثل التوحش والتأنس والمصبات واصناف تقلبات البشر بعضهم على بعض . وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومسايعهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ويصل لنا الحاضر بالماضي ، وكلما كانت صلة الحاضر بالماضي قوية ووثيقة كلما كان اساس مستقبل الوطن راسخاً وثابتاً . وما عدا الحقيقة علامتنا ابن خلدون حيث قال كلمته المختصرة الجامعة في الموضوع : هو تحليل لكائنات ومبادئ دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ؛ واما الاخباري فقاص .

العرب والتاريخ

انه مما كاد ان يتفق عليه العلماء قديماً وحديثاً امتياز الامة العربية واختصاصها بهذا العلم وانها مقطورة عليه مشغوفة به وانها جبلت على ذلك بحسب مرقع بلادها الجغرافي ومواطنها التي نشأت فيها ، فلا يتوصل الى خبر من اخبار العجم أو العرب إلا بالعرب ومنهم ، وذلك على ما حكاه

أبو محمد بن الحائك المهداني صاحب كتاب الاكليل : من ان كل من سكن بمكة من العماليق وجرم وآل السبيدع بن هونة وخزاعة ، أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الاعاجم من عهد أسعد الى كرب وبجتنصر حووا علم الاعاجم وأخبارهم وإيام حمير ومسيرها في البلاد ، وعنهم سار أكثر ما رواه عبيد بن شربة ومحمد بن السائب الكلبي والهيثم بن عدي . وكذلك من وقع بالشام من مشائخ غسان خير بأخبار الروم وبني اسرائيل واليونان . ومن وقع بالبحرين من تنوخ وإباد فعنه أتت أخبار طسم وجديس . ومن وقع من ولد نصر من الازد بعمان فعنه أتى كثير من أخبار السند والهند وثنيه من أخبار فارس . ومن وقع بجبل طيه فعنه أتت أخبار اذينة والجرامقة . ومن سكن باليمن فانه علم أخبار الامم جميعاً لانه كان في دار بملكة حمير وفي ظل الملوك السيادة الى الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ولم يكن ملك منهم يعز إلا وعرف البلاد وأهلها . والعرب أصحاب حفظة ورواية لحقة الكلام ورقة ألسنتهم .

ماذا يشترط في المؤرخ ؟ ...

يحتاج صاحب فن التاريخ الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال . والاحاطة بالحاضر من ذلك وبمائلة بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينها من الخلاف وتعليل المتفق منه والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ومباني ظهورها ، وأسباب حدوثها ودواعي كونها واحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعباً لاسباب كل حادث واقفاً على أصل كل خبر ، وحينئذ يعرض خبره المنقول على ما عنده من القواعد والاصول ، فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه .

المقدمة

فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّارِيخِ

قرار المؤتمر الثقافي العربي الاول لجامعة الدول العربية

المنعقد بيت موي - لبنان - ٩ / ٩ / ١٩٤٧ م

وافق عليه المؤتمر في جلسة الثلاثاء ٩ سبتمبر ١٩٤٧
ووافق عليه مجلس الجامعة العربية في جلسته المنعقدة
يوم ٢٢ فبراير ١٩٤٨

يرى المؤتمر :

أولاً : ان يكون محور دراسة التاريخ في المرحلة الابتدائية تاريخ القطر الخاص الذي يعيش فيه التلميذ ، مع العناية بدراسة الصلات بين هذا القطر وبين البلاد العربية قبل الاسلام وبعده .

ويتيم هذا الغرض بدراسة القصص المشوقة وتراجم أبطال التاريخ القومي وتراجم أبطال العرب ممن تجاوز اثرهم حدود بلادهم .

وينبغي الاشارة في ثنايا قصص الابطال الى الحياة الاجتماعية في مختلف العصور ، مع الموازنة بين الحياة الماضية والحياة الحاضرة التي تقع تحت حس التلميذ ، والعناية بالحياة المعيشية لطبقات الشعب .

على انه في السنة الاخيرة من المرحلة الابتدائية يجوز ان يدرس التاريخ على صورة منظمة مع مراعاة تيسيره ليلانم عقلية الاطفال ومدى خبراتهم .

ثانياً : ان يكون محور دراسة التاريخ العربي في التعليم الثانوي النواحي الاجتماعية والوصفية ، مع بيان اثر الشخصيات الفذة والاحداث والوقائع اللازمة لتصوير الحقائق وتبينها في الازدهان ، وتقصي مظاهر التطور والنضج التام .

ثالثاً : ان يشمل القدر المشترك من التاريخ العربي الذي يدرس في المدارس الثانوية في جميع البلاد العربية ما يأتي :

(ا) تاريخ العرب قبل الاسلام .

(ب) تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام الى الفتح العثماني .

(ج) النهضة العربية الحديثة .

اما الجزء الواقع بين الفتح العثماني والنهضة العربية الحديثة فيدخل ضمن المنهج الخاص الذي تضعه الهيئات المشرفة على التعليم في كل دولة . ويتوكأ توزيع هذا المنهج على الفرق للهيئات المشرفة على التعليم في كل دولة منها .

رابعاً : ان يعنى في المرحلة الثانوية من التاريخ العالمي بالقدر اللازم لمساعدة الناشئة على فهم مكانة بلاده والدول العربية بين دول العالم ومشاكل المدينة الحديثة .

خامساً : انه ينبغي ان يدرس التاريخ دراسة علمية ، ويناقش مناقشة قائمة على منطق انساني عادل .

سادساً : انه يستحسن ان تكون طريقة تدريس التاريخ اساساً للتدرج من القديم الى الحديث ، ولا مانع من التحلل من ذلك عند الاقتضاء .

سابعاً : ان يدرس تاريخ العرب على حسب الدول والعصور المتتابعة وفقاً للطريقة التقليدية .

ثامناً : ان يدرس تاريخ الشعوب العربية بعد سقوط بغداد على

اساس تاريخ الدولة الخاص مع الاشارة الى تاريخ الدول العربية الاخرى
وبيان ما بينها من العلاقات .

تاسعاً : ان يدرس تاريخ الحضارة العربية متصلًا بالتاريخ العربي
العام ، بمعنى انه بعد الانتهاء من العرض العام لكل عصر يدرس الطالب
حضارة هذا العصر .
(كمنينا في كتابنا هذا)

عاشراً : انه ينبغي للاستفادة من دراسة التاريخ العربي في تقوية
الروح العربية الحقبة الاهتمام بالنواحي الآتية :

١ - بيان اثر امم الشرق الادنى وفضلها في بناء صرح المدينة القديمة ،
ومقدار تأثر اليونان والرومان بحضارات الشرق القديم في الشام وفلسطين
ومصر وغيرها .

٢ - تتبع الصلات السلالية والتجارية والثقافية بين امم الشرق الادنى ،
تلك الصلات التي وجدت قبل الاسلام ثم جاء الاسلام فدمجها وزاد
في اواصرها .

٣ - ابراز الاحداث العظيمة والمواقف الحاسمة لنواحي البطولة في
العصور العربية الزاهرة ودراسة الاسباب والنتائج في تفصيل يتضح منه
اثر الحياة الشعبية والروح العربية في ارتقاء الدولة او الدول العربية وهبوطها .

كما ان المؤتمر يرى ابراز الاشتراك التاريخي والاتصال الجغرافي التام
بين البلاد العربية في قارتي آسيا وافريقيا ، اذ كانت هذه البلاد في
العصور القديمة مرتبطة باوتق الصلات ، ثم كانت خلال حقبة طويلة من
الزمن وحدة سياسته تضمها امبراطورية عربية عظيمة كما ظلت في العصور
التأخرة مرتبطة بعضها مع بعض بروابط متينة . وان الحضارة العربية
احتفظت بكيانها وطابعها ووحدتها على مر العصور .

حادي عشر : ان من الوسائل التي تساعد على تنمية الروح العربية
وتحقيق الاغراض المقصودة من تدريس التاريخ بالبلاد العربية ما يأتي :

- ١ - تأسيس الجمعيات التاريخية لتبادل الآراء والكشوف والبحوث .
- ٢ - تنظيم رحلات الاساتذة والطلبة بين البلدان العربية .
- ٣ - عقد مؤتمرات دورية للدراسات التاريخية من وقت لآخر في عواصم البلاد العربية .
- ٤ - الاهتمام بالحفائر الاثرية وانشاء المتاحف التاريخية والاستعانة بالفنون الجميلة لتوضيح التاريخ العربي ، مثل الروايات التاريخية والقصص التاريخية واللوحات الفنية والافلام .
- ٥ - العناية بالتقاليد المحلية والازياء الخاصة والاغاني الشعبية مع تهذيبها وما يتفق مع المدنية الحديثة والروح العربية .
- ٦ - العمل على تخليد ذكرى عظماء الشرق العربي واحداثه التاريخية بطرق مختلفة ، كاقامة التماثيل ، واطلاق اسمائهم على الشوارع والميادين ، وتسمية كراسي الاستاذية في الجامعات بأسماء النابغين منهم في مجال البحث العلمي ، الى غير ذلك من الوسائل التي تبرز المثل العليا التي ينبغي ان يتجدها نحوها شباب العرب ، فيعتزوا بميراثهم الاجتماعي ، ويشعروا نحو هؤلاء العظماء بالجميل ، فيعملوا على المحافظة على هذا الميراث ، بل وعلى الاستزادة منه .

أشهرني ابتداء التاريخ

كان الناس في القديم يؤرخون بأشهر الوقائع واعظم الحوادث التي يندر وقوعها متكررة وتجدها في كل مرة الى ان وجد التاريخ في القرن الاربعين قبل الميلاد ، فقد أرخ قوم بعصر ظهور آدم عليه السلام كما هو في زعم اليهود الى الآن وتاريخهم هذا يتقدم الميلاد باحدى وستين وسبعائة وثلاثة آلاف سنة ، وهو تاريخ ابتداء العالم في نظرهم ؟ ... وفي ذلك من الخلاف بين علماء هذا الشأن ما فيه ؛ ومنهم من اخذ يؤرخ من حادثة طوفان نوح عليه السلام ، وقد كان بينه وبين الهجرة نحو اربع وسبعين وتسعمائة وثلاثة آلاف سنة على ما في ذلك من الخلاف ايضاً بين المؤرخين وعلماء الهيئة والفلك . وهناك من ارخ منذ تبلبل الالسة - كما يقولون - وذلك حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد ، ومنهم من ارخ بعد الخليل عليه السلام اي منذ ثلاث وتسعين وثلاثمائة والفي سنة قبل الهجرة ، كما ارخوا كذلك بتأسيس الكعبة ورفع قواعدها في ذلك العهد ، وأرخت جماعة بوفاة موسى نبي بني اسرائيل ، اي قبل الهجرة بأربعين وثلاثمائة والفي سنة ، ومنهم من ارخ بعمارة بيت المقدس - قبل الهجرة بثلاثمائة والفي سنة - كما ارخوا بحجابه ايضاً سنة خمسين وثلاثمائة والفي قبل الهجرة ، وارخ قوم بتلك بختصر سنة ١٣٦٩ قبل الهجرة ، وبغلبة الاسكندر على دارا ملك الفرس سنة ٩٣٤ قبل الهجرة ، وبغلبة اغسطس على قلوبطرة الملكة المصرية سنة ٦٥٢ قبل الهجرة ، وبميلاد

المسيح كما هو معلوم (١) ، وبخواب بيت المقدس الثاني سنة ٧٠ للميلاد .
 واشهر التواريخ خمسة : تاريخ العرب ، وتاريخ القبط ، وتاريخ الروم ،
 وتاريخ الفرس ، وتاريخ اليهود ؛ فالتاريخ العربي هو تاريخ الهجرة ،
 الذي وضعه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في السنة السابعة عشرة
 من الهجرة النبوية ، الموافقة ليوم ١٦ جويلية سنة ٦٢٢ م ، واما القبطي
 فانه يبدأ من السنة التي تغلب فيها « دقظليانوس » الانطاكي احد ملوك
 القبط على مصر ، وهو يزيد على تاريخ الهجرة بنحو ٣٠٠ سنة شمسية .
 والتاريخ الرومي هو المستعمل اليوم بيننا في معرفة فصول السنة
 والانقلابات وغيرها من التغيرات الجوية واحوال الطقس التي تنبئ عليها
 اعمال الفلاحة والزراعة الخ ... وهذا هو التاريخ المعروف عندنا باسم :
 العجمي ، ومبدؤه كان من السنة التي مات فيها الاسكندر الكبير - ذو
 القرنين المقدوني - وهي السنة السابعة من ملكه ، وهو يزيد على تاريخ
 القبط ٥٩٠ سنة . واما التاريخ الفارسي فانه يبدأ عندم بأيام القائم من
 ملوكهم ، وكان آخر ملك اسس تاريخهم عليه وهو يزديجرد بن شهريار
 ابن برويز كسرى انوشروان المتولي سنة ١١ للهجرة ، وللفرس تاريخ آخر
 جديد يسمى بتاريخ الجلالي نسبة الى جلال الدين شاه ومبداه عاشر
 رمضان سنة ٤٧١ هجرية على المعتقد .

والذي اعتمدته انا في ضبط الوقائع والحوادث بهذا الكتاب هو تاريخ
 الهجرة مع مقابلته بما يوافقه من التاريخ الميلادي ، وهما اللذان جرى
 العمل بهما في توقيت الحوادث بجميع انحاء العالم المتمدن اليوم .

(١) ولد كان وضع العمل به ابتداء من سنة ٥٣٦ م بمعرفة « يوليوس » احد
 القس ببعض اديرة رومة ؛ وقد خطأوا هذا القس في حسابه حيث كان مبدأ التاريخ
 المسيحي عنده متأخراً بنحو خمس سنوات على ما حققه مهرة المؤرخين ، فان تاريخ الميلاد
 كان يوم ٥ ديسمبر سنة ست قبل التاريخ الميلادي المعمول به اليوم .

جغرافية القطر الجزائري

الجزائر اسم عربي صميم لعاصمة الوطن وام القطر^(١) ولم يكن ليطلق هذا الاسم على الاقليم كله إلا منذ العصر التركي فقط ، (القرن العاشر الهجري) - السادس عشر الميلادي - أما قبل ذلك فقد كان يعرف عند العرب بالمغرب الاوسط ، ذلك لتوسطه بين المغربين ، الاقصى والادنى : مراکش وتونس :

أما موقع هذا الوطن الطبيعي فهو عبارة عن قطعة من الارض هي واسطة عقد الشمال الافريقي ، وان شئت فقل هو قلب الدنيا .

(١) كانت هذه المدينة في الزمن الفار قرية حقيرة لا شأن لها وتسمى في لسان البربر « آرغل » اي المكان المستور العميق ، وورد في اساطير اليونان ان هرقل الهيب استقر فيها مع اصحابه المشرين فمرفت بهم : - ايكوسي - Eixoci بمعنى مدينة العشرين؟ ... ولقد اصبح اليوم هذا القول تجاه التحقيق التاريخي ضيقاً . ولما جاء عهد القوطاجين وتأسس بها مرساها التجاري حرف اسمها هكذا : ايكوسيم Ikosim ومنه الجزائر او جزيرة الشوك ، او جزيرة الطيور غير الطاهرة ، ثم خربها الفاندال على عهدهم ... وبقيت كذلك الى ان جدد الروم بناءها وحرّفوا اسمها الى اللاتينية هكذا : ايكوسيم Icosiom . وفي القرن الثاني للهجرة سكنت بها القبيلة البربرية « مزغان » بفتح الميم او « مزغناي » او « مزغني » ... وهي بطن من بطون صنهاجة ، ومن « مز » بنو ، كلفظة « مس » بكسر الميم المستعارة الى الآن او هي نفسها ؟ ... ويومئذ اشتهرت المدينة باسم قلعة بني مزغني ، او « جزائر بني مزغني » ، ولم تزل هذه القبيلة موجودة الى يومنا هذا تسكن على نحو ٨٠ كيلومتراً شرقي العاصمة في ناحية « Palestro » على مقربة من طريق السكة الحديدية ، ولقد كان وضع مدينة الجزائر هذه يومئذ على

ولست . هنالك حدود طبيعية تفصله عن القطرين الشقيين : تونس ومراكش سوى خطوط اعتبارية وضعتها يد السياسة مراعاة لاختلاف مصالح ادارة الحكومات التي توالى على هذه الاقطار الثلاثة ، الا حده الشمالي فقط فانه هذا البحر الابيض المتوسط ، وهو يمتد تبعاً للسياسة ايضاً من القالة شرقاً الى جامع الغزوات غرباً ؛ ويبلغ طول هذا الشاطئ ١٢٠٠ كيلو متر . ومن ناحية الجنوب هذه الصحراء الكبرى التي تعتبر الحد الفاصل بينه وبين افريقيا الغربية ، حيث يمتد الخط من اقصى جنوب طرابلس شرقاً الى جهة وادي (ريودي اوو) غرباً اما الخط الغربي - ولا اقول الحد - فهو يمتد من وادي ملوية شمالاً منحدرأ الى منطقتي الفيقيق وبوذنيب مع دائرة كولومب بشار والقنادسة جنوباً ، والخط الشرقي ينحدر من القالة شمالاً الى بئر الهاوية وشط الغرسة جنوباً ، ثم يمتد - نظرياً - الى قرب مدينة غدامس عند بئر الرمان ؛ فطول القطر الجزائري كله اذا يقع ما بين درجة ٦ شرقي

شكل مدارى حسب عادة البربر من احصاء ولحومها ، وبها سوق يأتي اليه اهل متيجة وغيرهم كقبرنة وكريطة وميكش والثمالة الخ ... وفي اواسط القرن الرابع الهجري ٨٦٢ هـ - ٩٧٣ م - مصرها الامير بلكين (بقم الباء واللام وتشديد الحرف الثالث الذي ينطبق به مكسوراً بين الجيم والكاف) بأمر والده عامل صنهاجة : زيري بن مناد الصنهاجي .

وان السبب في تسميتها بالجزائر كما حرره شيخنا الدكتور محمد بن ابي شنب رحمه الله يعود الى وظيفتها الطبيعية ، حيث انه كان هناك تجاه هذه المدينة امام المرسى القديم صخور اربعة متجاورة تشبه الجزر ، منها الصخرة او الجزيرة الكبرى المعروفة باسم (سطلقة) ، وذكرها ابن حوقل فقال : هي في البحر على ومية سهم منها - اي من الجزائر - تخاذلها ، فاذا نزل بهم عدو لجأوا اليها فكانوا في منعة وأمن ممن يبدرونه ويغافونه . وهي التي بنى عليها الاسبان حصنهم (البنولش) Penon سنة ٩١٥ هـ - ١٥١٠ م - ولقد هدم هذا الحصن الاسباني على يد الاتراك سنة ٩٣٦ هـ - ١٥٣٠ م - كما سيأتي تفصيله ومنها صخرة الجفنة المشهورة . ثم كان ردم ما بين تلك الجزر الاربعة وضماها الى بعضها بإشارة المهندس موسى الاندلسي واشرافه على ذلك بنفسه .

ويومئذ اتصلت هذه الجزر بالمدينة بواسطة رصيف طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ٢٥ متراً وعلوه اربعة امتار ، وفي منتهى هذا الرصيف يوجد مركز اقامة امير البحر كما هو عليه الحال الى الآن . وبذلك دعت هذه البلدة في القديم بمدينة الجزائر .

الى درجة ٤ غربي من خط الزوال ، وعرضه من الشمال الى الجنوب ما بين درجتي ٣٧ شمالاً و ٣١ جنوباً من خط الاستواء . وذلك عبارة عن مساحة ٢,١٩٥,٠٩٨ كيلو متراً مربعاً .

ولقد قسمت السياسة هذا الوطن في القديم الى ثلاثة اجزاء - اعتبارية - :
نوميديا وهو الجزء الشرقي الجزائري ، وموريطانيا جزؤه الغربي ، وجيتوليا اي ناحية الجنوب . او ما كان كذلك من تقسيمه الى قسمين : التل والصحراء ، وذلك باعتبار جبال الاطلس الصحراوي الفاصلة بينهما .

ولست في حاجة الى بسط القول بالتعرض الى ذكر تفاصيل جغرافية هذا القطر الاقتصادية والسياسية وتدقيق البحث فيها من الناحية الطبيعية الخ ... فان ذلك ليس من مباحث هذا الكتاب ، وكيفما كان الحال فاني لا احب ان امر عن هذا المبحث دون ذكر شيء من خصائص القطر الجزائري وميزاته التي خصه الله بها ومنحته الطبيعة اياها : فالارض الجزائرية تشتمل على جبال وانجاد وسهول وتل وصحراء ؛ فمن جبالها تكونت هاتان السلسلتان المتوازيتان الشمالية والجنوبية ، الآخذتان من الغرب الى الشرق فالاولى تعرف باسم الاطلس التلي ، كما عرفت الثانية باسم الاطلس الصحراوي . وان اقصى نقطة تبلغها الشمالية في العلو هي بوسط جبل جرجرة حيث تبلغ قمة « لالاخديجة » ٢٣٠٨ أمتار ؛ اما الثانية فهي اضخم واروع من الاولى واعلى نقطة فيها هي بناحية « الشلية » بجبال اوراس حيث تبلغ قمته ٢٣٢٧ متراً . ومن هذه الجبال ما هو مكسو بجمال الطبيعة كالغابات الكثيفة والادوية المتدفقة والجداول والانهار والعيون الجارية المتعجرة وفيها من المناظر البديعة ما يستوقف النظر ويروع البصر وفيها من الاشجار المثمرة المختلفة الانواع وغير المثمرة كثير ومن النباتات النجبية المتنوعة ايضاً ما يملأ وصفه المجلدات ؛ ومنها ما كسبته الطبيعة بجلالها : جبال جرداء ملساء لا يروعك منها الا ضخامتها وعظمتها الصخرية ، وفي كلها توجد حيوانات وحشية وداجنة وطيور مختلفة الاشكال والالوان لا يأتي عليها الحصر .

وان احسن بقاع الجزائر وأخصبها وأغناها هي ناحية التل والساحل
ففيها من الغلل وانواع الحبوب ما جعلها تدعى في القديم (خزينة رومة) ،
وان ام هذه النواحي للفلاحة والحراث هي ناحية سهول متيجة وبونة
(غنابة) وشلف بوهران ، فيها كانت الجزائر ولم تزل غنية بمنتجاتها
الزراعية من غار وخضر وبقول وحبوب وفواكه بما تشتهى الانفس وتلذ
الاعين ! ... والطقس فيها معتدل جيدة الماء والهواء .

اما منطقة الصحراء فمناخها كجملة الصحاري تكاد تكون منعومة الثمار
الا ما قبل منها ونادر في بعض الواحات او ما خصتها الطبيعة به من
انواع النخيل والتمر اللذيذ وفيها كذلك من الماشية ما تعد به من اكبر
مواد الجزائر واثراها وخاصة الغنم .

اما المعادن او قل كنوز الجزائر وركازها - فان القطر غني بما
اودعه الله فيه من غالب انواع المواد المعدنية الثمينة حيث تبلغ ١٤٨
منجماً منتشرة بكامل انحاء الوطن الجزائري ، منها ٢٦ منجماً في ولاية
الجزائر ، و ٩٦ بولاية قسنطينة و ١٥ بولاية وهران منها ١١ شرع في
استثمارها حديثاً .

والجزائر مليئة بكل امكانات التصنيع ، اذ حبتها الطبيعة بارض غنية
بمختلف انواع المصادر وبطاقة كهربائية هائلة شاملة يسهل توليدها من
المساقط المائية العديدة الى جانب ما تزخر به الصحراء من البترول وان
ام ما فيها من المعادن : الحديد والنحاس والرصاص والزنك والقصدير
والفضة والكروم والمروم والزرنيخ والكلس والجير والكبريت والملح
والجص والمانكانيس والساد - الفوسفات - والزنبق والفعم الحجري وحجر
الكحل والنفط - البترول - ؛ وبخار الغاز الطبيعي ويذكر انه اكتشف
بها حديثاً « اليورانيوم » ، والذهب والاملاس ولم يزل المرجان يلتقط من
السواحل الشرقية حيث يصدر الى اوربا وغيرها ؛ وان في الجزائر من
الكنوز ما ان مقامحه لتتوء بالعصبة اولى القوة ! ... ورغم كل هذه
الثروة الطائلة والمواهب الطبيعية التي امتازت بها الجزائر عن غيرها من

الاقطار فان سياسة الاستعمار الحيثة قد حالت بين ذلك كله وبين ابناء البلاد فتركهم فقراء مساكين غيرى ذي متربة ! ... وما ذلك الا عن اغراض سياسية تافهة وزحاجة اقتصادية اساسها الجشع والطمع .

واني لاذكر يوماً من ايام اشتداد الحرب العالمية (١٩٣٩ - ٤٥ م) جرت لي فيه محادثة بيني وبين شخصية سياسية فرنسية مسؤولة جمع بيني وبينها مجلس من المجالس التي كان الفرنسيون يبذلون فيها جهودهم بوسائل متنوعة لخلق الفرص واصطناع المناسبات كي يجتمعوا بشخصيات اسلامية اهلية يتظاهرون لهم فيها بحج التقرب منهم وربط الصلة بهم ويدجلون عليهم بما شاؤوا من معسول الوعود الكاذبة وزخرف القول غروراً - كسباً للوقت - وكان بما طرقلناه في ذلك المجلس التعرض للحالة الراهنة يومئذ وما تقاسيه الجزائر من الحصار المضروب عليها اقتصادياً كما هو سيامي ايضاً ، وما يتكبده الاهالي بالخصوص من الفقر الى الحاجيات والضروريات ! ... مع ان القطر الجزائري بحمد الله غني بما اودع الله في تربته الطيبة من المناجم والمعادن والكنوز ، فسألته بهذه المناسبة قائلاً : هل يوجد في ابناء الجزائر اليوم جميع سكانها من اهالي وغيرهم بقطع النظر عن الجنس ، من توجد فيه قابلية او استعداد للعمل على انشاء شركات صناعية ومعامل فنية تستخرج بها ثروة البلاد ؟ ... فقال نعم ، فقلت له حينئذ : لماذا لم تعمل الحكومة على استثمار هذه الكنوز بتوجيه الرعية الى استعمال مواهبها في استخراج هذا الثراء للناس ؟ ... وفي ذلك ما لا يخفى من الخير ... فأطرق برأسه لحظة ثم قال لي : ابن انت من التنافس الدولي والتزام الاستعماري ! ... فقلت ماذا ؟ ... قال يزدحم علينا الاجانب ؛ فقلت او لجرد هذا التوجس نسمى في اضاءة ثروة البلاد وامانة العباد ونرضى بالحرمات والفقر لانفسنا ونحن على اديم هذه الارض الزكية .

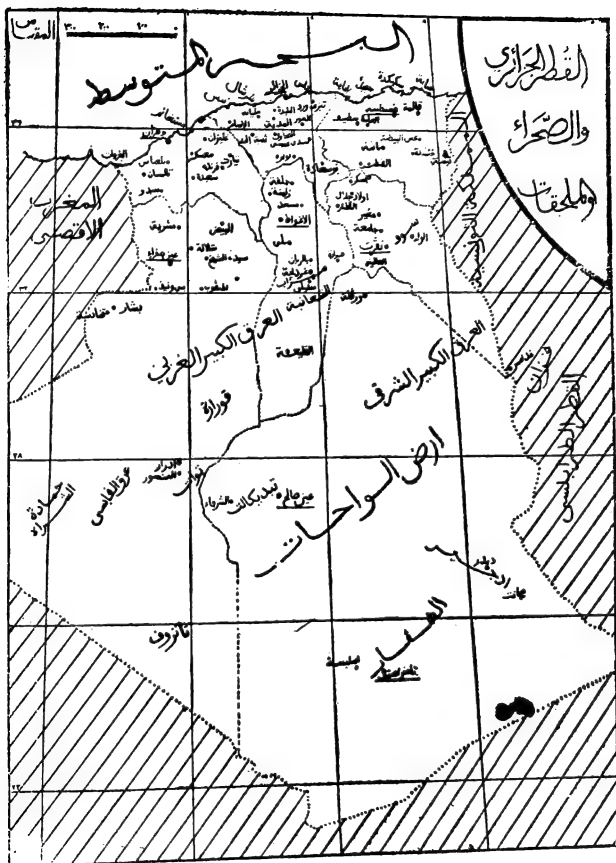
كالمير في البيداء يقتلها الضمأ والماء فوق ظهورها محمول ! ...

فسكت وسكت ... والآن وقد استدارت الايام وانتهت الحرب وانتشع ما كان حائلاً سياسياً بين الامم من الاوهام والحواجز فانكشفت الحقائق

لدى جميع الناس واخذ كل صنف في دراسة احوال العالم الحاضرة على ضوء العلم والمنطق والعقل فانعقدت في شتى المواطن عدة اجتماعات علمية وسياسية واقتصادية للبحث عن اصلاح الحالة الراهنة التي اصبح عليها العالم اليوم للانتفاع بما فيه ، وكان من حظ الجزائر ان تعدد بها عقد مؤتمرات دولية تاريخية وجيولوجية اكتشفت بها عدة نواح مجهولة من تاريخ هذا الوطن وما اودع الله فيه من الحصاص والميزات التي كانت مغفلة مهمة ، وذلك ما كان يحشاه امثال هذه الشخصية الفرنسية المتعدت عنها .

كما يوجد بالجزائر ايضاً حمّامات معدنية منتشرة في نواحي كثيرة من هذا القطر ماؤها ساخن يعالج بها امراض الاعصاب وغيرها مما يستعصي على نظامى الاطباء ... فلم يبق لك الآن ايما الجزائري الغيور الا الاقدام بشجاعتك المعهودة في التاريخ لاستئثار كنوز بلادك حسبما اوجبه عليك دينك وضميرك وقوميتك .

اما عدد السكان فيه فانه حسب الاحصاء الاخير (١٩٤٨ م) بلغ الى ٩٠١١٣٢٨ نسمة منهم ٨٠٤٥٣٣٦ اهالي مسلمون والباقي نصارى بما فيهم من يهود واسبان وitalians الذين شملتهم الجنسية الفرنسية . والواقع انه يفوق ذلك بكثير .



أجزاء العتيقة

ما قبل التاريخ

تعاقب على هذا الوطن الجزائري بعد العصر الحجري وقبل الفتح الاسلامي خمس امم عظيمة : البربر وهم السكان القدماء الاصليون ، والفنيقيون ، ثم الرومان ، فالقندال فالروم - البزنطيون - ؛ وهذا ما نسميه بالجزائر العتيقة ، وتاريخ هذا العصر يشمل تاريخ الشمال الافريقي كله وما الجزائر الا جزء من الجزيرة المغربية وهي كلها متشابهة جغرافياً وتاريخياً فهي وحدة لا تتجزأ رغم جميع الاعتبارات السياسية ، فان تاريخ هذا الشمال الافريقي متمسك الحلقات لم يفصل عن بعضه الا في ظروف استثنائية وملابسات خاصة .

اما قبل ذلك ، فهو ما يعبر عنه لدى علماء التاريخ بعصر البليستوسين pleistocene ويسمى بعصر الجليد ايضاً ، ثم يأتي بعده العصر الحجري ذلك لان النوع البشري عموماً كان اذ ذاك يستعمل الحجارة في كل ما يحتاج اليه من الادوات كالمقاطع والمدى والفؤوس والجفان وغيرها ؛ وينقسم هذا العصر الى ثلاثة اقسام :

الدور الاول - عصر الحجارة القديم الذي كان فيه الانسان اشبه شيء بالوحوش ، حديث عهد بالطبيعة ، جاهلاً بطرق الانتفاع بها ، سادلاً عليه جلود الحيوانات متدفئاً باهابها ، يسكن الجبال والكهوف والمغارات ويأكل مما تنبت الارض عفواً وما عليها من خشاش وحيوانات وحشرات . وهو في كل ذلك يستعمل الحجارة .

الدور الثاني - عصر الحجارة الاوسط ، وفيه تقدم النوع البشري الى غير الحجارة ايضاً ، فأخذ يستعمل عظام الحيوانات من نوع الوعول والطيور والقيلة والكركدن وبيض النعام ، فاتخذ منها الاوعية والابر والسكاكين والمساحي وهذبت فيه الادوات الحجرية نوعاً ما ، وانتقلت السكنى من المغارات الى الاكواخ المستديرة والمربعة ؛ وعني الانسان في هذا الدور بالمدافن فكانت القبور فيه على شكل الهرم مبنية بالحجارة . ولقد كشف العلماء عن آثار من الاحجار المنحوتة ترجع الى هذا الدور في نواحي تلمسان ووهران ويبر العتير جنوب تبسة وسطيف والقلعة بالجنوب الجزائري .

الدور الثالث - اتقن فيه الانسان صناعة الحجارة فاتخذ منها الارحاء للطنن وادوات النقش وصنع السهام ، ورسم عليها بالحجارة المحددة الرسوم العجيبة الشكل ؛ وفي هذا العصر اخترعت الكتابة « الميروغليفية » - اي التصويرية - ، وفيه عرف الانسان الحياة والنسج وايقاد النار وصنع الاواني الطينية للطبخ واتخذ الاوعية من الخشب والحلي والاصداف والمحاور وانابيب الخنزير والحصى المثقوب وغطى رأسه بالريش . وكل ذلك بلغنا بواسطة ما عثر عليه علماء الآثار من هذه الاثاث بنواحي القطر كله . وخصوصاً ما كان منها بمدينة « باليكاو » ونواحي سطيف ومعسكر وعين مليلة والعين البيضاء ووهران والجزائر « العاصمة » وسعيدة وتبسة الخ ... وان اهم ما اكتشف من هذه الآثار هو صور منقوشة على الصخور وبعض الادوات الحديدية ، وقد اجتمعت منها كمية لا بأس بها يوجد بعضها بدار الآثار بالعاصمة وفي غيرها كذلك من متاحف القطر الجزائري وغيره مما كان موضع اعجاب ارباب الفنون والصناعات اليوم .

ولقد ذهب العلماء في تقدير الزمن الذي يرجع اليه تاريخ هذه الآثار مذاهب شتى فبلغ به بعضهم الى ستة او عشرة آلاف سنة قبل الميلاد ؟ ... وهو تاريخ الحضارة البشرية .

ثم يأتي بعد ذلك العصر المعدني الذي اول ما عرف فيه الانسان

النحاس والقصدير والبرونز ثم الحديد ... ومنه انتقل الى ما يعبر عنه
بمصور التاريخ حيث استعمل فيها الوثائق المكتوبة وم يقدرون ما قبل
التاريخ بنحو مائة وخمسين الف سنة .

قدماء الجزائر ، لغتهم ، ديانتهم

لا يخفى وان هذه المجموعة البشرية ترجع في نسبها حسب التقاليد
المتواترة والنظرية الدينية الى آدم ونوح عليهما السلام ، وان الناس جميعاً
هم من ابناء نوح الثلاثة : سام وحام وياث فمنهم وتفرع هذا
الجنس البشري القائم يومئذ - وجعلنا ذريته هم الباقين - وذكروا ان
لياث ولدأ - هو قطوبال - اليه يرجع نسب القدماء من سكان الشمال
الافريقي ، وقيل هم من السلالة الحامية ؟ ... ونرى ابن خلدون نفسه
يشك كثيراً في صحة هذا التقسيم الثلاثي المترتب على ابناء نوح الثلاثة (١)
على ان علماء العصر قد خالفوا هذه النظرية تماماً وانكروا هذه العقيدة
الشائعة وعدلوا عن هذا التقسيم الثلاثي القديم الى جعل الناس ثلاث طبقات :
طبقة العصر الحجري ، وطبقة العصر الحديدي ، وطبقة عصر سكب الرمل ،
وان تاريخ العصر الحجري وحده يرجع الى ما قبل اليوم بنحو ١٢٠٠٠
سنة ، وانه مضى على وجود العائلة الانسانية على وجه الارض نحو
١٠٠٠٠٠ سنة ، وبلغ بعضهم الى ٢٤٠٠٠٠ سنة ؟ ... ولا يخفى ان
التاريخ الديني الذي يقول به النصارى واليهود لا يزيد على ان عمر
البشرية خمسة او سبعة آلاف سنة ؟ ... كما ان هؤلاء العلماء رجعوا في
تقسيم اصول البشر اليوم الى مقاييس الجسم وشكل الرأس فقسوا الناس
على حسب اختلاف مظاهرهم الطبيعية وتباين سحناتهم الى اربعة اشكال :
الشكل القوقامي وهم سكان اوروبا وآسيا الغربية وشطوط البحر المتوسط ؛
والشكل المنولي وهم سكان آسيا وامريكا من السلالة الصفراء ؛ والشكل
الزنجي ؛ والشكل الامريكي القديم ؛ وجاؤوا في تعليلهم لهذا

(١) التعريف بابن خلدون ص ٣٥٤ ط القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .

التباين بين الاشكال بالعوامل الطبيعية والتغيرات الجوية واختلاف البيئة الجغرافية وتغير الطقس والهواء والماء والغذاء^(١). اما نظرية تقسيم البشرية الى فصيلة السامية والحامية والآرية فهي عائدة الى المغزى اللغوي لا غير ، اذ انهم يعنون به الآن الامم التي تتكلم لغات متقاربة تجمعها رابطة السامية او الحامية او الآرية فهو تفصيل لغوي نشأ عن علماء تاريخ اللغات في القرن التاسع عشر لبيان الاختلاف الموجود بين اللغات لابين الشعوب ثم جعل العلماء هذه الانساب اللغوية انساباً للامم التي تتكلم بها .

واما عن تاريخ اقدم سكان الجزائر او قل - شمال افريقية - (من غير البوير) فقد تضاربت اقوال المؤرخين في ذلك ؛ يقال انهم مجموع طوائف ومزيغ سلائل تجمعت من الطائرتين على هذا الشمال الافريقي من مختلف الاوطان في غابر الازمان فتكونت منهم وحدة قومية وعنصر يمتاز هو العنصر الافريقي وعرف هؤلاء من بين الامم بالافارقة ، ومنهم كانت تلك الجاليات المولفة من الميد والارمن والفرس الذين نص عليهم المؤرخ اليوناني « سلاطس » في كتابه (حروب بوغورطة) قال ان هؤلاء جاؤوا مع « هيركوليس » هرقل احـد ملوك إيجـا - بجزر اليونان - كعبد مستأجر لغزو « ايوبيا » - اسبانيا - ولما هلك هرقل طرد هؤلاء الجند من اسبانيا ففرقوا على البلاد المجاورة ؛ فعبـر الميد والارمن يومئذ بحر الزقاق الى شمال المغرب واختلطوا بسكانه من اللوبيين واندجـوا فيهم . واما الفرس فانهم ابحروا كذلك في طلب زملائهم فعولت الرياح شرع سفنهم الى المحيط الاطلسي فأرسوا على شواطئ الجنوب المغربي فوجدوا هنالك قوماً من (الجنبولة) على بساطتهم الطبيعية فاندجـوا فيهم واختلطوا معهم بالمصاهرة كما اندمج الميد والارمن باللوبيين فتكون من هذا الاندماج ما تولد عنهم من هذا الجيل^(٢) يؤيد ذلك ما جاء في الجغرافية الافريقية

(١) انظر تعليقات الامير شكيب ارسلان على تاريخ ابن خلدون ص ٤٥ والتي تليها ط مصر ١٩٣٦ م .

(٢) موجز الكماك ص ٢٨ ودائرة المعارف للبستاني ج ٤ مادة افريقية .

القديمة من ان الفاروسيين - الفرس - استعمروا هذه الارض منذ عصر متوغل في القدم واختلطوا بسكانها واشتهروا فيها بومئذ باسم «نوميدا» او «نوماد» ومعناه بلقنهم الرمل وهو ما يطلق على سكان شرقي الجزائر؛ كما اننا نجد اسم «سوس» او «سوسة» بمراكش وتونس هو كذلك عند الفرس (سوسانة) او (شوشانة) يطلق على ناحية بالساحل الشرقي من الخليج الفارسي و (باجة) من بلاد اصبهان كما هي بافريقيا والاندلس ايضاً الخ ... فما معنى هذا الاتفاق؟ فهل هو من قبيل القضايا الاتفاقية والمصادقة فقط؟ ام ماذا؟ ...

على ان المتفق عليه لدى المحققين من علماء التاريخ والآثار والجغرافية جميعاً ان سكان الشمال الافريقي القدماء هم من سلالة الجنس الابيض واضع اساس المدنات القديمة، ويرى هؤلاء العلماء ان اول ما وجد الانسان وجد بشمال افريقية فهو المهد الاول للجنس الابيض، ومنه هاجر الى اوروبا وايدوا نظريتهم هذه بما دلت عليه الاكتشافات الحفرية الحديثة التي اجراها العلماء ومنهم العالم الاثري «ارامبورغ» فانهم اكتشفوا بناحية مدينة «معسكر» من القطر الجزائري هيكلًا عظيمًا يرجع تاريخه الى نحو ٤٥٠٠ الف سنة، كما ان هذا العالم نفسه ظفر في بحوثه وحفرياتة الاثرية بنفس هذه الناحية بهيكل عظمي آخر متعبر يرجع تاريخه حسب ما دل عليه الفحص العلمي الدقيق الى نحو نصف مليون سنة قبل اليوم.

ولم يسمع او يعرف في تاريخ البحوث الاثرية انهم ظفروا بهيكل متوغل في غضون تاريخ الزمن الغابر وخفايا العصور الماضية والقروث الحالية مثل هذا.

وقد اصبح الميكل الثاني هذا يعرف في مصطلح علماء الآثار وتاريخ البشرية اليوم باسم «اطلاتوروبوس موريطنيكوس» ومعناه الانسان الاول الاطلنطي الموريطاني، وكلا الميكلين قريب من صاحبه زماناً ومكاناً. كما انهم وجدوا حول الميكل «اطلاتوروبوس» هذا عدة ادوات وآلات منزلية هي من حجارة منحوتة مختلفة الشكل: فؤوس

وسكابين وغيرها هي من اقدم ما اكتشف من هذا النوع في هذا العالم ، وذلك ما يدلنا على تقدم ذكاه الانسان الاول في اختراع ضرورياته الحاجية المتعلقة بحياته اليومية - ولاسيما فيما يخص عبقرية الانسان الجزائري الاول - وهذا ما دعا العالم البعثة (ارامبورغ) الى نشر نظريته المدعمة بالدلائل والبراهين الصحيحة القائلة بان ارض افريقيا الشمالية او قل بلاد الجزائر هي مهد العنصر البشري المتحضر .

اما عن لغتهم ولهجاتهم فلم يحدثنا التاريخ عنها بشيء ؛ ولا يبعد ان تكون اخت لغة قدماء المصريين والليبيين ، وخصوصاً اذا ما اعتمدنا مقالة من يقول ان قدماء المصريين هم من سلالة سكان الجزائر ومراكش ؟

واما ديانتهم فهي مؤسسة على عبادة مظاهر الطبيعة من الاجرام العلوية العظيمة كالشمس والقمر ، وبعض الحيوانات كالفرس والتمسك والافعى ، وقد وجد الباحثون في جبل بني راشد - قسنطينة - تمثال تيس على رأسه هالة تمثل دائرة الشمس يدعونه « اتون » .

واذا حاولنا معرفة ما يسمى بالحضارة او المدنية الراهنة يومئذ فاننا نجد القوم متأثرين بالحضارة « الايجية » حسبما يدل عليه تقارب اللغة القديمة والخط ووحدة الشكل في البناء وصناعة الخزافة . ويقال ان سكان المغرب اخذوا عن الايجيين زراعة التين والزيتون والكرم ، وبفضل هؤلاء ايضاً راجت بالمغرب صناعة التعدين والتصوير على الخزف . ويظن ان ذلك كان حوالي الالف الثالثة قبل الميلاد . ولا يخفى ان هؤلاء الايجيين ينتسبون الى شعب ابيض يمتاز بصفاء الذهن والذكاء المفرط . كما يؤكد العلماء ان اصل هذا الشعب ايضاً من شمال افريقية ومنه ما نراه من بقية العنصر الاشقر في بعض النواحي من هذا الوطن الكبير (المغرب العربي) .

البربر

ان اول ما عرف التاريخ المسجل من سكان هذا الوطن انما عرف « البربر » ، ومجموع سكان الشمال الافريقي من حدود واحة « سيوة » المتاخمة لبلاد المصرية شرقاً الى ساحل البحر المحيط الاطلسي غرباً ، والى ضفة وادي النيجر جنوباً في حين انه لم يكن ليُعرف في تاريخ السلائل او السلالات البشرية عامة ان هناك جيلاً من الناس يعرف هكذا باسم البربر ، وانما هو لفظ وضعي يراد به عند اليونان « صوت الاثغ » او هوكل انسان اجنبي عنهم لا يتكلم بلغتهم ، ومن ثمة اطلقه اليونان انفسهم على سكان هذا الوطن وعلى غيرهم ممن هو ليس يونانياً كأمة الطالين فانها كانت تسمى عندهم « برابريا » . وقد نهج الطالين انفسهم كذلك منهج اليونان في هذه التسمية فانهم اطلقوا اسم البربري على كل من ليس يونانياً ولا ايطالياً او لم يكن خاضعاً لسلطانهم ، وجعلوا اسم « روماني » خاصاً بمن شمله نفوذهم الايطالي ومن ذلك الوقت عرفت جميع البلاد التي خرجت عن طاعة الرومان باسم « بارباريكوم » اي بلاد البربر ، ومنها مدينة « بريرة » بالصومال الانكليزي ، وقبيلة « برابريسي » او « برابرجيا » بجزيرة مردانيا كما عرفت سواحل المانيا وما على ضفاف نهر الدانوب باسم « برابرياس » واطلقوا ايضاً اسم « البحر البربري » على البحر المحيط الهندي لاتصاله عن بلادهم الرومانية وهكذا عمت البربرية عندهم كل ما ليس رومانياً او يونانياً ؛ ثم جاء دور العرب في شمال افريقية

فحافظوا على هذه التسمية ولم يشاؤوا تغييرها لذيوها واشتهارها يومئذ .
على ان « هيرودوتس » المؤرخ اليوناني الكبير الذي عاش في القرن
الخامس قبل الميلاد كان يسمي هذه الارض باسم لوبيا او ليبيا ، ويدعو
اهلها باللوبيين او الليبيين .

والاسم الوحيد الذي اراه ينبغي ان يطلق على سكان هذا الوطن
هو الجنس المغربي نظراً الى موقع بلاده وموطنه الوالد .

على ان هؤلاء البربر وان اختلف الناس في اصل نشأتهم فهم ساميون
من ابناء مازينغ بن كنعان ، فهم « الامازينغ » كما جاء في تصريحهم
امام الخليفة عمر بن الخطاب حينما ذهب اليه الوفد بعد فتح مصر ،
فانتسبوا امامه الى مازينغ ، وانهم اصحاب البلاد الواقعة بين خليج
العرب « البحر الاحمر » والبحر المحيط ولم يقولوا له انهم « بربر » .

وفي رسالة للعالم الفيلسوف المتزهق القديس (اوغسطين) بعث بها الى
اهل رومة قال فيها : اذا سألتكم سكان البوادي عندنا - نوميديا الشرقية
بولاية بونة من القطر الجزائري - قالوا نحن كنعانيين وقد كانوا ينطقون
بهذه الكلمة محرفة اذ انهم كانوا يتلفظون بها بدون حرف الحلق الذي
هو العين (١) ؛ ولا تزال الى اليوم لغتهم تعرف « بتازغت » وان موطنهم
الاصلي هو جزيرة العرب ولقد حاول بعض المؤرخين ان يلحقوا نسبهم
ببر بن قيس بن عيلان ، فان صح ذلك فهو من باب الاتفاق (٢) ويقول
بروكلن المستشرق الالماني الكبير : ان اليهود هم الذين عملوا على اقضاء
الكنعانيين عن جدول بني سام والحاquem بجدول آل حام الذي كان بزعمهم
عاقاً لوالده وما ذاك الا عن حقد وعداوة كانت بينهما نشأت عنها
حروب وإحـن . ويزعم العالم دورا Duprat ان البربر هم من جنس آري
هاجر من نواحي الكنج بالهند ! ...

(١) راجع كتاب الفريفة الشالية لمؤلفه « غوتي » Goutier ص ١٣٩ ط Payet
باريس ١٩٤٢ م .

(٢) راجع ابن خلدون ج ١ ص ١٨ و ٦ ص ٨٩ وما يليها ...

وعلى كل فان من يطلع على تاريخ البربر يرى ، انهم امة عظيمة لها حضارتها ومدنيتها المثلى ، نشأت على عز الجانب وابابة الضيم والدفاع عن الشرف مع ما كان لها من الملك والدولة وكثرة عددها ؛ انتقلت الى افريقية ^(١) من آسيا - جنوب فلسطين - عن طريق مصر حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م. ثم تابعت الجاليات الكنعانية الى هذا الوطن في فترات مختلفة ودفعات متفرقة . كان منها هؤلاء الكنعانيون الذين اخرجوا من ديارهم بفلسطين حين تغلب عليهم العبريون فاجلهم الى المغرب حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م. كما ذكرنا ؛ ويقول يوسف بن عبد البر القرطبي ان هذه الجالية الكنعانية نزلت اولاً بأرض مصر فنعت من المكث بها وتصلب في وجهها يومئذ الفراغة فواصلت السير الى ارض المغرب ؛ وهي تتألف من عدة عناصر منهم القشافيون ^(٢) والماليق ^(٣) وغيرهم . وفي سنة ١٠٩٥ ق.م. تولى عرش العبرانيين الملك طالوت (شاول) الذي باركه النبي صموئيل ، حيث كان اول ملك لبني اسرائيل بعد عصر القضاة ، فعارب

(١) لا زال اصل هذه الكلمة غامضاً ، وان كل ما قيل في شرح معناها او اشتقاق اصل مادتها قائم على سبيل الظن والتخمين فقط ؛ انظر ابن خلدون ج ١ ص ٧٨ وفتوح افريقية ص ٤٤ والمؤنس ص ١٤ والممالك ص ٢١ وفتح العربي للمغرب ص ١ . وقال ابو الريحان البيروني : ان اهل مصر يسمون ما عن يمينهم اذا استقبلوا الجنوب : بلاد المغربي ، وانما سميت افريقية لما انها فرقت بين مصر والمغرب (مجمع البلدان لياقوت الحموي ج ١ ص ١٣٢٥ ط ليزيغ ١٨٦٦ م) . وعندي ان اقرب ما قيل فيها الى الصواب هو قول من قال ان « افري » كلمة اطلقها الفينيقيون قديماً على اهل البلاد الاصليين الذين كانوا يسكنون المغرب من حدود مصر الى المحيط ومن ثمة سميت هذه المنطقة « افريكان » اي بلاد الافري ... ويقال انها كانت قبل ذلك تعرف باسم « ليبيا » .

(٢) يقول ابن خلدون ج ١ ص ٥٨ ط مصر ١٩٣٦ م ان ابراهيم الخليل عليه السلام تروج بمد سارة بنت يسطان الكنعانية فولدت له ستة اولاد منهم يقشان فكان من نسله جبل البربر كما حقق ذلك الطبري الى المتقدمين وابراهيم سامي من المتأخرين وهو ما اتفق عليه علماء الانساب .

(٣) م اولاد حليق بن لاوذ بن سام موطنهم الصحراء التي بين العراق والمقبة كانت لهم بها دولة عتيقة وحضارة سامية .

اهل فلسطين وتغلب عليهم وأجلى فريقاً منهم ، فلما تولى بعده الملك النبي داود عليه السلام اخرج من بقي من الكنعانيين من ارض شئار فكانت هجرتهم ايضاً الى هذه الديار سنة ١٠٥٥ ق. م. وما عدا الصواب الحسن الوزان حيث قسم سكان افريقية الى اربعة اقسام : عنصر افريقي اصلي ، وعنصر فينيقي ، وعنصر عبري ، وعنصر لاتيني .

أوصاف بربر الجزائر وأخلاقهم

يمتاز البربري الاهلي الجزائري عن عموم البربر بانه مستطيل الدماغ معتدل القامة والوجه ، بارز الحدين ، غير ثائي العينين ، اسودهما متوسط العرض ، واسع الفم ، عريض الصدر والاكتاف ، ضيق الحصر ، اسود الشعر ، اسمر البشرة قوي البنية . وهناك صف اشقر ازرق العينين مع رقة في الانف والشفتين مسطح الجبهة ، وهذا الصنف هو اقدم العنصر البربري بهذه البلاد وتوجد منه قلة بجبال جرجرة والاوراس وريف المغرب الاقصى .

والبربري خلق حراً فخوراً معتزلاً بعشيرته متعصباً لقبيلته وقومه ، ولعل ذلك الافراط في التعصب والغرار بحب الاستقلال الشخصي والحرية الفردية ، الامر الذي دفع به الى الانانية والمنافسة الى حد المعاداة وهي التي بلغت به الى تشتت الشمل اليوم وافتراق الكلمة واختلاف النزاعات ؛ وهو مع ذلك نشأ حربياً شجاعاً الى حد الجرأة شرساً يبلغ احياناً الى حد الوحشية ، حاذقاً ، ذكي المشاعر منتقماً من عدوه شفوفاً بالضعفاء والمساكين محباً للعمل دؤوباً عليه ، عدواً للبطالة مكثفاً بالقليل المتواضع من بسيط المعيشة ، تاجراً كنازاً ، محافظاً على جميع مميزات وخصائصه كما هو عليه حاله الى الآن .

ومجدتنا الدكتور غوستاف لوبون عن المرأة البربرية فيقول : والمرأة البربرية على جانب عظيم من الحمية ، فهي تحارب احياناً بجانب زوجها ، فخلدت «هوميروس» ذكرها حين قص علينا خبر تلك الملكة والنسوة

المتوجلات اللاتي قمتن بلاد لوية وبعض آسيا الصغرى ، ومن النساء البربريات من جلسن على عرش الملك ^(١) .

وتكاد تكون هذه الصفات عامة في جميع البربر ، واعظم دليل على ما ذكرنا هو ما حاولته الدول المستعمرة التي توالى على هذا الوطن منذ قرون من العهد الفينيقي والروماني الى يوم الناس هذا من عجزها عن تغيير مجرى حياة الاهلي في جميع الميادين ، في لغته او عاداته الخ ...

قال لوبون : استولت شعوب كثيرة على شمال افريقية فكانت لها آثار فيها ، فملكها القرطاجنيون والرومان والوندال والقوط والبيزنطيون قبل العرب ، ولم يتبدل اهالي شمال افريقية مع كثرة فتوح الاجانب لها ، واولئك الاهالي هم البربر الذين حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارج المدن على الاقل ^(٢) . اقول بل وفي داخلها ايضاً .

وكل ذلك لا يمنعنا من ملاحظة ومراعاة تلك الحقيقة الناصعة التي نطق بها التاريخ على لسان موسى بن نصير حينما سئل من طرف الخلافة الاموية عن البربر ، فقال مخاطب سليمان بن عبد الملك : يا امير المؤمنين هم اشبه الناس بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسة وسماحة وبادية ، غير انهم اغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد ^(٣) ! ويشهد الله انه لصادق فيما قال ، وما كان تصديقي اياه الا عن تجربة واختبار طويل ودراسة عميقة لنفسية هذا الشعب في جميع مواقفه قديماً وحديثاً وما حملني على اثبات هذه الشهادة وتسليلها الا الاعتراف بالحقيقة رجاء تلافى هذه الهنة الشنيعة وعملاً بالحكمة السائرة : من كتم داهه قتله .

(١) حضارة العرب ص ٣٠٧ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

(٢) حضارة العرب ص ٣٠١ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

(٣) الامامة والبيعة لابن قتبية ج ٢ ص ١٥٨ ط مصر ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م .
ونخبة الانس لابن هذيل الاندلسي ص ٧١ ط باريس ١٩٣٦ م . وكتاب حضارة العرب
لغوستاف لوبون ص ٣٠٨ ط القاهرة ١٩٤٨ م . وتاريخ ابن ابى الصيف ج ١ ص ٨٦
ط تونس ١٩٦٣ م .

وقد يكون ما سماه ابن نصير غدرآ هو ليس بغدر ولا خديعة وإنما هو مظهر من مظاهر الغريزة التي جبل عليها هذا الجبل وما تركز في جبلته وطبيعته من شدة العصبية وقوة الشكينة مع ما فيه من التحذر من الكيد والتوجس من الغير معها كان شأنه ، فكان ذلك في نظر موسى غدرآ وما هو بغدر ، وربما كفانا مؤونة شرح هذا المعنى ما علق به ابن أبي الضياف على كلمة المعز الفاطمي التي أوصى بها خليفته على أفريقية « بلكن ابن زيري ، الصنهاجي حين مغادرته المغرب الى مصر ، اذ كان فيما أوصاه به قوله : « لا ترفع الجباية عن اهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر ... » قال ابن أبي الضياف : وهذه الوصاية منه معقولة المعنى ، لان اهل البوادي لولا الجباية ما عمروا ارضاً ولا سعوا في تكسب لما في طباعتهم من الدعة ... واما البربر فان سيوفهم لم تزل بادية للبغي والقتل لكثرة قبائلهم وعصائبهم ، والشر يدفع بمثله اذا اعياك غيره فالقتل انقى للقتل .

وهكذا نجد ابن أبي الضياف يتأدى في تعليل احداث التاريخ ونشوء حوادثه بما أوتي من علم وتجربة وخبرة باحوال الشعوب فنراه يربط الاسباب بالمسببات فيذكر لنا الوقائع مرتبطة بموجبات حدوثها وما يحيط بها من عوامل وظروف ، فهو بعد ذلك لا يزال يعطينا ويقيدها بمزيد الشرح والبيان عن هذه الغريزة الموجودة في البربر ، ويذكر من شأنهم أنهم لا يسكتون الا لمن كان من جلدتهم ، فانه بعد ما ذكر مواطاة الافارقة ومساندتهم لابراهيم بن الاغلب على توليه الحكم بأفريقية وعزل محمد ابن مقاتل المعكي جاء بتعليل لهذا الحادث السياسي الخطير فقال ... : (وهذا امر طبيعي في البشر - خصوصاً اهل افريقية - فان نفوسهم تسكن لواحد منهم نشأ في ارضهم ولو من الموالي اذ مولى القوم منهم ما لا تسكن لمثل عمر ابن عبد العزيز اقام من غير ارضهم) (١) .

وقد كان ابراهيم هذا معروفاً عند البربر من قبل بولايته السابقة على مدينة طنبنة عاصمة الزاب الجزائري .

(١) تاريخ ابن أبي الضياف ج ١ ص ١٠٣ - ١٣٢ ط تونس ١٩٦٣ م .

ويا ترى ما هو مصدر هذا الطبع الخلقى في البربر؟ ... وكيف نشأت فيهم هذه السجية الراسخة؟ ... هل كان ذلك عن وراثة دموية فطرية حدثت تلقائياً هكذا في هذا العنصر من البشر؟ ... ام ان ذلك هو من خصائصه النفسية وغرائزه الثابتة في عرقه؟ ... ام هي البيئة الطبيعية والجنس؟ ... ام هي الظروف السياسية والعوامل الاقتصادية التي احاطت به في حياته التي مرت به ومر بها؟ ... ام هناك ملابسات وتأثيرات واسباب اخرى وتعليلات اضطرارية وعوامل اكتنفتها من الخارج فكانت موجبة جبرياً لا كسائه بهذه الظاهرة؟ ... لا ادري والله؟ ...

وهذا ما اترك البحث فيه لغيري من ذوي الاختصاص والتضلع في علم النفس وتحليل اخلاق الشعوب والى جهاذة علم « البيولوجيا » الباحثين في نظريتي الجنس والعرق المتعمقين في دراسة غو الدنيا وتكون الانواع .

المواطن البربرية في الجزائر

ان الامة البربرية - كما علمت - قد عمرت هذا الشمال الافريقي من حدود آخر الايالة المصرية الى المحيط الاطلسيكي من ناحية الصحراء بارض السودان ؛ وانه لمن العسير جداً تتبع جميع هذه القبائل وما تفرع منها من بطون وافخاذ بما لا يأتي عليه حصر ولا عد ... وانما نذكر منها بعض مشاهير هذه العشائر التي سكنت ارض الجزائر واتخذتها موطناً لها من قديم الزمن مع الاملاخ الى اماكنها ومراكز وجودها بهذا الوطن .

هناك جذمان عظيمان يجتمع عندهما كل ما تفرق من الفروع البربرية المنتشرة في هذا الشمال الافريقي كله من اقصاد الى اقصاد وهذان الجذمان هما مادغيس الملقب بالابتر ، والمنسوبون اليه هم البتر ، وقسم يتنسب الى برنس بن بر ، فسماوا بالبرانس ؛ وكل من مادغيس وبرنس اخوان لاب واحد هو برمن ولد مازيغ ابن كنعان . والبربر في انفسهم ينقسمون الى طائفتين اثنتين ، وهما طائفة البربر الحضرة الذين يسكنون

النواحي الشمالية والسهول المزروعة ، وطائفة البربر الرحل الذين يعبرون الصحراء والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً والكل يرجع الى هذين الجذمين برنس ومدغيس ؛ ولقد تفرع عن الاول عشر قبائل عظيمة ، منها ثلاث سكنت هذا القطر الجزائري الذي نؤرخه : كتامة وعجيسة ، وازداجة ولكل من هذه فروع لا حصى الآن شأنها .

اما كتامة فهي من اكثر قبائل البربر عدداً واشدهم بأساً وقوة ، وكانت تقطن الساحل البحري من بونة (عنابة) الى بجاية ، وهي متوغلة في داخل الوطن الجزائري طولاً وعرضاً الى جبل اوراس ، ومن مدنها الشهيرة : جيجل ، والقل ، وسكيكدة ، وسطيف ، وقسنطينة .

واما عجيسة فهي شرقي صنهاجة وجنوب زواوة بجبال المسيلة ، ولم تزل الى اليوم قرية بدوية هنالك في ارض تليلان - جبال بين قسنطينة والقل - تدعى عجيسة ، فلعل اهلها من بعض افخاذ هذه القبيلة الذين سكنوا ارض بني تليلان . واما ازداجة فهي كذلك قبيلة عظيمة تسكن في نواحي وهران .

اما الجذم الثاني - مادغيس الابتر - فتجتمع فروعه في اربع قبائل كبرى ... والتي سكنت الجزائر منها اثنتان فقط : لواته وضريره ، اما لواته فهي قبيلة عظيمة تفرع عنها كثير من الشعوب ، وهي تنسب الى « ليوا »^(١) الاصفر ، ولها بطون سبعة كان منها بجبل اوراس وضواحي تهرت وبجاية امة عظيمة ، ومن بطونها المشهورة اثنان : زناتة^(٢) وزواوة ؛

(١) لا يزال الى اليوم يوجد هذا الاسم في الزاب الغربي من بكرة تسمى به قرية ليوا .

(٢) أصل الكلمة هكذا . ايزيناين ، ومضاهها أبناء زناته ، وهو اسم امرأة مشتق من اوقانة بالالف المقودة وهو تحريف او تصحيف لكلمة « كمناء » ويرى ابن خلدون ان كلمة (زناتة) ترجع في اصلها القوي الى لفظة (جانا) او (شانا) التي هي اسم ابي الجبل كله ، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبه ، وم اذا أرادوا الجنس في التسميم الحقوا بالاسم المفرد تاه فقالوا (جانات) واذا أرادوا التسميم زادوا مع التاء نوناً فصار (جانات) ، ولطقتهم بهذا الجيم ليس من غرض الجيم عند العرب بل ينطقون به

فراتة هي اكثر قبائل البربر حضارة وعمراناً وهي منتشرة في نواحي
تلمسان ورينة والاغواط والزاب ، وكانت مواطنها الاولى وسط المغرب
الاضى والصحراء المحيطة به من الجنوب وزواوة هي موطن بلاد
القبائل الآن .

ويذكر ابن خلدون سكان المغرب الاوسط وهم اهل الجزائر فيقول :
(...) واما المغرب الاوسط فهو في الاغلب ديار زناتة ... حتى انه
ينسب اليهم ويعرف بهم ، فيقال وطن زناتة ، كان لمغراوة وبني يغرف
وكان معهم مديونة ومغيلة وكريمة ومطغرة ومطاطة . ثم صار من
بعدهم لبني ومانو وبني يلومي . ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني
مادين ، وقاعدته لهذا العهد - القرن الثامن الهجري والرابع عشر
الميلادي - : تلمسان ، وهي دار ملكه ويجاوره من جهة الشرق بلاد
صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمدينة وما يليها الى بجاية ، وقبائله كلهم
لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة ... واما بلاد بجاية وقسنطينة فهي
دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة وهي اليوم ديار العرب الا بمتنع
الجبال وفيها بقاياهم^(١) .

أهم مراكز البربر بالجزائر

ان من اشهر المدن والعواصم التي سكنها البربر بهذا القطر هي
عاصمة القطر وام الوطن (الجزائر) كان فيها بنو مزغني الصنهاجيون ،
وجرجرة ببلاد زواوة . ووارقلة - بنو ورجلان - في جنوب صحراء
الجزائر ، والمنيعه او - القليعة - من واحات الجنوب الجزائري ، وندرومة ،

بين الجيم والشين واميل الى الشين ويغرب لسمع منها بعض الصغير فابدلوا زايا عظة
لاتصال عرج الزاي بالشين فصارت زانات لفصاً مفرداً دالاً على الجنس ثم الحقوا به هاء
النسبة وحذفوا الالف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على اللسان (ابن خلدون ج ٧
ص ٧ ط بولاق ١٢٧٤ هـ) .

(١) ابن خلدون ج ٦ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

وتيهوت وما حولها ، وتلسان ، وما بين شرشال وتنس ، وجبال
وانشريس ، ونواحي جبال عمور بعمالة وهران وبين ثنية الاحد وتيارت ،
وسوق هراس بعمالة قسنطينة وجيلة وفج مزالة غرب قسنطينة ونواحي
بلاد الشبكة مصاب او (مزاب) .

وان الغالب من هذه القبائل البربرية بالقطر الجزائري هو متفرع عن
ثلاثة شعوب عظيمة : صنهاجة ، وكنامة ، وزناتة ؛ فمن صنهاجة بعمالة
الجزائر : زواوة ، وفلبسة ، وبنو منكلات ، وعمور ، ومنها بعمالة
قسنطينة : مزيتة ، وعجيسة وبنو يفرن - الشاوية - ؛ ومن كنامة
بنفس العمالة : بنوسيلين ، وقبائل بني خطاب ، وعياد ، وجملة ؛ ومن
زناتة بعمالة الجزائر : مغراوة ومطاطة ، وسومانة ، وبنو توجين ، وبنو
مناصري ؛ ومنها بعمالة وهران : مديونة ولهاصة ، والطرارة ، وتيغرين ،
وشقالة ويزناص .

المجتمع البربري

ان نظام العشيرة - او قل هو نظام الحكم عندهم فانه كان ديمقراطياً ،
ليس هنالك ملك ولا سلطان ولا عرش ، تنتخب القبيلة رئيسها بنفسها
وتقلده الحكم وهي تختلف وترجع اليه في المهمات والمهمات وكانوا يشترطون
في الرئيس مزايا وفضائل يمتاز بها عن غيره ؛ ويرجع نظام الامرة الداخلي
الى المرأة فهي ربة المنزل وصاحبة النفوذ به : محتومة الجانب مسموعة
الكلمة ، وكثيراً ما تنتسب القبيلة الى امرأة ، وهذه زناتة تشهد بذلك ...

وهناك كثير من الامر البربرية المالكة اشتهرت وعرفت فيما بعد
الاسلام ايضاً باسم الام كابناه (تاسرغيت) في توجين وابناه (تئابعت)
في مرين وغيرهم ...

ودور الامومة كما هو معلوم هو دور طبيعي في تطور الجنس
البشري ، وهو سابق على دور الابوة ، ويراد بدور الامومة ذلك الدور
الذي كانت الام فيه رأس الامرة وصاحبة الامر والنفوذ فيها ويكون

ذلك عادة في الاجيال الاولى قبل ان تستقر قواعد الزواج لان الاب لم يكن دائم المقام في الاسرة وانما هو يخرج الى الصيد والحرب وقد يخرج ولا يعود فتقوم الام بشؤون الاولاد (١) ...

واما المسكن فانه كان ولا يزال عند بعض فقراء البادية من كوخ أو «طاية» أو بالكهوف ومنه ما هو من خيام الوبر والشعر ولم يعرف هذا فيهم إلا بعد الفتح العربي . اما ملابسهم فانها لم تزل في الجملة كما كانت من قبل من صوف : برنس وقشابة ، ومنهم من كان يستعمل اهاب الحيوان المدبوغ ويضعون على رؤوسهم «القنور» وهو لفظ قريب جداً من كلمة القنور العربية - بفتح النون وتشديد الواو - والمعنى واحد! ... ويرجع تاريخ القنور هذا الى الالف الثالثة قبل المسيح ، وكانوا قليلاً ما يخلقون رؤوسهم ؛ وسراويلهم قصيرة ؛ وحليهم القرط والحواتم والحلاخل والاساور المتخذة من مختلف المعادن ؛ وهي مستعملة عند الرجال كما هي مستعملة عند النساء ؛ وطعامهم لحوم الحيوانات الداجنة والطيور والصيد ، ومن النبات البر والفول والكرم والزيتون ؛ واطهر الوان اطعمتهم التاريخية هو «الكسكو» ولا يعرف عند غيرهم الى الآن ، وهم يستعملونه غالباً في العشاء .

وكانت مكاسهم البقر والغنم ، وخيولهم تمتاز بالقصر مع سرعة العدو ؛ وهي تركب عارية لا يملك الفارس بيده سوى قضيب خفيف ؛ اما الابل فانها تعرف بهذا الوطن إلا منذ سنة ٦٦ ق . م . وكانت توجد عندهم بعض الحيوانات الضخمة مثل الفيل ووحيد القرن ثم اضمحلت وتلاشت .

قال ابن خلدون : « هذا الجبل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البساط والجبال من توله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، ويتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويضعن أهل العز منهم والغلبة لاتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لا

(١) حين مؤنس (تاريخ المدن الاسلامي) ج ٤ ص ٢٣ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفار الملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر ، والحيل في الغالب للركوب والتتاج ، وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح والدواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاضعان في نتاج الابل وضلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتلون الصاء بالاكسية المعامة ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم في الغالب حامرة وربما يتعاهدونها بالخلق ، ولقتهم من الرطانة الاعجمية متميزة بنوعها وهي التي اختصوا من أجلها هذا الاسم .

و يقال ان افريقش ابن قيس ابن صيفي من ملوك التابعة لما غزا المغرب وافريقية وقتل جرجيس وبني المدن والامصار وباسمه زعموا سميت افريقية ، لما رأى هذا الجيل من الاعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتووعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتك ! ... فسما بالبربر ، والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الاصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الاسد اذا زأر بأصوات غير مفهومة ، ^(١) .

وعلى هذا الاساس أطلق اليونان اسم البربر على سكان هذا الوطن كما قدمنا . ويفهم من سياق كلام ابن خلدون ان في البربر صنفين كما هو الشأن في العرب أيضاً صنفاً متحضراً وصنفاً متبدياً فحالهم كحال العرب يختلف باختلاف البيئة والموطن .

المعتقد البربري

كان للمعتقد البربري اتصال عظيم بظواهر الطبيعة وما فيها من عظمة كالأجرام العلوية ؛ فالكواكب عندهم مقدسة كما ان الثور والكبش والتميس والافعى والبوم والحمام والسلحفاة والضفدع والقرد والمر هي عندهم رموز مؤلفة كذلك كما ان للكهوف والمغارات عندهم مقاماً رفيعاً

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٨٩ ط بولاق ١٢٧٤ هـ وحضارة العرب ص ٣١٠ ط القاهرة ١٩٤٨ م .

بسبب ما يعتقدون من حلول الارواح بها ؛ فهم يتبركون بما فيها من مياه ساخنة أو باردة ويقربون لها القرابين البشرية متوسلين اليها في قضاء حوائجهم ؛ وان من واضح الادلة على تقديس البربري للحيوان ذلك الرسم الذي عثر عليه في قرية « الزنقة » بمحدود الجزائر الجنوبية ، بين بني ونيف وواحة الفيق من مقاطعة وهران وهو يمثل الرب آمون « عمون رع » أحد آلهة المصريين ، وهو على صورة كبش تحيط به الهالة ؛ وهذا أحد الادلة التي دلت على ثبوت احتكاك الشعب البربري بالشعب المصري منذ عصور وأجيال ، كما تشهد لنا بذلك أيضاً كلمة « نيل » نقشا فهي نسبة بربرية أسوية لا محالة سمي بها مجرى نهر مصر المشهور ؛ وأرى كذلك ان تقديس أو احترام بعض العوام اليوم لقرون كبش الضحية والنذور والاحتفاظ بها هو من ذلك وهم يدعون ان هذه تدفع عنهم وتقيهم النظرة أو العين ، وفي الحقيقة ان ذلك يرجع الى هذه العقيدة البربرية المتينة .

الثقافة والحضارة والعمران

قرر بعض مؤرخي الحضارة من علماء امريكا انه لا يمكن التوصل الى معرفة تاريخ الانسانية - أي بحيث نجعل منه موضوعاً مفهوماً - إلا بعد ان نولي انتباهنا للعناصر التقدمية فيه أي لتطور العلوم ، فهو يقول : ان تاريخ العلم أو تاريخ المعرفة يجب ان يكون نواة لكل تاريخ للحوادث الانسانية ... ولذلك كان أهم أقسام التاريخ ثلاثة أشياء : تاريخ الدين ، وتاريخ الفن ، وتاريخ العلم ، على ان التقدم لا يكون ابداً ملوماً أكيداً الا في القسم الاخير من هذه الاقسام الثلاثة ، من اجل ذلك وجب ان يحتل تاريخ العلم المركز الاوسط في صورة مدنية (١).

انه بما لا شك فيه ان البربري فضلاً عظيماً على الافريقي وعلى المدنية الافريقية في القديم بما اخترعه من أشكال الحروف وابتكار الخط

(١) عمود كامل : الدولة العربية الكبرى ص ٣٧

الذي يعتبر به عما يختلج في صدره من المعاني والكلمات ، في حين ان الخط كان منعماً والكتابة مجهولة وخاصة بهذه الاوطان . ومن تأمل الخط البربري وأشكال الكتابة وجدها تشبه كثيراً الاوضاع الكونية والكائنات الطبيعية ، فهناك من الحروف ما يشبه الشمس ومنها ما يشبه القمر والنجم والبرق الخ ... ولم تكن الحروف الاصلية لتزيد لديهم على أربعة عشر حرفاً . يسمونها « تيفيناغ » ومعناها الحروف المنزلة ولها حركات وضوابط تسمى « تيدباكين » بمعنى الدليل على العمل والتوسع ، وهم يكتبونها بحرية تامة كيفما شاء الكاتب فليكتب : من اليمين الى الشمال وبالعكس ومن أعلى الى أسفل أو بالعكس ، حسب اصطلاح القبيلة ، ولم يبق لهذا الخط اثر بهذا الشمال الافريقي سوى بالصحراء عند اللثمين من قبائل لتونة المشتهرين باسم (التوارك)^(١) ، فانهم لا يزالون يستعملون في مكاتهم خط « تيفيناغ » على قلة .

ولقد نشأت لغة البربري تشبه خطه في البساطة والواضع الطبيعية كما هو شأن الانسان في الاول ، وهي كثيرها من سائر لغات البشر ذات لهجات وصيغ مختلفة كما هو مشاهد من أهلها الى الآن بين سكان القطر الجزائري والمراكشي فهناك لهجة خاصة بزواوة - بلاد القبائل - تختلف في بعض مظاهرها عن لغة الشاوية وبني مصاب (مزاب) وبني صالح بجبل البليدة والشلوح والتوارك الخ ... ولا يزال امم « تماشت » أو « تمازغت » يطلق على جميعها^(٢) بمعنى اللغة المازيغية وكلها ترجع الى جذر واحد يمت بصلة الى اللغات السامية ، وهذا جدول يبين لك شكل امهات حروف لغة « تيفيناغ » مع توضيح صيغة النطق بها على سبيل التقريب ؛ وبإضافة الخط الفينيقي .

وعثر الباحثون من علماء الآثار على نقوش مكتوبة بالخط الجيري

(١) قيل انهم سوا بذلك لتوكرم المسيحية الى الاسلام ؟ ...

(٢) Dictionnaire Français — , Louis Rin : les origines Berbères. (٢) Alger 1889. Tamâcheque par S. Cid Kadoui. Alger 1894.

على صخور من دباعد وثود ومشهد ووادي ثقب هي قرية الشبه جداً
من نقوش الخط البربري الموجود بناحية المغار من القطر الجزائري^(١).

أبجد	تيفيناغ		أبجد	فينيقي	تيفيناغ		أبجد
	شكل	نطق			شكل	نطق	
ا	•	ء	م	𐤌	𐤍	يَم	٦
ب	⊠	يَب	ن	و	𐤏	يَن	٧
ج = ز	𐤐	يَز	س	٨	𐤑	يَس	𐤒
د	𐤒=𐤓	يَد	ع	𐤔	𐤕	يَف	٥
هـ	⋮	يَه	ف	𐤖	𐤗	يَق	٦
و	⋮	يَو	ص	٢	𐤙	يَقود	٣
ز	#	يَز	ق = ك	𐤠	𐤡	يَق	٩
ح	+	يَت	ر	⊠•⊠	𐤣	يَر	٩
ط	+	يَت	ش	⊕	𐤤	يَش	٧
ي	𐤥	يَي	ث	𐤦	𐤧	يَت	١٠ ×
ك = ج	𐤨	يَك	غ	𐤩	𐤪	يَغ	
ل		يَل		٤			

جدول لفظ البربري تيفيناغ والفينيقي

كما ان البربري فضلاً آخر عظيماً في سبعم الى الاطلاع على معدن
النحاس واستماله والانتفاع به . فقد اكتشف الاثريون بضواحي العاصمة
بناحية « قامة القول » - سانت اوجين - عدد قطع وصفائح نحاسية وغيرها

(١) راجع صورتها في كتاب تاريخ الادب العربي لنا الفاخوري ط بيروت ١٩٦٠ م.

كما وجد مثل ذلك قرب مدينة « صلاي » - بجاية - بما يدل على تقيظ البربر وميلهم الى العمل والصناعات .

ولقد عثر الباحثون من علماء الآثار الاركيولوجية في سنة ١٩٣٣ على نقوش ورسوم مختلفة متنوعة « تاسيلي » بالجنوب الشرقي من صحراء الجزائر وبالشمال الشرقي من بلاد « الهقار » فيها عدة صور للثوعين الانسان والحيوان مزوقة بألوان متناسقة عجيبة متقنة الوضع والتخطيط ، قالوا ويرجع تاريخها الى ما قبل سبعة آلاف او ثمانية آلاف سنة ، وان دل هذا على شيء فانه يدل على تغفل روح الفن والتقدم الصناعي في الشعب البربري الجزائري منذ القدم ، ولا يزال علماء الآثار يتابعون خطاهم السديدة في البحث والتنقيب عن مدينة هذا الشعب في خبايا ارضه الغنية وترتبه الزكية والمستقبل كشاف . (انظر الصورة ص ٦٤)

اما عن سير الادب والعلم عندهم فاني لم اقف على ادب بربري بالمعنى الصحيح ، ولعل ذلك يرجع الى اختلاف لهجاتهم وعدم ضبط قواعدها اللغوية ضبطاً محكماً او لضيق لغتهم عن التعبير الفنية ؟ ... وان كل ما ظهر الى الآن من المقطوعات الشعرية والنثرية لا يكفي عندي في الاستشهاد به على ادب امة وثقافة جيل عظيم كأمة البربر هذه .

وغاية ما بلفنا عنهم في الفن والزخرفة لم يتجاوز اشكالاً وخطوطاً هندسية مثل ما نشاهده من الوشم المزخرف على ظاهر اليد وفي الوجه والساق والذراع ، وهو يدل على تركيز الروح الفنية فيهم وتغلغلها في المرأة بالخصوص بما جعلها تتحمل المله وتصب على وخز الابر غير متبرمة ؛ وكان مما يراد بالوشم عندهم التمييز بين العشائر والقبائل حتى لا تختلط نساء الحبي بغيرهن في الحروب وفي مواطن الثورات والنزاع ايضاً ^(١) ، ومن مظاهر الفن البربري كذلك تلك الزخارف المرسومة على منسوجاتهم واوانيمهم فيما هي عليه من تناسب في الالوان واتساق في النظام . وقد

(١) قال ابن العربي : رجال صقلية وافريقية يفعلونه ليدل كل واحد منهم على رحلته في حديثه ، (احكام القرآن ج ١ ص ٥٠١ ط القاهرة ١٣٧٦ = ١٩٥٧ م) .



سور ورسوم طوبه عز عليها فاسلي - صحراء الجزائر - جميع تاريخها ال ما قبل اليوم
يتم سبعة او ثمانية آلاف سنة

ذكر احد الباحثين في جريدة «الكوتيديان البايسية» تحت عنوان :
تاريخ الامم المغلوبة على امرها لم يكتب . قال فيه : ومن قرأ تاريخ
افريقية الشمالية القديمة يعرف انه قامت حضارة زاهرة في جبال الاطلس
قبل الوف من السنين للميلاد ، وكان في تلك الاصقاع مدينة بربرية
قوية ذات علم وفن تعب المصريون والفينيقيون في القضاء عليها ! ...

ورغم انتشار جنس البربر بكامل سواحل هذا البحر الابيض المتوسط
فانه لم يسجل لنا التاريخ مبلغ نشاطهم في البحرية عندهم ومقدرتهم الخاصة
في شؤون الملاحة ؟

ومن حيث العمران نرى ابن خلدون يذكر قبائل بني «بالدس» وهم
من بطون «بني ومانوا» من مشاهير قبيلة زناتة بالمغرب الاوسط فيقول :
انهم هم الذين اختطروا بمواطنهم المتصلة بقبلة المغرب الاقصى والاطلس تلك
القصور والاطم اتخذوا بها الجنات من النخيل والاعناب وسائر الفواكه ،
فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وتسمى وطن نوات - بصعراء
الجزائر - وفيه قصور متعددة تناهز المائتين آخذة من المشرق الى المغرب
وآخرها من جانب المشرق يسمى «تمنطيت» وهو بلد مستبحر في العمران^(١).

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٥٦ ط بولاق ١٢٤٨ هـ .

الدولة الفينيقية

- القرطاجية -

٨٨٠ - ١٤٦ ق.م.

الفينيقيون امة شرقية منشعبة عن الفرع الكنعاني^(١) السامي وم ينتسبون الى وطنهم «فينيقية»^(٢) بآسيا الصغرى غرب بلاد الشام الى جبال «كارليل» بين جبل لبنان والبحر وهو مكان ضيق مستطيل يبلغ طوله ٢٠٠ كيلومتراً وعرضه ٣٠ ك.م. واهم مراسيمهم بيروت وطرابلس الشام وصيدا وصور سيدة البحار - لندن القديمة - .

اما لغتهم فهي من اهم اللهجات الكنعانية بعد العبرانية وهي تطابقها بأصولها السواكن مطابقة تامة ؛ والفروق بينها وبين اللهجة العبرية في الحروف المتحركة اهم منها في الحروف السواكن ، وكذلك النحور ،

(١) تنقسم جوع الكنعانيين الى كتبتين عظيمتين كوت الاول منها الممالك الكتابية في سورية وكوت الثانية دولة الكنعانيين ومستمراتها يميزر البحر الابيض المتوسط ولي شمال افريقية وجنوب اوروىا .

(٢) الكلمة يونانية (فنيكس) ولها منيان : التخييل والون الاحمر وذلك لاستعمال الفينيقيين هذا اللون في ملابسهم ورسم التخييل على تقودم .

والفينيقيين بناء للفعل غير معروف في اللهجة العبرية ولكنه وجد بعد ذلك في اللغة العربية وهو صحة الدلالة على الازمان باستعمال فعل مساعد - هو كان - امام التام من الفعل لجعله غير تام ، واللغة الفينيقية في لهجتها تشبه لغة اهل جزيرة (مالطة) اليوم ، فان هذه ، فبا رجحه علماء اللغات ، فينيقية ايضاً ، وبذلك كان للغة اهل مالطة اهمية عظيمة من الوجهة التاريخية ، ومهما يكن من امر فاللغة الفينيقية لغة سامية هي اخت العربية وقد اقبل عليها البربر لما وجدوا فيها من القرب من لغتهم ومن الاتصال الجنسي الكنعاني بأهلها ، وقد زادت الفينيقية هذا الوطن تأكيداً للعنصرية السامية وتجهيلاً للعروبة والعربية .

اتصال الفينيقيين بشمال افريقية

نشأ الفينيقيون بطبيعة بلادهم وما تقتضيه وضعيتها ومساحتها الضيقة قوماً تجاراً مولعين بالاسفار وركوب البحار فبرعوا في الملاحة حتى اصبحت لهم السيادة فيها كما هي الحال عند انكلترا وامريكا اليوم ، ولذلك دعت عاصمتهم « صيدا » بلندن القديمة ؛ وذلك بفضل اسطولهم الضخم العتيق ، وكانت لهم مغامرات بالافطار النائية الشاسعة جلب ما هم في حاجة اليه مما يصلح بصناعتهم ، وللتجارة واكتساب الرزق ايضاً ، فكانوا يحملون الفضة من اسبانيا والقصدير من انكلترا وغير ذلك من المعادن والاشياء الضرورية التي لا بد لهم منها فانتقلوا بذلك في بلاد الله الى ان دخلوا مصر متعاهدين مع اهلها فأسسوا هنالك شركات تجارية وخاضوا غمار البحر (البحر الابيض المتوسط) في سبيل مقاصدهم التجارية ؛ وهكذا الى ان حلت سنة ١٥٠٠ ق . م . فظهرت هنالك سفن لبعض الامم التي كان ان اقتبست حضارتها من هؤلاء الفينيقيين فاصبحت تراحهم يومئذ - سنة الكون - ومن بينها امة الاغريق التي اخذت في مضايقة فينيقية وحملتها على الانتقال او بالاحرى على الالتجاء بسفنها الى بلاد المغرب .

وفي سنة ١٢١٥ ق . م . انتصر الاسرائيليون على الكنعانيين الذين

كانوا بفلسطين وارغموهم على الجلاء فانتقل بعضهم الى ارض فينيقية ومنها الى افريقية فتركوا على اخوانهم الكنعانيين الاقدمين . وكان سلوكهم الى هذه البلاد ومحببتهم اليها على طريقين : برأً وبحراً ، اما طريقهم البري فكانت بواسطة برزخ السويس . وصادف ان كان المجتمع المصري يومئذ يتخبط في فوضى عامة واضطراب سياسي عظيم ؛ فاهتبل المصريون هذه الفرصة وخرج الكثير منهم صعبة الفينيقيين وجاؤوا معهم الى هذه البلاد فنشأ منهم جيل خاص مختلط يعرف بالفينيقي اللوي ؛ له لغته الخاصة وخطه الخاص وهو المعروف بالسند اللوي . كما انهم مروا في طريقهم البحرية بايطاليا وصقلية فصحبهم يومئذ « الاترك والاوز » وجاء معهم آخرون من « الصقال » سكان صقلية ، كما اصطحبهم آخرون ايضاً من اوروبا مثل « الليغويين » الخ ... وذلك ما نشاهد اثره الى الآن بين ابناء هذه البلاد من اختلاف الناس في سحناتهم وعواطفهم واجسامهم وتفكيرهم ومستوى عقولهم ايضاً ! ... وذلك الاختلاط نفسه هو الذي مكن من اقدام الفينيقيين - بعد ذلك - في هذا القطر الافريقي .

وتقدم القوم اولاً الى ليبة وانتشروا بكامل الساحل الافريقي فأسسوا به نحو الثلاثمائة مركز ما بين مستودع تجاري ونحو المائتي مدينة ، كان منها بالقطر الجزائري مدينة ايكوسيم - الجزائر - وصدادي - بجاية - وروسكادي - سكيكدة - وهو بنشديد الباب معناه الاب - بونة^(١) - ورسجوتنا - ماتيفو - وشولو - القل - ويول - شرسال - وانيججلي - جيجل - وروسقور ، وتاقبست - وتادل - دلس وتنس ، وتيقزيرت ؛ الخ ... وكان من مراكزهم التجارية بداخل القطر : مدروس - مداورش - وتقااست - سوق اهراس - وتيفبست - تبسة - ؛ ومنها الساحل التونسي ايضاً سوسة وبنزرت وبالمغرب تنجيس - طنجة - وروساير - ملية - وجدير - اكادير - وهلم جراً ... وبهذه المواطن

(١) يلاحظ ان المدينة الحالية بنيت نحو سنة ٥٣٥٠ - ٩٦١ م - وهي على نحو ٢ كيلومتر من موضع بوله (عنابة) القديمة .

نشروا بضاعتهم وظهرت براعتهم في صناعة الخزف والطين والزجاج والمنسوجات الحمراء والاسلحة الخ... وكان الرواج والبيع في جميع هذه البضائع والسلع وكل الصناعات بطريق المعارضة والمبادلة بمنتجات هذه البلاد المغربية من صوف ووبر وجلد وريش النعام والانعام والعاج الخ... وهذه الطريقة التجارية - والديبلوماسية ايضاً - تم لهؤلاء الوافدين الاستحواذ على اقتصاديات البلاد واتسع لهم نطاق المعاملة فاضطروا بعد ذلك الى ضرب النقود^(١) فكان لهم الاستيلاء السياسي بذلك . فالفينيقيون هم الذين ابتدعوا فكرة الاستيلاء على البلاد واستعمار الاوطان بطريقة تأسيس الشركات التجارية ، وهي الطريقة نفسها التي سلكتها هولاندة وانكلترة في الهند وبلاد الشرق .

تأسيس قرطاجنة

كان لشدة توغل تاريخ قرطاجنة في القدم - حتى كاد ان يتصل بفجر التاريخ - ان احاطت به اقوال وآراء كثيرة وروايات متناقضة مضطربة ضربنا عنها صفحاً واقتصرنا على ما اتضح لدينا رجحانه حسب رواه لنا الشاعر اللاتيني فيرجيل .

ففي سنة ٨١٤ وقبل ٨٨٠ قبل الميلاد خرجت الاميرة (جونو) - بإمالة النون الى الضم والفتح - ارملة (اسرباس) رئيس كعنة مدينة صور الفينيقية فارة من ظلم اخيها (بيغاليون) المستبد بالملك دونها والمستأثر بكنوز زوجها وتراثه ، فكرهت الاميرة المقام على الضيم هنالك وجاءت الى هذا الشمال الافريقي حيث تقدمها اليه قومها الفينيقيون ، فنزلت بساحل تونس فابتاعت من ملك البلاد البربري (ايارباس) قطعة من ارض جبل (برسة) وشرعت فيمن معها من الاتباع في تأسيس المدينة المسماة

(١) يرجع ان اختراع العملة كان في القرن السابع ق.م. وينسب اختراعها الى ملوك (ليذا) ويقال انها اخترعت ببلاد الصين سنة ٣٣٥٠ ق.م.

باسمها : (كرت جونو) التي أصبحت معروفة فيما بعد بقرطاجنة (١) عاصمة شمال افريقيا الى الفتح الاسلامي : ويقال ان هذا المكان كان يعرف باسم (قبي) وانه كان قبل ذلك مستعمرة انشأها اهالي صيدا الفينيقيون ايام مجدهم ؟ ... وبذلك لفتت الاميرة انظار الناس الى هذه العاصمة الجديدة فأما الناس من كل فج عميق ، والتحق بها الكثير من سكان سواحل البحر الابيض المتوسط من اهل الشام والشمال الافريقي وغيرهم في مناسبات مختلفة ...

فعمرت المدينة واتسع بها العمران والمدينة قبلت عدد سكانها الى ٣٠٠،٠٠٠ نسمة وهناك من بلغ بهم الى المليون ! ... ثم كانت بعد ذلك مركزاً لبث العمارة بكامل هذا الساحل الافريقي على سيف البحر فانثرت المدن والقرى وكثر عددها حتى فاق المئات ... (ثم اضمحلت بعد ذلك إلا القليل) وبومئذ أصبحت قرطاجنة عاصمة الحوض الغربي وحامية حمى الفينيقيين من طرابلس الشام الى بوغاز جبل طارق . ونشأت بذلك في افريقيا دولة شرقية الاصل مغربية الموقع .

ومن الناس من يرجع بتاريخ انشاء مدينة « أوتيكة » - قرت بوتيكت - المدينة العتيقة - بالقرب من تونس الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ويجعلها من مؤسسات الفينيقيين .

نظامها الحكومي

كان من الضروري بل الواجب السياسي على هذه الدولة الناشئة بهذه

(١) ويقول بعض الناس ان اسم قرطاجنة عرفت عن المصنف الفينيقي « كرت حدثت » بمعنى القرية الحديثة وهذا عندي بعيد بالنسبة الى قواعد التصريب ، فأين لفظة - جنه - من حدثت = او حدثت ؟ ... بل الصواب هو ما ذكرنا : كرت جونو - اي قرية جولو - وهذا أقرب الى اللفظ الحادث قرطاجنة من كرت حدثت . ويقولون ان اسم الاميرة هذه هو ايليسا او « عليشه ديدو » ؟ ... وهو اسم مركب من جزئين كما ترى ، ولست مراً في الجزء الثاني من هذه التسمية لكونه وصفاً بمعنى اللامعة قد يصدق هذا على الاميرة ، هيراني متوفى كثيراً في الجزء الاول : ايليسا ، او عليشه فن اين لهم ذلك ؟ ...

البلاد ان تسمى في تأسيس حكومتها المركزية للمحافظة على النظام والدفاع عن شرفها وحقوقها والذود عن مراكزها ومستودعاتها الاقتصادية ومؤسساتها المنتشرة بهذا الوطن ، وقد كان ذلك بالفعل فانشأت لها نظاماً جمهورياً تحت رئاسة شيخين ينتخبهما الشعب مباشرة من امرتين مختلفتين لمدة سنة كاملة ، احدهما للادارة العسكرية والآخر للادارة المدنية ، ويطلق على كل واحد منهما لقب « شط » بمعنى سبط بالعبرانية ، وهو الحاكم ولم يكن لاحدهما - قانوناً - الاستقلال بالامر دون صاحبه ، فلا بد من اطلاع زميله واتفاقهما على اي موقف كان ولهما الحق في تحرير نصوص القوانين الدولية بمساعدة لجنة خاصة تعين من طرف مجلس الشيوخ ، وان جميع الولاة وبنجلي الحكومة في سائر المناطق المحتلة يعينون من طبقة التجار وارباب الصنعة وقد كان هؤلاء غالباً ينظرون الى مصالحهم الشخصية ويعملون لحسابهم اكثر مما ينظرون الى مصالح الدولة العمومية وبذلك ساءت العلاقات بين الحكومة والرعية فيما بعد - نظراً لسوء سلوك هؤلاء .

وكان هنالك ثلاثة مجالس : مجلس النواب وهو يحتوي على ٣٠٠ عضو ومجلس الشيوخ فيه ٢٨ عضواً ينتخبون لمدة حياتهم ؛ ومجلس القضاء المسمى عندهم بمجلس المائة والاربعة ، وعضاؤه كلهم من الطبقة الارستوقراطية (الاشراف) وهو يستمد سلطته من ذينك المجلسين الاولين ومنهم الكثير من توصل الى العضوية بهذه المجالس والى مناصب الحكم بالمال والعطاء .

وهذا النظام الاستشاري اشتهرت دولة قرطاجنة بكونها اول من سن في العالم نظام الحياة النيابية والحكم الجمهوري . وذلك ما حمل الفيلسوف العظيم ارسطو على ارسال شهادته بتزكية النظام الاداري القرطاجني في التاريخ حيث قال : « ان لقرطاجنة دستوراً انفردت بكما له عن سائر الدول ، ولها شرائع غاية في الحسن ، ومن الدليل على ما وعته من الحكمة انها مع ما للامة عندها من السلطان لم تجد لها قط بدلت شكل الحكم ولا نشبت فيها فتنة ، ... ثم قال : « ان القضاء عند القرطاجنيين افضل منه عند اليونان ذلك لانهم لا يرضون له اغفال الناس ، بل يولونه احسنهم طريقة واحمدهم سيرة . »

وقد تطور هذا النظام إبان القرنين الاخيرين من حياة قرطاجنة فكان هنالك مجلس الثلاثين ومن خصائصه فرض الضرائب ، ومجلس العشرة ومن خصائصه الاشتغال بالشؤون الدينية وبنابات المعابد وتنظيمها .

واما الجيش عندهم فانه في الغالب كان من الأجورين ومرتبقة البربر وغيرهم ويبلغ عدده الى خمسين ألفاً ، وقد بلغ القرطاجنيون في البحرية وحركة الاساطيل الاوج فانطلقوا يحويون البحار ويكتشفون مجاهل المعمورة الى ان بلغوا البحر المحيط الاطلسي واوغلوا فيه حتى اطلعوا على قارة امريكا وعرفوها قبل ان يعرفها كريستوف كولومب بستة عشر قرناً ولهم فيها آثار عثر عليها الباحثون فيما بعد ، على ان سطوتهم في الحكم كانت لا تتجاوز الشواطئ والسواحل الافريقية اذ لم تكن خططهم المرسومة لترمي الى اكثر من اخضاع ما حازوه من مراسي ومواني هذا الوطن ، فلم يكن التوغل في داخل الوطن من شأنهم بل كانت ادارة شؤونه بيد اهل الافارقة ، وبالجملة فقد كان نظام الحكم القرطاجني على العموم متساعماً سهلاً مع الاهالي ، فهو لا يعمل على ازالة الزعامات وامانة الرجولة وابادتها كما فعل الرومان ومن سار على شاكلتهم بعد ذلك من المستعمرين !... نعم كانت هناك وقائع وحروب بينهم وبين الاهالي ولكنها كانت على خلاف النزعات الاستعمارية الدنيئة الاخرى ؛ ورغم ذلك فالحكومة كانت تعامل رعيتهما بالحسنى الا نادراً فانها تعاقب عقوبة عنيفة شاذة واما الحزينة فانها متكونة من الضرائب والمغارم وربيع المحصولات .

المعتقد القرطاجني

اشهر الفينيقيون ميلهم الى النظر في الطبيعة وما اشتملت عليه من اسرار وغموض وما كان فيها من الغاز الالهية وابقاهاهم على التفكير والاجتهاد في ادراك غوامض الدين الروحية فاداهم اجتهادهم هذا وحرصهم على العبادة الى الخضوع للشمس تحت اسم « بعل » وتأنث - القمر - وقد وجدت قرية قريبة من قرطاجنة تسمى باسم هذا المعبود ، وعمون هو كذلك من

آلهتهم ايضاً ، وكان يشبه غالباً بكبش او تيس آقرن ، وكانت القرايين تقدم من قرطاجنة الى الهة صيدا «عشتوت» المعروفة عند الاشوريين والبابليين باسم «عشتو» او «اشتر» وهو كوكب الزهرة المسمى Venus ولها اسماء اخرى تقارب هذه عند الاراميين ، وهو صنم يمثل زوجة بلع المعروف عند السنين باسم «عشتار» (مذكر لا مؤنث) ولهم هياكل ضخمة للعبادة وهي مستودع ثنائيل آلهتهم واليها تقرب القرايين وتقدم الضحايا البشرية ايضاً ! ... وقد سرى نوع من هذه التقاليد بين الاهالي فقلدوهم فيها .

وكان الفينيقيون يعدون اعمال المهارة والفجور اعمال تيسن يتقربون بها الى اربابهم ، وقد عثر المتقبن على عدد من الكهوف التي كانت تجري بها مثل هذه المحازي في بلاد فينيقية^(١) .

الوسط القرطاجني

بلغ من امتزاج الشعب المغربي بالقرطاجني ان تكونت بينهما وحدة كاملة . فاندمج الكل في الكل ، وأوتقوا روابط الاتصال هذا بالزواج بين الخاصة والعامة فكان اشراف الاهالي وامراؤهم يتزوجون من نبيلات فينيقية والعكس ، وباعتناق الاهالي لمعتقد قرطاجنة والاقبال على مصنوعاتا ايضاً تأكدت العلاقة وأصبح الكل امة واحدة ، ويكفي في ذلك حجة انتقال عرش المملكة الفينيقية من آسيا الى هذه القارة . ويمتاز الوسط القرطاجني بانهاكه في العمل والتفاني في حب الصناعة والفلاحة والاكثار من الاسفار وعقد الرحلات في سبيل التجارة ؛ وبظهور حركة التأليف ونشاطها بينهم . ونرى القرطاجني في جميع مراحلها محباً للسلم عفيفاً .

الجمالية اليهودية

كان ابتداء مقدم اليهود الى شمال افريقيا منذ سنة ٥٨٨ ق. م. اي

(١) جعفر الحسي : محاضرات المجمع العلمي العربي ج ٣ ص ٥٧٦ ط دمشق ١٣٧٤ هـ . ١٩٥٤ م .

في الوقت الذي فتح فيه الملك البابلي « نبوخذ نصر »^(١) Nebuchadnezzar مدينة اورشليم^(٢) - بيت المقدس - وشرد اليهود منها فخرجوا مضطهدين لاجئين الى ابناء عمومتهم الكنعانيين بهذا الوطن - البوير والفينيقيين - واشتهر هذا التشريد اليهودي بين المؤرخين باسم : جلاء بابل ؛ ثم كان الجلاء الثاني عندما حاول اليهود الخروج عن طاعة الرومان ، فقضى عليهم الامبراطور طيطوس بن فسبسيان سنة ٧٠ م. وسنت شلمهم في العالم وخرب بيت المقدس الحراب الثاني ، فالتجأ يومئذ هؤلاء اليهود الى افريقيا ايضاً ، ثم توالى بعد ذلك الهجرة اليهودية من المشرق الى هذا الوطن في مناسبات مختلفة واوقات متفرقة وقد كانت قبيلة جراوة الخمسة بجبل اوراس ونقوسة ومدبونة كلها تدين بدين اليهودية الى عهد الدولة الادريسة فاعتنقت الاسلام ، ولا ندري أكان ذلك اليهود في هذه القبائل عن عقيدة وايمان ام عن تقليد ام عن وراثة جنسية سياسية ؟ ...

غوائل القوب

كانت الناحية الشرقية من الجزائر - نواميا - مصليا (عمالة قسنطينة) هادئة مطمئنة تدير تحت طاعة ملكها البويري (غولا) الموالي يومئذ لقرطاجنة ، وكانت الناحية الغربية من الجزائر - موريطانيا الغربية - ومعها مراكش مصليا تحت نفوذ الملك البويري (صيفاقس) ؛ وقد كانت انظار رومة وقتئذ متجهة نحو هذا القطر الافريقي ، فحاولت هذه الدولة يومئذ التدخل في شؤون بطريق التفرير والوعود الكاذبة وجاهته بداء المنافسة كما هو شأن الغرب مع الشرق الى الآن ! ... فأوهمت صيفاقس بالمساعدة على ضم نواميا اليه ان هو عمل على انتزاعها من غولا حليف قرطاجنة ، وبذلك يتم له الاستيلاء على كامل القطر الجزائري من الشرق الى الغرب ؛ فاغتر صيفاقس بتدجيل رومة وخرج

(١) كان استيلاؤه على بيت المقدس وتخريبه ونهبه له في ثلاث دهكات : الاولى سنة ٦٠٦ ثم في سنة ٥٩٦ ثم في سنة ٥٨٨ قبل الميلاد .

من عاصمته صيغة - ارستقول - لمهاجمة مملكة غولا فكانت الحرب بين الفريقين سنة ٢١٢ ق.م. وكان على جيش غولا ولده ماسنيسا الذي لم يتجاوز يومئذ السابعة عشرة من عمره ، وأخيراً انهزم صيفاقس متقهقراً الى موريطانيا ، ثم أعاد الكرة ثانياً على نوميدبا في السنة التالية فغاب أيضاً ، ويومئذ اتسع نطاق المملكة الجزائرية وتوحدت ادارتها تحت نفوذ الملك غولا . ثم بعد وفاته نشأت فتن ومنازعات بين ولده ماسنيسا ومزاحيه على ملك أبيه ، ومنهم عمه ؛ ولم تشأ قرطاجنة يومئذ ان تتدخل في شأن هذا الخلاف ، ولكن ماسنيسا غضب لذلك ، وكان يعتقد مناصرة قرطاجنة !... وبعد حروب سنة ٢٠٦ ق.م. اقتسم هو وعمه مملكة مصيليا وأعلن مخالفة قرطاجنة ومخالفة رومة واذا ذاك عملت قرطاجنة على استمالة خصمه صيفاقس وأخذت تغريه بشئى المغربيات ومنها مصاهرتة بيت الملك فأصبح صيفاقس بجانب قرطاجنة مناوئاً لماسنيسا ، وفعلأ انتصر على خصمه وشرده في الجبال وانتصب صيفاقس على عرش نوميدبا واحتل سيرتا - قسنطينة - سنة ٢٠٤ ق.م. ونشر نفوذه على القطر الجزائري من أقصاه الى أقصاه . ويومئذ اختفى ماسنيسا يرقب الفرص المؤاتية حتى اذا تهيأت له وأحدق الخطر الروماني بقرطاجنة نهض يلهب غيضاً على عدوه ومنافسه صيفاقس ، فانضم له يومئذ بعض اشبات من البربر ومن ورائهم رومة ، وكانت هنالك المعارك الشديدة والهزائم المروية كاد ان يخفق فيها ماسنيسا أيضاً لولا القدر . وأخيراً دخل هذا عاصمته سيرتا منتصراً فقبض على عدوه وبعث به مكبلاً الى رومة ، يرسف في قيوده وبقي الملك صيفاقس في أسرهِ حتى مات هنالك غيضاً وأسفاً سنة ٢٠١ ق.م. وهكذا مآل سياسة من يجتسمي بالاجنبي على مواطنيه وأبناء جنسه فان هلاكه يكون على يده لا محالة وكم في التاريخ من عبر وآيات على ذلك . ولما اندحرت قرطاجنة في حروبها ضد الرومان في وقعة (جاما) سنة ٢٠٢ ق.م. اضطرت الى اداء غرامة حرية لماسنيسا والاعتراف به ملكاً شرعياً على عرش أسلافه وذلك جزاء الصابرين .

الحروب الصقلية والبنوقية

ان كل من تتبع تاريخ هذه الدولة يعلم انها ما دخلت في حرب قط ولا أعلنتها إلا مرغبة مدفوعة اليها دفعاً ، ومن ذلك ما اشتهر في التاريخ باسم الحروب الصقلية ، والحروب البنوقية^(١) ، اما الاولى وقد دامت أكثر من قرنين (٥٣٦ - ٣٠٦ ق . م .) فانها كانت ضد اليونان بسبب مزاحمة هؤلاء للحكومة الفينيقية في منتوجات البلاد الخاضعة لنفوذها بصقلية ، وكان النصر فيها لقرطاجنة ؛ واما الثانية فانها كانت ضد الرومان الذين اعتدوا على سيادتها وحاولوا التدخل في شؤون الوطن والتصرف في اقتصادياته ؛ فنهضت قرطاجنة مدافعة عن شرفها فغاضت عياب هذا البحر وقطعت جبال الالب وحصرت رومة حتى كادت ان تذهب بدولة الرومان ، ويومئذ اشتد تكالب هؤلاء الاعداء واثارت ثورة حقدم فهاجموا قرطاجنة في ثلاث دفعات ، كانت الحملة الاولى ما بين سنة ٢٦٤ و ٢٤١ ق . م . وانتهت باستيلاء الرومان على صقلية وأهم جزر البحر الابيض المتوسط التي كانت سبب هذا النزاع ، ثم كانت الحملة الثانية فبا بين سنة ٢١٩ و ٢٠٢ ق . م . خسرت فيها قرطاجنة جميع مستعمراتها في اسبانيا ويجزر هذا البحر ، وكان سبب ذلك رغبة قرطاجنة في استرجاع ما سلبته منها رومة والانتقام لشرف . اما الثالثة فانها كانت من الرومان خشية انتشار نفوذ الملك البوري الجزائري - ماسنسا - وحسب الاستئثار بهذا القطر والقضاء على دولة الفينيقين ، وقد دامت هذه الحرب الثالثة من سنة ١٤٩ الى سنة ١٤٦ ق . م . وفيها تم للرومان القضاء على دولة قرطاجنة والاستيلاء على مملكتها الافريقية ، ولقد رد المؤرخون جميع أسباب الانهزام التي لحقت قرطاجنة الى انتقام الحكومة يومئذ الى حزبين اثنين : حزب الشماليين الذين يعملون لاسلم ابتغاء الثروة وجمع المال ، وحزب المحاربين ؛ فذهبت الدولة ضحية الخلاف ! والكل راجع الى المنافسة والتزام وحسب الاستئثار ؛ اما امنية الرومان فهي حب السيطرة والاستعمار .

(١) نسبة الى البونيين Poeni الفينيقيون في لان الرومان .

وليس هنالك من الوقائع والحروب غير هذا سوى ما كانت تثيره قرطاجنة أحياناً من الملاحم أو المكافعة لقمع الثائرين من أبناء البلاد فان ذلك لا يعد حرباً ، أو ما ذكره احمد زكي في تاريخ الشرق ومحمد بك دياب في خلاصة تاريخ مصر من ان هناك غزواً وقع من كبيز أو - قباسوس - (برسب) - الفارسي (٥٢٩ - ٥٢٢ ق.م) على بلاد المغرب بعد ما فتح مصر سنة ٥٢٥ ق.م . ولكنه لم يستطع اقام المشروع فرجع خائباً .

انشاء الممالك الوطنية بالجزائر

كان القطر الجزائري على عهد قرطاجنة مجزءاً الى جزئين شرقي وغربي ، فالشرقي منه يسمى بملكة « المسيليان » وحدودها من وادي الرمل بعمالة قسنطينة الى الحد الغربي من القطر التونسي ، وقاعدته مدينة (بونة) - عتابة - والقسم الغربي وهو من بملكة « المسيليان » ما بين وادي الرمل والمالية وقاعدته سيوطه - أو (قرنة) بمعنى القرية وهي قسنطينة ؛ وجميع سكان هاتين المملكتين يعرفون في التاريخ باسم (النوميدي) ومعناه الرعي والتنقل في سبيله ، وذلك ما يدلنا على ان سكان هذه المناطق هم رعاة قبل كل شيء وهو ما دعا بعد ذلك الى تسميتهم بالشاوية أيضاً ؛ ويومئذ لم يكن لهؤلاء الناس ملك أو نظام بملكة حتى اذا اذن ملك قرطاجنة بالذهاب وتوالت الحية عليها في الحروب البونيقية الثانية سنة ٢٠٢ ق.م . شرع الجزائريون بالخصوص في تأسيس ممالكهم اغتناماً لهذه الفرصة السانحة فتكونت ممالك وطنية نظامية تحميها قوة الرومان الجاثمة .

فكان أول ملوك الجزائر في هذه الآونة (فارمينا) وكان على بلاد نوميديا شرقي مقاطعة قسنطينة الملك (ماسنيسا) و (نرفاس) ٢٣٨ ق.م . و (صيفاقس) ٢٣٠ - ٢٠٢ ق.م . وعاصمته صيغة - ارشقول - باحواز تلسان على الضفة البعير عند مصب نهر التافنا ، واتصر كذلك على الملك

(غايا) ووالده (ماسنيسا) سنة ٢١٣ - ٢٠٥ ق.م . فجلس على عرش قسنطينة وصار ينتقل تارة بقرطة التي سميت فيما بعد بقسنطينة ، وتارة محل بمدينة (صيغة) أو صاغة - ارشقول - ، والى ماسنيسا هذا يرجع الفضل في تطور اقتصاد المغرب الاوسط ونمو الفلاحة وازدهارها ونشاط الفلاحين بهذا الوطن ، ومنهم كذلك (مصيسا) وعاصمته سرطة - قسنطينة ١٤٩ - ١١٩ ق.م . و (ماصينته) كان على ناحية سطيف ، و (عرابيون) كان على ولاية نوميديا السطيفية ، و (يوبا الاول) وعاصمته هبون - بونة - و (يوبا الثاني) ٢٥ ق.م - ٢٣ م - وقاعدته قيسرية - يول - شرشال وقد كان لبعض هؤلاء الملوك حق سك العملة باسمه وضرب النقود بعاصمته .

الثقافة والحضارة والعمران

لا نكران !... فان للامة الفينيقية الفضل الاوفر على العالم المتمدن أجمع ، اذ هي أول من ابتكر طريقة رسم الحروف الابجدية المنتشرة في العالم اليوم وجعلها حسب النطق بعد ما كانت مسمارية - وهيروغليفية - (تصويرية) كما انها أول من وضع نظام الاشكال الحسابية ، فجميع خطوط الامم اليوم مدينة الى الخط الفينيقي القديم ، وتلك مفخرة بمتازة يفخر بها الجنس السامي على سواه .

واشتهر الفينيقيون ايضا بالمحافظة التامة على ميقاتهم وخصائصهم الجنسية وكل ما يربطهم بمجاثم العامة ومعيشتهم الشرقية فلم يتأثروا بالحياة الافريقية يومئذ ولا بغيرها من تقاليد الامم الاخرى ولم يلتفتوا كذلك للحركة الفلسفية التي اشتهر بها اليونان ... فقد غلبت عليهم المادة في كل شيء ، ولا يظهر عليهم اثر التقليد الا في فن المعمار فاننا نرى فيه اثر المحاكاة نوعاً ما في بعض مظاهره بالفن اليوناني ، ويرى ذلك جلياً في المقابر والمعابد وفي اواني الطين والمجوهرات .

ولقد برع الفينيقيون في شتى فنون الصناعة كصنعت العاج والدباغة والحياكة والنجارة واستخراج العطور والمواد الدهنية وصنع الفخار والخزف

والزجاج والبلور الملون والنقش على الصخور والحشب وتعددين المعادن وصنع
 الفؤوس والمطارق والسكاكين والمقصات والنسج بكيفية ممتازة لا تزال الى
 اليوم تستعمل في بعض جزر الارخبيل من سواحل اليونان التي كانوا
 يجلبون منها العندم . كما اشتهروا كذلك في البحرية بسفنهم العجيبة واتقان
 بناءة المواني والمرافق بها ، فقد كانت مرسى قرطاجنة تسع نحو ٢٢٠
 مركباً حربياً . كما كانت لهم القدم الراسخة في التجارة والفلاحة ، فعنوا
 كثيراً بفراسة انواع النخيل والزيتون والرومان والتبن والارز والجوز ،
 وقدم في ذلك الافارقة والرومان ايضاً فترجموا كتاب (ماقون Magon)
 القرطاجني في الفلاحة وانتفعوا به كثيراً ، وكثرت يومئذ المؤسسات
 والمباني العظيمة والاجنة والقصور والملاعب ونفقت على عهدهم سوق العلم
 والادب ؛ كما انهم انشأوا طرقات واسعة تربط ما بين اطراف افريقية
 الشمالية والوسطى فكانت القوافل مثل السفن ايضاً غادية رائحة ببضائعها ،
 فنفتت التجارة بين الاقطار ، وكان لامراء البلاد قوافل وشركات خاصة ،
 فانتشر بذلك العمران والمدنية القرطاجنية في كامل الساحل الافريقي بل
 تخطياه الى الضفة الاخرى من جزر هذا البحر وسواحله فازدهرت الحياة
 العامة على ضفاف هذا الحوض وكانت لهم السيادة المطلقة فيه على غيرهم
 سواء من جاورهم من الامم الاخرى او من بعد عنهم .

وجاءت امة الرومان بعدهم ففقت بدافع الحقد والضعينة على جميع هذه
 المدنية الزاهرة واتعبت نفسها في ذلك فأضاعت جميع الآثار التي كانت تدل
 ببهجتها على ما للقرطاجنيين من الرقي والتقدم في الحضارة ! ... وكل ما
 عثر عليه الباحثون اليوم من آثار هذه الامة هو لا يتجاوز بعض نقوش
 ورسوم لا تريد فائدتها عن دراسة الازياء او لغة القوم ولهجة التخاطب
 بينهم ، او بعض قطع خزفية ضئيلة ، والى هؤلاء الفينيقيين يرجع الفضل
 في تطور هذه البلاد واخذها بأسباب المدنية من جديد في الحرب والسلام .

انهار الجزائر الفينيقية

لا نطيل على القارئ بتحليل المواقف الحربية وذكر تفاصيل الوقائع

والملاحم التي قضت بسقوط قرطاجنة وانتصار رومة عليها فان ذلك يعود الى دراسة تاريخ الجندية والحروب ، وهو موضوع مستقل افردناه بالتأليف ، وانما عمننا منه مواضع العبوة واسباب ذلك ؛ وهو ما يجده القارئ مسطراً امامه في هذا الباب .

ان اهم الاسباب الاساسية التي يرجع اليها سقوط هذه الدولة وتغلب الرومان عليها ، تنحصر في اربع نقاط : اولاً - تنافس الاحزاب السياسية وانقسامها على نفسها الى ثلاثة اقسام ؛ ثانياً - اندفاع الدولة وراء التقدم المادي وامال الجانب الروحي بالمرّة ، ولا يحقّ ما للروح من الاثر والتأثير في كل شيء ... ؛ وثالثاً - عدم شعور الجند بالمسؤولية العظمى في هذه الحجة حيث انه اجنبي عن الوطن لا غيرة له وطنية ولا حمية وانما هو يسعى وراء الدرهم والمغنم ، فهو اخلاط من المتطوعين والمترقبين فلا اخلاص له ولا وفاء ؛ والرابعة - وهي الخالقة سوء سلوك الحكومة بالربعة فكلمها زادتها الايام اقبالاً إلا وامعنت في الظلم والجور ، وذلك مؤذن بالزوال لا محالة ...

ويومئذ ظهر شبح رومة بمظهر المنقذ الاعظم وتظاهرت امام البربر بالعطف والرحمة والعدل فانخدع لها الناس وانجذبوا اليها ، فاستعملت رومة حينئذ قاعدة الاستثمار العامة : فرق تسد ! ... وسعت في توسيع شقة الخلاف بين الراعي والرعية وادقت بينها العداء والبغضاء ثم تقدمت الى ملوك البربر انفسهم ففرقتهم عن بعضهم - وهي في كل ذلك متظاهرة بالعمل على نصر المظلوم والانتصار من الظالم - فاشتد بذلك تصلب قرطاجنة وزادت في قساوتها وكان ذلك سبباً في انفجار الحروب البونيقية تلك الحروب الطاحنة الموهجاء ... وما كانت رومة لتقوى على مقاومة قرطاجنة لولا انضمام البربر اليها ونقمتهم على عدوتها وطموحهم الى الاستقلال والحربة فاغتم الرومان كل هذه الفرص المواتية وضمروا طبولهم على هذه النغمة فالتهب الشعب البربري حماساً ونهض يومئذ ملك سيرته - قسنطينة - (ماسنيسا) وفي عمره وقتئذ ٨٨ سنة فانضم بقومه الى الجيوش الرومانية الجائعة حول العاصمة (قرطاجنة)

وحاصروها مدة سنة كاملة فقطعوا عنها الميرة وكانت هنالك الغارة الشعواء وتكرر الهجوم من الرومان والبربر على المدن والعوام فخربت البلاد وهدمت الاسوار وسبي النساء والذرياري وتشتت شمل احزاب قرطاجنة وتزق القوم شر ممزق فتبددوا في البلاد وقتلوا قتيلاً ، ويومئذ اظهر النساء القرطاجنيات من البسالة والبطولة النادرة والشجاعة في ميدان المقاومة ما يذكرن به فيشكرن وضمرون شعورهن حبلاً مفتولة تبرعن بها على سفن المقاومة لاستعمالها في مكان الجبال المتعدمة يومئذ ! ... فقاومت قرطاجنة برجالها ونسائها الى الرمي الاخير وليس هنالك ما يبقيا شرسقتها او من يأخذ بيدها ، وتلك هي نتيجة ما زرعه بداها في قلوب الاهالي من دواعي السخط والحقد عليها ، فأحل بها الدهر بأسه وصب عليها الشعب نقيه ، وسقطت بيد الرومان سنة - ١٤٦ ق. م. - وفي ذلك كان فناء أمة كاملة وتلاشى اسمها من الوجود واصبحت احدوة سائرة ، وعظة زاجرة ، وتم هذا النضال بين قرطاجنة الفينيقية وبين الرومان الذي هو في الحقيقة والواقع نضال بين العنصرين : السامي والآري . وقضت صروف الدهر وطوارفه بانهمزام العنصر السامي الى مدة قرون في هذه القارة الافريقية الى عهد الفتح العربي فتجدد له حينئذ نشاطه تحت لواء الاسلام ، وليعتبر القاريء البصير بأن انهمزام قرطاجنة لم يكن - في الحقيقة - عن قصور او تقصير منها في الدفاع عن نفسها وانما هو اثر لذلك الاستعلاء والتعجير والمعاملة السيئة التي سلكتها مع الرعية فأحدث فيها نفوراً وانزعاجاً ، سنة الله في كونه ولان تجد لسنة الله تبديلاً . وبسقوط هذه الدولة تحولت زعامة العالم من يد شمال افريقية الى جنوب اوروبا وتعطل بذلك سير التمدن بضعة قرون .

مشاهير ملوك الوطن الجزائري

تاريخ التولية	الملكمة	
٢٣٨ ق . م .	نوميديا الوسطى	نرهفاس
٢٣٠ - ٢٠٢ ق . م .	نوميديا الشرقية	صيفاقس
٢٠١ ق . م .	نوميديا الوسطى	غولا بن نرهفاس
٢٢٧ - ١٤٩ ق . م .	نوميديا الوسطى	مصينا
٢٤٩ ق . م .	نوميديا الشرقية	مصيصا وغولوصا ومناص بعل
٢٠٦ ق . م .	نوميديا الشرقية والغربية	ماسينيا
٣٠١	نوميديا الشرقية	فارمينا
... ?		احالس بن نرهفاس
... ?		لكوميس
	نوميديا الشرقية	غايا
	نوميديا الشرقية	دلقاص
	نوميديا الشرقية	قابوصا
	نوميديا الشرقية	لاؤوماز

من مشاهير الجزائر

مصينسا

٢٢٧ - ١٤٩ ق م

مصينسا او ماسنيسا ، هو من اشهر ملوك البربر الجزائريين البارزين ، ومن اعظم زعمائهم على الاطلاق ؛ ابوه (غولا) ملك نوميديا وعاصمته سيرته قسنطينة .

نشأ مصينسا هذا محباً لوطنه غيوراً عليه مدافعاً عنه ، وقد شارك في محاربة خصم والده ومنافسه الملك (صيفاقس) اكبر رئيس عرفه التاريخ بنوميديا الغربية وسنه حينذاك لم يتجاوز ١٧ سنة . ومن ذلك الحين تألق نجمه في السماء بين ابطال التاريخ الجزائري فخلف اياه بعد وفاته على العرش وكان في اول امره موالياً للفنيقيين ، ولما رأى من قرطاجنة نهايتها بشأنه وعدم مبالاتها بحقوقه الشرقية في الولاية على عرش ابيه حتى كاد الاجانب ان يستولوا عليه ايام خروجه غازياً مدافعاً عن حياض قرطاجنة ، غضب لذلك وعاد من فوره مطالباً بملك ابيه الضائع واحتمل في ذلك مشاقاً عظيمة واهوالاً شديدة وكان ذلك سبباً في خروجه عن طاعة قرطاجنة واعلانه باستقلال الجزائر وتحرر الوطن من اغلال قرطاجنة . وكان يحضر المعارك الحربية ويقودها بنفسه رغم تقدمه في السن ، واستمر على الكفاح ضد الاستبداد الفينيقي حتى ظفر بالنصر واستقل بعرش الجزائر سنة ١٥٨ ق م . ودانت له البلاد الى الحدود التونسية .

وكان مصينسا هذا حريصاً على ربط صلته بالرومان واليونان ابتغاء وصوله الى غايته التي يرمي اليها من القضاء على نير قرطاجنة فكان ما اراد . والى هذا الملك البوري يعود الفضل في اختراع لغة (ليلية) على نط الحروف الهجائية الفينيقية حيث عمل على تركيب الجهاز الابجدي البونيقي على الرموز الصوتية القديمة التي كانت مستعملة عند الليبيين . وهو الذي عمل على استقرار البدو في نواحيهم بالبادية واتخاذ الزراعة حرفة لهم بدل الرعي ، وجعلها عمدة الحضارة القديمة ، كما انه عني كثيراً بالاقتصاد والتجارة . وكان من تيقظه الحربي وسدده حذره انشاؤه لاسطول ضخم وجيش منظم ، وضرب السكة باسمه وكثيراً ما عمل على توحيد الشمال الافريقي وجمعه على دولة واحدة وابعاد الاجنبي عنه ، وبالجملة فلقد اجمع اهل التاريخ على مدحه والثناء على اخلاقه وسجاياه . توفي سنة ١٤٩ ق . م . عن سن عالية تنيف على المائة عام ودفن في قبره المعروف به الى الآن بالحروب على ١٦ كيلومتراً بالجنوب الشرقي من قسنطينة .

جدول تاريخي

تاريخ الحوادث	اهم الاحداث في العهد الفينيقي
٨٨٠ ق . م .	مقدم الاميرة « جونو » ^(١) وتأسيس قرطاجنة
٥٨٨ ق . م .	الهجرة اليهودية الى افريقية
٥٣٦-٣٠٦ ق . م .	حروب صقلية
٢٦٤-١٤٦ ق . م .	الحروب البونيكية وسقوط قرطاجنة
١٥٨ ق . م .	استقلال الملك البوري الجزائري مصينسا
١٤٩ ق . م .	وفاة مصينسا

(١) من المحتمل جداً ان يكون اسم الاميرة هذا عالداً الى اسم الالهة « جونون » ربة الفينيقيين ومعبودتهم ؟ ... وقد يكون كذلك اسم المدينة (قرطاجنة) مضافاً الى نفس هذه الربة « جونون » ؟ ... انظر صفحة ٦٠ من الكتاب .

الدولة الرومانية

١٤٦ ق.م - ٤٣١ م

الرومان امة آرية متكونة من شعوب وامم مختلفة ، منها امة الغال والاتروسك والاغريق واللاتين ... ومسكنها ارض ايطاليا بجبالها وسهولها ؛ وهي منسوبة ، حسباً يؤثر ، الى باني رومة ومؤسسها « رومولوس » حفيد « بوروكاش » ملك اللاتين ، وكان تاريخ بناء هذه العاصمة التاريخية سنة ٧٥٤ ق.م . وظلت كذلك عاصمة لهذه الدولة طيلة عشرة قرون ونصف ففتحت العالم المعبور يومئذ كله .

نظامها الحكومي

استمرت رومة على حكمها الامبراطوري بمرافقة مجلس الشيوخ الذي كان يحتوي اولاً على مائة عضو ثم زيد فيه بعد ذلك ؛ الى ان انقلب الحكم جمهورياً سنة ٥٠٩ ق.م فكان عدد اعضاء مجلسها حينئذ يفوق الثلاثمائة عضو ينتخبون لمدة حياتهم ، ومن بين هؤلاء ينتخب عضوان بارزان هما اللذان يباشران اعمال الحكومة العليا ورئاسة الدين لمدة سنة ويلقب كل منهما بقلب قنصل ولا يكون الا من طبقة الاشراف ؛ وقد كان لرومة على هذا العهد ولايتان بافريقية وخمس بآسيا وعشر باوروبا ، وبقي الامر على ذلك الى سنة ٣١ ق.م حيث تغلب الامبراطور

اغسطس اوكتافيوس على منافسه انطونيوس وتبوا عرش رومة واصبح
يومئذ صاحب الامر والنهي ، فسمى في تغيير نظام الحكم الجمهوري واعاد
البلاد الى نظامها الامبراطوري السابق وفوض الاعمال لولاة اتخذهم في
البلاد . ويومئذ سقطت الجمهورية الرومانية وعادت السلطة الاستبدادية
تحت نفوذ الاباطرة من ملوك الرومان ؛ وقد كانت حالة ابن البلاد
الاھلي المستعمر على عهد هذه الجمهورية انعس منها على عهد الامبراطورية .

وكانت العاصمة الاولى الرومانية بافريقية (عوتيقة) ثم انتقل منها
حاكم الامبراطور الى (جنونيا) التي هي قرطاجنة ، وال « بروقنصل » -
الحاكم - النظر المطلق في كلتا السلطتين : العسكرية والمدنية ، ولكل
من هاتين الناحيتين منظمة ادارية يديرها موظفون تحت اشراف رئيس .
وتستر ولاية « البروقنصل » الى تمام السنة من ولايته ، ثم انه اذا
احسن السير والتدبير في سياسته يعين للمرة الثانية والثالثة وهكذا .
ويتقاضى هؤلاء الموظفون مرتباتهم بما يستخلص من الشعب من ضرائب
فادحة على اختلاف انواعها ومقاديرها ، من ذكور الامة واناثها . وتستخلص
هذه المغارم والجبايات بواسطة الاعيان فهم الذين يدفعون اولاً من عندهم
للمخزينة ما تلزمهم به الحكومة ثم هم يتولون الاستخلاص من الرعية من
غير مرحلة ولا شفقة ... وقد كان مرتب « البروقنصل » لا يقل عن
مليون « سيسترس » سنوياً ، والسبسترس هو عبارة عن قطعة من فضة
رومانية ، ولنايب الامبراطور بموريطانيا القيصرية مرتب يقدر بنحو
اربعين الف فرنك . وهو يحمل لقب « البروقراطور » وعاصمته
(سيزاريا) - ثرسال - .

اما عدد الجند فانه كان لا يزيد في جميعه او مجموعه عن خمسة عشر
الفاً ، وهو عدد ضئيل كما رأيت بالنسبة الى سعة المساحة التي يسيطر
عليها الروماني ، وهذا يدلنا بلا شك على كمال نجاح الحكومة وتوفيقها في
السياسة ودهائها الديبلوماسي الذي تمكنت به من التعكم في البلاد . ثم
ان هذا الجند في نفسه مختلط ، ففيه البربري والروماني والاسباني وغيرهم

من الجند المستأجر ، ولقد تزايد فيه عدد البربر حتى كان له التفوق على الجيش بتمامه . وكانت مراكزه بالجزائر مدينة تبسة ولييس ؛ فلحامية تبسة مراقبة البر وقصيلة - تونس - ونوميديا - امال قسنطينة ، وهي نفسها التي نقلت بعد ذلك الى لميس ، وهنا حامية اخرى لمراقبة موريطانيا الشرقية - مقاطعة الجزائر ووهران - يبلغ عددها ١٥٠٠٠ عسكري ولنوميديا ٥٠٠٠ وحامية بقرطاجنة يبلغ عددها الالف .

وللاسطول الروماني امتياز بسطوته الجبارة على هذا البحر ، وكان مقره بالجزائر مدينة شرشال ، وبتونس : قرطاجنة . أما الخزينة فهي دائماً مستمدة من اموال الشعب من مغارم وضرائب متنوعة ؛ والرعية تحت رحمة القوانين الاستثنائية اذ ليس لها حق الروماني مطلقاً ! ... فالناس في نظر القانون الروماني طبقتان : احرار وعبيد ؛ وقد حدث مرة ان الامبراطور البربري سبتيموس سويس اصدر امره سنة ٢١٦ م بمساواة الرعية في نظر القانون وان اختلفت اجناسها وحالاتها السياسية وبقطع النظر عن كل اعتبار ، ومنح البربر حريتهم الشخصية فما كاد الامر هذا يتصل بهذه الديار حتى سعى المستعمرون في عرقلة ، وبالفعل رفض ولم ينفذ ... فالاستثمار اما القاريء الكريم كما انت تراه اليوم بعينك وتلمسه بيدك هو هو ! ... فكم اشاع الاستثمار وتغنى بصدور قوانين عادلة تشمل رعاياه بالجزائر ، ولكنها عند التطبيق يأخذ الولاة ومن يديم تسيير دفة المستعمرة في تأويلها وشرحها محرفة حسباً لتقتضيه قواعد الاستثمار العامة من بقاء ابن البلاد دائماً تحت الضغط الشديد وبالجملة فلقد بقي الاهلي طيلة الاحتلال الروماني في شقاء وعناء . وجاء في دائرة معارف « لاروس » الفرنسية ما يلي مترجماً :

« ... ، وماذا كانت نظمات الرومان على وجه الاجمال ؟ ... كانت عين الوحشية والقوة مرتبة في صور قوانين ، اما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجمعية فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص .

اما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية فكان لا يرى فيها الا شرها مفرطاً للمال وحقدآ على الاجنبي وضياًعاً لاحساس الشفقة الانسانية .
اما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن اهمال السوط والسيف في العالم والحكم على امري الحرب بالتعذيب او بالامر وعلى الاطفال والشيوخ بجر عربات النصر .

وضعية شمال افريقية على عهد الرومان

لقد كانت هذه الجزيرة المغربية او قل افريقية الصغرى كما يعبر عنها بعض اهل الجغرافية من المعاصرين جزءاً واحداً في جميع اعتباراتها السياسية وفي جميع نظمها الداخلية والخارجية كما هي عليه حالتها الطبيعية وشكلها الجغرافي ، الى ان جاء دور الرومان هذا فقسموها الى ثلاث مقاطعات : افريكا ، ونوميديا ، وموريطانيا ، وهي تقريباً هذه الاوطان الثلاثة التي يشملها اسم المغرب العربي اليوم : تونس والجزائر ومراكش ، وكان يطلق عليها جميعها ايضاً اسم موريطانيا ما عدا طرابلس . وسنة ٢٧ ق . م اندجت نوميديا في افريكا القديمة وصار الحد من الوادي الكبير قرب جيجل الى برقة ، وفي سنة ٢٠٠ م سمي الجميع باسم نوميديا القسنطينية تمييزاً لها عن نوميديا الجديدة .

وفي عهد الامبراطور كلوديو جزئت موريطانيا هذه ايضاً الى ناحيتين اثنتين : موريطانيا النطجية - مراكش - نسبة الى عاصمتها يومئذ طنجة ، وموريطانيا القيصرية وهي تشمل ارض الجزائر وتونس ؛ ثم كان في سنة ٤٠ م تقسيم موريطانيا القيصرية الى قسمين : موريطانيا السطيقانية نسبة الى مدينة سطيف او سطيفي ، - وهي ارض الجزائر - وبقيت الاخرى باسمها القديم ، وهي من وادي مولوية الى البحر المحيط الاطلسي .

ثم في سنة ٢٩٧ م ارقأت الحكومة تغيير هذه الرضعية لشمال افريقية واصبحت الجزائر مقسمة الى ثلاث ولايات :

١ - نوميديا العسكرية ، وهي بلاد نوميديا الجنوبية وعاصمتها لمبيز .

٢ - نويميدا السطيفية من (امساقه) الى (صلدوي) - بجاية - .

٣ - موريطانيا القيصرية من صلدوي الى نهر ملوية .

وايا ما كان فان النفوذ الروماني لم يشمل جميع بلاد هذا الشمال الافريقي ، بل كان مقتصرأ على الساحل بما فيه من مدن وعواصم وقرى مركزية ذات شأن اقتصادي . ولقد ضبط الرومان ذلك بخط « الليبس » وهو عبارة عن طريق معبدة هائلة او خندق عميق او سلسلة ثكنات لسكنى الجند المحارب محافظة منهم على الامن ؛ وكان هذا الخط يذهب من طرابلس الى جنوب مدينة الرباط ، ولا تزال منه بقية براكش ؛ وجعل الباقي من تراب هذا الشمال تحت الحماية السياسية العامة ، وبذلك استمر سكان شواحق الجبال والتخوم محافظين على استقلالهم ؛ وكان هؤلاء دائماً هم مبعث الثورات ضد النفوذ الروماني ونواة للحرية والاستقلال .

الرومان بالجزائر

كان ابتداء علاقة الرومان بالقطر الجزائري منذ سنة ٢١٣ ق . م . وامتدت اليه يدم فتصرفوا فيه منذ سنة ١٠٤ ق . م ووضعوا قديمهم بنوميدا سنة ٤٦ ق . م - ٤٢ م ، ولم يكن للرومان ان يستولوا على بلاد القبائل الا بعد سنة ٢٩٧ وجعلوا عاصمتها بلدة جمعة صهريج . وكثيراً ما تغير نظام الجزائر الاداري فقسمت وجزئت الى اوضاع واشكال مختلفة ؛ فقد كانت مجزأة الى اربع ولايات او مقاطعات : ولاية ندرومة ، وقسنطينة ، وسطيف ، وشرشال ، وفي سنة ٣٧ م جعلت ناحية نويميدا وحدة ادارية تحت اشراف خابط عسكري في رتبة عضو بمجلس الشيوخ وهو تحت طاعة الامبراطور نفسه .

ولقد كان من النظم المتبعة في العواصم والمدن انتخاب المجالس البلدية لكل ولاية وان لهذا المجلس النظر في مصالح منطقته كما هو الشأن المتعارف اليوم في البلديات ، وان اوسع بلدية كانت بالقطر

الجزائري في هذا العصر هي بلدية بونة - عنابة - فان نفوذها الاداري يمتد غرباً نحو ثلاثين كيلومتراً وشرقاً نحو ٥٠ كم كما انه لا ينبغي ان ننسى نظام المدن الخمس : قسنطينة ، وميلة ، وسكيكدة ، والقل ، وجيلة وما الحق بها من المدن والقرى وما كانت عليه من الحرية والاستقلال الداخلي وما بلغت الرعية في ظلها من الرفاهية والبدخ ؛ وبالمجمل فان خط حدود الجزائر الرومانية يمر بجنوب اوراس والشاطئ الايمن لوادي جدي^(١) ثم يصعد على حدود الشمال الغربي فيمر وسط جبال الزاب ويقطع وادي الشعير فيضم الحضنة من جهتها الغربية ثم يتجه نحو سور الغزلان ويمر ببوغار وتيهرت وفرندة ، ويمتد الحط غرباً الى تلسان ولاامغنية وبالمجمل فانه لم يكن للرومان بالجزائر سوى التلول ، اما الصحراء فانهم لم يطرقوها الا من ناحية اوراس .

المعتقد الروماني

كان الرومان صائبة يعبدون الاوثان والتائيل التي تصنع للجواهر العلوية والاجرام السماوية ، ويعبدون النار والموتى من اسلافهم ويعملون ذلك كله في زعمهم وساطة بين العلة الاولى والخلقة . وقد كان لهم آلهة متعددة فللحروب اله ، وللسلم اله ، وللطر اله^(٢) وهلم جرأ ... واشتهر من بين هذه الآلهة الوثن المعروف باسم (جوبيتير) فهو اله

(١) وادي جدي او وادي (شدي) هو كما ذكره ابن خلدون بقبة الزاب ينبعث منه من جبل راشد بقبة الغرب الاوسط ويمر الى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب الى ان يصب في سبخة نفز او ناس بلاد الجريد (البرج ٦ ص ٣٩٠ ط بولاق عن ٥١٣٨) .

(٢) ان فكرة تعدد الآلهة هي عقيدة اشورية قديمة اخذها حكماء اليونان عن هؤلاء واذاوعوها بين قومهم احتيالاً منهم على الطغاة من ملوكهم المستبدين وبها توصلوا الى منازعتهم الملك ومشاركتهم في سلطتهم المطلقة فصح لهم بذلك مطالبة جبايرتهم بالنزول عن مقام الانفراد والوحداية ، وهكذا فل عقلاء الرومان بدم ، ولا يزال هذا الاصل القديم في المفائد هو القاعدة السياسية العامة في توزيع الادارة بالحكومات وتنوع الساط الملكية والجمهورية ايضاً .

الآلهة ، له حق النظارة على جميع اربابهم ، وله الحق كذلك في الترجيع عند اختلافهم ؛ وكـم يعملون له صوراً واشكالاً متنوعة تميزه عن غيره من آلهتهم . وم الى ذلك يقدسون الامبراطور تقديساً كبيراً ومنهم من كان يتمثل معبوده في الديدان فيطعمونها الفول الاسود ، وغايتهم من العبادة كلها الفوز بالانتصار في المعارك والحروب ودره المصائب عنهم . وقد اندمجت هذه العقائد بغيرها من عقائد البربر واسبغت عليها البربرية طابعها الخاص .

الحياة الرومانية

كانت معيشة الروماني او حياته البدائية بسيطة لا رفاهية فيها ولا نعيم ، فهو يستعمل الحشن في ملابسه ، وليس له من الثياب سوى قميص سابغ بألوان وتارة بغير ألوان ، وسراويل ، ويتنعل خفاً غليظاً . وكان للخاصة قصان ذوات حواش حمراء ، ولطبقة الاحرار منهم حلل من اللين الأبيض ، ويمتاز القضاة بالحفاف الأحمر ، وكان للنساء ولوع ومبالغة في ضروب الزينة والتجمل بأنواع الحلى ؛ اما المسكن فانه كان قبل استعمالهم للعبارة من خشب لا نافذة فيه لجهلهم بصناعة الزجاج يومئذ ؛ وكانت الانهج والسكك وممرات الطرق ضيقة عديمة النظافة لا ضوء فيها ليلاً ، وكل ذلك لم يمنع تقدمهم في الحضارة بعد ذلك ورفيهم المادي والادبي فكانت هنالك المسارح والمعابد والمياكل الضخمة الخ ... وهم اخذوا ذلك عن الاغريق وقرطاجنة وغيرها ممن جعلتهم الاقدار تحت سلطتهم وشملهم نفوذهم الامبراطوري . واشتهروا بعد ذلك بنظامهم القضائي الذي لا تزال الامم الراقية اليوم تستمد منه روح التشريع . اما لغتهم فهي لغة اللاتين وادبهم هو وليد الادب الاغريقي .

الجزائر والرومان

كان لسوء سلوك الرومان مع الاهالي وفساد سيرتهم وضغطهم على حرية الافكار تأثير عظيم على احرار الجزائر وابادة الضيم منهم ، فعصفت

برؤوسهم نخوة الشهامة الوطنية وثارت بهم حمة الانفة فنهضوا نهضة رجل واحد بزعامة القائد البطل يوغورطة واندلع لسان الثورة ضد الطغيان الروماني سنة ١١٠ ق.م. ويومئذ اخذ القائد المذكور في توحيد الطوائف البويرية وجمع كلمتهم ضد الاستعمار الروماني . فكانت ثورة عنيفة وحراباً عواناً تصارع فيها الحق والباطل وكانت الغلبة في جانب الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه ، وانتصر يوغورطة على الرومان في المعركة المشهورة باسم وقعة «سوتول» بالقرب من مدينة فالمة .

وتكرر على رومة الانهزام في عدة وقائع ، وتبوأ يوغورطة عرش سيرا - قسنطينة سنة ١١٢ ق.م. واعلن استقلال الجزائر التام ؛ وحينئذ لجأت رومة الى المحادعة والمراوغة وتفتنت في انواع المكر والدهاء واستعانت في ذلك ببعض الحونة الاندال من رؤوس البوير مثل بوبا الثاني وبوكوس - ملك موريطانيا - فتهدت لها السبل يومئذ باضطراب حبل الاهالي واختلافهم على بعضهم وفعلاً قلب بوكوس على يوغورطة - وهو صهره - والد زوجته ، فقبض عليه واسلمه الى الرومان سنة ١٠٦ ق.م. فذهب به هؤلاء الى سجن رومة فمات به في اليوم السابع من شهر جانفي سنة ١٠٤ ق.م. وحينئذ اضاف الرومان منطقة نوميديا الغربية - عمالة الجزائر ووهران - الى الملك بوكوس مكافأة له على نصره لهم ضد صهره وزيد في مملكته جميع التراب الذي بين ملوية وبجاية . وهذه السياسة او قل الدسيسة انتصر الرومان بالجزائر وانكسر جند المقاومة الاهلي بين قوتين عظيمتين : قوة جيش العدو المهاجم الذي كان يبلغ ٣٤٠٠٠ محارباً ، وقوة الحصوم الداخلية والمنازعات التي كان من رؤسائها بوكوس . ويومئذ تمكن الرومان من الجزائر بعد محاولة دامت اكثر من ٨٨ سنة .

وكان يومئذ من بقايا ملوك الجزائر الاحرار الملك فودا : اخ يوغورطة ، وبعد وفاته اقتسم ولداه هيامسال وبارباس مملكته فعاز الاول جميع التراب الذي بين وادي الرمل وتونس وامتلك الثاني الناحية الغربية الى حدود بجاية ثم كان بينهما من الخلاف والشقاق ما ادى الى قتل بارباس واستقلال اخيه بمملكته .

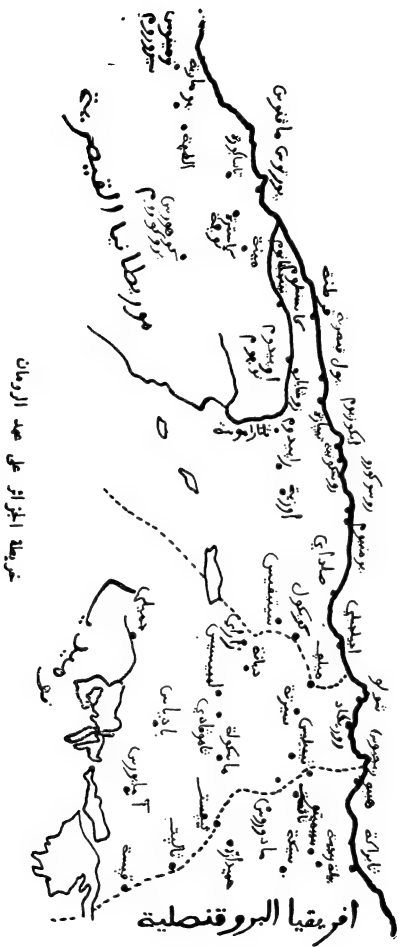
وان من أشهر الوقائع والفتن بهذا العصر هي حوادث ثورة القائد البربري طاكفاريناس سنة ١٧ م فلقد عمت هذه الثورة السهل والجبل وامت بذلك على الاخضر واليابس فانتصر فيها أولاً هذا القائد عدة انتصارات وقضى على القوات الرومانية في عدة مواقف وحاربهم في مختلف الجهات ، ثم بعد مقاومة طويلة دامت نحو سبع سنين انهزم هذا القائد البطل ومات قتيلاً بمكان يقال له (اوزبة) - صرر الغزلان - ولم تقف حوادث المقاومة الشعبية عند هذا الحد بل استمرت وتكررت من الجزائريين الى نهاية الاستعمار الروماني ، ولذلك لم يتمكن الرومان من بسط نفوذهم على جميع القطر الجزائري فخرجت عنهم جبال وانشرس اوراس وصحراء عمالة الجزائر ووهران وسلمت من نيروم كذلك جبال جرجرة وزواوة فاحتفظت جميع هذه الاوطان باستقلالها الى سنة ٢٩٧ م حيث انتصر على بعض الجهات منها يوقلطناس الروماني ؛ وهذه المناسبة احدثت الادارة الرومانية تغييراً في تخطيط الحدود الجزائرية وجعلت الناحية التي بين دلس ووادي الرمل شبه وطن مستقل تحت اسم (موريطاني سيطيقيان) وقاعدتها مدينة سطيف .

وان هذه الاماكن التي خرجت عن طاعة الرومان هي التي كانت النواة في تحرير الوطن وانقاذه من سيادة الاجنبي عليه ، وهؤلاء هم الذين اوقعوا بالرومان في حوادث سنة ٢٦٥ م بنواحي ميلة وجبال اوراس وفي مجموعة الجبال التي بين قسنطينة وسطيف ثم اوقدوا نار الفتنة على الرومان بعمامة الوطن في مدة لا تزيد عن تسع سنين (٢٨٨ - ٢٩٧ م) وكانت حوادث جرجرة هي ابشع الحوادث ضد الاستعمار الروماني .

تأسيس مدينة قسنطينة

لقد كان المكان الذي هي عليه مدينة قسنطينة يدعى من قبل قرطة ، او سيرطة ، وقد اتفق ان الامبراطور « ديوكليطيان » خلع نفسه ونزل عن عرش رومة سنة ٣٠٥ م فنهض جماعة مطالبة بالعرش ، وكان من بينها الزارع اليكساندر ، فبايعه الجند المقيم بنوميديا - القطر الجزائري -

البحر الأبيض المتوسط



فرحف اليه خصمه ماكسانص احد المطالبين بالملك ايضاً فانهمزم امامه اليكساندر ملتجئاً الى سيروطة فحاصرها خصمه المذكور وضائق اهلها وشدّد عليهم الحناق حتى استولى عليها ماكسانص وقتل اليكساندر وهدمت المدينة سنة ٣١١ م وكثير غيرها من البلاد الجزائرية التي بويغ فيها اليكساندر ؛ ويومئذ نشأ الخلاف والنزاع على الملك بين ماكسانص وقسطنطين فانصر الثاني واستقل بالملك ومات خصمه في الحرب فجاء يومئذ قسطنطين الى افريقية سنة ٣٢٥ م وعمل على تطمين خاطر الشعب ونهدة روعه ، واصلح ما دمرته الحرب وخربته يد الخلاف ويومئذ شرع في ترميم مدينة سيروطة وبنائها من جديد وسماها باسمه قسطنطينية - قسنطينة - ويقال ان هناك نواحي من المدينة بنيت على حنايا مستحكمة ؟ ...

المسيحية بالجزائر

كان مولد المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته في السنة الثالثة والاربعين من ولاية الامبراطور اغسطس بيت لحم في فلسطين ... وخلاصة تعاليمه ، عليه الصلاة والسلام ، ترمي الى بث الرحمة في القلوب وربط صلة المودة والمحبة بين الناس وفشو السلام والابحاث . قد لاقى اتباع هذا الدين الكريم من رؤساء الوثنية ومن يعتقدون العصمة في شخص الامبراطور وينزهونه عن عوارض البشرية من الاضطهاد ما لاقوا ! ... وذلك محافظة من هؤلاء السادة على نفوذهم السياسي ودفاعاً عن مقاصد الشخصية الانتفاعية فلقد اصاب المؤمنين يومئذ من الوثنيين في سبيل تبليغ الدعوة الوان من التنكيل والتعذيب ! ... وسارت قافلة المسيحية تبشر بهذا الدين في جميع الجهات التي وطئتها اقدامها ، ومنها هذا الوطن الجزائري (١)

(١) ان الذي بشر من الحواريين بافريقية هو فيلبس ، وان الذي جاء الى ارض البربر وربة هو شمعون القانوي ، وان الذي ارسل الى الحبشة وارض السودان هو متى العشار ، ويكاد العلماء الذين توفروا على دراسة تاريخ الديانة المسيحية ان يجمعوا على ان الذي تول التبشير بها بالديار المصرية هو المرسل « مرقس » وهو عربي صميم من يهود القبروان اعتنق الديانة المسيحية عند ظهور المسيح وبشر بها هناك ثم عاد الى تونس

فطالما بحث اهله عما يخلصهم من الاضطهاد الروماني فبادروا حينئذ الى اعتناق هذا الدين الجديد تخلصاً من نير استعباد الوثنية والوثنيين ...

وبقي امر هذا الدين بين اتباعه وخصومهم في مد وجزر ؛ حتى استتب الامر الى الامبراطور قسطنطين واستولى على عرش رومة سنة ٣١٢ م فاعتنق المسيحية واعلى من شأنها في البلاد وجعلها دين الحكومة الرسمي وامر ببناء المعابد والكنائس في انحاء الامبراطورية الرومانية واعلن برفض دين الصائبة ، واصدر مرسوماً اطلق عليه الناس يومئذ اسم (مرسوم ميلان) يمنح به الحرية المطلقة في الاعتقاد ؛ ولقد عاشت هذه الحرية مدة حكم قسطنطين الى حد ما . وذلك عندما كان هذا الامبراطور في نفس الوقت حامياً للمسيحيين وقساً وثنياً في آن واحد ... ولكن الرومان بعد ذلك عندما اصبحوا كلهم يدينون بالمسيحية في القرن الرابع لم يلبثوا ان الغوا تلك الحرية الممنوحة على عهد قسطنطين واحدثوا قوانين صارمة للضرب بها على ايدي الوثنيين والممارقين (وهم في نظرهم القوم الذين لا يرون ما تراه السلطة القائمة يومئذ من رأى) .

واذا كان اليهود الاسعدون حظاً من الوثنيين قد احتفظوا بحقوقهم الدينية في نزاوله عبادتهم ، فانه قد حظر عليهم ان يتزوجوا المسيحيات اذ يفتحوا معابد جديدة لهم ومن خالف هذا حكم عليه بالاعدام ، كما قد حظر عليهم ايضاً تهويد المسيحي والا عوقبوا بنفس العقوبة ؛ ورغم هذه المحاولات والتشديدات كلها فانه قد دخل على الدين المسيحي من عوائد الوثنية وغيرها ما امتزج به في اغلب مظاهره ، وحدث القول بالتثليث

وصاحب المرسل « بولس » ثم « بطرس » ثم بعد مقتل بولس ، وقد جاء مصر من طريق الصحراء الغربية وبدأ يث دعوته في الصيد ثم انتقل الى الاسكندرية حيث انشأ مدرسة دينية ، ولم ينقطع عن التردد بين الاسكندرية ومسط رأسه بالقبروان الى ان توفي عام ٦٨ م ودفن بالاسكندرية التي اصبحت لذلك مقر كرسي بابا الكرازة المرقسية نسبة اليه وكانت كنيسة الاسكندرية تمارس الكنيية الرومانية (محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ص ١٣٥ - ١٣٦ ط القاهرة) . وتمتاز الاسر والمائلات البربرية القديمة التي اعتنق آباؤها هذا الدين برسم شكل صليب بين اعينهم كما هو عليه حالهم الى الآن .

فقبله من قبله ورفضه جماعة كان على رأسهم القس الراهب اريوس الاسكندراني المولود سنة ٢٧٠ م وكما اشتهر بينهم يومئذ مذهب الراهب دونا الذي دعا اليه سنة ٣٠٥ م بمدينة كازنوار - الديار السود - بالقطر الجزائري - شمال اوراس - وكان يزعم ان مذهبه هو المذهب الوحيد الذي يمثل العقيدة الصحيحة فاختلفت يومئذ كلمة اتباع المسيحية واضطربت عقيدتهم فيما بينهم . فدعا الامبراطور قسطنطين الى عقد مؤتمر ديني لتقرير العقيدة الرسمية وتوحيد الكلمة بين النصارى جميعاً ، فكان يومئذ مؤتمر نيقية^(١) من بلاد الروم سنة ٣٢٥ م ، وهو اول اجتماع عقده رؤساء المسيحية في العالم ، اجتمع فيه ما ينيف على ألفين وثلاثمائة رئيس ديني ، وذلك بحضور القيصر قسطنطين نفسه ، وكتبوا في ذلك وثيقة سموها بعقيدة الامانة^(٢) وحملوا الناس عليها اعتقاداً وعملاً .

ثم اختلفت انظار هؤلاء الرؤساء انفسهم القائمين بتسيير دفة الدين بسبب اختلاف النظريات الفلسفية الداخلية يومئذ على الدين ، وكان اول من عمل على مزج هذه الدراسات الفلسفية بالتعالم الدينية الفيلسوف امونيوس الاسكندري Ammonius (٢٤١ م) ، فتشعبت يومئذ المذاهب وانتصبت محاكم التفتيش للحكم على اصحاب المذاهب المناقضة الاخرى وطردوا من الكنيسة وحرمانهم ؛ وافترقت النصرانية يومئذ الى فرق وشيع وطوائف كثيرة انقسمت بها الكنيسة على نفسها ، اشتهر منها اصحاب هذه المذاهب الاربعة : الملكانية Melchites نسبة الى ملكا الذي ظهر بالروم واستولى عليها ، وهو مذهب البابا برومة وجهور الملوكة ورؤساء النصارى وعامتهم ، واليعقوبية Monophysites اصحاب يعقوب البرذعاني راهب القسطنطينية ، وهو مذهب غالب الارمن والاقباط وجميع الحبشة والنوبة ، والنسطورية اصحاب نسطوريوس بطريرك

(١) هي مدينة (ازنيق) من بلاد الاناضول وموقعها على بحر مرمرة ، كانت هي العاصمة الثانية لمملكة الروم وسمى Nicaea .

(٢) انظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٦٣ ط مصر سنة ١٣٢٠ هـ وابن خلدون ج ١ ص ٢٢١ ط مصر سنة ١٣٥٥ هـ .

القسطنطينية (٤٢٨ م) المتوفي سنة ٤٥٠ م ، وهو المذهب الغالب على نصارى الموصل والعراق وفارس وخراسان ؛ والمارونية نسبة الى الراهب مارون (٤٣٣ م) ومذهبه قريب من المذاهب الثلاثة المتقدمة بل هو قريب الشبه من المذهب الكاثوليكي . ولقد نشأ عن ظهور هذه المذاهب تنافس بين اهلها ومشاحنات ومجادلات دينية واضطهادات نشأت عنها مذاهب اخرى الى هلم جرأ ... وعن هذا السبب نفسه نشأت الفرق والطوائف الاسلامية بعد ذلك وكثر النقاش والجدل الديني الفلسفي واختلفت المذاهب الاعتقادية في علم الكلام ، والتاريخ يعيد نفسه ...

وكان حظ الجزائر من هذه المذاهب المسيحية هو مذهب دونتوس اسقف الديار السود (كازا نوار) - شمال اوراس - ٣٠٥ م فقد اخذ هذا المذهب ينتشر بسرعة في كامل القطر الجزائري رغم مقاومة السلطة له . وذلك لما احتوى عليه من مبادئ التحرير . وقد كثر اتباعه حتى كادوا في سنة ٣٣٠ م ان يستحوذوا على اكثر كنائس افريقية ، فقد بلغ عدد المراكز المسيحية بها سنة ٤١١ م سبعة وثمانين ومائة كنيسة ، منها ٨٧ دوناتية والبقية موزعة وموقوفة على مختلف المذاهب الاخرى ؛ ثم ان اهل هذا المذهب نفسه انشقوا الى طائفتين اثنتين كانت احدهما مقيمة بمدينة تيمقادي . ويعتبر هذا المذهب بحسب مبادئه الاعتقادية تأثراً على نظام الحكم السائد يومئذ على هذه الديار ، وطالما اصدت الحكومة أوارها الصارمة على اتباعه فلم يحفلوا لها ؛ وما تمذهب الجزائريون بهذا المذهب الدتوسي إلا لما احتوت عليه تعاليمه من الثورة على قواعد الحكم ؛ وذلك لما انهم كانوا يرون فيه خلاصهم من اسر الاستبداد والاستعمار ؛ وهذا هو الغرض والسر فيما نراه اليوم وقبل اليوم من تدخل الحكومات الاستعمارية في شؤون الاديان والمعتقدات ووضع يدها على العناصر الحيوية منها مثل ما شاهدناه نحن في بلادنا الجزائرية من فرنسا ؛ وذلك لما تتوجه هذه الدول المستبدة من النهضة الدينية التحريرية .

نهضة الجزائر التحريرية

ما فتئت الديانة المسيحية تنتشر لتأخذ مكانها - على مذهب دونها - بهذه البلاد حتى اخذ اتباع هذا المذهب الديني الوطني في مطاردة اهل المذاهب الاخرى ، فنشأت عن ذلك فتن واهوال ، ادت الى خلع طاعة الرومان ونبذ سلطانهم ؛ وتعددت الوقائع يومئذ ، فانتهم المناوئون للدولة فرصة هذا النزاع واخذوا في عقد اجتماعاتهم بمدينة تيمقادي وغيرها للنظر والتدبير في احداث انقلاب سياسي عام ، وهم في كل ذلك يتظاهرون بالبحث والنقاش الديني ، وقد كان على رأس هذه الحركة الثورية الرئيس الوطني فيرموس بن الملك البربري نوبيل ، احد زعماء زواوة وجرجرة ؛ فانحاز اليه اتباع مذهب الدوناقيست واندلع يومئذ لهيب الثورة الوطنية التحريرية في البلاد ٣٧١ م وكان يبلغ عدد جنود فيرموس نحو العشرين ألفاً جاءت كلها محاصرة للعاصمة بول القيصرية - شرشال - وشددت عليها الحناق حتى فتحتها واحرقتها واستولت على مدينة الجزائر Icosium ونادت باسم فيرموس ملكاً على البلاد ؛ وكانت قبل ذلك وقائع وثورات بنوميدي وموريطانية الشرقية دامت نحو عشر سنوات (٢٥٣ - ٢٦٢ م) منها ما وقع من اهالي قبائل « البابار » القاطنة بمرتفعات (بابور) بين سكيكدة وقسنطينة الثائرين تحت قيادة اربعة زعماء نوميديين اتحدوا في كفاحهم مع قبائل الحلف الخامس : وهي خمس قبائل متحالفة تقيم بين بجاية شرقاً ومدينة دلس غرباً وجبال جرجرة جنوباً والبحر الابيض المتوسط شمالاً ، وانضم اليهم القائد (فاراكس) مع جنوده الابطال القادمين من مرتفعات ناحية (بلعباس) وزحف هؤلاء المتحالفون بكليتهم على نوميدية وغزو اراضيها واخذوا معهم عدداً كبيراً من الاسرى ، حتى ان القديس (سيبريانوس) كان مضطراً الى جمع مبلغ كبير من المال لاقتداء النصارى وعلى الاخص العذارى اللاتي كان يخاف عليهن من الاغتصاب .

واستمرت المعارك والثورات بنواحي سور الغزلان (٢٥٥) ميلادية

وناحية (لاموربيلير) سنة ٢٥٧ م وفي حدود موريطنية الشرقية حيث قتل (فاراكس) سنة ٢٥٩ م ولم تحمد نار الفتنة إلا في سنة ٢٦٢ م .

وفيا بين سنتي ٢٨٩ - ٢٩٨ م نشأت ثورات أخرى بالقبائل دامت هي بدورها أيضاً عشر سنوات وكانت الاضطرابات في هذه المرة أشد وأقوى من التي مرت قبلها . فلقد امتدت الحرب هذه المرة الى الجنوب وشملت جبال الحضة وهدم الثوار صور « جواب » وكادوا يحتلون مدينة بجاية (صلدوي) . ولما عجز الامبراطور (ديوكليسيانوس) عن اخاد هذه الفتن استعان بالقيصر (ماكسيميانوس) الملقب بهرقل ، فقدم هذا الى افريقية ليقود حملة اضطهادية قبل الحلف الحامي^(١) . ويومئذ جاءت الحامية الرومانية بقيادة ثاودوسيوس الروماني فنزلت بمرسى جيجل - ٣٧٣ - فانضم اليها - طوعاً او كرهاً - جيلدون اخو فيرموس فكانت الدائرة على فيرموس بنواحي سطيف ، وقضى القوم على هذه النهضة التحريرية وانعقد الصلح بين الرومان وفيرموس على هذه الشروط :

أ - تنازل فيرموس عن ملكه .

ب - منح مدينة الجزائر للقائد الروماني ثاودوسيوس .

ج - اداء اموال طائلة لهذا القائد أيضاً .

د - وضع رجال من الوطنيين رهناً تحت رقابة الرومان .

وحينئذ أضاف الرومان امارة افريقية بمغارها الثلاث الى جيلدون مكافأة له على انتصاره لرومة وخيائته لاختيه ! ... وصاهره الامبراطور أيضاً في بنته ، وفي هذه الآونة اختفى فيرموس بنواحي الشرق الجزائري ريثما سنحت له فرصة النهوض الى المقاومة مرة أخرى ففعل فأخفق ؛ ولكنه لم ييأس فأعاد الكرة على العدو للمرة الثالثة وجاء يومئذ بعده اوفر من الجند قضى بهم على قوة ثاودوسيوس الرومانية ، فانهمزم القائد

(١) راجع احد سفر : مدينة المغرب العربي في التاريخ ص ٣٧٣ ط تونس ١٩٥٩ م .

الروماني هذا الى ناحية عيون بسام وسعى هنالك في ارتشاء ملك فليسة - اينهاسن - للقبض على فيرموس ، ولما شعر فيرموس بضعفه امام جميع هذه القوات المحيطة به وادرك انه يروم امراً معضلاً لا تصل اليه مقدرة انتحر خنقاً سنة ٣٧٥ م ، ولم يظفر اينهاسن إلا بجثته فوجهها على بعير الى قائد القوات الرومانية .

وفي سنة ٣٩٥ م ثارت في نفس جيلدون عوامل الغيرة الوطنية وعصفت في رأسه حفيفة الانتقام لاخته فيرموس المنتحر من اجل الرومان ، فنهض مطالباً باستقلال ارض الجزائر عن الرومان ، فرماه هؤلاء بأخيه مسيزل الذي كان ملتجئاً عندهم في رومة منذ انتحار اخيه فيرموس ، وجاء مسيزل لمقاتلة اخيه جيلدون . وكانت المعارك بينهم بين مدينة اميدرة - حيدرة وتيفيست - تبسة - فانهمزم جيلدون وفر هارباً نحو البحر فركب متوجهاً الى القسطنطينية ، وكان البحر يومئذ مضطرباً فرسى بركبه على شاطئ طبرقة فحطبه ووقع جيلدون في قبضة والي المدينة فسجنه وهناك انتحر جيلدون سنة ٣٩٨ م بعد ما ملك ١٢ عاماً وكانت عاقبة مثل عاقبة اخيه فيرموس . واخيراً كان جزاء اخيه مسيزل جزاء سنار فألقاه الرومان انفسهم في لجة نهر مخافة تأسيه واقتدائه بأخويه : فيرموس وجيلدون في بث روح الثورة الوطنية في البلاد ، وهكذا شأن الاستعمار في سياسته مع المستعمرين : مغالطات وتحذير وتغريب ثم الإجهاز !...

الاجتمع الجزائري

لقد ذهب المؤرخون في تقرير عدد سكان شمال افريقية على عهد الرومان الى نحو سبعة ملايين ، واذا نظرنا الى عدد الرومان بالنسبة الى هذا القدر وجدنا ما يقرب من نحو الثلث منه طاليات وهم بالجزائر والمغرب الاقصى اقل منهم في تونس وطرابلس ؛ وان اغلب الرومان الذين وجدوا بالجزائر كان يحثهم على عهد الابطارة : نربا ٩٦ - ٩٨ ق م . اسبسيان ٦٩ - ٧٩ م . وقلودبوس ٤١ - ٥٤ م . واوكتافيوس اغسطس

٢٧ ق م - ١٤ م . وكانت المدن التي نزلتها هذه الامة من الجزائر : قرطنة : تنس - واجلجي : جيجل - وصادي : بجاية - وروسقونيا : مطيفو - وزكبار : مليانة - وتبوسكوت : تكدلات - ثم توات الجاليات والافواج بعد ذلك ، فمنهم من نزل في ابدوم نفوم : وادي الدفلة - ومنهم بداروش ، وسيطيفس : سطيف - الخ ... وان اغلب من وجد بأرض الجزائر من هؤلاء الرومان انما هم من ابناء الجند .

ولقد كان الباعث الاول لحيء هذه الجاليات الى هذا الوطن هو كثرة العاطلين يومئذ برومة واشتداد الازمة عليهم هنالك بداعي الفاقة والحاجة ؛ ولقد ارتفع عنهم كل ذلك بما وجدوه امامهم في هذا القطر من خصب التربة وما انفتح امامهم من الاعمال التجارية وغيرها .

وكان الناس في المعاملة امام القانون ثلاث طبقات : فالطبقة الاولى هي طبقة رجال الحكم وولاة الادارة الرومانية ، ثم تليهم طبقة بقية الامة اللاتينية جمعاء ، ثم تأتي بعدهم طبقة الشعب من جميع الاهالي الوطنيين ، وهم يعبرون عنهم بالاجانب Pérégrims ! ؟ ... وليس لهذه الطبقة الثالثة ادنى اعتبار ، ولقد عم هذا التقسيم البلاد نفسها فقسمتها السلطة الى مدن رومانية ، لاهلها التمتع بجميع حقوق الرومان ، فهي معفوة تماماً من جميع الضرائب ومن الانتخابات العامة ؛ ومدن بربرية ليس لها من الامتيازات الرومانية شيء ، واهلها خاضعون لسلطة رئيس بربري تحت اشراف ومراقبة رومة ؛ وذلك شأن الاستعمار في كل زمان ومكان .

فهر دائماً يعمل على اذلال المستعمر واهانته واحتقاره ، والا فما معنى هذه الضجة العالمية - قديماً وحديثاً - ضد الاستعمار ؟ ...

ورغم ما شهده التاريخ من نشر الرومان للسلام مدة قرنين كاملين في جميع انحاء الامبراطورية فقد ظلت الثورات الوطنية التحريرية متوالية بهذه البلاد ؛ وأياً ما كان فان سير الحياة الاجتماعية العامة كان منحطاً عن مستواه الذي تركته عليه قرطاجنة الفينيقية .

الحياة الاقتصادية

ان اقل نظرة يلقيها الانسان على سير الحياة الاقتصادية العامة بهذه البلاد يراها قائمة على كواهل ابناء الوطن بتسخير رومة لهم في اقامة جميع هذه المهارات الضخمة والمؤسسات الفخمة العظيمة ومشاركتهم الفعالة في تضخيم الخزينة ، بأداء المصارم الباهضة وتموين رومة بجميع الضروريات الاقتصادية من حبوب وفواكه وخضر وبقول وخبز وصوف واخشاب ورخام ومعادن وزيت وحيوانات النقل وغيرها من المحصولات ، مع شدة العناية بجلب المياه حسبما تدل عليه آثارهم في عدة اماكن ، كل ذلك يجعلنا على ثقة من حسن حالة البلاد الاقتصادية ويسرها يومئذ ؛ ولقد عبر الرومان انفسهم على خصوبة البلاد هذه بذلك الرمز الذي رسموه على قطع النقود المضروبة بهذا الوطن ، فانها كلها كانت تحمل صورة امرأة حاملة سنبله ، ويزيدنا تأكيداً لهذه الحقيقة التاريخية قولهم في وصف افريقية *Romæ graniarum* اي هي خزينة رومة ؛ وكانوا اذا ارادوا ان يصفوا شخصاً بسمعة الثروة قالوا : في مخازنه قمح افريقية ؛ ويقدر العلماء مبلغ ما كانت تستورده رومة من افريقية من مختلف انواع صادراتها سنوياً بما يبلغ احياناً ٣٤٨،٠٠٠ طن ؛ وقد كان لليد الالهية العاملة في ذلك فضل عظيم ، ولا شك ان البربر قد استفادوا شيئاً ما من هذه الحركة الاقتصادية التي كانت تجري في بلادهم على مرأى ومسمع منهم مما جعل سير البلاد الاقتصادي مطرداً في سبيل الرفاهية ورخاء العيش ولكنه لفائدة الغير .

ولا ينبغي ان ننسى ازدهار التجارة على عهد تراجان وهادريان واسرة انطونينوس (٩٨ - ١٩٢ م) حيث ظل الازدهار رائد التجارة بين دنيا البحر المتوسط والبلاد المطلة على المحيط الهندي . فقد اصبح تراجان الموصلات بين البحرين الاحمر والمتوسط على عهد الامبراطورية الرومانية فصارت التجارة حرة عبر مياهه ، ولو لم يرد الفرس سريعاً على اعقابهم بعد اقتحامهم الحدود

في القرن السابع لغزوا على هذه الوحدة ، ولكن انهاها العرب ونحطمت
وحدة البحر المتوسط ^(١) .

الثقافة والحضارة والعمران

ان من يتتبع سير الاستعمار الروماني بهذا الوطن يراه قد استعمل جميع
وسائله ومجهوداته لبسط نفوذه على العنصر الاهلي مادياً وادبياً ، فقد كان
التعليم اجبارياً بلغته ، ورغم ذلك فان الاهلي لم ينس لغة بلاده فلقد
برع فيها معاً ؛ قال المؤرخ م تيري : لقد كانت العلوم تدرس بمدينة
مادور ؛ وحدرموت : سوسة - ولبتيس ؛ وسيرتا : قسنطينة - وحتى في
داخل نوميديا ، وكانت الدراسة فيها باللاتينية انما هي لاتينية مركبة على
البونيقية التي مكثت حية الى هذه الآونة ، ومن هذه المدارس التي كانت
تعلم اليونانية واللاتينية والبونيقية تألف ذوق جديد مركب من كل ذلك ؛
وانما كانت تغلب عليه الصيغة البونيقية . وكانت هنالك مدارس اخرى
بشرشال ومدوروش الخ ... وكلها استعملها الرومان في نشر لغتهم كما
فعلوا كذلك بالحاكم والمسارح والمتنديات الخاصة والعامة ؛ وبذلك تيسر
لابناء البلاد اتقان لغة الدولة الحاكمة مع المحافظة التامة على لغتهم .

فلا جرم حينئذ اذا شاهدنا في طبقة الشعب من بلغ ارقى درجات
الخطابة والكتابة وبرز في علوم الحكمة والفلسفة ؛ فهذا يوبا الثاني ملك
القيصرية : شرشال - وقد دام في الحكم نحو خمسين سنة ؛ كان شغوفاً
بالعلم لا يفتقر عن الكتابة ، فله مؤلفات نفيسة في التاريخ والجغرافية والفلسفة
والتمثيل والموسيقى وهو مشهور بتوقد الذهن والذكاء المفرط وله ولوع
خاص بدرس الهندسة ووضع التصميمات العمرانية وقد جلب الى عاصمته
من مصر واليونان طائفة من الفنانين والكتاب والشعراء والفلاسفة ؛ وأشاد
بها القصور الجميلة والمياكل الفخمة ، كما اشتهر يومئذ العالم الكبير (ابوليوس)
مؤلف كتاب الحمار الذهبي وغيره .

(١) جورج فضلو حوراني : العرب والملاحه ص ٨٦ و ١٧٢ ط القاهرة ١٩٥٨ م

وانتشرت يومئذ بين الاهالي صناعة الالقشة الغليظة واواني الطين على اختلافها ، وكانت صناعة المصاييح الزيتية بشرشال مشهورة وتجارها راجحة ، والفنون الجميلة يومئذ مزدهرة كما يشهد بذلك ما تركه الرومان بعدم من مظاهر العظمة الهائلة الزينة بالفسيفساء وصنع التماثيل الفخمة ونقوش المرمر والرخام وزخرفة الهياكل واقامة الحنايا لجلب المياه من بعيد وحفر الآبار والسدود والصهاريج العديدة ؛ وكان منها بالجزائر سدود الحضنة وهي سدود ثلاثة بوادي واحد ، الكبير منها يحمل نحو ١٢٠٠٠٠٠٠ لترآ ، واعظم قناة اثرية بالجزائر هي حنايا مدينة شرشال - يول القيصرية - يبلغ طولها ٢٨ كيلومتراً بواسطة جسر كبير يبلغ ارتفاعه على منفرج الوادي ٣٥ متراً ويتألف من ١٧ حنية ذات ثلاث طبقات .

وكانت مدينة قرطه : قسنطينة - تشتمل على مدينتين : داخلية يحيط بها سور ، وخارجية وهي اوسع نطاقاً من الاولى ومساحتها تمتد غرباً الى جنان الزيتون ومقبرة السلام وبالجنوب الغربي الى قشلة باردو ، وشمالاً الى ضفة وادي الرمل الشمالية قال بارس : وذكر ابطات قديس ميله : انه كان ملاصقاً لقرطه حارة عظيمه تدعى «موغاي» والظاهر انه المكان المعروف اليوم بسيدي مبروك . وتمتد هذه الحارة الى ناحية المنصورة ؛ الى ان قال : وبضواحيها نزلات منقطعة وقد عثر على آثار ذات بال بعضها بناحية الحمامة .

وسعى القوم يومئذ في توسيع عمارة مدينة ميله وسككدة والقل وجميلة فأصبحت هذه كلها عواصم جميلة فسيحة بعدما كانت قرى صغيرة ومثلها في ذلك باغاية ؛ ومسكولة : خنشلة - ولييس وتيفغادي ؛ وبادي - بادس - ولقد بلغت هذه المنشآت الرومانية بافريقية الى نحو الستين مستعمرة ما بين مدن وقرى وحصون ؛ وكانت كلها على غاية الرقي في الحضارة والعمران ؛ وكان يبلغ عدد سكان البلدة الواحدة منها ما بين العشرة آلاف نفس الى نيف وثلاثين ألفاً ويبلغ عدد سكان مدينة (تيفيستا) - تبسة - الى مائة الف نسمة ، وبحسب ذلك كانت تعتبر هذه المدينة

من اعظم بلاد افريقية الرومانية ازدهاماً بالسكان بعد قرطاجنة . وكان لكل بلدة منها ساحة عمومية كبرى لعقد الاجتماعات واقامة الحفلات فيها تدعى «فوروم» منها الساحة العمومية بمدينة بونة - عناية - ويبلغ طولها ٧٦ متراً وعرضها ٣٤ متراً وهي من أروع الساحات الرومانية جمالاً . وكانوا يعتنون على الاخص بإنشاء المسارح والملاعب مثل مسرح «تيازا» وملعب شرشال ومسرح تيبقاد وقالة وسكيكدة بالجزائر . وهاكل العبادة والحمامات مثل حمامات لمبيز وتيبقاد وجميلة الخ ... ولا يزال البحث عليها مستمراً بين اكوام الرمال والحجارة وفي غضون التراب الى اليوم ، وان ما ظهر من ذلك حتى الآن لهو أعظم دليل على نشاط الحركة الفكرية ومظهر جلي من مظاهر الثقافة العامة التي كان عليها الرومان يومئذ بهذه البلاد .

كما عبت الطرق الواسعة بين العواصم والبلاد الشهيرة كالتي بين قرطاجنة وتبسة ؛ وبين شرشال وقرطاجنة ؛ والتي بين بونة وطرابلس والطريق الذاهة من تبسة الى عقاد وطريق سطيف الى سور الغزلان التي بين ميله وخنشلة الخ ... واقامة الجسور مثل الجسر القائم الى الآن في الطريق ما بين مدينتي القنطرة وبسكرة فهو ذو حنية طول انقراجها ١٠ امتار وعرضها ٥ امتار وبه عقود وخيوط ثلاثة ناتئة مستديرة ورسوم في شكل الورود ورأس فرس منقوش بواسطة العقد . ويكفيها شاهداً على تقدم هذا العصر ونبوغ امثال ابوليوس : اصله من مداوروش - الذي يقول فيه بيروني : هو من اكمل الرجال واعظمهم فائدة في عصره . واحسن وصف له واصدقه هو ان نقول فيه : رجل مخترع مؤسس لمباد كثيرة ، ومثله الفنان المهندس القسنطيني فرنطوس استاذ الامبراطور مرقس اوراليوس ٣٦٠ م ، هذا واننا اذا نظرنا جيداً في حقيقة هذه الحضارة والثقافة الرومانية وجدناها مقتبسة عن الاغريق والفينيقيين ؛ فهي عن تقليد محض ، ومع تقليد رومة لغيرها في المدينة فانها رفعت لواء الجندية فاحتلت به مركز قيادة العالم يومئذ واحكمت النظم السياسية والقضائية كذلك ، فهي لا تزال محتداً للامم الراقية الى اليوم .

ويقول بعض المؤرخين ان حضارة الرومان بالجزائر كانت شبيهة بحضارة رومة ؛ وهم يستدلون على ذلك بأنه كان في زمن الامبراطور طربانس ٩٨ ق . م - ١٧ م كل من يحكم عليه بالنفي من رومة يمنع من الحلول بافريقية وذلك لما بين المواطنين من المشابهة في الحياة والرفاهية والاعتبار .

وان الذي يؤسف له هو عدم انتفاع الاهلي واستثماره كما يجب لكامل هذه الحضارة الرومانية الجبارة ! ... بل كثيراً ما رأيناه يسمى في اتلافها عن جهل ! ... وهذه خسارة كبرى خسرها الجيل البربري كما خسرها الفن المعاري التاريخي بالجزائر . وما ذاك فيما ارى إلا لاقضاء الرومان له واحتقارهم لشأنه وترفعهم عنه مثل ما هو مشاهد عند امم الاستعمار الى اليوم .

انهيار الجزائر الرومانية

كان لتلك النظم الادارية القاهرة التي فرضها الرومان على ابناء البلاد القاضية بسلب جميع حقوق الوطني الاهلي واهاته ، وتسخير مواهبه في منفعة غيره واحتقاره وفرض المغارم الباهظة عليه ، كل ذلك كان له اثره السيئ في نفوس المحكومين ، فكانوا لذلك دائماً وابدأً يتوقون الى الثورة ضد هذه السلطة الخائفة ، وفعلأً لقد نهض اباة الضيم من ابطال هذا الشعب الجريء واعلنوها حرباً عواناً في وجه هؤلاء الطغاة المتسلطين ، ونادوا باستقلال بلادهم عن الرومان ... فتعددت الثورات وكثرت الاضطرابات الداخلية مما دعا عتاة الرومان الى المبالغة في الاستبداد والاستعباد وظهرت الانانية والتنافس بين الحكام وتدهورت اخلاق الولاة فبطروا منهمكين في ملذاتهم ، واخذل الرؤساء الى الراحة والتنعم مقبلين على الملاعب والمسارح مدبرين عما يتطلبه الموقف من الحزم والعدل وشدة الشكينة . فتفكك نظام المجتمع وعدم انسجامه بين طبقات الشعب وفقد تماسكه فتدخل يومئذ الجند واغلبه اجنبي مستأجر فاستحوذ على تسيير دفة المملكة الافريقية فعمل فيها برأيه ! ...

واشتد يومئذ النزاع المذهبي الديني الذي شرحنا أسبابه ونتائجها فيما سبق ، فزاد بذلك اختلال نظام المجتمع الروماني بافريقية وبغيرها أيضاً ، وأخذت الدسائس السياسية تلعب دورها بين رومة وقرطاجنة فساءت العلاقات بين القائد الروماني (الكونت بونيفاس) وبين حكومته فسمى به اعداؤه لدى الامبراطورة (بيلاسيدية) فعزلته سنة ٤٢٧ م . ولكن القائد لم يبالِ بأمر الملكة واستمر في مكانه الى ان هاجمته رومة زاحفة على هذه الملكة سنة ٤٢٩ م . فصمد الكونت لرد حملات رومة عن هذا الوطن وانتصر عليها في ثلاث دفعات ؛ ولما شمر بضعفه امام الزحف الروماني استجاش بأصهاره القائد على ان يقاسمهم ملك هذا الوطن ويتنازل لهم تماماً عن جميع غرب الملكة الرومانية بهذه الديار ، فاجتاز حينئذ القائد بوغاز جبل طارق يقودهم رئيسهم (جنسريق) ^(١) وهم في نحو ٨٠٠٠٠ نفس فزلوا بموريطانيا في شهر ماي ٤٢٩ م . واكتسحوها الى الساحل الجزائري فاحتلوا منه مدينة الغزوات Ad Fratres ، ويومئذ انقسم جند الاحتلال الى فئتين فئة منه اختصت بادارة الشؤون الحربية وهي خسون الفاً ، واشتغل الباقي بالشؤون المدنية ؛ واذا ذكرنا المدينة هنا فانما هي مدينة فاندالية ! ...

ولما رأى الكونت بونيفاس سوء سلوكهم المتوحش ندم على ما صدر منه من القدر بحكومته في سبيل اشباع نهته وتجنيز غرضه الشخصي فسمى بكل جهوده في طلب العفو من الامبراطورة بواسطة القديس اوغسطين ، ففقت عنه وانقلب هو يومئذ على القندال وحاربهم في نواحي فالمة من الوطن الجزائري فانهمزم واندحر امام قوات القائد التي وجد فيها البربر منيتهم المشودة في القضاء على الاستعمار الروماني والنشفي منه . ففر بونيفاس منهزماً الى هبونة - عتابة - حيث يقيم هنالك الوطني الحر والفيلسوف العالم القديس اوغسطين فانضم اليه الكونت مدافعاً عن الوطن . ويومئذ رأى امبراطور بزنطة شبح الخطر يتهدد الامبراطورية الرومانية

(١) ينطق به الجرمان هكذا : جوزريتش ، ومناه امير الروح .

في الشرق وفي الغرب فبعث من حينه بالحامية لانتفاذ موقف رومة الحرج امام حملة الفاندال ، فنشبت الحرب من جديد وانزم فيها الروم البيزنطيون ايضاً ، واحتل الفاندال مدينة بونة آخر معقل للرومان بالجزائر (ديسمبر ٤٣١ م) وعاث الفاندال في هذه البلدة المنكوبة بما شأؤوا من انواع الهدم والنهب والتخريب ولم يبقَ فيها شيء إلا اتوا عليه سوى دار القديس ومكتبته ! ... وسقطت الجزائر يومئذ بيد الفاندال وتم استيلاؤهم على القطر الجزائري بقسميه : نوميديا وموريطانيا ، وذلك على عهد الامبراطور « ولنتينيانس الثالث » ، وبذلك ارتفع نير الاستعمار الروماني عن الجزائر بعدما اتاخ بكلكله واثقاله عليها مدة ٣٨٠ سنة . وهكذا الدنيا دوايك ، ولكل بداية نهاية .

ولما تحقق الرومان خطورة موقف منطقة افريكا - المملكة التونسية - امام احتلال الفاندال بادروا بعقد معاهدة مع هؤلاء مدة ثلاثين سنة اعترف لهم الرومان فيها بالاستيلاء على القطر الجزائري والمغرب ما عدا ولاية تونس ؛ وان لا يعتدي على حدود هذه الولاية ، وأمضى جنسريق هذه المعاهدة ، وقدم ولده هنريق وهناً للرومان وتحمل مع ذلك ضريبة سنوية يؤديها لرومة ، وتم عقد الصلح بينهم على ذلك سنة ٤٣٥ م . وجلس جنسريق على ولاية المغربين الاوسط والاقصى متخذاً لكرسيه مدينة هبونة : غنابة ثم انتقل منها بعد ذلك الى مدينة صلاي : بجاية - واستمر في خطته السياسية على وفق ما قرره بنود المعاهدة الى ان اطمان له الامبراطور واذن لهنريق بالعودة الى والده ...

وبعدها بقليل طمع الفاندال الى ضم بقية مملكة افريقية لسلطانهم فانقضوا على عاصمة قرطاجنة فهدموا اسوارها وكسروا حصونها وفتحوها غنة يوم ١٩ اكتوبر ٤٣٩ م وطردها منها الرومان فكان ذلك آخر عهدهم بافريقية بعدما استعمروها مدة ٥٧٦ سنة ؛ غير ان الجشع الفاندالي والجنون الاستعماري لم يكن ليعرف في تاريخه حداً ولا نهاية ! ... فانهم بعدما قضاوا على مملكة الرومان بافريقية توجهوا تَوّاً الى رومة نفسها

فأحاطوا بها وفتحوها عنوة ايضاً سنة ٤٥٥ م وانزلوها عن حصانتها ومناعتها منذ ١٢٢٩ سنة ثم عادوا بعد ذلك الى المغرب يحرون وراءهم ذخائر رومة وثقائس مقتنيات الثينة فلأوا بها خزائهم بافريقية ، ويومئذ انقطعت آمال الرومان ومطامعهم تجاه هذا الوطن ، ولم تتمكن لهم العودة اليه بعد ذلك إلا في القرن العشرين م . حيث استولى أحفادهم الطليان على جزء منه : طرابلس ، وذلك ما ينيف على ثلاثين سنة ، فدحره الحلفاء ...

واستقر الفاندال بافريقية متخذين قرطاجنة عاصمة لهم ؛ وبحوا كل اثر كان للرومان بها غير اطلال دوارس بقيت هنا وهناك متفرقة في انحاء هذا الشمال .

ولاية الجزائر وزعماؤها

كان من اشتهر من ولاية الجزائر في هذا العصر الرئيس «كومودبوس» زعيم اتحاد المدن الثلاث : ميلوم : ميلة - وروسقاد : سكيكدة - وشولو : القل - وهو آخر من تولى رئاسة هذه الجمهورية الصغيرة وكان مقره ببلده ميلة ؛ والرئيس الروماني «ستيوس» كان على هذه الولاية قبل انفصال المدن الثلاث عن قرطبة : قسنطينة - وكويكلوم : جميلة - اي حينما كانت جمهورية هذه المدن الخمس في اوجها . وقد كانت ولاية ستيوس هذا سنة ٤٦ ق م واطلق الرومان على هذه الولاية اسم «مستعمرة ستيوس» ، ومات هذا القائد الروماني قتيلًا على يد البطل الجزائري «عراييون» وقد كان جانب من نوميدا تحت ولاية «سالوست» ، كما تولاه ايضاً «سكتوس» نائب اكتافيوس ، ثم عزل نفسه وجعل مكانه «فانغو» وتولى هو على البوقنصلية ، وكما اشتهر ايام الرومان بالجزائر الزعيم «اغاسن» رئيس قبيلة جزائرية كانت تسكن بجنوب جرجرة ، ولهذا الرئيس الجزائري مواقف شريفة سلكتها مع البطل فيوموس في ثورته على الرومان بيجال جرجرة سنة ٣٧٢ م حسبما مرت الاشارة اليه ،

وكان من الزعماء ايضاً « طاكفريناس » الذي اعلن الثورة على الرومان سنة ١٧ م . وقد انضم اليه يومئذ بربر جبال اوراس وأمدته زعماء الصحراء بالفرسان ... ومن ولاية نوميديا الرومانيين : القنصل « كابرنيوس باسطينا » سنة ١١٠ ق م و « ستيبيوس البينيوس » سنة ١١٠ ق م و « كيسيوليوس مينيليوس » سنة ١٠٩ ق م و « كابوس ماريوس » سنة ١٠٧ ق م والكل يعرف بلقب « الآغا » (Legatus — Legat) ومحل اقامتهم كانت تارة بتبسة ولعاز من المدن الجزائرية ، او بمدينة حيدرة (Ammædara) من المدن التونسية .

وكان بمن اشتهر في ميدان العلم والعرفان يومئذ القديس الفيلسوف « اوغسطين » زعيم النهضة الدينية والسياسية ايضاً ببونة ، ومثله « دونتوس » اسقف مدينة باغاية وهو مؤسس مذهب الدوناتيست ، والعلامة المتفحن الذائع الصيت « فرنطوس » القسنطيني الاصل واستاذ الامبراطور مرقس اوراليوس - ٢٦٠ م - وكان مبرزاً في الفنون الهندسية ، وكذلك العالم « ابوليوس » من اهل مدينة مداوروش ، قال عنه بيروني : انه من اكمل الرجال واعظمهم فائدة في عصره ، واحسن ما يطلق عليه من الاوصاف ان يقال فيه انه رجل مبتكر مؤسس لمبادئ كثيرة . وكذلك الاسقف المصلح « ابطاط » راهب مدينة ميله فان له من التآليف الهامة كثير ، ومن اهمها تاريخ مذهب « دنتوس » . واسقف قالمة القس « بوسديوس » مؤرخ حياة اوغسطين الخ ...

ولا ينبغي ان ننسى او ننفل التنويه بملك العلماء او عالم الملوك « يوبا الثاني » وقد تقدمت الاشارة اليه من قبل فانه كان ملكاً جليل القدر عظيماً ، ولد سنة ٥٠ ق م وتوفي سنة ٣٣ م وهو صاحب الهيكل العظيم والضريح المشهور شرقي مدينة شرشال المعروف اليوم بقبر الرومية وهي زوجته « كليوباترة سيليني » ابنة كليوباترة ملكة مصر المشهورة ، توفيت قبل زوجها يوبا المذكور بثمانية عشر سنة ، ويقال انه دفن الى جانبها هنالك . واشتهر يوبا بالعلم والادب والفن ، وذكره قدماء المؤرخين فقالوا

انه كان مشهوراً بتأليفه وتصانيفه وأعماله الفكرية المفيدة اكثر من
اشتهاره بالملك ، ومن تأليفه كتابه في الليبيات (Les libya) اخرجته
في ثلاثة اجزاء وهو يشتمل على مواد كثيرة وعلوم شتى تتعلق بافريقية
من جغرافيا وتاريخ وأساطير ميولوجية وطبيعية الخ ... وكتاب حول
جزيرة العرب وآخر في تاريخ الرومان ، وله كتب كثيرة في فنون
الرسم والتشخيص والموسيقى واللغات واللهجات ، وكانت له مكتبة ضخمة
حوت كثيراً من نفائس الكتب ، وقد جمع حوله نخبة من المؤلفين والفساخ
يؤلفون وينسخون له الكتب ، كما انه عني كثيراً بتنظيم البعثات العلمية
فبعث بطاقة منها الى البحث والتعرف الى اهل منبع النيل ، ومنها من
توجهت الى البحث عن الجزائر الخالدات ، ومن المؤسف والمؤلم ايضاً انه
لم يبلغنا من الآثار العلمية التي لهذا الملك الجزائري العالم شيء سوى ما حدثنا
عنه المؤرخون او حكوه عنه . وقد كان للجزائر مثل هؤلاء ممن ذكرنا
كثير فحق لها ان تقنخر بهم في جميع اطوار تاريخها وحياتها العامة .

مشاهير ملوك الوطن الجزائري

تاريخ الولاية	الملكمة	
من - الى		
١١٨ - ١٠٤ ق. م	نوميديا الشرقية	يوغورطة
١١٨ - ١١٣ ق. م	نوميديا الغربية	آذربعل
١٠٤ - ٨٠ ق. م	نوميديا الغربية	بوكوس الاول
١٠٢ - ٥٠ ق. م	نوميديا الغربية	حمصال الثاني
١٠٢ - ٨١ ق. م	نوميديا الوسطى والشرقية	بارباس
٨٨ - ٨١ ق. م	نوميديا الغربية	ماصينطا
٨١ - ٥٠ ق. م	كامل نوميديا	حيرباس
٥٠ - ٤٦ ق. م	نوميديا الشرقية والوسطى	يوبو الاول
٥٠ - ٤٦ ق. م	نوميديا الغربية	مازاناسيس
٨٠ - ٤٠ ق. م	موريطانيا الشرقية	بوكوس الثاني
٤٤ - ... ق. م	نوميديا الغربية	عراييون
٤٤ - ٣٣ ق. م	جميع موريطانيا	بوكوس الثالث (١)
٢٥ ق. م - ٢٣ م	موريطانيا الشرقية	يوبو الثاني
٢٣ - ٤٠ م	موريطانيا الشرقية	بطليموس
٣٧١ - ... ق. م	موريطانيا القيصرية	فيروموس
... - ٣٧٠ م	القبائل الخمس (٢)	نوبال

(١) هو آخر من تملك من الجزائريين على موريطانيا الشرقية ، وبعد وفاته خلفها الرومان بمتنمراتهم .

(٢) مي ميلم : ميله - ورسقاد : سكيكدة - وشولو : الثل وكويكلوم : جيلة - وقرطة - قسنطينة .

أباطرة الدولة الرومانية

دور الامبراطورية الاعلى

تاريخ الولاية

من - الى

٢٧ ق م - ١٤ م	اكتافوس	أولاً - العائلة اليوليوسية :
١٤ - ٣٧ م	طيبريوس	
٣٧ - ٤١ م	غانيس	
٤١ - ٥٤ م	كلوديس	
٥٤ - ٦٨ م	نيرون	
٦٨ - ٦٩ م	غلبان	
٦٩ - ٦٩ م	اتون	
٦٩ - ٦٩ م	ويتليوس	
٦٩ - ٧٩ م	وسيبسيان	ثانياً - العائلة الفلافية :
٧٩ - ٨١ م	طيطش	
٨١ - ٩٦ م	دومتيان	
٩٦ - ٩٨ م	نوبا	
٩٨ - ١١٧ م	طربانس	ثالثاً - العائلة الانطونية :
١١٧ - ١٣٨ م	اندرينوس	
١٣٨ - ١٦١ م	انطونيوس	
١٦١ - ١٧٨ م	اوراليانس	

تاريخ الولاية

من - الى

م	١٧٨ - ١٩٢	كمودة
م	١٩٢ - ؟	برطانوس
م	١٩٣ - ٢٠٠	بوليانوس

أباطرة القرن الثالث

م	١٩٣ - ٢١١	سبتيما سيفير
م	٢١١ - ٢١٧	اقطونيس
م	٢١٧ - ٢١٨	مقرين
م	٢١٨ - ٢٢٢	انطونين
م	٢٢٢ - ٢٣٥	اسكندروس

عصر الفوضى العسكرية

م	٢٣٥ - ٢٣٨	مكسينس
م	٢٣٨ - ٢٤٤	عرديانوس
م	٢٤٤ - ٢٤٩	فليس ^(١)
م	٢٤٩ - ٢٥١	دقيانوس
م	٢٥١ - ؟	اورليوس
م	٢٦٠ - ٢٦٨	غلينوس

(١) لقد بلغ من نفوذ العرب وتأثيرهم العظيم في الحروب التي كانت قائمة بين الرومان والفرس ان تبوأ عرش رومة هذا الامبراطور «فيليس» او «فيليوس» وهو المسمى هند ابن خلدون باسم فلفش بن اورليان وهو من عرب غسان ، تولى الملك كقيصر على مملكة رومة خمس سنوات (٢٤٤ - ٢٤٩ م) وهو الذي اقام احتفال ذكرى مرور الف سنة على بناء مدينة رومة (النهج القديم من ٥٢٤ ومجمع لاروس من ١٦٠٦) .

تاريخ الولاية

من - الى

م	٢٦٨ - ٢٧٠	فلوديس الثاني
م	٢٧٠ - ٢٧٤	اورليانس
م	٢٧٤ - ٢٧٦	تاكينس
م	٢٧٦ - ٢٨٢	بروبش

دور الامبراطورية الاسفل

م	٢٨٤ - ٣٠٥	ديوقليانوس
م	٣٠٥ - ٣١١	غلاريس
م	٣١٢ - ٣٣٧	قسطنطين
م	٣٣٧ - ٣٥٠	قسطوس
م	٣٥٠ - ٣٦٠	قسطنطيوس
م	٣٦٠ - ٣٦٣	بوليانوس
م	٣٦٣ - ٣٦٤	يوبنيانوس
م	٣٦٤ - ٣٧٥	واليطينوس
م	٣٧٥ - ٣٧٨	واليس
م	٣٧٨ - ٣٨٣	غراطيانس
م	٣٩٢ - ٣٩٥	ثاداسيوس
م	٣٩٥ - ٤٢٣	هنوريوس
م	٤٢٤ - ٤٥٤	ولنتيانس الثالث ^(١)

(١) اتصب تحت كفالة والده الامبراطورة « يلاسيدي » اخت هنوريوس السابق
التي توفيت سنة ٤٥٠ م .

من مشاهير الجزائر

ابوليوس الماضوري

القرن الثاني لليلاد

هو كاتب افريقي نوميدي عاش في القرن الثاني لليلاد . ولد بمدينة ماضور المعروفة اليوم باسم « مداورش » بشرق عمالة قسنطينة - جنوبي سوق اهراس - سنة ١٢٥ م ، وقد كانت ماضور هذه في ذلك العهد الروماني مركزاً بلدياً به مدارس لنشر التعليم والثقافة الاولى ، ولم يكد يبلغ آبولي (Apulée) او ابوليوس الثلاثين من عمره حتى ذاع صيته . وقد رحل الى قرطاجنة التي كانت عاصمة العلم في افريقية ، ثم الى آثينا ، فروما وعاد الى ماضور برتبة محام ، وتولى مع والده بعض المسؤوليات البلدية . لكن جو القرية كان يخنقه ، فشد عصا الترحال من جديد وسافر الى الاسكندرية ماراً بقرطاجنة وطرابلس ، ولم يعد من هذه الرحلة الا بعد سنتين ، وبعد مغامرات زادت في اتساع علمه وعبقريته فكره .

وكان على الرغم من اقباله على متع الحياة يجد الوقت للكتابة والتأليف ، ومن كتبه المعروفة والمقروءة حتى اليوم كتابه الشهير الحمار الذهبي (L'Ane d'or) او المسوخ (Les Métamorphoses) ويصح ان تقول فيه التطورات ، وهو من اعجب الكتب في الادب اللاتيني اخرجته مولفه في احد عشر جزءاً صور فيه الحياة المغربية تصويراً دقيقاً كله الوان جذابة وحقائق لاذعة ، وكتاب (Les florides) وكتاب (L'Hermagoras)

و (L'Apologie) وله عدة رسائل في موضوعات شتى ، من فلسفة ، وتاريخ ،
وشعر ، وتقدير ، وحساب ، وطب ، ونجوم ، وما وراء الطبيعة ، وحتى
السحر الذي اشتهر به . وقد شبه بعض النقاد لسعة علمه بالكاتب الملك
النوميدي (يوبا الثاني) . وقد درس كل علم وفن ولم تكن مادة ما
فوق طاقة فكره . وقد كان هو يفخر بأنه كرم من كل معين ، وكان
لا يدين بدين ، بل كان كاهناً لكل دين . ولم تكن المسيحية في القرن
الثاني قد انتشرت في افريقية حتى يعتنقها كما اعتنقها بعد ذلك غيره من
الافريقيين ، رغم مزاحمة الملل والنحل الوثنية للعقيدة السماوية .

وقد بلغ أبولي اوج المجد فنصبت له التائيل في قرطاجنة وطرابلس
ومسقط رأسه ماضور « مدارش » ، الا ان الحلود الحقيقي ناله بكتبه وما
تركه من اثر عميق في ميدان الفكر والآداب ، وهو الكاتب الخطير الذي
حاول جميع الكتاب الافارقة بعده ان يبلغوا درجته وشأوه ومنهم
تورتوليان (Tertullien) والقديس اوغسطين الذي وجد فيه اول استاذ
له ، الا ان القديس اعتنق المسيحية بعد حرب عنيفة بينه وبين نفسه ،
وبعد ان محص جميع العقائد المعروفة في عهده ، وقد كتب القديس
اوغسطين مائتين وثلاثين سنة بعد أبولي ، كان يملك نفوذاً غير طبيعي
لاتساع معلوماته وكان الوثنيون يتخذونه نبياً ^(١) .

القديس اوغسطين

٣٥٤ - ٤٣٠ م

لقد ولد هذا القديس الجزائري العظيم يوم ١٣ نوفمبر سنة ٣٥٤ م
ببلدة « تاجيسته » سوق هراس على نحو مائة كيلومتراً جنوب مدينة بونة
- عنابة - من ام مسيحية وأب وثني لم يعتنق المسيحية الا في اواخر

(١) هنا الجزائر ٤٢ - ١٩٥٦ م .

عمره . نشأ « اوغسطين » وتعلم بمدينة مداورس شرقي عمالة قسنطينة ، وقد شب غير متقيد بالدين ولا بقيود العفة واخذ ينتقل في البلاد فدخل قرطاجنة وجال في مدن ايطاليا وهناك تعمق في الدرس فأحاطت به ظروف كان فيها مانويلا ينتقد العقائد ، ثم وقع تحت تأثير مذهب الشكاك ، وفي رومة تمكن من دراسة آراء شيشرون ، وتفهم المذهب الافلاطوني الجديد الذي قربته مراحل الى العقيدة المسيحية ولم يتأثر بها ، وتحول في مدينة ميلاني على كرسي تدريس البلاغة ، ثم انه كان يرى غيره يتأثر بالدين المسيحي فيخجل من نفسه لانه يتعلم ويدرس الفلسفة ويزعم انه يحقر الماديات . وفي ذات يوم دعاه ضميره وناداه وجدانه الى الايمان والتدين الصحيح فعاد من ايطاليا الى الجزائر سنة ٣٨٨ م واتخذ ببلده تأجيسة ديراً للتعبد والدرس ، ومنذ ذلك الحين عمت السكينة قلب اوغسطين فانزوى بديره يدرس ويتعبد على مذهب الارثوذكس - السلفين - وقد تخرج على يده عدد وافر من علماء اللاهوت واصبح ديره كعبة علم وفلسفة ودين ، واضمح القديس بتأليفه ودروسه وشهرته ومكانته من اعلام الفكر البشري ومن اكبر رجال الكنيسة . فعين على رأس اسقفية بونة سنة ٣٩١ م ويومئذ تصدى لقمع المخالفين والمناوئين لمذهبه الارثوذكسي فكتب عدة تأليف نفيسة تناهز المائتين مصنف كتبها كلها باللاتينية ، منها « اعترافاتي » (Mes confessions) حيث قص حياته بامانة ونزاهة فلم يخف حتى عيوبه وما وقع فيه من اخطاء الشباب ، وقد كتب هذا الاثر الثمين ما بين سنة ٣٩٧ و ٣٩٨ م بينما بدا كتابه الآخر « مدينة الاله » (La cité de Dieu) ذكر فيه مزبة وفضل الحياة الاخرى عن الحياة الدنيا ، وضعه سنة ٤١٣ م وفرغ منه سنة ٤٣٦ م . وكان يعد في زمانه اخطب خطباء عصره واكثرهم تأثيراً في مستمعيه قوياً في الحجاج والجدل والمناظرة ، فحارب بكل ما اوتيته من قوة بقله ولسانه جميع المذاهب التي من شأنها ان تغف حجر عثرة في تقدم الديانة المسيحية ، فكان يمثل القصة التي انتهت اليها الحياة الفكرية في افريقية المسيحية في اواخر القرن الرابع واورائل القرن الخامس الميلادي ، وبلغ من تأثيره في الاوساط

العلمية ان تسمى العصر الذي كان يعيش فيه القديس بالعصر الاوغسطيني كما اشتهرت تعاليمه بالمدرسة الاوغسطينية ، وضلت آثاره الخالدة المرجع الوحيد لتدريس في جامعات القرون الوسطى الى ما بعد النهضة ، وما من رجل فكر الا وكرع من منهله الفياض واستمد من معينه الصافي .

وليس القديس اوغسطين هو المبكري الوحيد الذي عرفته الجزائر او بالاحرى افريقية المسيحية في التاريخ القديم . بل عرفت قبله مفكرين وكتاباً عديدين مسيحيين وغير مسيحيين مثل أبولي (Apulée) وافرنتون (Afranton) وترتوليان (Tertullien) وسبربات (Cyprien) ودونا (Donat) وغيرهم ، نعم وبفضله اصبحت مدينة بونة كعبة طلاب العلم اللاهوتي فكانت من اهم المراكز العلمية والدينية بالجزائر فالتفت اليها الانظار ، وفيها انعقدت مجامع المطارنة الشهيرة التي كانت سنة ٣٩٣ و٣٩٥ و٤٢٦ م .

ولاوغسطين هذا موقف سيامي شريف يدل على تضحيته ووفائه لقومه ووطنه ، تلك هي مواقفه الشهيرة تجاه المعتدين من الفاندال على الوطن الجزائري فانه بمجرد ما بلغه سعي اعداء القائد الروماني العام (الكونت بونيفاس) به الى رومة سنة ٤٤٧ م وعزله من منصبه ، نهض القديس مدافعاً عنه امام الامبراطورة « بلاسدية » وعمل جهده على تحسين العلائق بين الطرفين فتأثرت الامبراطورة لكلام القديس وعدلت عن رأيها في عزل الكونت . وكان اوغسطين ايام حوادث الهجوم الفاندالي على الوطن يقاوم ويجارب بنفسه ، فقد دافع الفاندال عن وطنه دفاع الابطال ، فانه لما انكسر الكونت بونيفاس منهزماً الى بونة نهض القديس بأعباء المقاومة واخلص في دفاعه حتى النهاية وقد امكنته الفرص مراراً من الفرار بنفسه امام هجمة الفاندال الوحشية ولكنه ابى ... ووقف في صف المحاربين الاحرار مدة اربعة عشر شهراً صابراً لحوادث التدمير والتخريب الى ان ادركه حماه فمات مكافئاً شهيد الوطنية والعقيدة يوم ٢٩ اوط سنة ٤٣٠ م وبموته سقطت الجزائر بيد الفاندال ، فكان اوغسطين بحق احد زعماء الفكر بالجزائر ومن عباقرة الوطنيين الاحرار .

جَدُول تَارِيخِي

١٤٦ ق. م - ٤٣١ م

تأريخ الحوادث	أهم الأحداث بالجزائر على عهد الرومان
١٤٦ ق. م	استيلاء الرومان على إفريقيا - ولاية تونس .
١١٠	ثورة الملك بوغورطة عدو الرومان اللدود ودفاع الأحرار الجزائريين تحت لوائه .
٤٦	استعمار ولاية نوميديا : عمالة قسنطينة .
٢٤٤ - ٢٧٠ م	ثورة الرئيس « ارادبون » بالساحل الجزائري .
٢٩٧ م	سقوط ناحية جرجرة بيد الرومان وتوزيع السلطة بينهم .
٢٨٨ - ٢٩٧ م	اندفاع الثورات التحريرية في وجه الرومان .
٤٠٠ م	تأسيس مدينتي جميلة وتيمقادي على يد الجالية الرومانية وانتشار مذهب الدوناتية بالجزائر .
٤٣١ م	انهيار الجزائر الرومانية على يد الفاندال .

الدولة الفاندالبية

٤٣١ - ٥٣٤ م

اصل الفاندال

الفاندال شعب قديم من شعوب امة القوط الغربية التي سكنت شمال نهر الدانوب ، وموطنهم - في القرن الثالث قبل الميلاد - بشمال جيرمانيا ما بين وادي فيستول ونهر اوزير L'Oder et la Vistule على سواحل بحر البلطيق ؛ منحدرين من السلالة الصقلية - السلافية - ولقد امتد هذا الشعب وانتشر في جنوب المانيا ، ومنها تدفق على العالم الغربي - في القرن الخامس والسادس الميلادي - فاستولى حينئذ على ارض الغول la Gaulle - فرنسا - واتصل بجبال الشاينا - البيرينات - pyrénées ثم انحدر الى اسبانيا فاحتلها سنة ٤٠٩ م ونزل بجنوبها فسكن نواحي غرناطة وجيان وهناك اشتهر اسمه بها ونسبت اليه فصارت تدعى تلك الناحية «فاندولوسيا» ومنها جاء امم الاندلس بعد ذلك على عهد العرب الفاتحين .

ونظراً لحصوبة موقع بلاد الشمال الافريقي ويسر الحياة الاقتصادية به تسلط عليه هؤلاء الفاندال بمساعدة اهله فكانت تلك السرعة العجيبة منهم في الاستيلاء على هذا الوطن واسسوا به يومئذ دولتهم الملكية سنة ٤٣١ م ، ثم استولوا على البوقنصية - ولاية تونس - واحتلوا قرطاجنة سنة ٤٣٩ م .

نظامها الحكومي

هذه اول دولة ملكية وراثية تأسست بأرض افريقية توارث عرشها ستة ملوك من آل «جنسريق» ، وكانت اول عاصمة لهم بهذا الوطن مدينة بونة - عنابة - ٤٣١ م ثم انتقلوا الى مدينة صلاي - بجاية - الى ان فتحوا قرطاجنة سنة ٤٣٩ م فانقلوا اليها سنة ٤٥٥ م .

ونظراً لما كان عليه الفاندال من البعد عن مسيرة المدنية والحضارة فانهم تركوا ما كان من النظم الادارية بهذه البلاد على حاله من قبل ولم يحدثوا فيها اي تغيير سوى فرض سلطانهم على الاهالي واستبدادهم في توزيع اراضي الوطن الحصة على الخاصة من الاسرة المالكة وارباب الدولة ورؤسائها الممتازين . وما تركته الدولة يومئذ من التراب تحت تصرف اهله انما كان في مقابلة ضرائب واثاث باهضة ! .. وكان ما سنه المستعمرون بعد ذلك من قانون expropriation منتزع من هذا ؟ ! ... وذلك ما دعا الكثير من الرومان وحملهم على الهجرة الى بيزنطة .

نعم كان سمي الفاندال مع الاهالي اولاً سعيًا فيه نوع من اللين والسهولة فمخضوا لهم مبلغ الضرائب التي كانت عليهم ، ولكن ذلك فعلوه استمالة لقلوب القوم ليستعينوا بهم على اعدائهم الرومان ، وفعلًا نجحت سياستهم في ذلك وانقاد لهم رؤساء البربر ومدوا لهم يد المساعدة بقصد التشفي من اعدائهم الرومان الذين ارهقهم مدة قرون ! ... وتطلعًا منهم كذلك الى التحرر من نير الاستعمار ... فدخل الكثير منهم في نظام الجيش الفاندالي الذي كان يبلغ يومئذ نحو الثمانين فرقة بما فيها من جنود البحرية ، ولم يكن الجند الفاندالي ليحسن حرب المشاة والمقاتلة على الاقدام بل كان لا يرى في حروبه كلها الا فارساً مغواراً يحمل معه السيف والرمح وكان اغلب هذه الفرق موزعاً على حفظ الامن وحراسة البلاد . وقد عمل الفاندال على استمالة اليهود اليهم وتقريبهم منهم للاستعانة بهم في الاقتصادات استدراراً لخيرات البلاد . وكان للأسطول الفاندالي السيادة على غربي حوض هذا البحر الابيض المتوسط . ولهذا الدولة نفوذ مسكوكه مضروبة باسمها .

حدود الجزائر الفاندالية

كان لجورد استيلاء الفاندال على القطر الافريقي هذا ان شرعوا في تقسيمه الى ست مناطق مختلفة في الاعتبار والمساحة ؛ ثلاث منها هي بالملكة التونسية اليوم ، والمقاطعة الرابعة هي عبارة عن منطقة نوميديا - عمالة قسنطينة - والحامة عمل تبسة ، وهم هاتين الولايتين اقلية بالنسبة الى المقاطعات الاربع الاخرى ؛ والسادسة هي عبارة عن ارض المغرب الاقصى .

معتقد الفاندال

كانت الامة الفاندالية وثنية تعبد « دونار » الرعد ، و « تير » الحسام ، وتخضع للشمس والقمر وغيرهما من الاجرام العلوية ؛ وتضيف الى ذلك آلهة اخرى من معبودات الوثنية : ومنهم من تمسح على مذهب اريوس Arius الاسكندري وهو مذهب الحكومة ، ولم يلبث الفاندال ان اقبلوا فأنشؤوا يضطهدون الدوناتين وغيرهم من اهل المذاهب المسيحية الاخرى ووافقهم على ذلك اليهود ايضا . وذلك ما حمل وجال الكنيسة الاوثوذكسية على التضرع الى امبراطور بيزنطة في انشاء حملة على افريقية . ولم يشمل اضطهادهم الديني هذا اهالي الجزائر لقله من كان فيها على هذا المذهب ، والذي كان يجلس على كرسي اسقفية الجزائر القس فيكتور Victor الذي اشترك في مجمع قرطاجنة المنعقد بامر الملك هونريك Huneric الفاندالي سنة ٤٨٤ م .

البربر والفاندال

ان التآمل جيداً في موقف البربر وحركاتهم تجاه الفاندال يجدهم غير خاضعين تمام الخضوع لهذه السلطة القاسية التي تسلطت على بلادهم ، بل استبرأوا مستعصين بمراكزهم الجبلية الشاهقة ، عاملين على استقلالهم وانتظامهم بها ، وقد استعادوا بفضل خطتهم هذه ما انتزعتها السلطة الرومانية منهم ، وكل ما ظهر منهم من مساعدة الفاندال على احتلال البلاد انما كان وراءه حب الانتقام والتشفي من أعدائهم الرومان كما قلنا ، وهم في ذلك

يتأهبون دوماً للفرص ويتحفزون للوثوب نحو الاستقلال ، فكانت لهم هذه الظاهرة أول خطوة سياسية خطاها البربر في سبيل تحرير بلادهم ، ولو انهم في الظاهر استبدلوا استعماراً باستعمار ... وفعلاً لقد استرد البربر سلطتهم شيئاً فشيئاً حتى كاد ان يتحقق لديهم غرضهم المنشود لولا ان فاجأتهم القوات البيزنطية بمهاجمتها .

حوكة الجزائر التحورية

كان لوفاة الملك الفاندالي « جفسريق » سنة ٤٧٧ م اثر كبير في تغيير السياسة الفاندالية بهذه البلاد ، فقد ساء سلوك خلفائه من بعده ، ولم يحسنوا صنعاً في تدبير شؤون المملكة وتسيير نظام الجيش والجندي ، فظهر بذلك انحلال عظيم في الحكومة في حين ان العالم كان متجهاً نحو تاريخ جديد ، وحياة جديدة : ذلك هو عصر ابتداء تاريخ القرون الوسطى ؛ ففي نفس الوقت تحرك البربر منتهزين فرصة ضعف السلطة الفاندالية ونهضوا لاستعادة مجددم الضائع وأعلنوا الثورة على الفاندال سنة ٤٨٠ م واندلع لهيبها من جبل أوراس وجبل راشد غرباً الى طرابلس شرقاً ، وفي تلك الآونة حطم الفاندال مدينة الجزائر بعدما قضا على سكانها فأقنوم ، واستمرت الوقائع والمعارك ما بين مد وجزر الى سنة ٤٨٣ م فانتصر البربر على اعدائهم وتحورت نواحي مدينة تيمقادي وباغاية وتقيست - تبسة - وغيرها بغالب الوطن الجزائري ، وبقيت مدينة سيرته - قسنطينة - محافظة على سيادتها كما كانت من قبل ، اذ لم يقوَ الفاندال على فتحها ، وبذلك كان الاستعمار الفاندالي لم يشمل جميع البلاد ، وانما كان محله السواحل فقط .

الثقافة والحضارة والعمران

انني بكل امي لا استطيع ان اتحدث الى قاريء الكتاب بشيء جديد مما يتضمنه عنوان هذا الفصل ! ... وانني أصرح حضرة المطالع

بأنه لا يستفيد من مطالعة هذا الفصل أكثر مما وسعه عليه من قبل...
 إذ لم يظفر التاريخ في دراسة هذا العصر بما يسمى هنالك علماً أو
 أدباً أو فناً ، ولا لغة كذلك ولا أثراً معيارياً يصلح لأن يكون
 مادة للاستنتاجات والدراسة والبحث ، وإن كل ما فاز به التاريخ في
 هذا الميدان هو بعض قطع من نقود : فضة وبرونز مضروبة باسم ملوك
 هذه الدولة ، وعليها نقوش رمزية ؛ أو كلمات وألفاظ استخرجها علماء
 اللغات من لهجات القوم الذين مازجوا هذا العصر أو خالطوا أهله ،
 وهذا كما رأيت لا يسمن ولا يغني من جوع !... وما اشتهرت به
 هذه الدولة إلا أنها أمة تخريب وتخطيم وتحلل في الأخلاق وذلك ما
 جعل لاسمها معنى مرادفاً للهدم والنقض ، فقالوا Vandalisme . وانا
 اذا نظرنا الى بعض أقوال مؤرخي ذلك العصر من كتب عن مشاهدة
 وعيان أمثال المؤرخ البيزنطي المشهور « بروكوب » أصابنا ذهول عظيم .
 فان هذا لما نزل بافريقية سنة ٥٣٣ م صبة القائد البيزنطي الفاتح
 « بليزاريوس » بصفته كاتبه الخاص عجب بما وجدته بها من العمران
 ونشاط التجارة وتفاق الاسواق وخصوبة الفلاحة ؛ وانه بعدما غاب عنها
 ثم عاد اليها بعد عشرين سنة - من استقرار الروم بها - وجدها على
 خلاف ذلك !... فمن الصادق يا ترى ؟... ونرى التاريخ كذلك يحيط
 من قبة الفاندال تجاه التعليم أيضاً ، فيقول انهم كانوا يعدونه جريمة
 ينكل بصاحبها ؛ وهم يعلون ذلك بعفاء آثارهم وعو لغتهم إذ لم تكن
 لغتهم مستعملة إلا في التخاطب كلغة عامية لا تصلح للتعبير عن المعاني
 الدقيقة ؛ ولم يبقَ هنالك سوى اللغة اللاتينية وهي لغة الدولة الذاهبة .

وان عدد امة الفاندال بهذه الديار كان لا يتجاوز المائتي الف نسمة
 وانهم كانوا يضطرون الحوادث والوقائع التاريخية بعدد ايام ملوكهم .

وهكذا مر الفاندال ببلادنا بدون ان يكون لهم فيها اي اثر يذكر
 سوى ما وصمهم به التاريخ الذي كتبه عنهم اعداؤهم الرومان والبيزنطيون
 وعليه سار الباحثون الى اليوم .

انهيار الجزائر الفاندالية

من المعلوم بداهة ان امة مثل هذه منحطة في اخلاها ساقطة في نظرها العسكرية والمدنية لا تعمر كثيراً ؛ فلقد امضى الفاندال معظم حياتهم بافريقية منهمكين في انواع من العيث والفساد منغمسين في احضان الخلاعة وسوء السيرة ، معرضين عن حياة الجد والحزم غير مباليين بما تتطلبه سياسة الامم من العدالة والاستقامة ، ذلك ما كان باعثاً للاهالي على اثاره الحروب ضد هذه الادارة الفاشية ومقاومة هذه القوضى السائدة في الاخلاق وفي الحكم ، وفعلاً نشبت الثورات بين الراعي والرعية ، وكانت المقاومة الشعبية عنيفة فسقطت امامها الحكومة منهزمة واحرزت بعض النواحي من الجزائر على استقلالها مثل اوراس ؛ ويومئذ توحش القائد الفاندالي « جاليار » واستعمل في مواقفه الحربية جميع وسائل القهر والارهاب وتجراً على مقام ملكه « هلدريق »^(١) فزاله عن عرشه سنة ٥٣١ م وجلس هو مكانه ، ويومئذ استنجد هلدريق بقيصر الروم في بيزنطة « يوستيانوس » ، فصادف ذلك هوى من نفس القيصر حيث انفتحت له طريق الانتقام من سلبوا بملكة دولة الرومان الغربية بافريقية ؛ واخذت الدسائس تحوم حول دولة الفاندال المحتضرة ودبرت في ذلك خطط املتها عليهم دواعي الاقتصاص والنار من الفاندال وملكهم الجديد جاليار وبلغوا بدهائم السياسي ان شغلوا الدولة عن نفسها باثارة العصية المذهبية والخلافات الدينية حتى فوجئت بالاسطول البيزنطي في خمائة قطعة حربية تحمل ١٥٠٠٠ نسمة ، وم على ثلاثة اصناف ، نصفهم مشاة ، وخمسة آلاف فارس ، والباقي بحارة ، ولباسهم يومئذ درع سابغ على الصدر يبلغ الساقين وخوذة على الرأس ، وسلاحهم السيف والرمح والسهام .

تحركت هذه الحملة البيزنطية العتيدة من بيزنطة - القسطنطينية - يوم ٢٢ جوان ٥٣٣ م اي قبل الهجرة بـ ٨٩ سنة ؛ ودولة الفاندال يومئذ

(١) وعلى عمده كان ابتداء اطلاق اسم « الموروس » على السكان الاصليين لشمال غرب افريقية وم المروفون اليوم باسم الموريطانيين .

مشتغلة بغزوة بحرية حيث كان اسطولها محاصراً لجزيرة سردانيا ، فأرست هذه الحملة مياه صقلية ، ثم انتقلت الى مرمى قابس ، واتفق ان كان اهل صقلية وقابس ثائرين على الفاندال ، فكانت فرصة سانحة للروم البيزنطيين على مواصلة الغزو ، وليس للفاندال يومئذ ما يضمن لهم الانتصار بسبب ان قوتهم الحربية مشتتة في البلاد والاكثرية منها في الغزو مع تعذر تجنيد الاهالي لعدم اتصالهم بهم وانحلال الروابط بينهم وحلول العداوة والبغضاء مكانها ، فكانت هذه الظروف كلها مساعدة للغزو البيزنطي على استمراره في الفتح ، وقد جاء ذلك مصرحاً به على لسان قائد الحملة البيزنطية « بليزاريوس » فقال : لست اعتد بعدد جندي ولا بشجاعتهم اكثر من اعتدادي بحب الاهلين وعظفهم علينا وكرههم للفاندال .

واحتدمت الحرب بين الفريقين بنواحي تونس فانتصر البيزنطيون على الفاندال ، واحتل القائد بليزاريوس عاصمة قرطاجنة في شهر اوط من نفس السنة ، وفر منها جالبار ملتجئاً الى جبل « تاويرت » من جبال زواوة وبقي هنالك معتمداً بالشعاف والشواحق الى ان احاط به الروم وضربوا عليه الحصار مدة ثلاثة اشهر ، ثم كانت المعركة الاخيرة بينهم يوم ١٣ سبتمبر بقرية « اريانة » - تونس - انكسر فيها الفاندال شر انكسار ، وقد حاول جالبار الفرار امام العدو للمرة الثانية ذاهباً الى « فاندالوسيا » فلم يفلح بل وقع اسيراً في قبضة الروم ، فحملوه الى بيزنطة واتوا بعده عملية الفتح بتطهير التراب الافريقي من كل اثر فاندالي ؛ فخلص الوطن يومئذ - ديسمبر ٥٣٤ م - للروم البيزنطيين ، وكان بذلك القضاء النهائي على دولة الفاندال في العالم ، وذلك بعدما عاشت ١٠٣ سنة بهذا الوطن الافريقي .

ملوك الفاندال بافريقية

جنسريق	٤٢٩ - ٤٧٧ م
هوندريق	٤٧٧ - ٤٨٤ م
غونداموند	٤٨٤ - ٤٩٦ م
ثراسيموند	٤٩٦ - ٥٢٣ م
هيلدريق	٥٢٣ - ٥٣١ م
جالمار	٥٣١ - ٥٣٤ م

جَدْوَل تَارِيخِي

٤٣١ - ٥٣٤ م

تَارِيخُ الْحَوَادِثِ	أُمُّ الْأَحْدَاثِ بِالْجَزَائِرِ عَلَى عَهْدِ الْفَانْدَالِ
٤٣١ م	انتصاب دولة الفاندال بالجزائر .
٤٣٥ م	انعقاد الصلح بين الفاندال والروم .
٤٣٩ م	الاستيلاء على قرطاجنة .
٤٧٧ م	وفاة الملك الفاندالي « جنسريق » وتغير السياسة بوفاته .
٤٨٠ م	نشوب ثورات البربر ضد المحتلين .
٤٨٣ م	انتصار البربر وتحرير بعض النواحي الجزائرية .
٥٣١ م	سقوط الملك « هلدريق » وانتصاب « جاليار » مكانه .
٥٣٣ م	غزوة الاسطول البيزنطي لأفريقية .
٥٣٤ م	انهيار مملكة الفاندال وسقوط دولتهم .

الدولة البيزنطية

٥٣٤ - ٦٤٧ م

لقد بلغ من اتساع رقعة مملكة رومة بما فتحت من البلاد في الشرق وفي الغرب وانتشار سلطانها مبتأى بعيد عنها كان ان فكر الامبراطور «دقلتيانوس» - ٢٩٦ م - في توزيع سلطنته على مركزين : احدهما حيث هو بالغرب ، والثاني بالشرق ليكون له معقلاً حصيناً هناك ، وجعل مقر ذلك مدينة «نيقوميدي» - ازمير - بالاناضول - فكانت هذه يومئذ عاصمة الرومان الشرقية ، وكانت مدينة ميلانو بالغرب هي عاصمة المملكة بقسميها ، واستقر الامر على ذلك الى عهد الامبراطور (قسطنطين) الكبير ، فانه ادرك ذهاب هبة رومة وضعف نفوذها بسبب ما لحقها اخيراً من الفوضى والاضطرابات في كلتا السلطتين المدنية والعسكرية ، وتحقق لديه بانها لا تصلح الآن مقر الرئاسة الامبراطورية العظيمة المترامية الاطراف ، فعول حينئذ مقر حكومته الى المشرق سنة ٣٣٠ م واتخذ عاصمته هنالك مدينة (بيزنطة) ^(١) وجدها ونسبها اليه - القسطنطينية - وهيا لها كل مقومات العوام الرومانية حتى لقد نقل اليها عددًا من سكان رومة واعضاء مجلس الشيوخ فنشأ عن ذلك للمملكة الرومانية يومئذ عاصمتان شرقية وغربية ،

(١) نسبة الى مؤسسها الاول «بيزانس» رئيس الماغرين ١٢٠٠ ق.م. وقبل بنيت سنة ٦٥٨ ق.م. وعلى اهاضها بنى قسطنطين الاول عاصمته .

والى الشرقية (بيزنطة) تنسب هذه الدولة التي نؤرخ استيلاءها على الجزائر .

وفي سنة ٣٩٥ ، توفي الامبراطور (طيودوس) وكان قد اوصى بتقسيم المملكة بين ولديه ؛ فجعل المملكة الشرقية لولده (اركاديوس) وعاصمتها بيزنطة ؛ والغربية لاختيه (اونوريوس) فنفذت الوصية على ما هي عليه ، وبذلك اصبح ملك الرومان منقسماً الى دولتين كل واحدة منهما مستقلة عن اختها ، وقد قدر لمملكة بيزنطة ان تراث عرش رومة الى الفتح التركي العثماني (٢٠ جمادى الاولى سنة ٨٥٧ هـ - ٢٩ مايو ١٤٥٣ م) واضحت هذه عاصمة الخلافة الاسلامية الى حين .

ولما كان اهل هذه المملكة الشرقية الحديثة مزيجاً من الرومان واللاتين واليونان وهم الافرنج ، تسبوا فيما اصطلح عليه المؤرخون العرب باسم (الروم) تقليباً لجنسية الامبراطور وتمييزاً لهم عن دولة الرومان الغربية ، فهم الروم البيزنطيون .

نظامها الحكومي

لم تكد بشائر الفتح البيزنطي ترد على الامبراطور « جستنيان » حتى اسرع الى جعل افريقية ولاية من ولايات الدولة الكبرى ، واقام على حكومتها عاملاً مدنياً لا عسكرياً كما كانت على عهد الرومان من قبل ، فكانت بذلك افريقية مثل بيزنطة يحكمها مدير او عامل يتمتع بنفوذ واسع ، ومقره مدينة قرطاجنة البالغة من الحضارة والعمران مبلغ مدينة القسطنطينية يومئذ ، ولم يتحول هذا النظام الا في سنة ٥٨٧ م حيث استطاع « جناريوس » اخاد ثورة البربر فكان هذا اول حاكم عام عسكري لقب بالطريق ؛ وكان يبلغ مرتب الحاكم العام سنوياً الى ما ينيف على ١١٠.٠٠٠ فرنكاً تقريباً ؛ وعنده تجتمع جميع السلط على اختلافا ووراءه جيش من الموظفين منتشر على كامل البلاد والعواصم والقرى واكثره مختص بالتحصيل وجمع المال حيث ان الحكومة البيزنطية تركز في سياستها على نهب المال ، وقد كان مبلغ ما تنفقه السلطة على هؤلاء الموظفين ٧٣٧ ٢٩٩ ١٠ ،

من الفرنكات (بتقدير ما قبل الحرب العالمية الاولى) وهذا غير ما يرسل الى الامبراطور نفسه من الاموال وما يجمع من القمح وما يدفع جمالات لرؤساء البور ، ثم ما يتبع ذلك من نفقات الدولة ... وللحكومة جند متمزج من الاهالي والبيزنطيين وفيهم الماجور وكلهم تحت تصرف رئاسة القائد العام المدعو : اكسارك .

حدود الجزائر البيزنطي

لا تتجاوز مملكة البيزنطيين بافريقية عن ان تكون جزءاً صغيراً يبدأ من حدود مصر الى جبل اوراس ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسبتة ، اما في الجنوب فانه لا يتعدى نصف امتداد افريقية الرومانية .

وكانت البلاد منقسمة الى سبعة اقسام ادارية ، ثلاثة منها بالقطر الجزائري :
(١) نوميديا وقاعدتها قسنطينة .

(٢) القيصرية الشرقية ، او موريطانيا السطيفية ومركزها مدينة سطيف .

(٣) القيصرية الغربية او موريطانيا القيصرية ومركزها قيصرية : شرشال ويحكم هذه الاقسام عمال ، ثم تليها اربعة مناطق تشمل على بقية مملكة القطرين الشقيقتين : تونس والمغرب الاقصى ، على ان نفوذ البيزنطيين بالمغرب كان ضئيلاً هنالك لا يتعدى المنطقة الشمالية منه وقاعدتهم فيه مدينة سبتة .

وفي ايام الامبراطور « موريس » (٥٨٢ - ٦٠٢ م) ضمت موريطانيا السطيفية الى ما بقي من موريطانيا القيصرية ، فتكونت منها معاً ولاية واحدة ، كما حدث تغيير آخر في بقية املاك البيزنطيين ...

استيلاء الروم على الجزائر

تقدم وصف حملة البيزنطيين على حكومة الفاندال بافريقية ، وكيف كان استيلاؤهم على ولاية تونس اولاً (صيف سنة ٥٣٣ م) ولما رسخت

قدمهم بها تقدموا في الفتح غرباً الى ولاية الجزائر ؛ ففتحوا هبونة ؛
عنابة ؛ وسيرتا او قرطة : قسنطينة سنة ٥٣٩ م وقالة وناحية الحضنة
ونواحي سطيف واوراس وزاوي : المسيلة ، وبلغوا الى قيسرية : شرشال
وقرطنة : تنس وجيجل وبجاية وما اتصل بهذه البلاد من السواحل
الجزائرية ، وهناك ابنتى الروم سلسلة من الاستحكامات والحصون والرباطات
التي تقصل القسم الساحلي الذي يظهر فيه الحكم البيزنطي واضعاً جلياً عن
القسم الداخلي الذي باعدت السياسة الرومية البيزنطية بينه وبينها ؛ فكان
اقصى ما بلغ اتساع هذه الحدود التحصينية : سهل مجردة وهضبة الاوراس ؛
ووقفت حدوده الجنوبية عند تبسة ومسكولا : خنشلة وتيمقادي ،
وليس ، وطبنة ، والمسيلة ، اما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة
للساحل لا تكاد تتعدى ارباض المواني من امثال تيفش : قيبازا ،
وقيصرية : شرشال ، وتنس ، ووهران .

الحياة الاجتماعية

رحم الله من قال : ان السياسة لا وجه لها ؛ ... ذلك ان الروم
لما نزلوا اول مرة بأرض افريقية استعملوا انواعاً واساليب من الدهاء
الديبلوماسي في استرضاء الاهالي فلم تلبت سياستهم هذه ان كسبت ود
هؤلاء البيزنطة فاستفادت ما ارادته منهم من طاعة وجنود ، وذلك لثقة
البربر بالروم ظناً منهم ان خلاصهم من فوضى الغاندال يكون على ايدي
هؤلاء البيزنطيين ، وما انفك الاهالي في غمرتهم هذه لاهين حتى فاجأهم
« انديجيتة سوداء » من بيزنطة بما لا يتفق وطبيعة البلاد ، فكانت هذه
قوانين جور فاصلة بين الحاكم والمحكوم لا وجه فيها للاتصال بين
الشعبيين ؛ فكان طبيعياً وجديراً ان تضع الامة هذه الانتقال عنها وتبتعد
عن الحكومة التي لم تحسن وضع نظام ينسجم مع طبيعة البلاد ، ويومئذ
تسارع الروم اليهم يعاملونهم معاملة العبيد ويرغفونهم على الطاعة ، وكأنهم
بذلك اوروا نار الفتنة واذكوا لهيب الشعثاء في قلوب الرعية ، فبدأ
النزاع الذي اصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يخمد اوارها بين الروم

واهل البلاد ، واستعمل الروم يومئذ الشدة والعنف في معاملة الرعية والقوا بينهم العداوة والبغضاء بقصد التفرقة ، وارهقوهم بالضرائب والاتاوات الفادحة وحلومهم في ذلك مشاق عظيمة بما جعل الناس يومئذ يعلنون كراهيتهم وحقدهم على الحكومة باعلان الثورة والعصيان في وجه الحكام وفيهم من هاجر وترك موطنه وبلاده ، ومنهم - من شدة الفقر والحاجة - من اضطر الى اللصوصية وقطع الطرق . وقد أجمع المؤرخون على ان سياسة البيزنطيين بافريقية كانت سياسة شعواء خرقاء !... فهي لا تبعد كثيراً عن سياسة الفاندال ان لم تكن من متماتها . ولقد كان لهذه المعاملة العنيفة أثر بعيد في مستقبل الحكم البيزنطي بهذه البلاد .

الحالة الدينية

لقد جرى مجرى الامثال السائرة عند جميع الامم قولهم في تشبيه النزاع والخلاف الفارغ معها كان نوعه بمنازعات بيزنطة الدينية ، نعم هو كذلك !... فما جر بيزنطة الى حثتها الا هذه الخلافات والمناقشات الدينية الفارغة ، فقد كان بما عملت عليه هنا بافريقية - كما فعلته ببقية امبراطوريتها أيضاً بالشرق - ان سعت في اذكاء الخلاف الديني واثارة النقاش بين الناس في ذلك وبعث التعصب المذهبي من مرقدته ، وذلك يوم ان اعلن الامبراطور جستينيان وجوب اعتناق المذهب الكاثوليكي والغاء غيره - ٥٣٥ م - وكان الجزائريون يومئذ على المذهب الارثوذكسي - السلفي - والمسيحية يومئذ بالجزائر منتشرة كثيراً بنواحي نومديا وبجبهات وادي شلف وتلمسان والاوراس وفي الزاب ، وأخذت هذه الجهات يومئذ تهتز وتضطرب لهذه المناقشات والمباحثات الدينية واتسعت شقة الخلاف بين سائر الاوساط وكان هنالك الجدل العنيف بين الطوائف المسيحية وأرباب المذاهب ، وما برحوا كذلك ان فاجأهم صدور قانون من هرقل الاول سنة ٦٣١ م يعلن فيه بتعاليم جديدة ينبغي اتخاذها كمذهب آخر جديد ، فقابلته الرعية بالرفض ، وهنالك من حمله ذلك على اتخاذ الوثنية ديناً وحدثت يومئذ انقسامات دينية واختلاف كبير بين

الكنيسة الشرقية والغربية وأخذت الحكومة في اضطهاد المخالفين لها وخاصة اليهود انتقاماً منهم حيث أعانوا الفاندال على مقاومة مذهب الروم فيما سبق ، وكثير يومئذ الحلاف والمشاغبات الدينية بما عرف في التاريخ باسم المناقشات البيزنطية .

وكان لهذه المناقشات والانتقاسات الدينية تأثير شديد في سياسة الدولة لاختلاط السياسة عندهم حتى آل ذلك أحياناً الى خروج امم بأسرها من حوزة الروم الى غيرهم كما حصل للارمن ، فانهم لما حرم مجمع القسطنطينية بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح كما هو مذهب اليعاقبة - ومنهم الارمن - وقرر القول بطبيعتين ومشيئتين وجعل الامبراطور يشدد التكر على مخالفين قرار المجمع فأقضى الحال بالارمن الى تسليم بلادهم الى الفرس ، وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له على فتحه للسبب نفسه^(١) .

نعم ، وان دل هذا الجدل والنقاش الديني المتصل الذي سبب الانقسام في الكنائس الشرقية على شيء فانه دل على نعمة كانت خفية ، وتلك هي : ذلك الاندفاع وتوقان النفوس الذي كان ولا يزال يحمل الناس على دراسة الفلاسفة الاغريق دراسة متواصلة وبخاصة (ارسطو) الذي اتخذ منطقاً اساساً للجدل الديني .

ثورات البربر التحويرية

كان بعد سفر الحاكم البيزنطي (بيليسير) الى بيزنطة اضطراب عظيم في القطر الافريقي كله ، وخاصة منه بالجزائر ، فقد ساء سلوك الولاة والممال فيها بعد سفر الحاكم المذكور ، وانتشر الظلم والطغيان من الحكام الذين خلفوا بيليسير على رأس الادارة الافريقية وتقتنوا في تنويع العذاب المنصب على الاهالي وغيرهم من سكان هذه البلاد ، وهم في ذلك

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٥٥ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

ينسترون بالدفاع عن العقيدة والدين ، ويا ما أكثر المفرضين في كل زمان - الذين اتخذوا هذه المظاهر الدينية لاشباع نهمهم والتوصل الى غايتهم التي لا تعدو ان تكون اناية محضة أو آراء وخصومات لقصد سياسي تافه هو بعيد كل البعد عن التدين والعقيدة ! ...

ويومئذ انفجرت الثورة العامة من ملوك البربر المستقلين المنششرين في انحاء الجزائر وغيرها من شمال افريقية . وكانت هنالك حروب ووقائع متسلسلة اضطرت القوات البيزنطية الى التسليم والخضوع للالهين ونحورت يومئذ مراكز كثيرة من القطر الجزائري كانت تحت نفوذ الروم ، وكان من أبرز الشخصيات الجزائرية التي قاومت الاستعمار البيزنطي يومئذ الزعيم (يابداس) رئيس قبائل جبل أوراس ، بمساعدة الرئيس « كوتسينا وأورتاباس » وقد اجتمع حولهم يومئذ أربعون ألف مقاتل وسار الكل تحت زعامة يابداس ففوزوا نوميديا ونهبوا وسلبوا وأحرقوا البلاد وخربوها ... وفيها كان خراب مدينة تيمقادي ، ويومئذ انهزم البيزنطيون والتجأوا الى انشاء خط ثان من الحصون المتناسكة المتصلة اتقاء هجمات البربر على قلاعهم وحصونهم الداخلية ، وكان من أهمها حصون قسنطينة وقالة ، وكان اعتماد الروم في اقامة هذه الحصون والقلاع على ما كان قائماً من قبل من المنشآت الرومانية كالحمامات والملاعب والمعابد . ولقد أوجز المؤرخ جوليان في وصف هذا النظام الدفاعي بقوله : انشأ البيزنطيون سلسلتين من الحصون ، اما الاولى فسلسلة من الاستحكامات تربط المحارس بعضها ببعض ، وخلفها سلسلة من المدائن الحصينة التي كانت تستعمل دائماً ملاجئ للناس .

ورغم ذلك كله فالبربر دائماً ساثرون في خطتهم هذه الى الامام فما وهنوا ولا استكانوا بل ما زادهم ذلك الا تحمساً في مقاومة الطغيان البيزنطي ، فاغاروا على الروم في جميع الجهات وتقدموا منتصرين الى ابواب قرطاجنة فضربوا عليها الحصار سنة ٥٩٧ م ثم كانت هدنة ، وما برح القوم واتقن بهدنة الروم حتى فوجئوا بغزاة تشتمل على نواحي

هضبة اوراس كلها ؛ وقتل يومئذ الزعيم يابداس (٥٤٠ م) واحتل الروم معقله (اوراسيوس) على ارتفاع ١٥٠٠ متراً واحتلوا كذلك المسيلة واخضعوا معها الزاب .

فخضع يومئذ الجزائريون الى قوات الروم المهاجمة ربنا استعدوا من جديد للقضاء على خصمهم ؛ واشتد يومئذ الخلاف وزادت الشحنة بين الفريقين وبلغ الروم في ثورهم واعاد الالهالي ثورتهم فعظم الميجان في الوطن واصبحت البلاد تخرج في بحر من الفوضى وعدم النظام ، وهكذا الى الفتح العربي الاسلامي .

الثقافة والحضارة والعمران

لم نبشأ التاريخ بذكر حالة البلاد الادبية والثقافية في العهد البيزنطي هذا ، اما فن المعمار فانه لم يكن لهم بالجزائر يومئذ سوى تشييد بعض الكنائس واقامة الاسوار حول المدن كأسوار قرطنة : تنس ، وقبصرية : شرسال ، وسطيف ، وميلة ، وتغادي ، وقصر الصبيحي ، وقالة ، ومداوروش وتبسة ؛ ويقول المؤرخ غزال عن آثار البيزنطيين بالجزائر : وآثار هؤلاء باقية بنومديا ما عدا التحاصن فانها تدل على بؤس شديد . وقال ميرسي : كان المؤرخ بروكوب - البيزنطي - لما نزل افريقية مع بيليسير - الفاتح البيزنطي - دهش من عمرانها ونشاط تجارتها ونفاق اسواقها وسعادة فلاحتها ، ولكن بعد عشرين سنة لم يبق شيء من ذلك وعم الحراب جميع افريقية ، ويقال ان الحرب وحكومة يستينان حملتا افريقية خسارة خمسة ملايين من الانفس ! ... ورغم ذلك ، فانه لا مانع من ان يكون هنالك بقايا معمارية خاصة بالفن البيزنطي الجليل الذي يمتاز به عصر الروم بافريقية عن بقية العصور الاخرى ، ونحن نشاهد اثره فيما اتخذوه المسلمون بعد ذلك من النقوش المزخرفة من نوع القاشاني الملون بالتصاوير المرسومة الدالة على براعة الصنائع الافريقيين من روم او بربر ، وقد بلغ تأثر العرب بهذا الفن الجليل ان جعلوه في مساجدهم ومعابدهم الخ ... ويذكر لنا ابن فضل الله العمري مدينة

شرشال فيصفها بقوله : انها مدينة تريد على الوصف في اتساع الافنية ، وارتفاع الابنية ، وعظم القناطر المرفوعة ، والاقية المعقودة ، والقواعد المشيدة ، والجدر السمكة ، مما يشهد له جوال الارض وسفار الافاق وسمار الحديث بانه لا شبيه له في تحسين بنائها وتحصين صناعتها^(١) ولا شك في ان آثار مدينة شرشال هي من بقايا ما شادته دولة الرومان الدائرة ، وما حظ الروم منها الا حظ المحافظ عليها من الضياع والحامي لحماها .

ولرب قائل او متسائل يقول لنا : لماذا لا نرى للامة العربية التي فتحت هذه البلاد والدول الاسلامية التي توالى عليها ما نراه لغيرها من الآثار المعارية الضخمة والبنابات الضخمة والهياكل العظيمة التي تركها الرومان والبيزنطيون بهذه البلاد وغيرها مما فتحوه او استولوا عليه في سالف العصور ؟ ... فتحن نجييه بكلمة موجزة كان قد اجاب بها مصطفى الشهابي عن مثل هذا السؤال فقال : « ان السخرة التي كان يعرف بها الرومان وامثالهم من كبار الدول والامم السابقة هي بمنوعة عند اجدادنا العرب ، ولذلك لم يبنوا امثال ما يستهينوا من هذه المعابد والهياكل الضخمة التي شيدتها امم اخرى فاهلكت في بنائها الآفا مؤلفة من البشر »^(٢) .

اما ثراء البلاد ونشاطها الاقتصادي فان مؤرخي شمال افريقية كادوا ان يتفقوا باجماع على ان العرب وجدوا البلاد ساعة دخولهم كثيرة الزرع وافرة الثمرات ؛ ويؤكد « ديل » ان في السهول الواسعة المهجورة التي تمتد جنوبي هضبة الاوراس وفي الاقليم الجبلي الذي يتوسط سهل تونس ، في كل هذه النواحي يجد الانسان في كل خطوة آثار مدن كبيرة او صغيرة وقرى آهلة واراضي مزروعة على امتداد عظيم .

وانني لا اوى في ذلك تنافراً او تناقضاً فيما قرناه من حالة البلاد

(١) مسالك الابصار ج ١ ص ٢٤٤ ط القاهرة ١٣٣٢ هـ - ١٩٢٤ م .

(٢) محاضرات في الاستعمار ص ٣٨ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

الشعبة البنيية طيلة عهد الروم . فان ذلك يعود الى اعتبار اختلاف الاوساط وطبقات الناس ؛ فالوسط المعمر هو دائماً وابدأ يستمتع بغلال البلاد وما فيها من مرافق ثقافية او معمارية او اقتصادية او غيرها ، والمستعمرون هم الاهلون وهم دائماً كذلك في ضنك وضيق وجهل مطبق وفقر مدقع ؛ فالجزائر مثلاً اليوم ، من يراها عند المعمرين يراها جنة عدن عليّة ، ومن ينظر الى اهلهل يراهم في جعيم وسعير ، وكذلك حال افريقية على عهد البيزنطيين ، ومنهاج الاستعمار دائماً هو واحد . وبالجملة فان كلا من الفينيقيين والقرطاجانيين واليونان انشأ مستعمرات في هذه البلاد الا ان ذلك لم يؤثر من سكانها اجمعين .

انهيار الجزائر البيزنطية

كلما تدبر الانسان في الاسباب والنتائج التي ادت بالجزائر بل بافريقية البيزنطية الى السقوط والانهيار الا ووجدها ترجع الى سوء الادارة ونظام الحكم الجائر ، وعدم حسن السياسة مع الاهالي باحتقارهم ومعاملتهم معاملة العبيد ، وكثرة الحروب والثورات والفتن والاهوال الناشئة عن ذلك مع التعصبات المذهبية والحصام الديني ، وضعف السلطة الرومية بابتعادها عن الجزائر مع بعد مركز الحكومة العليا عن افريقية ، ومشاغبة الجند الذي لم يكن يتصل بجرايته ، واشتغال الابطارة بانفسهم في قصف ولهو مع ما كانوا في حاجة اليه من الاستعداد لحرب الفرس ، وتدخل قساوسة رومة يومئذ في الحكم وتسلمهم على الحكماء وغير ذلك مما دعا الى ضعف سلطان بيزنطة في هذه البلاد شيئاً فشيئاً ، فأخذت الحكومة تنسحب من الشمال حتى لم يبق من املاكها آخر الامر الا ساحل ضيق ، واحتل البوبر ما خلا ذلك من البلاد والحصون ، ويومئذ افترقت الكلمة وظهر الانحلال التام في الادارة والاخلاق وضعفت الحكومة عن القيادة بفقر مهمم القادة وقلة خبرتهم واغترار بعضهم بنفسه كما وقع للطريق جريجوريوس الثاني ، او « جرجير » كما يسميه العرب ، فانه عمل على انفصال افريقية عن بيزنطة بقطع العلائق بينه وبين الامبراطورية الشرقية وتحصن بعاصمته « سيطة »

بالجنوب الغربي من ولاية تونس واعلن ثورته على الحاكم العسكري الذي كان يشاركه في الحكم (٦٠٧ م) وحينئذ اندلع لهيب نار الخلاف والفوضى واشتعلت الثورات في انحاء المغرب الثلاث واستمر الحال على هذا الى ان اذن نور الاسلام بالشروق فسطع نوره بالشرق ونهدت السبل للعرب الفاتحين ففتحوا افريقية سنة ٢٧ هـ - ٦٤٧ م - وقضوا على تلك الاضطرابات كلها وقتل جرجير في حديث طويل ساعدك عنه في محله قريباً ، وبموته انقرضت دولة البيزنطيين من افريقية بعدما قضت بها ١١٣ سنة .

ولاية الجزائر وزعمائها

لم يشتهر - فيما نعلم - من ولاية الجزائر وزعمائها في هذا العصر الا كولومبوس اسقف نوميدية ، الذي كان له اثر فعال في انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية ، والرئيسان : كوتسينا واوتياس المساعدان للزعيم بابداس في حروبه وثورته على الروم بهضبة اوراس « وماسوناس » الذي كان سلطانه يشمل كل منطقة وهران ، وامتد نفوذه الى الاوراس و « كسيلة » الاوربي الذي ساعدك عنه فيما يأتي ، و « الكاهنة » الشهيرة التي كان لها من الاثر في مقاومة العرب الفاتحين ما ستقف عليه بنفسك .



مشاهير ملوك الوطن الجزائري .

المملكة

شط الحضة	اورثينة
موريطانيا	مصيناس ^(١)
قبائل الولايات الداخلية	انطالاس
موريطانيا بأقسامها	ماسونا ماستيجاس
شرقي اوراس	قرطيناس ^(٢)
غربي اوراس	ارثياس
اوراس	ايدباس
اوراس	يداس
اوراس	ايمبدة ^(٣)
اوراس	افسدياس

(١) يلقب بملك القبائل الموريطانية والرومان وهذا ما يدلنا على امكانية التمايش بين المنصرين .

(٢) قتله الروم غدرآ سنة ٥٦٣ م .

(٣) اعظم ملوك الجزائر .

أباطرة الدولة البيزنطية

تاريخ الولاية

٥٢٧ - ٥٦٦ م	جستينان
٥٦٦ - ٥٧٨	جستين الثاني
٥٧٨ - ٥٨٢	تيبريوس الثاني
٥٨٢ - ٦٠٢	موريس
٦٠٢ - ٦١٠	فوكاس
٦١٠ - ٦٤١	هرقل الاول
٦٤١	هرقل الثاني
٦٤١	هرقل الصغير (هرقلوناس)
٦٤١ - ٦٦٨	قسطنط الثاني

مَنْ مَشاھیر الجزائر

بیداس

هو أشهر ملوك الجزائر وزعمائها المستقلين يجبل اوراس ، قاوم الاستعمار
البيزنطي بكل جهوده وأذاقهم بأسه وبلغ من الدهاء والياسة ان وحد
كلمة البربر وجمع شملهم وخاض بهم المعارك ضد الروم . ولقد احبط به
ووقع في الحصر مراراً ولكنه نجا وتخلص من العدو في كثير من الوقائع .

جدول تاريخي

٥٣٤ - ٦٤٧ م

تاريخ الحوادث	أهم الاحداث بالجزائر على عهد البيزنطيين
٥٣٥ م	الاستيلاء البيزنطي على افريقية ونجم اعتناق المذهب الكاثوليكي .
٥٣٩ م	الاستيلاء على ولاية الجزائر .
٥٤٠ م	سقوط الزعيم الجزائري « يابباس » في ميدان الدفاع الوطني .
٥٦٣ م	اغتيال الروم غدرآ زعيم شرق الاوراس « قزطيناس » .
٥٩٧ م	حصار الاهالي لقرطاجنة - البيزنطية .
٦٠٨ م	انفصال « جرجير » عن بيزنطية وتحصنه بمدينة « سيطة » .
٦٣١ م	تعاليم هرقل الدينية الجديدة .
٦٤٣ م	فتح العرب المسلمين لافريقية - ٢٢ هجرية .

أبجذائر العربیة المسلمة

الأمّة العربيّة

العرب جيل من الناس يسكن الجزيرة او شبه الجزيرة الواقعة بالجنوب الغربي من قارة آسيا ، تحدها شمالاً فلسطين وبلاد الشام ، وجنوباً البحر المحيط الهندي وخليج عدن ، وشرقاً الحيرة والخليج الفارسي ، وغرباً بحر القلزم - البحر الاحمر ؛ وهم من اقدم الامم وجوداً واعرقها اصولاً واكثرها في ادوار التاريخ ذكراً ؛ فهم امة سامية سكنت في اول امرها ارض العربات او العربية ، في نهاية - غرب الجزيرة - انحدرت اليها من وادي الفرات او ما بين النهرين ...
واليها نسبت وبها عرفت (١) ، ثم تفرقت هذه الامة في الجزيرة وتفرعت الى ثلاث طبقات وهي : العرب البائدة ، والعاربة ، والمستعربة ، فالبائدة بادت واندثرت وهم قوم عاد وثمود وطسم وجديس والمالقة ومن جاورهم من سكان الاحقاف ، والطبقة الثانية هم بنو قحطان في اليمن ، واشتهرت منهم دولتان : سبأ وحير ؛ والطبقة الثالثة هم العدنانيون بنو اسماعيل نشأوا بمكة والحجاز ثم انتشروا ببادية الجزيرة .

ولغتهم هي من اغنى اللغات واغزرها مادة والفاظاً واوسعها تعبيراً

(١) لقد ذهب العلماء في اصل اشتقاق كلمة « العرب » مذاهب شتى ، والذي رجحه المتأخرون منهم انها مشتقة من كلمة (اورى) الثمرية ، ومنها سكان الحيام او الرجل ، وذلك لا بينها وبين كلمة (عبر) من الاتصال الوثيق ثم اصبحت الكلمة هذه في عهد البابليين والاشوريين بمعنى : مدينة .

واعرقتها في القدم واروعها لهجة ، فهي نقاوة لغات الشعوب التي سكنت هذه الجزيرة من عهد بعيد وخلاصة ما تكلم به الساميون ، وهي تمتاز كذلك عن اخواتها بكونها اقرب الى اصلها السامي من غيرها ، ذات لهجات مختلفة المظهر ، متعددة الخبر ، ولها من الخصائص والميزات اللغوية ما تفتخر به على سواها من جميع اللغات .

اخلاق العرب وعاداتهم

اشهر العرب بالاخلاق الكريمة والسجايا الحميدة كالوفاء والاباء والشجاعة والشهامة والبطولة والكرم وقوة البأس وحفظ الجوار مع طلاقة في اللسان ، وفصاحة في البيان ، وفيهم من خرج عن هذه الصفات شذوذاً ... وكانوا لا يهتنون الا بفلام يولد او شاعر ينبغ ، او فارس تنتج ، ولا يفتخرون الا بالسيف والضيف والبلاغة ، ولم تكن الكتابة منتشرة فيهم ، بل كانوا يعتمدون الحفظ في كل شيء ، وقد جاء الاسلام وليس يكتب فيهم الا بضعة عشر شخصاً ؛ وعلومهم الذنب والاخبار والشعر والكهانة ؛ ولهم دراية بالانواء والنجوم اكتسبوها بتجارهم وممارستهم للاسفار ؛ وليست لهم مدنية مادية كمدنية مصر وبابل واشور اذ اكثرهم يعيش عيشة النجوع ، وربما كانت لهم في القديم حضارة ومدنية بلغوا فيها شأواً عظيماً .

المجتمع العربي

الامة العربية كما عرفها التاريخ امة بدوية رحالة ، غير ان ما في لغتها من الالفاظ والكلمات والاراد والاوزان المتعددة الدالة على المعاني الاقتصادية والصناعية والسياسية والاجتماعية والعمرانية كل ذلك يدلنا على مبلغ الرقي العقلي والمادي عند العرب وان كانوا لا يألون الحياة الحضرية ولا يأنسون بالمقام والاستقرار في مكان ، ذلك لشبعمهم بالحرية وبغضهم للقيود معها كان نوعها : فكثرت فيهم الاسفار والانتقالات والنزوح والمغامرات طلباً للعاش وترفعاً عن المقام على الذل والهوان ؛ ولهم عناية

واهتمام بتربية الموائى والانعام ، ولعاملاتهم مع الاجانب كالفرس والروم والحلبة والمند صبغة تجارية خاصة ، وهم دائماً في طلب طليعة المحافظين على شرف العائلة وعز القبيلة واحترام الشخصية .

المعتقد العربي

لم يكن للعرب في جاهليتها دين مقرر يدينون به جميعاً ، بل كان شأن العقيدة عندهم فوضى ، فمنهم من كان على ملة ابراهيم ، ومنهم من كان يعبد الاصنام والاولثان والنصب والحيوان ، ومنهم من كان على الفطرة ، ومنهم من كان من اهل الكتاب الى ايام البعثة .

اعقل الامم ؟ ...

لقد أحرز العرب على مكانة سامية في ميدان النشاط العقلي ، وفي صفاء النفس ولطافة الحس بما جعل الاجانب عنهم والدخلاء فيهم يشهدون لهم بذلك ؛ فقد روى شيب بن شبة - وهو المؤرخ الحجة - عن ابن المقفع (١) قال : كنا في مجلس عظيم فوفد علينا ابن المقفع ، وكان من اشراف الفرس وحكامهم ، فقال لنا : من اعقل الامم ؟ ... فنظر بعضنا الى بعض وقلنا لعله يميل الى امله ، فقلنا : الفرس ، قال ليسوا هناك ، ملكوا كثيراً من الارض وحووا عظيمات من الملك ، فما استنبطوا بعقولهم شيئاً ! ... فقلنا : الروم . فقال اصحاب صنعة ، فقلنا : الصين ، فقال اصحاب طرفة ، فقلنا : الهند ، فقال اصحاب فلسفة ، فقلنا : السودان ، فقال شر خلق الله ! ... فقلنا : الحزور ، فقال نعم سائمة ! ... فقلنا : فمن ؟ ... قال : العرب . فضحكنا ! ... فقال ما اردت موافقتكم ، ولكن اذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من

(١) هو اول من عني في الاسلام بترجمة كتب المنطق ، ومن اشهر ائمة الكتاب في العصر النباني الاول ، امله فارسي ولد في العراق . ولثاً مجوسياً واسلم على يد عيسى بن علي عم الساج ؛ كانت وفاته سنة ١٢٢ هـ - ٧٥٩ م

المعرفة ؛ ان العرب حكمت على غير مثال ، يجود احدهم بقوته ، وبفضل
بجهوده ، وبشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون
قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء
فيقبح ، رفعتهم عقولهم وأعزتهم همهم حتى نالوا اكرم الفخر وبلغوا
اشرف الذكر ، فلما شرفهم الله بالرسول محمد بن عبدالله صلى الله عليه
وسلم ، وهم على هذه الاخلاق الجليلة ، والفضائل الجليلة ، تنافسوا في زيادة
الفضائل ، وتسابقوا الى نيل العلوم والمعارف ، فاكتسبوا منها ما لم يكتسبه
الاوائل وآثروا الآثار العظيمة في اقرب مدة من بناء المدائن وعمل
القناطر وفتح الخرجان ، فقد أجرى موسى بن نصير البحر اثني عشر ميلاً
الى دار الصناعة بتونس ، وصنع مائة مركب وغزا صقلية واخذها ،
ووصل عمرو بن العاص بين النيل وبحر القلزم في مدة سنة ، وجرت
فيه السفن من خلافة عمر بن الخطاب الى ما بعد خلافة عمر بن عبد العزيز ،
احتقره من الخليج الذي في ناحية القسوط ، وقال له خليج امير
المؤمنين وساقه الى القلزم ثم ضيعه الولاة وترك وغلب عليه الرمل
وانقطع وصار منتهاه الى ذنب التماسح ؛ وتيسر لهم من التصنيف في
انواع العلوم ما لم يتيسر لاحد قبلهم . ولقد صدق من قال : ان هذا
التاريخ على طوله وفضوله لم يسجل من الامم التي بلغت رسالات الله
بالخير والجمال والحق الا اربعاً : العبران في الدين والسلم ، واليونان في
الفن والعلم ، والرومان في النظام والحكم ، والعرب في كل اولئك جميعاً .

ويصف بعض المؤرخين الامريكيين العرب فيقول : « انهم هم الذين
سبق لهم ان قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانساني
طول الفمى سنة على الاقل في ايام اليونان ، في العصور الوسطى ، لمدة اربعة
قرون تقريباً ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من ان تقود العالم ثانية
في المستقبل القريب او البعيد ^(١) .

وحكى المؤرخ سيديو عن هيمبولد (Hamboldt) انه قال : ان العرب

(١) الدولة العربية الكبرى لمحمد كامل ص ١٨

خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الامم المنتشرة من شواطئ الفرات الى
الروادي الكبير باسبانيا ، وبين العلوم واسباب التمدن فتناولتها تلك الامم
على ايديهم لان لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم اثرت في الدنيا تأثيراً
لا يشبه بغيره ...

ثم قال : وهذا حجة على انهم كما قال غيرنا - ونحن نعتز به - :
اساتذتنا ومعلمونا ^(١) . ويقول سيديو ايضاً : ان الكنوز الادبية العظيمة
التي اوجدها العرب في ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمي واختراعاتهم الثمينة
تمتص دليلاً على نشاطهم الفكري وتؤيد الرأي القائل بان العرب هم
اساتذتنا في كل شيء ، اذ انهم زودونا بمواد جليلة في تاريخ العصور
الوسطى ، وباسفار مجيدة في التراجم ، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها ، وفناً
معمارياً آتياً في الروعة والجمال ، واكتشافات هامة في الفنون والصناعات ^(٢) .

ويذكر الدكتور غوستاف لوبون شأن الحضارة الاسلامية فيقول : انه
كان لها تأثير عظيم في العالم ، وان هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم
فلا تشاركهم الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، فالعرب هم الذين هذبوا
بتأثيرهم الخلق البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، والعرب هم الذين
فتحوا لأوروبا ما كانت تحمله من عالم المعارف العلمية والادبية والفلسفية
فكانوا ممدنين لنا وأئمة ستة قرون ... وظلت الكتب العلمية المصدر
الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات اوربوا خمسة او ستة قرون ، فاذا
كانت هناك امة نقرأ باننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب
هم تلك الامة ، لارهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم
اليونان ، فعلى العالم ان يعترف للعرب بمجمل صنعهم في انقاذ تلك الكنوز
الثمينة اعترافاً ابدياً . قال مسيو ليروي : لو لم يظهر العرب على مسرح
التاريخ لتأخرت نهضة اوربوا الحديثة في الآداب عدة قرون ^(٣) .

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي ج ٢ ص ١٥٨ ط دمشق ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م

(٢) مختصر تاريخ العرب لسيديو امير علي ، تحرير رياض وأفت ص ٣٩٥ ط القاهرة ١٩٣٨ م

(٣) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣١ - ٥٣٠ - ٦٧٧ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م

ظهور الاسلام

قضت حكمة الباري جل جلاله بانقضاء ايام الفوضى والجور المحيين على العالم يومئذ ، وبانتشاع غشاوة الجهل الضاربة اطنابها على الناس . كي يسود العدل ويظهر العلم ؛ فانبتق نور النبوة والوحي على رأس القرن السابع الميلادي ، فارسل الى رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون . هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ؛ وهو عليه الصلاة والسلام من جنس العرب يعرفون نسبه وفضله وصدقه وامانته وعفافه ، فدعاهم الى عبادة الله وحده ، وخلع ما كان يعبد آباؤهم من الحجارة والاوثان ، وأمرهم بالصدق والوفاء والعفاف وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم وسفك الدماء ونهاهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وقول الزور ، واكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات ، وجاءهم بقواعد الاسلام الخمس وشريعة كلها عدل وسداد ؛ فانجذبت اليه النفوس الطاهرة فأمنت به وصدته .

جاء عن « بوسورت سميت » مؤلف كتاب « حياة محمد » باللغة الانكليزية ، قال : ان من حسن الحظ الوحيد في التاريخ دون غيره ان محمداً اسس في وقت واحد ثلاثة اشياء هي من اعظم الامور وجليل الاعمال : فانه مؤسس لامة وامبراطورية وديانة ، مع انه امي وقلم كان يقدر ان يقرأ او يكتب ، فع ذلك أنى بكتاب هو آية في البلاغة ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد . وقال الدكتور غوستاف لوبون : « ان محمداً اصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الاسلام ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك فضل محمد على العرب عظيم ... واذا ما قيس قيمة الرجال بجليل اعمالهم كان محمد من اعظم من عرفهم التاريخ ... والتعصب الديني هو الذي اعمى بصائر مؤرخي الغرب عن الاعتراف بفضل محمد (١) » .

(١) حضارة العرب ص ١٤

الفتوحات الاسلامية

لا يخفى ما كانت عليه دولتا الفرس والروم قبيل الاسلام من النزاع والتطاحن في الحروب واستعمال العرب وتسخيرهم في حروبهم ، وكلتا الدولتين كانت تستعمل في مصلحتها ما يلبيها ويجاوزها من الامة العربية ، وقد فاتها ان الالحاح على القريسة قد يخلق منها مفترساً ، وكذلك كان الامر فكان استمرار هذه الحروب سبباً قوياً في ضعف الحكومتين معاً ، وتمهيداً للعرب في انشاء دولتهم وتدريبهم على النظم الحربية والتراتب العسكرية ، وذلك ما ساعدهم فيما بعد وفي أجل قريب على فتوحاتهم المترامية الاطراف وبسط نفوذهم على القارات الثلاث : آسيا وافريقية واروپا . وقضوا بالفعل على هاتين الدولتين العظيبتين في الشرق وفي الغرب : فارس والروم ، فاستبدل الله منها هذه الامة العربية المسلحة ؛ وعده الله الذين امنوا منكم وعلماو الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم امناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ... وزيد ان نحن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

ووصف عالم المالني ميزة المسلمين في فتوحاتهم فقال : « ... ينبغي لكل مسلم ان يعد نفسه مسؤولاً شخصياً عن المحيط الذي يحيط به وكل ما يقع حوله ، ومأمور بالجهاد لاقامة الحق ومحق الباطل في كل وقت وفي كل جهة ، فان القرآن يقول : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأترون بالمعروف وتتهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذا هو المبرر الخلفي للحركة الاسلامية الجهادية والفتوح الاسلامية الاولى . والاستعمار الاسلامي ، فالاسلام استعماري ان كان لابد من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعاً بحب الحكومة والاستيلاء ، وليس من الاثرة الاقتصادية القومية في شيء ، ولم يكن يحفز المجاهدين الاولين الى الجهاد طمع في خفض العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين ، لم يقصد منه

الا بناء اطار عالمي لاحسن ما يمكن للانسان من ارتقاء روحي (١) .

ثم ان هؤلاء العرب الفاتحين لم يكونوا في فتوحاتهم هذه خدمة لجنس او رسلاً لشعب او وطن هو من دون الاوطان الاخرى يسعون لرفاهيته او يتخصصون لخدمة مصالحه وحده ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الاوطان ، لم يخلقوا الا ليكونوا حكاماً ولم تخلق الا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا امبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس الى حكم العرب والى حكمهم انفسهم ، انما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً الى عبادة الله وحده ، كما قال ربي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزد جرد : « الله ابعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » .

فها نحن نرى الامم وجميع الشعوب عند هؤلاء سواء والناس عندهم سواسية فكلهم كما قال نبي الاسلام : كلهم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على اسود ، ولا لأصفر على احمر ... الا بالتقوى . وليس منا من دعا الى عصبية او مات على عصبية او قاتل عصبية . يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير .

وبعد ما فتح الله على نبيه الجزيرة ونشر عليها بنوده والويته وتم فتح العراق والشام والموصل وفارس على عهد الخليفة الاول ابي بكر الصديق (ض) ثم كان تمام فتح العراقيين ومصر وطرابلس الغرب (لوبياء) على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (ض) وامتلك المسلمون اهم مراكز الدنيا يومئذ في اقل من نصف قرن ، فاتخذوا من مصر بالخاص مركزاً لتتبع الفتح بشمال افريقية .

العرب في شمال أفريقيا

قبل ان نخوض في تفاصيل الفتح العربي الاسلامي ، وجب علينا تأدية لامانة التاريخ ان تلقى بنظرة تمهيدية خاطفة الى ما اشيع من تلك النظرية المتعلقة بتاريخ العرب القديم القائلة باتصال هؤلاء بشمال افريقية ، منذ احقاب طوال ، كما قد كنا اشرنا الى ذلك في اوائل الكتاب ، ولما جاء دور العرب الآن كان حقاً علينا ان نحقق المقام بما نستطيع بما اتصلنا به من المصادر التاريخية ، وذلك ما يدفعنا الى العودة بالقارىء الكريم الى دراسة موجزة عن تاريخ العرب بشمال افريقية قديماً .

دولة حمير وسبأ بالمغرب !!

ان موطن هذه الدولة العربية كما هو معلوم باليمن ، تلك البلاد التي اشتهرت عند الرومان باسم البلاد السعيدة ، كما هي معروفة عند اهلها باليمن الحضرية ، وذلك لما بلغته هذه المملكة من التفوق العجيب في الحضارة والحصبة ... وان ملوك هذه الدولة مشهورون في التاريخ باسم الاقيال والاذواء او التابعة ، وفي كتب التاريخ خلط كبير بين ملوك سبأ وحمير . وفي عددهم وسنهم ايضاً ، وشبب تاريخهم بكثير من الخرافات ! ...

واباً ما كان فان اول من غلغ من ولد قحطان : هو حمير بن سبأ وقد توارث بنوه الملك من بعده حتى صار الى الحارث الرايش الذي يرجع تاريخ حكمه الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وقد اجتمع له ملك اليمن كله ، وهو تبع الاول بلغ في غزواته الى الهند ثم غزا بعدها الترك في اذربيجان ، وكان الرابع من هؤلاء التابعة هو افريقش بن

أبرهة ، او افريقش ذو القرنين المسمى بالصعب وهو الذي يقال عنه انه غزا بلاد المغرب كما عند ابن خلدون ، قال : واتفق المؤرخون على غزو افريقش بن قيس بن صيفي من التبابعة الى المغرب كما ذكرنا في اخبار الروم ^(١) ... ويقول ايضاً : وسار افريقش بن ثمر الى افريقية بالبوهر وكنعان فملكها ^(٢) . وان المعروف من تاريخ افريقش هذا انه تملك مدة عشرين سنة (٣٠٠ - ٣٢٠ م) . ويذكر - ابن خلدون - ايضاً انه وصل ملك هذه الدولة العربية بالمغرب الى طنجة ؟ ... ونقل عن ابن الكلبي ان حمير ، ابا القبائل اليمنية ، ملك المغرب مائة سنة ؟ ... وان صنهجة وكنانة من حمير ، ثم اتنا نرى هذا المؤرخ نفسه في مكان آخر من تاريخه يحكم بتزييف كل هذه الروايات ، فانظر الى قوله في المقدمة : ومن الاخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة - مثله ! . في اخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب ، انهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى افريقية والبوهر من بلاد المغرب ... ثم انه هو نفسه يعود الى الموضوع هذا في صلب تاريخه كمستدرك او ناقص لما زيفه هنا فيقول عن هؤلاء التبابعة : وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن الى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب تارة ^(٣) ... رباه ما هذا الاضطراب ؟ ! ... وفي كتاب المعارف لابن قتيبة الذي قال عنه (وستيفيلد) : انه من اقدم الكتب التاريخية المحضة التي بقيت الى الآن من مؤلفات العرب ، ما يثبت ذلك ويؤيده ، قال : ان يامر بن عمرو ملك اليمن (٣٥٠ - ٣٧٥ م) الملقب بياسر انعم لانعامه عليهم ، لما سار غازياً نحو المغرب بلغ وادياً يقال له وادي الرمل فلما انتهى اليه لم يجد فيه مجازاً لكثرة الرمل ، وعبر بعض اصحابه فلم يرجعوا فامر بنصب صنم من نحاس على صخرة في شفير الوادي وكتب على صدره

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٥١ وج ٦ ص ١٠٦ والمقدمة ص ٧١ طبولاق ١٧٤ م .

(٢) ابن خلدون ج ١ ص ٨٨ .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٦ - ٧ وج ١ من تاريخه ص ٧٧ - ٧٨ - ٧٩

٨٨ - ١٣٢ وج ٦ ص ٩٦ - ٩٧ - ١٠٦ - ١٠٧ .

بالخط المسند : هذا الصم ليامر انعم الحميري ، ليس وراءه مذهب ، فلا يتكلفن احد ذلك فيعطب . ورجع ^(١) ، ولقد اثبت ابن خلدون نفسه ما نقلناه عن ابن قتيبة (ج ١ ص ٧٩) ومثله ابن الاثير في كامله (ج ١ ص ١٥٦) او بعد هذه النصوص كلها يصبح تاريخ العرب القديم بشمال افريقية قضية ملفاة ؟ ! .. ولاسيا اذا صح وان الاجاش سكان (اثيوبيا) بافريقية انهم انتقلوا اليها من جزيرة العرب او من جنوبها فان ذلك بما يزيدنا تأكيداً ويكون لنا كبرهان ساطع على ثبوت الاتصال الوثيق بين سكان افريقية والجزيرة العربية منذ القديم .

وسواء اصح خبر اتصال هؤلاء العرب التابعة بشمال افريقية ام لم يصح ، فانه قد ثبت يقيناً بان ملوك الرعاة - الفراعنة - المعروفين باسم (الشاسو) او - المكسوس - وهم من العرب كما لا يخفى ، اتصلوا بمصر من برزخ السويس في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح . واستمر سلطانهم على الديار المصرية الى سنة ١٥٨٠ ق . م . وامتد نفوذهم الى ارض افريقية بدون ان تكون لهم فيها دولة منظمة ، ولذلك لم يكن لهم بها ذكر يحفل بتدوينه المؤرخون . وهكذا يبدو الاثر السامي واضحاً بمصر على عهد الاسرة الفرعونية الرابعة ونقل (يوسفوس) فلافيوس وهو احد المعتمدين من مؤرخي اليهود الاقدمين (٣٧ - ١٠٠ م) : ان (افرون) بن مدين بن ابراهيم الخليل - بين اوائل القرن ١٨ وواخر ١٩ ق . م . - جرد حملة على لوبيا واحتلها ، وان ابناء ابنائه اقاموا هنالك وسموا الارض باسم افريقيا ، ولقد اثبتت البحوث والكشوف العصرية الحديثة بان ابراهيم - الخليل - كان سامياً عربياً ، وانه كان يتكلم العربية ، وهي طبعاً غير العربية التي نعرفها اليوم او نكتبها ونخطب بها ، ولا هي كذلك التي بالشعر الجاهلي ^(٢) . وهل هي الكلدانية ؟ .

كما انه قد صح في التاريخ بان الساميين جاؤوا الى افريقية من جزيرة

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٢٧٣ ط مصر ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م .

(٢) ارجع ايضاً الى ص ٤٨ من الكتاب .

العرب في ثلاث دفعات ، وكان يحينهم اليها في كل مرة من طريقين : شمالية عن طريق برزخ السويس ومصر ، وجنوبية عن طريق باب المندب ، وكانت الدفعة الاولى في زمن قديم جداً لا يعرف مبدؤه ، فاختلفوا باهل البلاد الاصليين وامتزجوا بهم ، فتولدت منهم امم هي الامة المصرية القديمة ، وقبائل البربر في المغرب ... والمرة الثانية كانت حوالي القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً ، او في عصور اخرى ترجع الى ما بين القرن العاشر والقرن الاول قبل الميلاد ؟ . وهؤلاء العرب هم الذين اتوا بالجمال معهم الى هذه البلاد اذ لم يكن الجمل معروفاً بها قبل هذا التاريخ ، كما انهم جاؤوا قبل ذلك بالخليل ؛ اما المرة الثالثة فهي التي كانت في قصة الهجرة الاولى الى الحبشة في صدر الاسلام .

ولقد اكتشف الدكتور (استانلي تيمبور) على مقربة من نهر (زمبر) في مقاطعة (رودسيا) من جنوب افريقية آثاراً منقوشة عليها رسوم مكتوبة استدل بها الدكتور على ان العرب قد استثمروا هنالك مناجم الذهب التي كان استثمراها أسلافهم « عرب الين » قبل ذلك بعهد طويل . وكما ظفر الحفريون بنقوش حميرية ببعض قرى افريقية . فكل ذلك يجعلنا نحفل لخبر هؤلاء العرب من التابعة الجيريين في شمال افريقية ، وقد يكون الضريح الموجود الى اليوم بالجنوب الغربي من بسكرة المنسوب الى خالد بن سنان العبسي^(١) هو لاحد أعضاء هذه الجاليات العربية القديمة التي ارتادت هذه الاوطان ، هذا ان لم يكن قبراً لاحد المبشرين بالمسيحية ممن ذكرنا أسماءهم في صفحة ٨٦ من كتابنا هذا ؛ أو قد يكون كذلك لاحد رجال الكنيسة وأعيان مذاهبها الشهيرة ؟ ... والمستقبل كشف .

(١) راجع الحيوان للباحظ ج ٣ ص ٦ ، ونهاية الارب للتوري ج ١ ص ١٠٦ - ١١٠ ، والجمهرة لابن حزم ص ٢٤٠ ، والكمال لابن الاثير ج ١ ص ٢٧٠ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١٩٣ ، وعيون الاخبار لصديقي (مخطوط) ورقة ١٣ ، وعاضرات الادباء للاصفهاني ج ٢ ص ٢٧٨ ، والاصابة لابن حجر ج ١ ص ٤٤٦ ، والمؤنس لابن ابي دينار ص ١٧ ، ورحلة الياشي ج ٢ ص ٢١٤ ، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٣٥ ط مصر ١٣٠٣ هـ .

فتح أفريقيا

٢٢ هـ - ٦٤٣ م

افريقية - المغرب

اتسع مدلول لفظ افريقية على عهد البيزنطيين فشمّل كل ما دخل تحت نفوذهم من هذه القارة : من برقة الى طنجة ؛ وبهذا المعنى استعمله العرب في أول الامر ؛ ثم بعد ذلك أخذ لفظ افريقية يضيق شيئاً فشيئاً وبدأ لفظ المغرب في الظهور ، فاقصر اسم افريقية على ما يلي مصر غرباً الى بجاية من مقاطعة قسنطينة - الجزائر - ثم يلي ذلك المغرب حتى المحيط ، وربما أدخل فيه بعضهم الاندلس ؛ ولا شك ان لفظ المغرب حسب مدلول معناه هو ما يقابل الشرق ، ولهذا أدخل فيه بعضهم مصر والاندلس ، وقصره آخرون على المغرب العربي الحالي وهو الاقليم الذي يلي مصر غرباً حتى المحيط ، ثم هم يسمونه أجزاءً بحسب الحكومات والولايات كبرقة وطرابلس وافريقية - تونس - والمغرب الاوسط - الجزائر - والمغرب الاقصى والسوس .

مقدمات الفتح

كان من الطبيعي المعقول ان يتابع العرب فتوحاتهم بشمال افريقية بعدما فتحوا مصر والشام وغيرها من ممتلكات امبراطورية بيزنطة ،

والجزائر يومئذ هي ضمن هذه الامبراطورية التي غزاها العرب في الشرق ، فكان لزاماً على الدولة العربية الناشئة ومن واجها السياسي ان تستمر على خطتها في الفتح وتتابع ،الك الدولة المغزوة حينما انتشرت في الارض وانبسط سلطانها في المعمورة ، وذلك توطيداً للامبراطورية الاسلامية الناشئة يومئذ في الشرق ، وانتماً لسلسلة الفتوحات العربية ، فقد كتب على العرب الفاتحين ان يصطدموا بالروم في المغرب كما اصطدموا بهم في الشرق .

من المعقول جداً ان يفكر فاتح مصر عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، في متابعة الفتح والاستيلاء على هذا الشمال الافريقي ، بعد فراغه من الاستيلاء على القطر المصري وقام بجلاء الروم عنه ؛ ولا شك انه بلغته اخباره واتصل بها وهو يومئذ على فتح مصر ، فعرف انه من بلاد الروم البيزنطيين وان لهم فيه منعة وعزة ، وانه جزء من مصر ، وكان اهل برقة وطرابلس اذ ذاك على علاقات قوية موصولة مع اهل مصر ، حتى ان بعض قبائلها كان معدوداً من قبطنها . وكانت الطرق بينها مطروقة مأنوسة ، فلما فرغ عمرو من فتح الاسكندرية وجد الطريق الى برقة سهلة ميسورة ؛ فخشي من وثبة تكون من الروم يهاجمون بها مصر ، او تدبير يحكمه روم بيزنطة بها ، فبعث اولاً بالطلائع تستطلع له احوال البلاد ، وبعد ان اتصل بالمعلومات الكافية سار هو بنفسه فقزا برقة وطرابلس ثم صبرة او - سبرات Sabrata - ففتحها عنوة سنة ٢٢ هـ - ٦٤٣ م ؛ ومن هناك بعث ابن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يستأذنه في فتح افريقية فأوقفه عمر ونهاه عن التادي في الفتح قائلاً له في كتابه الذي ارسله اليه : انها ليست بافريقية ولكنها المفرقة غادرة (الغادرة) مغدور بها ، وذلك لأن اهلها كانوا يؤدون الى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً^(١) ، وكان ملك الاندلس صالحهم ثم غدر بهم ؛ لا يغزوها احد ما بقيت ، او قال : لا اوجه اليها احداً

(١) وكان كلمة موسى بن نصير التي تلذمت في صفحة ٥٠ من الكتاب مقتبسة من هذا ، او هي من قبيل توارد الخواطر ؟ ... فانظرها هناك .

ما مقلت عيني الماء . ويبدو من كلام الخليفة انه كان على خبرة تامة واطلاع واسع على احوال الممالك وخاصة افريقية فانه كان على بصيرة منها ومن تاريخها وطبيعة اهلها فعرف انها ليست مأمونة الجانب ولا ميسورة الفتح ولا قريبة الطاعة ، فعجل بايقاف عمرو .

ونستطيع ان نفهم كلمة عمرو هذه بوضوح تام ونشرحها على ضوء النظرية التي اشار بها ابن خلدون حينما تعرض للكلام عن عصيان البربر وانتفاضهم على العرب وقرر ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة ... ثم قال : والسبب في ذلك هو اختلاف الآراء والاهواء ، وان وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمنع دونها ، فيكثر الانتفاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت ، وان كانت ذات عصبية ، لان كل عصبية بمن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة . ثم يستشهد ابن خلدون على استنتاجه هذا بما حدث في افريقية والمغرب من احداث وما وقع فيها من فتن وثورات فيقول : « وانظر ما وقع من ذلك في افريقية والمغرب منذ اول الاسلام ولهذا العهد ، فان ساكني هذه الاوطان من البربر اهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الاول الذي كان لابن ابي سرح عليهم وعلى الافرنجة شيئاً ، وعادوا بعد ذلك الى الثورة والردة مرة بعد اخرى وعظم الاثنان من المسلمين فيهم ، ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الحوارج مرات عديدة ...

وهذا معنى ما ينقل عن عمر من ان افريقية مفارقة لقلوب اهلها ، اشارة منه الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحامية لهم على عدم الاذعان والانقياد ...

والبربر قبائلهم بالمغرب اكثر من ان نحصى ، وكلهم بادية اهل عصابات وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الاخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردة فطال امر العرب في تهديد الدولة بوطن افريقية والمغرب ،^(١)

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٠ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

ورغم ذلك كله فان عصبيتهم هذه لم تكن مانعة من تبكيرهم بالاسلام كما ستعرفه .

ولا شك ان عمرأ رأى من قوات جرجوريوس المتحصنة المعدة لدفع العرب ومقاومتهم ما يحتاج معها الى المدد ، ولما اتصل بكلمة الخليفة خشي من الهزيمة اذ ليس لديه من قوة الجيش ما يكفي لمهاجمة البوير والروم في بلادهم فلم يجد همرو اذأ بدأ من الانسحاب والتراجع ، فطوى كعبه وانصرف عائداً الى مصر بعد ان صالح اهل بركة على ثلاثة عشر الف دينار ، وقد ألحقت هذه الناحية بولاية مصر فاعتبرت جزءاً منها بحكمها عامل مصري ، يجبي خراجها ويقود جندها .

حملة ابن ابي سرح

لقد اصبح عبدالله بن سعد بن ابي سرح عاملاً على مصر منذ سنة ٢٥ هـ - ٦٤٦ م . وما كاد يستتب له الامر حتى فاتح الخليفة يومئذ عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، يخبره بقرب الروم من حوز المسلمين ويستأذنه في غزو افريقية ؛ وبعد ما تدبر الخليفة في الامر كتب الى عبدالله سنة ٢٧ ، ويقال سنة ٢٨ او سنة ٢٩ هجرية ، يأمره بغزوها ؛ وتقاطر المسلمون من مختلف القبائل على الخليفة يريدون المشاركة في هذا الفتح وعلى رأس كل قوم نفر من كبارهم ، وكان جيش هذه الحملة يتجمع به الجرف ، وهو مكان يبعد عن المدينة المنورة بثلاثة اميال ، والخليفة نفسه لا يني ان يشجع الناس على التطوع ، فأعان الجيش بألف بعير من ماله : يحمل عليها ضعفاء الناس ، وحمل على الخيل ، وفرق السلاح وار للناس بأعطياتهم ؛ واندمج في سلك الغزوة نفر غير قليل من مشاهير الصحابة واولادهم ، وقد عرف هذا الجيش بجيش العبادلة . ولما اكتمل القوم خطب فيهم الخليفة مرغباً لهم في الجهاد ، قائلاً : لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم الى ان تقدموا على عبدالله بن سعد فيكون الامر اليه ، واستودعتمكم الله . فانحل الجيش من المدينة في المحرم سنة ٢٧ هـ - اكتوبر ٦٤٧ م .

ولما صار الجيش الى عبدالله بن سعد واتصل بقوات الخليفة أخذ عدته وجمع أمره واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ، وبعث أمامه بالطلائع ، ثم فصل عن مصر وخرج بنفسه لفتح في عشرين ألف جندي ما بين عرب من الجزيرة وقبط من مصر وبربر من افريقية ؛ وسار حتى بلغ قونية أو قودة (ولعلها كابوت فادا Caput vada الميناء البيزنطي المعروف) وهناك استقر وبدأت المفاوضات بينه وبين البطريق (١) جريجوريوس (جرجير) حاكم افريقية وأمبراطورها المستبد ، المتربص يومئذ بمدينة سيطة - على مائة وخمسين ميلاً جنوب قرطاجنة - وهناك عرض عليه عبدالله الاسلام أو الجزية وطالت المفاوضات ١٣ يوماً (٢) وكانت المناوشات طوال هذه المدة تدور بين القوم بقتور ؛ وجرجير يومئذ مصر على الرض ، وكان المسلمين يومئذ أدركهم شيء من الفتور فمالوا الى طلب الامداد من الشرق ؛ فجاءتهم بعثة عبدالله بن الزبير فهللوا لها وكبروا وتحمسوا لمقاتلة الروم فتقدموا من قونية الى حيث البطريق جرجير رابضاً في مائة وعشرين ألف مقاتل ؛ ويقول الباجي : في مائتي ألف مقاتل (٣) ... فدارت المعركة بين الطرفين على مقربة من حصن عقوبة - فحصد متسع ، بينه وبين دار الملك : سيطة ٣٦ كيلومتراً - فانهزم الروم شر هزيمة وقتل فيها جرجير ، فأقام الافارقة عليهم مكانه وجناحة Ghenaha ، فهو الذي عقد الصلح مع العرب بعد ذلك ، فأصبحت ولاية افريقية يومئذ تحت نفوذ العرب وانتشر الفانخون بكامل الولاية يفتنون وينهبون وانحاز أغلب المنهزمين الى الشرق في حصن الجم (المعجم - الاعاجم) فأحاط به العرب وحاصروه بمن فيه ففتحوه ، وفي تاريخ الحيس قال : ان فتوحات عبدالله بن سعد بن أبي

(١) لقب مدني سياسي Patrice, Patrique وهو غير البطريق Patriarche المختص برؤساء الدين .

(٢) وفيها تلقب عبدالله بن عباس رضي الله عنه بمجر العرب من طرف جرجير ، حيث قال لمبداه : ما ينبغي الا ان تكون حبر العرب .

(٣) يقدر الرواة ان عدد سكان شمال افريقية يومئذ نحو ١٩ مليوناً ؟ ...

سرح بلغت الى الجزائر التي في بحر بلاد المغرب^(١). ويومئذ لجأ رؤساء البوير الى طلب الصلح من ابن أبي سرح وقعاهدوا معه على ان ينصرف عن بلادهم لقاء مبلغ يقدره البعض بليونين وخمسمائة الف دينار، ويقدره البعض الآخر بثلاثمائة قطار من الذهب^(٢) وپروى مائة الف رطل ذهب... وزاد على ذلك ابن أبي سرح فاشتط عليهم بأن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الترداد رد عليهم، فوقع الاتفاق على ذلك، واقتسمت الغنائم بين الغزاة، فأصاب كل فارس ثلاثة آلاف مثقال - دينار - والراجل منهم الف وعاد البشير (عبدالله بن الزبير) الى المدينة ليقص خبر الفتح على منبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكتب ابن أبي سرح الى نائبه بمصر يأمره بانفاذ المراكب اليه ليحمل عليها الغنائم وانتقال المسلمين خشية انقلاب الروم عليه، فكان الامر كذلك، وعاد ابن أبي سرح الى مصر من غير ان يولي على افريقية أحداً ولم يتخذ بها معسكراً، ولقد دامت هذه الفارة خمسة عشر شهراً، ثم كانت بعدها الاحداث التي عصفت بالبلاد العربية عقب اغتيال الخليفة عثمان، فتأخر اتمام الفتح الى ايام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

ينتقد بعض المؤرخين عودة عبدالله بن سعد هذه وانفصالة عن افريقية بعدما انتصر ذلك الانتصار الباهر على الروم وفاز المسلمون بمغانم كثيرة!... وقد رد بعضهم أسباب هذه العودة الى أحداث اضطرت قائد الحملة الى التعجيل بالمسلمين قبل انقلاب الروم عليهم فيسلبهم ما غنموا، وقد لاحت له مخايل المقاومة التي أبداها أهل الساحل يومئذ، وخصوصاً اذا لاحظنا كذلك ما كان من التوتر بين قادة الجيش العربي مع ضعف الجند أمام قوات الروم والبوير المتكاثرة وانقطاع العرب عن المدد، مع اضطراب

(١) تاريخ الخميس للديار بكري ج ٢ ص ٢٩٧ ط القاهرة ١٣٠٢ هـ.

(٢) حاول ياقوت تقدير القطار فقال انه يبلغ ثمانية آلاف وأربعمائة دينار وهو عدد تعريبي وقدّر «دوسلان» الدينار في ذلك العصر بشرة فرنكات.

حبل الخلافة بالشرق . فاذا لاحظنا ذلك كله فلا نستبعد هذه المعجزة في رجوع القائد بمجملته الى مركز ولايته بمصر . ولو ساعدت الظروف بيزنطة وكانت على شيء من القوات لاستعادت البلاد في هذه الفترة ، ولكنها كانت تعاني ما تعانيه نفس الدولة الاسلامية الناشئة من الضعف واضطراب الحال .

اضطراب افريقية

ما كاد يتصل الامبراطور البيزنطي بجبر انعقاد الصلح على الصفة المتقدمة مع العرب وبما قال العرب من مال ونشب حتى ثارت ثائوته واستشراف هو أيضاً الى مثل ذلك أو أكثر ، فأمرع الى تعبئة بعثة عسكرية الى افريقية وجعل قيادتها لاحد بطارقه ، فجاءت الحملة وأظهرت رغائب الامبراطور ومطالبه الفادحة وأرغمت الشعب على ذلك ، فتار الافارقة لهذا واشتد الميكان وكانت بين الفريقين حوادث دامية وأخيراً تغلب البطريق على حاكم افريقية - خليفة جرجير - فعزله وجلس هو مكانه ؛ ويومئذ انسل هذا الحاكم المزعول الى الشرق ملتجئاً الى الخليفة الاموي معاوية بن أبي سفيان فحرضه على عودة العرب الى افريقية على ان يكون هو دليلهم على عورات القوم ، وما شعر الخليفة بالامر حتى فاجأهم اسطول بيزنطة مهاجماً الاسكندرية فكانت هنالك واقعة ذات الصواري المشهورة ٣١ هـ - ٦٥١ م انهزم فيها الروم أيضاً .

حملة معاوية بن خديج^(١)

يذكر كثير من المؤرخين ان في اثناء هذه الفترة التي أعقبت رجوع عبدالله بن سعد والتي دامت نحو السبعة عشر سنة هناك من اتصل من زعماء البربر بالعرب في المشرق يحشونهم على العودة الى افريقية واستئناف الفتح تخلصاً من الارهاق والاضطراب الذي حصل لهم ، وهذا صحيح

(١) ضبطه صاحب معالم الايمان ج ١ ص ١١٣ ط تونس ١٣٢٠ هـ لقال : خديج بضم الخاء المسببة وفتح الـ دال من خديج ...

تزيده المعاملة الحسنة التي كان يجدها الجيش الفاتح من الاهالي ، وقصة الحاكم المعزول .

أصدر أمره الخليفة بغزو افريقية الى عامله على مصر وكان يومئذ معاوية بن خديج ؛ فخرج الجيش الاسلامي سنة ٨٤٥ - ٦٦٦ م في عشرة آلاف مجاهد ، وفيهم الكثير من أعيان الصحابة من المهاجرين والانصار ، وجاء معهم يومئذ حاكم افريقية الخلويع وهو الذي كان عند الخليفة بحته على الغزو ومات في الطريق وسار ابن خديج في طريقه الى افريقية ففتح بعض مواطنها مثل بنزرت وجلولاء وجربة وسوسة ؛ ثم عاد من غير سبب معقول ودون أن يخلف أي أثر يذكر ؟ ...

حملة عقبة بن نافع الاولى

لقد سبق لعقبة ان عرفته افريقية وعرفها فمارسها منذ كان مع عمرو بن العاص في فتوحاته وبعوثه الاولى فأقام بها أميراً على ما فتح منها ، ومتجولاً مغيراً تارة ودارساً ومبشراً ونذيراً تارة أخرى ، ولبت مقيماً بالنواحي حتى استعمله معاوية بن أبي سفيان على ولايتها هذه المرة سنة ٨٥٠ - ٦٧٠ م فصار اليها على رأس عشرة آلاف جندي وانضم اليه من كان أسلم من أهل البلاد . ففتح بهم أماكن أغلبها بولاية تونس وكان سيره هذا بالداخل متجنباً السواحل لما فيها من الحصون والمحارس البيزنطية .

وبشهد التاريخ لحملة عقبة هذه بأنها حملة موفقة جدية بأن تعد فتحاً حقيقياً لافريقية ، كما انه هو أحق وأجدر بلقب الفاتح من غيره بمن سبقه ، وذلك لما فكر فيه عقبة يومئذ وأهمه من اقامة مدينة للمسلمين في افريقية اذ قال : ان افريقية اذا دخلها إمام تحوموا بالاسلام فاذا خرج منها رجع من كان أسلم بها وارتد الى الكفر ، وأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرياً وتكون عز الاسلام الى (أول) الدهر . وبذلك وضع عقبة الحجر الاسمي لابتناء

افريقية الاسلامية فأنشأ مدينة « القيروان » . فلمعري انه قد وفق في ذلك الى شيء لم يوفق اليه غيره من الفاتحين السابقين وهو أمر ضروري في انشاء الممالك واتخاذ الحصون بها .

كان الجند قبل حملة عقبة هذه يخرج من مصر مغيراً على ما يستطيع من بلاد افريقية ثم يعود الى مصر او برقة بالغنائم او من غير غنائم دون ان يخلف في البلاد اثراً ودون ان يكون في غاراته معنى للفتح ! ... فاصبحت افريقية بصنيع عقبة مقرأ يقيم به المسلمون مطمئنين فيه دون ان يعودوا الى مصر بعد كل غزوة ؛ وكأن افريقية بذلك استقلت بعض الشيء - رغم تبعيتها لمصر - فأصبحت ولاية اسلامية ثانية ، وهذه هي الخطوة الاولى نحو ظهور ولاية افريقية اسلامية بهذه البلاد .

ثم ان حسن اختيار عقبة لموقع مدينة القيروان كان في غاية الاحكام الحربي اذ كان الحاكم الذي يتخذ هذا الموضوع مركزاً لاعماله - كما قال المؤرخ كودل - : يستطيع ان يرى العدو من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر ، واذا اراد ان يطاردهم الى هضابهم وجد الطريق مفتحة امامه ، اذ كان يستطيع بعد مسير بضعة ساعات الوصول الى اعالي الهضاب ، عن طريق وادي زرود ووادي رجال ومسلك جبل بارجوه ومن اعالي الهضاب كان يستطيع الاشراف على ما يجاورها ، فيتيسر له حكمها اذا كانت لديه القوة الكافية لذلك . ولقد لاحظ عقبة نفسه هذه الملاحظة الحربية لتحصين مركز القيادة الاسلامية هذا بقوله لاصحابه المؤسسين الفاتحين : اني اخاف ان يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها صاحب البحر اجمعوا بينها وبين البحر ما لا تقصر فيه الصلاة ، واحاط عقبة المدينة بسور يبلغ دوره اثني عشر ميلاً ؛ وبعد ان مكث عقبة بافريقية ما يقرب من خمس سنوات استخلف بابي المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد (والي مصر) ولا نعلم عن اسباب هذا الاستخلاف او العزل شيئاً ؟ ... والظاهر انه كان بسعي من مسلمة .

فتح المغرب الاوسط - الجزائر -

انتصب مسلمة بن مخلد على ولاية افريقية وتحتها يومئذ مدينة مصر ، وقد جمع له الخليفة في ولايته هذه ما بين مصر وافريقية والمغرب والصلاة ، فشق عليه القيام بجميع هذه الاعمال الهامة كلها ، فبعث بمولاه ابي المهاجر دينار الى المغرب وقال : ان ابا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ، ولا كبير ميل ، فنحن نحب ان نكافئه . فلم يلبث دينار ان اصبح اميراً على افريقية سنة ٥٥٥ هـ واستمر على ولايتها مدى سبع سنوات تلتها سنة ٦٢٢ هـ (٦٧٤ - ٦٨٢ م) .

خرج عقبة من افريقية مهاناً من طرف ابي المهاجر فذهب الى الخليفة بالشام يشكو اليه حاله ، فما زاده معاوية على ان قال له : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الامام المظلوم ^(١) » وتقدمه اياه وقيامه بدمه وبذله مهجته وقد رددتك الى عملك ؟ ... ولكن مسلمة يأبى ذلك ! ... فالى ما بعد وفاته ...

اقبل ابو المهاجر بافريقية واسس بها مركزاً هو غير القيروان عقبة ولكنه يجانبه على مسافة ميلين « تيكروان » وسار في خطته غرباً الى المغرب الاوسط او بلاد الجزائر ، حيث نجح ملك البوير « كسيلة » بجبال اوراس ، فانخذ مسلكه الى هنالك بوابة بسكرة المنخفضة التي تمثل فجوة في الاطلس فتسكن من الانتصار على اعمال قسنطينة سنة ٥٥٩ هـ - ٦٧٨ م وجعل مركز قيادته العليا مدينة ميلة فابتنى بها دار الامارة وجعلها ملاصقة للجامع كما شاهدها البكري بنفسه ومكث الامير بها سنتين ، وقد حظيت الجزائر بذلك - طيلة هذه المدة - بشرف اماراة افريقية الاسلامية ، وبذلك كان ابو المهاجر اول امير مسلم وطئت خيله المغرب الاوسط ، واول من حمل الاسلام الى هذه الديار الجزائرية ؛ ومنها تقدم في فتوحه الى احواز تلسان ففضى بها زمناً طويلاً احتقر

(١) يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه .

فيه آباراً لجنده تسمت باسمه « عيون أبي المهاجر » وهناك ظفر بمخضه كسيلة فعمل عليه حملة شديدة وعرض عليه الاسلام فاعتصم به ، وحينئذ خلى عنه الامير وأبقاه معه ، ثم كان بعد ذلك حصار الروم بقرطاجنة فقلوا له عن شبه الجزيرة « شريك » .

اتفق المؤرخون لاعمال أبي المهاجر في الفتوح بأنها كانت على جانب عظيم من الاهمية والخطورة ، فانه أول من جعل غايته الاخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم العرب والاسلام فيها ، فهو لم يعاهد الروم على ان ينصرف على قرطاجنة كما فعل غيره لقاء فدية من المال وانما طلب اليهم ان يتنازلوا له عن جزء من البلاد لانه لم يطلب الغنم والعودة ، وانما كان يرغب في اقام فتح البلاد ، وان سياسته كانت ترمي الى تقريب البوير وكسبهم بالمودة وحسن المعاملة .

حملة عقبة بن نافع الثانية

قضت حكمة الباري ان يبقى وعد معاوية لعقبة معلقاً حتى بعد وفاة الخليفة نفسه ووفاة والي مصر مسلمة بن مخلد أيضاً . وما كان لعقبة أن يأس من مجيء ساعة ينفذ فيها وعد معاوية ، وقد حان الوقت الآن فرجع عقبة الى عمله بأمر صدر من اليزيد بن معاوية وقد مات المعارض - مسلمة - فبدأ عمله بأفريقية سنة ٦٢ هـ - ٦٨٢ م وان أول ما قام به من الاعمال هو الاعتناء بمؤسسة القيروان فأعاد عمرانها واقتص من مهيته أبي المهاجر فأوثقه بالحديد ، ويقال انه وجد بخزنيته مائة الف دينار ، وأخذه معه هو وكسيلة (الملك البويري) وتوجه بها في خمسة عشر ألفاً من جنوده الى فتح البلاد وتدوين أهلها ، فتبع طريق السهل ونجى السير على الهضبة الوعرة ففتح في طريقه مدينة « باغاية » - شرق جبل اوراس قرب خنشلة - وذلك حيث تحصن له البوير والروم لمقاومته ، فقاتلهم قتالاً شديداً وغنم منهم خيلاً لم ير أصلب منها ولا أسرع فهي من نتاج خيل اوراس ، ومنها توجه الى مدينة

لميس - لميز ذلك الحصن البيزنطي المعروف وكانت المقاتلة هنالك أشد وأعظم وأصاب بها مغام كثيرة ، وكره المقام عليها فوصل الى الزاب وأحاط بمعاصمه يومئذ « اذبة » على مرحلة شرق المسيلة وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، وهنالك احتشد له جيش العدو فقاتلهم بها قتالاً عنيفاً وما زال بهم حتى بدد شملهم فأطاعوه ، ومنها توجه الى « تهرت » وكان بها حصن بيزنطي قديم اقتتل فيه العرب والروم والبربر فلم يكن لهنّ طاقة بالعرب إلا ان الامر اشتد على المسلمين أكثر من ذي قبل لقلتهم أمام جيوش العدو الجاراة ، ومن هناك انحدر عقبة من الهضبة الى السهل الساحلي وسار الى المغرب الاقصى وعرج في طريقه على تلسان ودخل طنجة ففتحها واحتل مدن المغرب وتقدم الى التخموم حتى بلغ المحيط الاطلسي وكان بصحبته أبو المهاجر ، وقد حكى هذا عن أميره فقال : بلغ عقبة بن نافع في غزواته الى السوس الادنى والسوس الاقصى والبحر المحيط وأدخل فيه فرسه حتى بلغ الماء لبب فرسه وشهر سيفه ورفع بصره الى السماء وهو يقول بأعلى صوته : يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ! ...

واقعة تهودة

عاد عقبة أدراجه بمد ان اعترضه البحر عن التقدم في الغزو والفتح راجعاً الى القيروان ، وكان معه أسيره كسيلة فجعسه في مهانة وذل . وعلم به أبو المهاجر المكبل يومئذ بالحديد فتعفى عقبة عن إهانة الملك البربري قائلاً له : « ما هذا الذي صنعت ؟ ... كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يستألف جبابرة العرب كالاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن ، وأنت تجيء الى رجل هو خيار قومه في دار عزه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه ! ... توثق من الرجل فاني أخاف فتكه ! » فلم يلتفت عقبة لنصيحة دينار واستمر على اهانة كسيلة ، واستطاع هذا ان يفر دون ان يشعر به عقبة وقد عرف الطريق الذي يسلكه عقبة في

مسيره الى القيروان من قوله للجند قبل ذلك : امر الى مدينة نهودة
والى مدينة بادس اعرف ما يكفيها من العدة والجوش - وكانا في
ذلك الوقت من اعظم بلاد الجزائر - فاعترضه هنالك كسيه في قومه
وقد نكثوا عهدهم ، واستمر عقبه متوجهاً الى القيروان وقد دبرت له
مكيده اخرى في طريقه حينما كان سائراً الى المغرب الاقصى فكان
هناك من تعقبه يردم الابار خلفه ليقطع عليه سبيل العودة ويضل عليه
الطريق ؟ وما بلغ عقبه مدينة طنبه : بريسكة حتى اطمان على نفسه
فأذن لبعض الفرق من الجند بالتقدم امامه والسبق الى دار الامارة :
القيروان ، ولم يبقَ مع عقبه يومئذ من الجند سوى نحو ثلاثمائة فقط ؛
وكان فيما حضر مع عقبه من بربر الجزائر في هذا الفتح وانتهى معه
الى البحر المحيط بالسوس : قبيل بني عبد الواد ومنهم ملوك تلمسان
فيما بعد - فانهم ابلوا في هذه الغزوة البلاء الحسن فدعا لهم عقبه واذن
في رجوعهم قبل استئام الزحف ^(١) . وحينئذ اسرع اليه البربر والروم وقد
سنت لهم الفرصة يومئذ لقتاله وظهر كسيه على رأس الجند المحارب .

ويذكر ابن الاثير ان ابا المهاجر حين رأى تحفز كسيه ومسيره نحو
المسلمين قال لعقبه : « عاجله قبل ان يقوى جمعه » ثم يقول « فزحف
عقبه فتنحى كسيه عن طريقه ليكثر جمعه ، ولقد سئل كسيه من طرف
قومه عن انحرافه عن طريق عقبه ف قيل له لم تنحى من بين يديه ونحن
في خسة آلاف ؟ فقال « انكم كل يوم في زيادة وهم في نقصان ، ومدد
الرجل قد افترق عنه فاذا طلب افريقية زحف اليه » ولما رأى ذلك
ابو المهاجر قتل بقول ابي محجن الثقفي .

كفى حزناً ان ترتدي الحيل بالقنا واترك مشدوداً عليّ وثاقيا
اذا قت عثاني الحديد واغلقت مصارع من دوني تصم المنادبا

وحينئذ ادرك عقبه خطاه في سياسته مع العاهل البربري كسيه ولات

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٥٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

حين مناص .. فأمرع الى ابي المهاجر فأطلقه وقال له : الحق بالمسلمين
 ولم بأمرهم وانا اغتيم الشهادة ، فأنت دينار من قول عقبة واجابه بقوله :
 وانا ايضاً اغتيم الشهادة ! . ووفقاً جنباً لجنب مستبشرين في كفاح العدو
 وترجل القوم وكسروا جفان سيوفهم ونزل الصبر واستلهم عقبة واصحابه ،
 رضي الله عنهم ، ولم يفلت منهم احد وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة
 والتابعين استشهدوا في مصرع واحد وفيهم ابو المهاجر (تركه) اصحابه
 في اعتقاله فأبلى ، رضي الله عنه ، في ذلك اليوم البلاء الحسن واجداث الصحابة
 رضي الله عنهم اولئك الشهداء عقبة واصحابه بمكانهم ذلك من ارض الزاب
 لهذا العهد (بالجنوب الشرقي من مدينة بسكرة - الجزائر -) وقد جعل
 على قبر عقبة اسمة ثم جصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه وهو في
 عدد الزارات ومظان البركة بل هو اشرف مزور من الاجداث في بقاع
 الارض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ
 احد مد اقدم ولا نصيفه ^(١) ، وكان استهادهم رضي الله عنهم سنة
 ٦٣ هـ - ٦٨٢ م .

ويرى بعض المحققين من علماء الآثار وتحف الفن ان باب مسجد سيدي
 عقبة القائم اليوم بنفس الضريح هو من صنع عهد عاهل الدولة الزيرية
 الامير المعز بن باديس الصنهاجي ، وذلك اعتماداً منهم على ما دلت عليه
 قواعد هذا الفن ودلائله المتكررة على قرائن الاحوال والاستنتاجات
 الفنية ^(٢) .

تملك كسيطة

بعدما انتصر كسيطة على الفاتح العربي عقبة في واقعة نهودة المشهورة ،

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٦ وج ٦ ص ١٤٦ و ١٤٧ والمترجم لبكري ص ٧٤
 ط الجزائر ١٩١١ م والاستبصار ص ٤ طينا ١٨٥٢ م وانظر ابن الاثير والتويري ايضاً .

Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musul-
 man - Alger 1957 — p. 151 (٢)

ذهب توأ الى مركز القيادة العربية وعاصمة الاسلام الجديدة بافريقية :
القيروان ، وكان بها يومئذ زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة ؛ فاعتزم
هذا اولاً على المقاومة ثم عدل عنها نزولاً عند رأي الجماعة وتدبير اولى
الشورى ؛ فانقل منها سنة ٦٥ هـ - ٦٨٤ م مرتحلاً الى يرقة . وترك افريقية
ثاراً تلظى ، ففشّت الردة وكثرت المنازعات والمشاغبات السياسية وبقي
الامر على ذلك الى اتمام الفتح على عهد حسان ابن النعمان .

وبخروج زهير من القيروان خرجت افريقية عن ايدي المسلمين ووقعت
بيد كسيلة البربري النصراني ، فلبث فيها ملكاً طيلة هذه الفترة التي بين
استهاد عقبة وعودة زهير بن قيس البلوى ، اي مدة اربع سنوات ،
بما دعا العرب الى فتحها من جديد والزحف اليها سنة ٦٩ هـ - ٦٨٨ م .

.

أمراء افريقية وحكامها

تاريخ التولية

عمر بن العاص	٢٢ هـ - ٦٤٣ م
عبد الله بن سعد بن أبي سرح	٢٧ هـ - ٦٤٨ م
معاوية بن خديج الكندي	٤٥ هـ - ٦٦٥ م
عقبة بن نافع الفهري	٤٩ هـ - ٦٧٠ م
أبو المهاجر دينار	٥٥ هـ - ٦٧٥ م
عقبة بن نافع (للمرة الثانية)	٦٢ هـ - ٦٨٢ م

الخلفاء

تاريخ الولاية

عمر بن الخطاب	١٣ - ٢٣ هـ	٦٣٤ - ٦٤٤ م
عثمان بن عفان	٢٣ - ٣٥ هـ	٦٤٤ - ٦٥٦ م
علي بن ابي طالب	٣٥ - ٤٠ هـ	٦٥٦ - ٦٦١ م
معاوية بن ابي سفيان	٤٠ - ٦٠ هـ	٦٦١ - ٦٨٠ م
يزيد بن معاوية	٦٠ - ٦٣ هـ	٦٨٠ - ٦٨٣ م
معاوية الثاني	٦٣ - ٦٣ هـ	٦٨٣ - ٦٨٣ م

جَدْوَل تَارِيخِي

٢١ - ٦٣ هـ

٦٤٢ - ٦٨٢ م

أهم الاحداث بالجزائر على عهد الفتح الاسلامي	تاريخ الحوادث
طلیعة عقبة بن نافع الفهري بافريقية ، في شهر ذي العقدة - سبتمبر .	٦٤٢ = ٢١ م
مسير عمرو بن العاص الى بركة وفتحها وفتح فزان .	٦٤٣ = ٢٢ م
فتح طرابلس وصبرة - بعث ودان - عود عمرو من افريقية .	٦٤٣ = ٢٣ م
حملة عبدالله بن سعد بن ابي مروح على افريقية .	٦٤٧ = ٢٧ م
موقعة سيطة .	٦٤٧ = ٢٨ م
بعث عقبة التمهدي الى الصحراء .	٦٦٣ = ٤١ م
حملة معاوية بن حديج على افريقية .	٦٦٥ = ٤٥ م
حملة عقبة بن نافع الاولى على افريقية .	٦٦٩ = ٤٩ م
اختطاط القيروان .	٦٧٠ = ٥٠ م
ولاية ابي المهاجر دينار على افريقية وفتح المغرب الاوسط : الجزائر .	٦٧٤ = ٥٥ م
حصار ابي المهاجر لقرطاجنة .	٦٧٨ = ٥٩ م
بدء ولاية عقبة بن نافع الثانية ، وحملة الكبرى على الشمال الافريقي كله .	٦٨٢ = ٦٢ م
موقعة تمودة واستشهاد عقبة - انتصاب كسيلة على عرش القيروان .	٦٨٣ = ٦٣ م

مُواصلَة الفتح

حملة زهير بن قيس البلوي

إذا كان اولو الامر في الدولة الاسلامية مخيرين فيما مضى بين ان يواصلوا الفتح او ينصرفوا عنها ، وإذا كانت الغزوات على المغرب قد ظلت الى الآن رهناً برغبة الخليفة او الحاح عامل مصر ، فقد اصبحت اعادة ما كان قد تم فتحه الى الطاعة ، وانعام فتح بقية البلاد كما قال الاستاذ حسين مؤنس : ضرورة لا بد منها ، لا للمسلمين وحدهم بل للمغرب واهله كذلك ؛ فلقد ظل رجال الامبراطورية البيزنطية بعد استشهاد عقبة يحتلون الولاية القنصلية احتلالاً قوياً والشريط الساحلي من الولاية الداخلية والجزء الاكبر من نوميديا ، وظل الروم على اتصال بالملك البربري كسيلة وقد عاد اليهم نشاطه لاستعادة مملكتهم بهذه البلاد فتنبه لذلك كله الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، ورغم ما كان يحيط به في الشرط من ثورة ابن الزبير واضطرابات الشيعة فلقد امر بتولية زهير بن قيس البلوي اميراً على افريقية ، سنة ٦٩ هـ - ٦٨٨ م وبعث اليه بأربعة آلاف جندي عربي انضمت الى جيوش زهير التي تبلغ الالفين من البربر ؛ وكان زهير بعد منصرفه من القيروان مقيماً ببرقة فسار على طريق الساحل حتى افضى الى جوار القيروان وعسكر بجوارها ؛ وما كاد كسيلة يتصل بجبر حملة زهير هذه حتى جمع اليه قومه وحشد البربر والروم واحضر اشراف اصحابه وقال : وقد رايت

ان ارحل (من القيروان) الى ممش^(١) فانزلها فان بالقيروان خلقا كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا تغدرهم وغخاف ان قاتلنا زهيراً ان يثب هؤلاء من ورائنا ؛ فاذا نزلنا ممش امنام وقاتلنا زهيراً فان ظفرنا بهم تبعناهم الى طرابلس وقطعنا اثمهم من افريقية وان ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا ، فأجابوه الى ذلك ورحل الى « ممش » وخرج زهير زاحفاً بجنوده الى ممش ، فكانت هناك المعركة الحاسمة التي انجلت عن قتل كسيلة في اصحابه وفرار من بقي منهم معتصماً بالجبال فادركهم جيش العرب فقتلهم ، وبعدما جال زهير في ارجاء اعمال القيروان ورأى ان مهمته قد انتهت بأخذ النار من قاتل عقبة وتخليص المسلمين من عدوم ولى مسرعاً الى بركة قائلاً : اني ما قدمت الا للجهاد وأخاف على نفسي ان تميل بي الى الدنيا فأهلك . ولست ارضى بالدنيا لاجل ملكها ورغد عيشها ؛ وتنازل عن ولايته عن طوعية من نفسه ولكن الروم اغتسموا خلو البلاد من امير وتوغل المسلمين في النواحي الغربية بجبهات ملوية فبادروا الى استمداد قيصر القسطنطينية فأمدم بأسطول ضخيم عرجوا به على بركة فأبصرهم زهير هنالك بأيديهم الاسرى من المسلمين ، فأقام على محاربتهم حتى استشهد هو واصحابه في حومة الوغى رحمهم الله .

حملة حسان بن النعمان

كانت مقامة زهير بافريقية متجهة في الغالب الى ناحية بربر الشمال ، وهم أقوى عناصر المقاومة يومئذ ، وهم الذين اسقطوا عقبة في الميدان ، ولكنه مع ذلك اغفل ناحية الروم ، وهم عنصر المقاومة الثاني ، فلم يحفل لهم لان ربحهم كانت قد سكنت منذ زمن طويل ولم يكن يتوقع ان يستيقظ الروم مرة اخرى كما قال حسين مؤنس ويعودوا الى محاولة استعادة البلاد ، ففاجأوه هذه المفاجأة التي استشهد فيها ببركة ، لهذا كان مقتله

(١) ممش او مسم Mamma مدينة بيزنطية حصينة قديمة تقع بجنوب القيروان كانت من عارس الرباط الثاني الكبرى

منهياً خلفه من بعده الى انه لا يتم هذا الفتح الا اذا عمل على استئصال
العنصر البيزنطي من البلاد ومن هنا كان على الفاتح الجديد ان يتوجه
بهتة نحو الروم .

يذكر المؤرخون من العرب حلقة حسان هذه عدة تواريخ فهم يختلفون
فيها ما بين سنة ٧٣ الى سنة ٧٩ هـ على ان الراجح من تلك الروايات
كلها هو سنة ٧٦ هـ ٦٩٥ م حسباً يؤيد ذلك مؤرخو الروم ايضاً فهم
متفقون على ان حسان هاجم قرطاجنة هجومه الاول في هذه السنة .

سار حسان مسرعاً الى افريقية بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان
وكان عدد جيشه اربعين ألفاً وهو اعظم عدد عرفته افريقية لجيش العرب
منذ ابتداء الفتح ، ولم يشهد الافارقة جيشاً اسلامياً عظيماً قبل هذا ،
فاجتاز بيرة وطرابلس وهناك وجد نقرأ من المسلمين - ما بين عرب
وبربر - فأخذهم معه وسار اولاً الى القيروان ومنها حل على قرطاجنة
اذ لم تزل يومئذ بيد الروم لم يغزها المسلمون بعد لحصانها واتصالها
بالبحر وقربها من صقلية حيث كانت الامداد تأتيها بسرعة ، فحاصرها
حسان مرتين فاستغاث الروم بملك اسبانيا القوطي^(١) الذي ازعجه اقتراب
العرب من بلاده ، فرجع اليهم حسان للمرة الثالثة فقصى عليهم القضاء
الاخير وامر بهدم المدينة وتخريبها حتى لا يبقى للروم ولا للبربر مطمع
في التستر بمجدرانها وحصونها ، وبذلك قضى على آخر معقل للروم بهذه
البلاد ثم عاد الى القيروان ، وانطلق الروم على وجوههم ملتجئين مشردين
في البلاد فدخلوا بونة - من القطر الجزائري - وغيرها بما وراء البحر
كصقلية وسردانيا والاندرلس ...

يوم البلاء ! ...

اطلق المؤرخون هذا الوصف على ذلك اليوم الذي التقى فيه حسان

(١) القوط هم قوم من الشعوب البربرية الجرمانية التي هبطت من شمال اوروباني اوائل
القرن الخامس الميلادي فغزت مروح الامبراطورية الرومانية وكان من نصيبها اسبانيا .

بالكاهنة وما كان اطلاق . المؤرخين ذلك من تلقاء انفسهم ، كلا ، وانما هي تسمية اقتصت بهذا اليوم منذ جريان تلك الحوادث الماثلة فيه : حوادث الكاهنة وحسان ، وذلك - لا شك - لهول الموقف وما لحق الناس يومئذ من الفرع الاكبر ! ...

ما كادت الكاهنة تتحقق من اتصال العرب بالجزائر ، وما كادت تتسامع بمسير حسان اليها حتى رحلت من الجبل - الاوراس - في عدد لا يحصى من قومها جراوة ، وجراوة هذه هي احدى قبائل البتر الحضر المقيمين في الاوراس ، فحطت رحالها عند باغاية ، وهي مدينة حصينة على سفح الاوراس قرب خنشلة ، تقوم من الجبال مقام الباب من الدار ، وهي لا شك تقصد من ذلك ان تكون على مقربة من مواطن جراوة الاصلية في الاوراس لكي تستمد منها العون او تطلب النجاة فيها اذا دارت الدائرة عليها ، وكان لمجرد وصولها الى باغاية ان امرت بهدم اسوارها وحصونها خشية من تحصن العرب بها ، ولو انها استبقتها لقومها لكان اولى بها في سياستها الحربية من ذلك التحطيم ، فقد ظهر منها بذلك انها لا تحسن الخطط الحربية ، ثم سارت من هنالك الى مدينة (سكتانة) (مسكيانة) على مرحلة من باغاية وبجاعة بعمالة قسنطينة .

وسار حسان من القيروان حتى دخل تبسة ومنها اتجه نحو الشمال الشرقي في واد كثير النهيرات والاخوار والزروع حتى ادرك وادي نينى وهو الذي سماه ابن عذارى بوادي سكتانة ، ويسميه ابن خلدون مسكيانة ، اي بين عين البيضاء وتبسة . ويقول باقوت ان نينى واد شهير في طرف افريقية ، وهناك عسكر حسان ، وجعل ينتظر الكاهنة ، وكانت المعركة خسارة على العرب وهم بعد بمجهودون من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها فانهمزوا انهمازاً شنيعاً وامرت منهم الكاهنة غانين رجلاً ، ثم اطلقتهم الا واحداً خالد بن يزيد القيسي وقيل العبيسي فتبنته لما رآته عليه من الجمال والشجاعة ، ولم تكف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الاوراس بل تبعت حسان حتى اخرجته من حدود افريقية واطمأنت على سلطانها منه ثم عادت ادراجها .

حسان بركة

تقهر حسان الى بركة ، وبني هناك قصوراً سميت بقصور حسان ، ومنها كتب الى الخليفة يعرض حاله عليه ويسط له ما حدث ، وبما جاء في رسالته هذه قوله : ان امم الغرب ليس لها غاية ، ولا يقف احد منها على نهاية ، كلما بدت امة خلفتها امم ، وهم من الحفل والكثرة كساعة النعم ... فعاد اليه الجواب من امير المؤمنين يأمره بالاقامة حيث وافاه الجواب . فذلك ما حل حسان على المكث يومئذ ببركة ثلاث سنوات وبضع شهور ، وملك الكاهنة افريقية كلها واساءت السيرة في قومها وعسفهم وظلمهم .

الكاهنة في تحطيم وتخريب البلاد

يبدو أن الكاهنة لم تدرك تطور سياسة الفتح بعد مقتل عقبة وبعد قيام مدينة القيروان ، فانها كانت ترى ان العرب لا يزالون يريدون من الفتوح الا امراً واحداً : الاموال والفنائم والاسلاب فقط ، وقد فاتها انهم اليوم غيرهم بالامس وان خطتهم السياسية في الفتح تغيرت منذ انشأ عقبة القيروان وسقط بنفسه شهيداً في الميدان ، فانهم اصبحوا لا يريدون من مغازيم الا استكمال الفتح بادخال الاسلام على اهل البلاد ، ولكن الكاهنة لم تشعر بذلك كله رغم كهانتها ! ... فلما رأَت ابطاء العرب عنها قالت للبربر ان العرب انما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن انما نريد منها المزارع والمراعي ، فلا نرى لكم الا خراب بلاد افريقية كلها حتى يئس منها العرب فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر الدهر ، فوجهت قومها يقطعون الشجر وهدمون الحصون وذلك ما يسمى بسياسة الارض المحترقة La Terre Brulée مثل ما فعلت روسيا في حوادث نابوليون (١٨١٢ م) ... وقد كانت افريقية على ما يروى ظلاً واحداً من طرابلس الى طنجة مسيرة الفمى ميل في مثله ، كلها مدائن منتظمة وقرى متصلة حتى انه لم يكن في اقليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصوناً منها ؟ ...

انقام الفتح

لقد اثار صنيع الكاهنة هذا احقاد الكثيرين من اهل البلاد وأدركوا انها سياسة خرقاء ، ففهم من أظهر الاعتراض فأرهقته ، وفهم من سالم على مضض ، وعم الاستياء البلاد ، الامر الذي بلغ ببعضهم ان سعى في استخدام حسان منتصراً له ، وجاءت الحامية من دار الخلافة سنة ٨١ هـ - ٧٠٠ م فكتب حسان يومئذ خالد بن يزيد في ذلك ، فأجابه في ظهر الكتاب : « ان البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندم فاطور المراحل وجد في السير ، بما يدل على ان خالداً بقي عند الكاهنة عينا على البربر ويومئذ سار حسان قاصداً معقل الكاهنة بالاوراس ، فلما قرب من البلاد لقيه جمع من أهلها يستغيثون به ضد الكاهنة فقدموا اليه الاموال والطاعة ، فسرّه ذلك ، وكانت له هذه أول خطوة في تحقيق النجاح من غزوته .

ولما رأت الكاهنة ما أصبح عليه أهل البلاد من النفور عنها والاقبال على الفاتحين العرب ، تحققت الحية وتوقعت السقوط بيد حسان فاستنكفت ان تسلم نفسها ووجدت ذلك عاراً عليها فاستأمنت لولدها من حسان بواسطة خالد وأخذت هي في اعداد ملجأ لها بجبل اوراس ، وهناك كانت المقاتلة بين الفريقين في جيوش عظيمة من كلا الطرفين ، فانتصرت يومئذ الجيوش العربية وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بسر تعصن بها فأصبحت القلعة لاصقة بالارض فمضت تريد جبال اوراس ومعها صنم كبير من خشب تعبدته فتبعها حسان حتى أدركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة ، ونزل الموضع الذي قتلت فيه ، ويقول ابن خلدون : انها قتلت بمكان السر المعروف بها لهذا العهد بجبل اوراس واستأمن اليه البربر على الاسلام والطاعة ، وعلى ان يكون منهم اثنا عشر ألفاً مجاهدين معه فأجابوا وأسلموا وحسن اسلامهم ، وعقد للاكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلى جبل اوراس^(١) وكان الفراغ من وقائع الكاهنة في رمضان سنة ٨٢ هـ (اكتوبر ٧٠١ م) .

(١) معالم الايمان ج ١ ص ٦٠ - ٦١ وتاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ .

وكثيراً ما رأينا علماء الغرب المفكرين وكبار الكتاب منهم بأسفون جد الاسف على عدم متابعة الفتح الاسلامي وعدم تبسره للعرب في اوروبا ، نظراً لما جاء به هؤلاء الفاتحون من الرقي والحضارة ، فهذا الدكتور غوستاف لوبون يقول : « ... يروى ان موسى بن نصير فكر بعد فتح اسبانية في العودة الى بلاد الغول - فرنسا - والمانيا وفي الاستيلاء على القسطنطينية وفي اخضاع العالم القديم لاحكام القرآن ، وانه لم يعقه عن ذلك العمل العظيم سوى امر الخليفة اياه بان يعود الى دمشق ، فلو وفق موسى بن نصير لذلك لجعل اوروبا مسلمة ولحقق للامم المتدنة وحدتها الدينية ولانقذ على ما يحتمل اوروبا من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه اسبانيا بفضل العرب . » وانصت الى « كلود فارير » الاديب والكاتب الفرنسي الكبير وهو احد اعضاء مجمع الاكاديمي بباريس كيف لم يخف حزنه وجزعه الشديد من الهزيمة التي اصابته العرب في وقعة « بواتي » بارض فرنسا ، وهي الوقعة المشهورة ببلاط الشهداء ، فاسمع اليه اذ يقول : « في سنة ٧٣٢ هـ - ١١١٤ م حدثت فاجعة ربما كانت من اسوأ الفجائع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى ، وكان منها ان غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون او ثمانية ان لم نقل اكثر - طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد الاعلى عهد النهضة (لارونيصانص) ... هذه الفاجعة هي التي اريد ان امقت حتى ذكرها ، واعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من بلدة (بواتي) - قريباً من بلدة (نور) في مقاطعة (شامبانيا) اولئك البوابرة المحاربون من الافرنج بقيادة الكارلونجي (شارل مارتل) على كتائب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن التفاوضي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة فانهمزموا راجعين ادراجهم ، في ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدينة ثمانية قرون الى الوراء ... ما عساها تكون بلادنا الفرنسية لو انقذها الاسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح ؟ ... وهكذا نجد مثله الاديب (هانري شامبوت) مدير مجلة (ريفو باري لثبتي) يكشف لنا عن ندامة التاريخ وامتعاذه الشديد لهذه النتيجة الحاصلة

للرب في اوربا في هذه الوقعة فيقول : ولولا انتصار جيش شارل
مارتل الممجي على تقدم الرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات
القرون الوسطى ولما اصيبت بفنائها ... ولولا ذلك لما تاخر سير
المدنية ثمانية قرون (١) ! ...

المجتمع الجزائري

كان سكان الجزائر كثيرهم من بقية سكان اقطار المغرب - على عهد
الفتح الاسلامي - ثلاث طوائف : البربر ، والبيزنطيون ، والافارقة ،
فالبربر سكان البلاد الاصيلون والغالية المعطى بها ، وهم ينقسمون بصفة
عامة الى قسمين كبيرين : الاول البربر المستقرون وهم سكان السهول
الساحلية وبعض الاراضي الصالحة للزراعة في الداخل المنسوت بالبربر
البوانس ، وقد اطلق عليهم الرومان اسم الموريطانيين كما اطلقوا على اسم
بلادهم موريطانيا القيصرية - اي القطر الجزائري - ، والقسم الثاني البربر
الراحل ، وهم الذين يسكنون البوادي والجبال ويعيشون عيشة قريية بما
كان عليه الرب الجاهليون ويسمون البربر البتر ، وهم الذين اطلق عليهم
الرومان اسم النوميديين اي سكان نوميديا وهي جبال الاطلس الوسطى .
والطائفة الثانية وهم البيزنطيون وكانوا يومئذ حكام البلاد وسادتها امتد
سلطانهم على افريقية - تونس - وربما شمل بعض اجزاء من سواحل
المغربين - الاوسط والاقصى - وكان عددهم قليلا ، ولكنهم كانوا على
درجة كبيرة من الحضرة والمدنية ، وكانت ديانتهم المسيحية ، وكان
مركزهم الرئيسي ميناء قرطاجنة ، اما الطائفة الثالثة وهم الافارقة وهم
جماعات من اهل البلاد خالطت البيزنطيين والرومان قبلهم واخذت حضارتهم
ولغتهم ودينهم وربما تزوجت معهم ، وكانوا قلة في البلاد ولكنهم كانوا

(١) حضارة الرب للفوستاف لوبون ص ٢٢ وقصة الادب في الاندلس لمحمد عبد
خفاجي ج ١٠ ص ١١ - ٢٢ ط القاهرة ١٩٥٥ م

يتولون الوظائف الكبيرة ويقومون بالتجارة وشؤون المال ، ومن هنا فقد كان لهم دور عظيم في تاريخ البلاد قبل الاسلام^(١) .

تبكيو البربر بالاسلام والعروبة

يبدو من دراسة تاريخ الفتح العربي للمغرب ان هناك طوائف وقبائل كثيرة من البربر اقبلت على اعتناق الاسلام من أول وهلة بدون عناء كبير ولا مشقة ، وان أغلب هذه القبائل هي من فصيلة البتر كقبيلة زناتة وبرغواطه ونفوسة ولواته وهواراة الخ ... وأكثرهم من أهل الجنوب ، وذلك لشدة الشبه بين هذه القبائل الجنوبية والجاليات العربية ، سواء ذلك في حياتهم البسيطة الساذجة أم في أذواقهم وميولهم واتجاهاتهم السياسية ، وقد لاحظ البربر في المسلمين الفاتحين الاستقامة والعدل والمساواة ، فرأوا فيهم المتقد الوحيد بما هم فيه من الميز العنصري والجور السياسي والاضطهاد الديني والفسوق الشاملة ، ومصدق ذلك ما لقيه العرب في البربر من النمرة والتجدة في حوادث كسيلة بتهودة والكاهنة بالاوراس ، فان الذي حمى الامرى المسلمين عند استنهاد عقبة ، هو ابن مصاد صاحب قصعة والذي تقدم في طليعة جيش حسان الذي أرسله على الكاهنة هو هلال بن شروال اللواتي مع محمد بن أبي بكر في جماعة من البتر ؛ والذي وفد على الخليفة عثمان بن عفان وأسلم على يديه منذ الساعة الاولى هو رئيس مغراوة وسائر زناتة : الملك صولات بن وزمار ، واسلام كسيلة ملك أوروبة بجبال الاوراس لاول ملاقاته مع أبي المهاجر ، وكاد الاسلام يومئذ يعم افريقية أجمع لولا تلك الاساءة التي أساءها عقبة لكسيلة التي انتجت قتله ووقف معها سير الفتح العربي اياماً ... واسلام ولدي الكاهنة الخ ... وضرورة ان اسلام هؤلاء الرؤساء والملوك : ابن مصاد ، وصولات ، وكسيلة تبعه اسلام قومه معهم اذ الناس على دين ملوكهم ؛ وللبلاذري رواية في ذلك تؤيد لنا

(١) تاليف حين مؤنس على تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ١٩ ط القاهرة ١٩٥٨ م

هذا التكبير في البربر للاسلام منذ ايام الفتح الاولى ؛ قال : ان عمرو بن العاص ارسل الى عمر بن الخطاب كتاباً يعلمه فيه انه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ زويلة ، وان من بين زويلة وبرقة اسلم كلهم ، (فتوح البلدان ص ٢٢٤) فكل ذلك وغيره يجعلنا على يقين من اقبال البربر على الاسلام من اول مرة ؛ وهذا لا يمنع مما رواه ابن خلدون عن محمد بن ابي زيد من ارتداد البربر عن الاسلام اثنتي عشرة مرة ؛ وانهم لم يستقروا على الاسلام الا في عهد موسى بن نصير وقيل بعد ، اجل قد يكون ذلك صحيحاً بالاضافة الى الفتوات التي تخللت ايام الفتح والاضطرابات التي كانت تحدث اثناء ذلك بما لا يخلو منه عصر من عصور الغزوات والحروب ؛ مع خلو الوطن يومئذ من مرشد او أمير ، فكثيراً ما رأينا الغزاة الفاتحين يعودون الى اوطانهم بسرعة بدون ان يبقى في البلاد احد منهم ! ... ولا ننس بعد المسافة بين افريقية وبلاد الاسلام ؛ ولا ينكر كذلك ما كان يصيب البربر احياناً من بعض الولاة من العنف والارهاق ؛ فسواء أكان البربر أم غيرهم على هذه الحال فانهم - حتماً - يرتدون ، ولكن ذلك كله لم يؤثر في البربر من ناحية الدين ؛ بل كانت اغلب ثورتهم سياسية اكثر منها دينية . اما المسيحية فقد تضاءل شأنها حتى كاد امرها ان يذهب . واما عن التكبير بالعروبة وتأثير العرب العظيم في البربر فاننا لا نستطيع ان نأتي ببرهان اوضح مما ظهر من معجزات البيان على لسان القائد البربري طارق بن زياد النفزي في تلك الخطبة المؤثرة البليغة التي سجلها التاريخ للعلظة والاعتبار ؛ هي خطبته امام جيشه المغوار يوم تقدم به لفتح الاندلس ^(١) .

ويكشف لنا غوستاف لوبون عن اعجابه البالغ من تعرب البربر وتعريب لغتهم البربرية فيقول : « وتعريب البربرية كما تعرب البربر انفسهم مع ذلك ، فيتألف نحو ثلث البربرية التي يتكلم بها سكان منطقة القبائل

(١) انظرها في كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١١٧ ط القاهرة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٧٧ ط بولاق ١٢٩٩ هـ .

الكبرى - الزاوية بالجزائر - من كلمات عربية ، فأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة أخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذي لم يكتب مثله لأمة أخرى ، ومن هذه الأمم الاغريق والرومان الذين دام سلطانهم في شمال افريقية دوام سلطان العرب من غير ان يتفق لغتهم اي اثر في اللغة البerberية ^(١) .

وتوضح اسباب هذا التعرب والتعريب وتشرح السر المكتوم في ذلك يجلد الدكتور « فيليب حتي » يقول : ان سواد البوبر الذين كانوا يسكنون بعيداً عن الشاطئ لم يتأثروا بالحضارة الرومانية او البيزنطية لانها حضارة غربية عن اولئك الافريقين الرحل ، وان الاسلام قد امتاز بطباع اجتذاب البوبر ، وان العرب وثقوا صلاتهم بأبناء عمومتهم فتحققت معجزة الاسلام في استعراب اللغة البوبرية وتحويل البوبر الى دين الاسلام وان دم العرب وجد مجاري بشرية « Ethnic » جديدة صالحة لتغذيته كما وجدت اللغة العربية حقلاً واسعاً للامتداد وتمكين الاسلام من قواعد جديدة تعينه على الصعود الى سيادة العالم ^(٢) .

وكان مما عمل على تثبيت قدم العروبة في البوبر ما انتشر بينهم من طوائف الجند العربي واختلاطهم بالوافدين عليهم من عرب المدينة وعرب الشام لغزو الاندلس ؛ وما بثه الامراء في القبائل من معلمي القرآن والفقه . فقد حكى الدباغ في معاله عن عياث بن شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلّة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد ارخاها من خلفه ^(٣) . فاذا علمنا ان سفيان بن وهب هذا دخل افريقية سنة ٧٨ هـ عرفنا ان الكتابات كانت قافمة قبل ذلك التاريخ بالقيروان ؛ ولا تنس

(١) حضارة العرب من ٣٠٥ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م

(٢) محمود كامل : الدولة العربية الكبرى من ١٣٨ - ١٤٤ ودائرة المعارف الاسلامية مادة : بوبر

(٣) معالم الايمان ج ١ ص ١٢٠ ط تونس ١٣٣٠ هـ

كذلك ما كان للبعثة العلمية التي بعث بها عمر بن عبد العزيز الى افريقية من الاثر الحسن في نشر العروبة وخدمة الاسلام بين البوبر . قال بيروني : احثار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البوبر في ديانتهم وعاداتهم واخلاقهم ؛ ويوجه ذلك بعضهم بأن العرب والفنيقيين متقاربون في اللغة ، ومتحدرون في الاصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطباع .

وقد سار استعرا ب البوبر قدماً خطوات جبارة وتم الاستعرا ب هذا فبا بعد في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي بقدوم بني هلال ، ولذلك فان المتوفرين على دراسة تاريخ البوبر يقرون انهم ما زالت سلاتهم هي العنصر الغالب في شمال افريقية ولكنهم تغيروا تغيراً عظيماً لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم في اغلب الاحيان ، فهم لم يعودوا يذكرون شيئاً عن اصلهم الحقيقي او لغتهم او عاداتهم .

ومعها كان الامر فقد لاقى العرب الامرين في فتح بلاد البوبر واعتبرهم في ذلك مصاعب ومشاكل عديدة لا نظير لها فيما فتحوا من سائر الاقطار ، فلم يتورع البوبر عن مقاتلة العرب والاستبسال في مقاومتهم ولقد استردوا استقلالهم مرات ، وخاض العرب معهم معارك هائلة ، ولم يقدر لهؤلاء الفاتحين تمام الانتصار والسيادة على شمال افريقية الا بعد نصف قرن من تاريخ الفتح .

النظام والادارة

قضى المغرب مدة وجيزة من الزمن تابعاً في ادارته لولاية مصر الى ان تولاه معاوية بن حديج فأصبح ولاية مستقلة ملحقة رأساً بدار الخلافة .

وفي ولاية حسان بن النعمان اختطت الخطط والتراتيب والنظم السياسية والادارية ، فهو الذي دون الدواوين وصالح على الحراج وكتبه على عجم افريقية وعلى من اقام معهم على دين النصرانية ، فكأن العرب اعتبروا الاراضي التي كانت للروم فتحت عنوة فاستحلوها واعتبروا اهلها

ومن وجدوه عليها موالي لهم يتصرفون في شؤونهم كما يريدون ؛ في حين اعتبروا الاراضي التي كانت للبربر مفتوحة صلحاً فتركوها في ايدي اصحابها يؤدون عنها المال للدولة ، واعتبروا البربر انفسهم احراراً لهم ما للعرب من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات ؛ فكان حسان يعاملهم على قاعدة المساواة التامة ليس هناك شعب حاكم وآخر محكوم فالكل امام القانون الاسلامي سواء ؛ فلاحكام تجري بينهم بالعدل والاحسان ، ويظهر ان منصب القضاء كان للخليفة وحده فهو الذي يعين القاضي كما ثبت عن عمر بن عبد العزيز فانه هو الذي اختار لقضاء افريقية عدا الله بن المغيرة بن بردة الكنافي .

ولم يقتصر حسان في نظام الجندية على الجيش العربي فقط ، بل اشترك فيه البربر ايضاً ، فضم اليه منهم اثني عشر الفا واتخذ منهم طائفة بمثابة الحرس المتقل تتجول في اقطار المغرب لبسط الامن العام ، على انهم لا يفارقونه جميعاً في مواطن الجهاد ، وكانت لهم ارزاق ومنع غير ما يصيبونه في الحروب ؛ وكان الوالي يومئذ مكلفاً باعطاء الجند والعمال من مال الجباية وما يفقه الله عليه من الغنائم ، وتؤكد التواريخ العربية على ان ولدي الكاهنة نالا الولاية على قومها في ادارة حسان بعد اسلامها ، فكان احدهما رئيساً مدنياً على قبيلة جراوة والآخر على الجيش ، وبذلك وضع حسان اساس الحكومة الاسلامية بهذه البلاد وجعل خططها الفرعية للبربر ، كما اشغل بانشاء ميناء بحري جديد تشرف منه ولاية المغرب على البحر الابيض المتوسط فاخطط محرس تونس واستخدم الاهالي في صناعة الحشب لانشاء المراكب ، وجاء بألف عائلة مصرية تحسن الصناعات فأسكنها هنالك واسس لهم دار الصناعة بتونس فكانت هذه اول دار اسست للصناعة في الاسلام ؛ وفيها صنع بعد ذلك بأمر موسى بن نصير مائة مركب ؛ وظلت العملة الرومية رائجة بين المتعاملين في افريقية الى ان ضرب موسى بن نصير نقوده بها سنة ٩٢ هـ - ٧١٠ م وهذا كانت السياسة الاسلامية في افريقية اساساً لهذا التطور العظيم في تاريخ هذه البلاد ، فلم تعد شريطاً ساحلياً يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين ، وفيما يلي ذلك « اهل » متوحشون على درجة

يسيرة جداً من الرقي ، وانما اصبحت بلاداً واحدة يسكنها شعب مسلم قوي متحضر ينشئ الدولة ويساهم في العلم والحضارة الانسانية بنصيب مشكور^(١).

ورفاهية افريقية

اننا اذا نظرنا الى ما قبل عن افريقية وبلاد المغرب كلها يومئذ منها كانت ظلاً واحداً من بركة الى طائفة : قرى متصلة ومدائن منتظمة ، وما قيل ايضاً عن قرى الزاب وخده من انها كانت تبلغ ثلاثمائة وستين قرية كلها آهلة عامرة ؛ والى ما صالح عليه الولاة اهل البلاد من تلك الاموال الطائلة والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة والحيل المسومة والانعام والحراث^(٢) وما ظهر به الغزاة من عظم الغنيمة ، والى مسي طينة - بريكة - الذي بلغ عشرين الفا يوم فتحها موسى بن نصير وما استصعبه معهم القادة والامراء الى الخلفاء من الهدايا والتحف النفيسة ... جزمنا بنحسب هذه البلاد ورفاهيتها وسعة رزقها ...

فلقد اهدى حسان الى امير مصر وهو يومئذ عبد العزيز بن مروان مائتي جارية من ابناة ملوك الروم والبربر وجمالاً وخيلاً وامتعة ووصاف ووصفان . وذهب الى الخليفة الوليد بشيء كثير من الذهب والفضة والجواهر والياقيات فاستعظمه الوليد وعجب من امره ؛ وقد بلغ سهم الفارس يومئذ ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل الف الف ...

وروى مالك - الامام - عن يحيى بن سعيد عامل عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية قال :

« بعثني عمر على صدقات افريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم

(١) انظر فتح العرب للمغرب ص ٢٧٨ .

(٢) يذكر انه لما احاب عبدالله بن سعد بن ابى سرح من تلك الاموال الطائلة التي صالح عليها اهل المغرب ؛ كان هنالك من العرب من اظهر العجب والدهش من كثرة هذا المال ووفرة الغنيمة ... وحينئذ تقدم اليه اهل يمل في يده زيتونة ، يرمز بذلك الى انهم حصلوا على هذه الثروة من فلاحه الزيتون .

فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، فقد اغنى مهر بن عبد العزيز الناس .

فكل هذه دلائل ناطقة على عظمة ثروة البلاد ويساوها ، وليس من التناقض ما قدمه عبد الرحمن بن حبيب للخليفة العباسي المنصور بعد ذلك من هدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل واعتذر له عن ضعف هديته بأن المغرب اليوم بلاد اسلامية لا سبي فيها ؛ فلعل ذلك كان في ظروف خاصة احاطت بالبلاد لتحط او جذب او لنظرة سياسية هنالك ؟ ...

ولاية الجزائر وزعمائها

كان من اشهر ولاية الجزائر وزعمائها في هذا العصر زعيم مغراوة ورئيسها العظيم صولات بن وزمار بن صقلاب ، وقبيلته من اشهر القبائل البربرية العتيقة المتفرعة من زناتة ، وموطنها بشمال وانشرس ووادي شلف الى البحر ، ويتبعي شرقاً الى وادي السبت قرب متيجة ، وغرباً الى البطحاء بناحية نهر مينة من عمالة الجزائر ، ومن بلادها بالجزائر : الاغواط والحضنة وريغة .

وفد هذا الرئيس الجزائري الجليل على الخليفة عثمان بن عفان واسلم على يده وقيل كانت وفادته على الخليفة صحبة عبدالله بن سعد بن ابي سرح ، وعقد له الخليفة على قومه وابقاه رئيساً عليهم ؛ قال ابن خلدون : فاخص صولات وسائر الاحياء من مغراوة بولاء عثمان واهل بيته من بني امية ، وكانوا خالصة لهم دون غيرهم من سائر قريش ، وذلك ما كان سبباً في مظاهرة هذه القبيلة للدعوة المروانية بالاندلس بعد ذلك ، رعياً لهذا الولاء .

استمر صولات على رئاسته الى وفاته فورثها عنه ولده حفص فكان من اعظم ملوك زناته ، ثم خلفه من بعده ابنه خزر فاشهر ملك مغراوة على عهده وعرف بعد ذلك ملوكهم ببني خزر الى ان قضى عليهم المرابطون سنة ٤٧٣ هـ - ١٠٨٠ م . ومن مشاهير رجال صنهاجة يومئذ ميسون بن جميل بن أخت طارق بن زياد النغراوي صاحب فتح الاندلس .

ملوك الوطن الجزائري

ستريد - كسيلة

لم اقف في هذا الدور من تاريخ الجزائر على كثير من اسماء الملوك سوى اربعة : صولة ملك مفراوة ، والكاهنة ملكة جراوة ؛ وستريد ، وكسيلة^(١) ؛ يقول ابن خلدون : وكانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح ، اوردية واهوارة وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناقة ومطغرة ونفزاوة البتر وكان التقدم لعهد الفتح لاوردية هؤلاء بما كانوا اكثر عدداً واشد بأساً وقوة ، وكان اميرهم بين يدي الفتح : ستريد ابن رومي أو زوغى ؟ ... بن بارزت بن برزيات ؛ ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة وادرك الفتح الاسلامي ومات سنة احدى وسبعين هجرية^(٢) وولي عليهم كسيلة بن لمرم وفي الاستبصار : أقدم اولزم ، اولزم ؟ ... الاوربي فكان اميراً على

(١) ضبطه ابن الاثير بفتح الكاف وكسر السين المهمة ، انظر اسد الغابة ج ٣ ص ٣٢١ ط القاهرة ١٢٨٠ هـ .

(٢) يذهب فورناي Fournel الى ان ابن خلدون اراد ان يقول سنة ٥١ هـ فأخطأ الفاسخ ورسومه ٥٧١ هـ ، ورجحه حين مؤنس فقال : وهذا تعليل مقول لان الحوادث تستقيم به .

البرانس كلهم^(١) وكلاهما كان على دين النصرانية فأسلما لاول الفتح ثم ارتدا عند ولاية ابي المهاجر واجتمع اليهما البرانس ، وزحف اليهم ابو المهاجر حتى نزل عيون تلسان فهزمهم وظفر بكسيلة فاسلم واستبقاه ثم جاء عقبه بعد ابي المهاجر فنكبه غيضاً على صحابته لابي المهاجر ، ثم استفتح حصون الفرنجة ... وقفل راجعاً وكسيلة اثناء هذا كله في اعتقاله بجمعه معه في عسكره سائر غزواته ، فلما قفل من السوس سرح المساكر الى القيروان حتى بقي في خوف من الجنود ، وتواصل كسيلة وقومه فارسلوا له شهداء او انتهزوا الفرصة فيه وقتلوه ومن معه وملك افريقية خمس سنين ونزل القيروان واعطى الامان لمن بقي بها من تخلف من العرب اهل الذاري والانتقال وعظم سلطانه على البوير^(٢) .

وذهب ماسكري الى ان كسيلة كان واسع الملك ، وان ملكه امتد الى الاوراس والى ما يليها غرباً ؛ باضافة الجزء الجنوبي من قسنطينة والجانب الاكبر من تونس ومعلوم ان مركز قوته الحربية ايام الفتح كان المنطقة الجبلية الواقعة بين تاهرت ووهران ؛ وكانت وفاته في واقعة بمس Memsa - جنوب القيروان قتله زهير بن قيس البلوى سنة ٥٧٠ - ٦٨٩ م ؟ ...

(١) انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ - ١٠٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

امراء افريقية وحكامها

الامويون

تاريخ التولية

٦٩ هـ - ٦٨٨ م

٧٣ هـ - ٦٩٢ م

٨٦ هـ - ٧٠٥ م

زهير بن قيس البلوي

حسان بن النعمان

موسى بن نصير^(١)

(١) وهو الذي تم على يده فتح بلاد هوارة وكتامة وصنهاجة ومجاعة من بلاد الجزائر وغيرها من بلاد المغرب والاندلس .

الخلفاء الامويون

تاريخ التولية

٦٤ هـ - ٦٧٣ م

٦٥ هـ - ٦٨٥ م

٨٦ هـ - ٧٠٥ م

مروان بن الحكم

عبد الملك بن مروان

الوليد بن عبد الملك

من مشاهير الجزائر

الكاهنة

٥٨٢ - ٧٠١ م

هي ملكة بربرية اسمها دها بنت ثابت بن تيفان ، كانت زوجاً لرجل من رؤساء قبيلة جراوة احدى قبائل البتر العظيمة المقيمة بجبل «اوراس» جنوب قسنطينة ، وينتمي نسب هذه الملكة الى جد هذه القبيلة المسماة باسمه «جراو» وقد كانت الكثرة والرئاسة في هذا القبيل قبل الاسلام . كانت هذه المرأة البربرية الزعيمة مقيمة بعاصمتها «تيسدروس» قرب خنشلة ولها ابنان احدهما بربري والآخر يوناني كما حدثنا بذلك ابن عذاري^(١) ، وكانت تدعي الاطلاع على احوال الغيب والتكهن للناس فعرفت بذلك في قومها واشتهرت يومئذ بلقب «الكاهنة» ويقال انه كان لها صنم عظيم من الخشب يحمل بين يديها على حمل ، وهناك من المؤرخين من يقول انها كانت على دين اليهودية ؟ ... واستبدت بالملك بعد زوجها فتملكت كما يقول ابن خلدون خمساً وعشرين سنة ، وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة ، ويقال ان قتل عقبة كان بايعاز وتدير منها . وهي التي هزمت حسان بن النعمان في غزواته الاولى فتهجر الى برقة ، وأمرت طائفة من جنده فقتلت منهم خالد بن يزيد القيسي وأطلقت البقية وعملت يومئذ

(١) انظر البيان المغرب ج ١ ص ٢١

على تخريب افريقية وهدم البلاد والحصون تثبيطاً لعزائم العرب عن الفتح حتى لا يجدون ملجأً او مدخلاً ، لعلهم اليه يرجعون ؟ ... ولكن العرب استمروا رابضين بطرابلس ينتظرون المدد من دار الخلافة حتى جاءتهم النجدة فعملوا على البلاد فاقحموها واشتد الحناق يومئذ على الكاهنة وانفت ان تسلم نفسها لحسان ووجدت ذلك عاراً عليها ، وربما خشيت ان بأسرها العرب فيحملونها معهم سبية الى دمشق ففضلت ان تستأمن لولديها عند حسان وان تظل هي - ومن بقي على الولاة لها - على حرب العرب فاستقدمت خالد بن يزيد وقالت له انما كنت تبنيك لمثل هذا اليوم فأوصيك بأخويك هذين خيراً فقال خالد : اني أخاف ان كان ما تقولين حقاً ! ان لا يستبقيا ؟ ... قالت بلى : ويكون احدهما عند العرب أعظم شأناً من اليوم ، فانطلق فخذ لها أماناً ؛ وانطلقت خالد الى حسان فأخبره خبرها وأخذ لابنيها أماناً ، وكان مع حسان جماعة من البربر البتر فولى عليهم الاكبر من ابني الكاهنة - وقربه ^(١) . وتقول المصادر انها اطلعت بطريق الكهانة على انها مقتولة فأخبرت خالداً بذلك ، فقال لها : اذا فارحتي وخلي البلاد ! ... فقالت : وكيف أفر وأنا ملكة ؟ ... والملوك لا تفر من الموت فأقلد قومي عاراً الى آخر الدهر . ولا عجب في هذا الموقف الحازم الذي أخذته الكاهنة على نفسها وظهرت به في ميدان الكفاح والبطولة والدفاع عن الوطن فانها الملكة وهي التي تعرف حق المعرفة تاريخ المرأة البربرية ومواقفها الحاسمة في التاريخ ، وقد رأينا ما أحرزته البطلة البربرية « سيرة » من الانتصار حيناً وفقت في وجه الكونت « تيديوس » الروماني بعد وفاة أخيها « فيرموس » ملك موريطانيا القيصرية وما باء به هذا القائد الروماني من الحجة والمهزبة الشنعاء التي حصلت له بالقرب من ناحية « أورزيا » سور الغزلان سنة ٣٧٥ م . وهكذا استمرت هذه الملكة الصنيدبة الجزائرية على كفاحها حتى دخل عليها حسان الحصن ففرت أمامه الى حيث أدركها حسان

(١) راجع فتوح افريقية ص ٢٠١ والبيان المغرب ج ١ ص ٢٢ و ٢٣

فقتلها بكان السر المعروف بجبل اوراس عند بئر العطر التي سميت بعد ذلك ببئر الكاهنة ويقال انها قتلت بطبقة ؟ ... بحدود الجزائر الشمالية الشرقية ؛ وذلك في رمضان سنة ٥٨٢ - ٧٠١ م وبموتها تم فتح العرب للمغرب - وخاصة الجزائر - وقد كان فتحاً لا كالفتح السياسية والانتصارات الحربية العامة بل هو فتح من فتوح الحضارة الشرقية بما فيها من مادة وروح ؛ ذلك لان الاسلام ليس هو مجموعة من طقوس أو عبادات وقرب يتقرب بها الانسان الى مولاه فعسب انما هو فوق ذلك مجموع من قواعد ونظم سياسية واجتماعية يستطيع الناس ان يعيشوا بتقضاها ؛ فالؤمن لا يجد في الاسلام حلاً لمسألة الآخرة فقط بل وسبيلاً للعيش في الدنيا سيداً أيضاً .

وفي تحقيق ما ذهبنا اليه من هذا المعنى يقرر الدكتور غوستاف لوبون ويقول : « ... فاذا حدث ان اعتنق بعض اقوام النصرانية الاسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين بما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل ... فالحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم »^(١) . ويقول المؤرخ (فون جوت شميت) : ان الاقبال الهام على اعتناق دين جديد على اثر فتح أجنبي أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم ، ولكن الاسلام يقف وحيداً في هذا الفوز .

جَدْوَل تَارِيخِي

٦٩ - ٨٢ هـ

٦٨٨ - ٧٠١ م

أهم الاحداث بالجوازات على عهد الفتح الاسلامي	تأريخ الحوادث
انسحاب زهير بن قيس الى برقة واخلاء افريقية .	٦٨٤ = ٨٦٥ م
انتصار زهير بن قيس في حملته على كسيلة وقتله .	٦٨٨ = ٨٦٩ م
وقعة ممس بجنوب القيروان .	٦٨٩ = ٨٧٠ م
مقتل زهير في برقة .	٦٩٠ = ٨٧١ م
مسير حسان بن النعمان الى افريقية وانتصاره على الروم بقرطاجنة .	٦٩٥ = ٨٧٦ م
واقعة نينى - وادي مكيانة - وارتداد حسان عن افريقية .	٦٩٦ = ٨٧٧ م
الكاظمة تخرب افريقية .	٦٩٩ = ٨٨٠ م
مسير حسان الثاني الى افريقية .	٧٠٠ = ٨٨١ م
انتصار حسان على الكاظمة وقتلها (رمضان - اكتوبر) .	٧٠١ = ٨٨٢ م

الخوارج بأفريقية

١٢٢ - ١٥٧ هـ

٧٤٠ - ٧٧٤ م

الخوارج في التاريخ اسم لطائفة او طوائف كانت بايعت علي بن ابي طالب بالخلافة ثم خرجت عنه ونقضت بيعتها في قضية التحكيم المشهورة ؛ وهي في مبايعتها هذه كانت ترمي الى غرضين : فمنها من بايع الامام لكونه يراه احق بذلك من غيره يومئذ ، ومنهم من تقدم الى ذلك اعتزازاً به وبغضاً للعثمانيين الامويين ؛ وكثيراً ما سمع هذا الفريق الثاني من الخليفة اللعن منصباً على قتلة عثمان وخزبه لهم ؛ فكان ذلك من بواعث الحذر عند هؤلاء خشية اتفاق الكلمة بين الحزبين فعلموا جردهم على توسيع شقة الخلاف بين معاوية وعلي ، رضي الله عنهما ، وكان ذلك سبباً في موقعة الجمل المشهورة (١٠ جمادى الثانية ٣٦ هـ - ديسمبر ٦٥٦ م) وم الذين ايضاً حملوا علياً على قبول التحكيم والنزول عنده (الجمعة ١٠ صفر ٣٧ هـ ٢٩ جولييت ٦٥٧ م) ثم عملوا على نقض ذلك وحاولوا علياً في رفضه ودعوه الى اعلان ذلك بنفسه فامتنع كرم الله وجهه من مجاراتهم على هذا التلاعب الذي لم يظهر له وجه معقول ، وحينئذ سخط عليه القوم واعلنوا خروجهم عن طاعته والانعزال عن الجماعة ، ثم عاد فريق منهم الى الطاعة واصر آخرون على الخلاف والمعصية ، وغادر الفريق الثاني الكوفة وهي يومئذ مركز الخلافة العلوية وسكن بظاهر قرية قرية منها تعرف بجروراء ؛ وكل ذلك وعلي يعمل على رفع الخلاف وجمع الشمل فبعث

اليهم رسله بذلك فقتلهم ونجاهاوا بالعصيان ، وبعدها انذر الخليفة واعذر حمل على اهل النهروان فألقى عليهم قتلاً ؛ ويومئذ تكونت بذرة الخارجية في الاسلام واصبحت بعد ذلك فكرة مستقلة ومبدأ سياسياً خاصاً ، ثم تطورت الى عقيدة دينية وطريقة متبعة ، ثم كانت مذهباً مدوناً باصوله وفروعه عقيدة وفقها ؛ ثم نشأت عنه فرق كثيرة بلغت الى حد العشرين فرقة وكلها تنطوي تحت اسم الحوارج ؛ والى ايجاء هؤلاء الحوارج وتعاليمهم السياسية يرجع السبب الاكبر في ثورات البربر التي عمت المغرب العربي يومئذ او كادت .

الحركات اغارجية بالمغرب

كانت منازعات الاحزاب السياسية بالشرق على اشدها طوال العصر الاموي ، وعصفت برجال الدولة ثارات العصية ، فكثرت الاضطهاد وتعددت المحصومات ، وكان للامويين طائفة عظيمة من الاعداء السياسيين لا يكفون عن الشعب ولا يكف الامويون عن تعقبهم بالاذى ، فكثروا فرار هؤلاء من البلاد والتأهم الامان في ناحية بعيدة عن مركز الدولة ، وكان المغرب من النواحي التي كثر التماس هؤلاء الفارين للامان فيها لاتساعها ونشعب مسالكها وكثرة قبائلها ، وكان الكثير من هذه القبائل ينطوي على السخط على العمال لما يصيبها من الاذى على ايديهم فكانت ترحب بهؤلاء اللاجئين لانهم واياها على هوى واحد ، ولهذا كثر وفودهم على المغرب والتجاؤهم الى قبائله (١) .

ولقد حاول البربر التماس سناد لهم يتقون به السلطة العربية فلم يجدوا لهم خيراً من الاخذ بدعوة الحوارج التي ينص دستورها على عدم اشتراط القرشية في الخلافة ، وبقوا ينتظرون الفرصة لذلك حتى سنحت لهم على عهد امير افريقية عبدالله بن الحبحاب الذي كان وقتئذ مهتماً ومشتغلاً بتجهيز جيش الفتوح الى صقلية ؛ فاندفع البربر نحو تكوين

(١) انظر فتح العرب للمغرب ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .

دولة لهم مستقلة عن الحكومة المركزية ، فانتحلوا مذهب الصفرية والاباضية^(١) من الحوارج وثرقبوا خروج الجيش العربي وسنوح الفرصة فاتفق يوماً ان شخص الجند الى مدينة ضبته عاصمة الزاب (غربي اوراس) ، فنهض البربر في نحو الاربعين الفاً من الصفرية وخمسة وعشرين الفاً من الاباضية ملتفين حول رئيسهم ميسرة المطفري^(٢) الصفري الخارجي ، وواقدوا ثوراتهم بالمغرب الأقصى فاحتلوا طنجة وعزلوا عنها عاملها يومئذ ممر بن عبدالله المرادي وبايعوا بها صاحبهم ميسرة خليفة سنة ١٢٢ هـ - ٧٤٠ م فكان هذا اول من دعي باسم الخلافة بالمغرب من البربر ثم انقلبوا عليه فقتلوه وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي ؛ فقام هذا بشأنهم وزحف بهم فيما بين المغربين : الاوسط والاقصى ، وجاءت عساكر الامير ابن الحبحاب لرد هجمات البربر والتقى الجمعان بوادي شلف فانهمز فيها الجند العربي وقتل قائده يومئذ خالد بن حبيب وهي الواقعة المشهورة بواقعة الاشراف (١١٤ هـ - ٧٣٢ م) .

وفي سنة ١٢٣ هـ - ٧٤١ م تدمرت الرعية من عسف الامير كلثوم بن عياض حيث كان يعاملها معاملة الرعايا المزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين قائمين بجميع الواجبات ، مؤتسماً في ذلك بسابقه :

(١) كلاهما من اشهر واكبر فرق الحوارج الستة ، فالصفرية م اتباع زياد بن الاصفر ، وقيل يعقوب بن لبث الصفري نسبة الى شاعة الصفر - النحاس - ، وقيل م اتباع عبدالله بن صفار السدي وهو احد بني مقاس الحارث بن عمرو ، وقيل عبدالله بن صفار من بني صوير بن مقاس ؛ وزعم بعضهم ان الصفرية بكسر الصاد؟ ... ويقال لهم الزيادة والنكارة . والاباضية م اتباع عبدالله بن اباض - بكسر الهزة - المقاسي التميمي العربي وكان من غلات الحسكية ، توفي ببيل نفوسة كما ذكره ابن حوقل سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٨ م . ويقال انهم يتسبون الى اباض - بضم الهزة - وهي قرية بالعرض من ارض اليامة لم يُرَ اطول من نخلاها ، نزل بها نجد بن عامر الخارجي وتسمى بأمر المؤمنين .

(٢) ويقال ايضاً الدغري بالبدال لا بالطاء نسبة الى الداغر الذين م بأزاء ندرومة . وأما « مطفرة » هكذا بالطاء فهو اسم لمكانين او هما قبيلان اثنان أحدهما بعل « تازا » والآخر من عمل « لسان » .

يزيد بن أبي مسلم ، وهو نفس عمل الحجاج بأهل العراق ، ويومئذ اشكت الرعية امرها الى حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع المقيم يومئذ بتلمسان ، فكتب هذا الى كلثوم ينهائ عن ذلك ويتهدهد ، فبعث كلثوم بالاعتذار الى حبيب تصنعاً ؛ ثم زحف بجنوده على تلمسان فقاتل حبيباً ... وهكذا وجد رسل الخوارج المقلبون من المشرق واكثرهم من المنهزمين في حروب العصيات امام الروانيين ، مرتعاً خصباً لبذر تعاليمهم حيث كانت النفوس مستعدة للثورة ، فعرضوا البربر على الخروج عن الخليفة الاموي وحركهم لرفع راية العصيان ، حتى اذا تقدم البربر الى الخليفة بالشكوى فلم يستجب لهم ولم يسمح لهم حتى بالمثل امامه ، فاندلعت بافريقية حينئذ نيران الثورة من كل جهة ، وتوات بعد ذلك الفتن وبقيادة هؤلاء الخوارج فدخلوا القيروان مراراً ؛ وهكذا حتى جاء لحظة بن صفوان اميراً على افريقية سنة ١٢٤هـ - ٧٤٢ م فعارب الخوارج واجلام وشرذ جوعهم في مقتلة عظيمة بلغ عدد القتلى بها ١٨٠٠٠٠ قتيل ، قيل انه ما علم في الارض مقتلة كانت اعظم منها ، وانتشرت الفوضى والاضرابات فعمت المغرب كله من اقصاه الى اقصاه .

ويومئذ ظهر الفهريون احفاد عقبة بن نافع على مسرح تاريخ المغرب منهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي غزا تلمسان سنة ١٣٥هـ - ٧٥٢ م وظفر بالبربر ودوخ افريقية كلها وذل من بها من القبائل البربرية ؛ واستبد هؤلاء الفهريون بالادارة فانكشف ضعفهم وظهر عجزهم امام الخوارج الذين تغطرسوا على الحكومة العربية الى ان جهز لهم الخليفة ابو جعفر المنصور جيشاً يشتمل على خمسين الف جندي موزعاً تحت رعاية ثمانية وعشرين رجلاً من خيرة القادة والرؤساء والكل تحت امرة واثراف القائد الاعلى محمد بن الاشعث امير مصر : فجاءت الجنود الى افريقية صيف سنة ١٤٤هـ - ٧٦١ م فقتض اولاً على ربيع الثوار بطرابلس ومات يومئذ قائد الثوار ابو الخطاب بن السمع الاباضي في شهر صفر - ماي - ، فظن ابن الاشعث بذلك انه قد قضى على الفتنة بقتل ابي الخطاب ، وان الخوارج سينتهون عن خطتهم ويعودون الى الطاعة ، ومصرعان ما

علم ان هناك ستة عشر الف تآثر تنتظر امر رئيسها ابي هريرة الزناتي ، فتقدم الى هؤلاء فقاتلهم في شهر ربيع الاول ، صيف سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م وتغلب عليهم فدخل القيروان عاصمة الامارة فجدد سورها واته في سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م وما كاد يستقر على عرشها حتى نهض بعض النداء والشرد الى مقاومة جيش الامارة العربية تحت قيادة احد منهم يدعى هاثم بن الشاحج فهزموا جند الامير وتفرقوا في البلاد وذهب رئيسهم الى تاهرت وقد كان معه من الاتباع نحو العشرين الفا ، ومنعها ذهب الى تهودة بالزاب الجزائري وهناك قهرتهم الجنود العربية فاندحروا منهزمين ، وما كاد الامير يستريح من هذه الفتنة القائمة حتى فاجأه تآثر آخر من الجند يدعى عيسى بن عجلان الحراساني ومعه طائفة من القادة العصاة فشنوا على الامارة العربية حرباً عنواناً اعجزت ابن الاشعث عن المقاومة حيث تكاثرت ضده الوقائع والفتن ، وكان هو في اقلية من الحامية والعساكر بسبب كثرة من مات منهم في تلك الحروب ، وحينئذ خرج ابن الاشعث من المغرب عائداً الى ولايته ومنصبه بمصر ؛ وكان على ولاية الزاب يومئذ الاغلب بن سالم التميمي فعينه الخليفة اميراً على افريقية ؛ فخرج يومئذ من دار عماله طبة ، وذهب الى القيروان ، وذلك في اواخر جمادى الثانية سنة ١٤٨ هـ - جولييط ٧٦٥ م وخلفه على الزاب يومئذ عمر بن حفص بن قبيصة المهلي المعروف بزار مرد وبأبي الدوانق مجدد مدينة طبة (١٥١ هـ - ٧٦٨ م) .

ثورة ابي قرة بتلسان

اتفق ان قبائل من البربر منهم مغيلة وبنو يفرن قد نقضوا بيعتهم ونهضوا بنواحي تلسان فخرجوا عن الطاعة وبايعوا صاحبهم زعيم زناتة ابا قرة اليفرنى او المغيلي أصح الصغري^(١) بايعوه بالخلافة سنة ١٤٨ هـ - ٧٥٧ م وثارت الحرب ضد الحكومة العربية فنهض اليهم الامير الاغلب

(١) وهو الذي زل عليه صفر قريش عبد الرحمن الداخل مقدمه من الشرق واحتفى عنده .

بن سالم فشنت شملهم من غير قتال ، ثم كانت المزامم والحروب بينهم سجالاً ، ومات الاغلب فيها في شهر شعبان سنة ١٥٠ هـ - سبتمبر ٧٦٧ م . فخلقه على الامارة ايضاً عمر بن حفص المهلبى المعروف بهزار مرد والمشهور بأبي الدوائى . وكانت بداية تاريخ امارته في صفر ١٥١ هـ - فيفري ٧٦٨ م . وبعد ثلاث سنوات وأشهر من امارته أمر من طرف الخلافة بالمسير الى مدينة طبة عاصمة الزاب الجزائري لتجديد بنائها وترميمها ؛ وقد بلغ سبيلها يومئذ عشرين ألفاً ، فخرج عمر من القيروان واستخلف عليها حبيب بن حبيب المهلبى . وبينما الامير منكباً على عمله في تعبير طبة اذ انتفض عليه المغرب كله وجاءته الجوع الثائرة من كل جانب فاحاطت بالزاب وخاصة حيث الامير بطبة ؛ وبلغ عدد جند الثورة يومئذ واحداً وسبعين ألفاً ، فكان مع ابي قره منهم اربعون ألفاً ، ومع عبد الرحمن بن رسم خمسة عشر ألفاً ، ومع عاصم السدراتى ستة آلاف ، ومع المسعود الزناتى عشرة آلاف فارس ، وغيرهم من الاتباع كثير ، ولما تحقق الامير منهم الخطر عزم على محاربتهم والخروج اليهم بنفسه فمنعه الخاصة من اهل مشورته وقالوا له : اخرج منا من اردت الى عدوك ولا تبوح مكانك من طبة ، فانك ان اصبت تلف المغرب وفسد ، وحينئذ لجأ الى الحيلة والدهاء واهتدى الى انقاذ الموقف بتقديم الاموال والحلل الفاخرة والهدايا الثمينة الى كل من ابي قره و اخيه فصانعها بذلك ، فعلاً حينئذ على سحب الجنود من يومها ، ثم لحقتهم جيوش الامير بتهودة فقتضت على فئة عبد الرحمن بن رسم وهزمت الى تهرت .

ويومئذ اخذ امر الحوارج في الضعف والانحلال واستمرت الوقائع تتكرر وتتجدد بين الحوارج والحكومة العربية ما بين مد وجزر الى ان قضى عليهم الامير يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٧ هـ - ٧٧٤ م فاستكانوا حينئذ للغلب واطاعوا الدين ؛ وقد بلغت وقائعهم نحو ثلاثمائة وخمس وسبعين وقعة في مدة لا تزيد عن خمس وثلاثين سنة ؛ ويذكر عن المنصور العباس انه اتفق في محاربة الحوارج بأفريقية ٦٣٠٠٠٠٠٠ درهماً وذلك لسنة واحدة فقط (١٥٤ هـ = ٧٧١ م) وكل هذه الوقائع نشأت كما ذكرنا آنفاً مما

جبلت عليه اخلاق البربر وما تركز في غريزتهم من حب الحرية الى حد الفوضى وكرامية السلطة عليهم كيفما كان نوعها ، وما تهدف اليه عقيدة الحوار من وجوب القيام على الحكومات الوراثية ، وكان الحافظ الاكبر في ذلك ما كان عليه بعض ولاة المغرب يومئذ من العسف والجور ، فهذا ما دفع باهل المغرب الى احضان الدعوة الخارجية .

امارات الخوارج بالجزائر

كانت الحركة الخارجية بالمغرب عاملاً قوياً في استقلال بعض القبائل الجزائرية تحت امارات اباضية ، فنها امارة بني مسرة وهم فخذ من زناته ، وعاصمتهم « اوزكا » بنواحي سعيدة بعمالة وهران على ثلاث مراحل بجنوب تهرت ورئيسهم عبد الرحمن بن اودموت بن سنان ثم تنقلت الرئاسة في منيه من بعده . وامارة بني دمر بنواحي قصر البخاري من عمالة الجزائر وعاصمتهم فيها « تيطلاس » ورئيسهم مصادف بن جرتيل ، كان بين حصنه وبلد متيجة مسير ثلاثة ايام بما يلي البحر ، وامارة هواره بنواحي وادي شلف حوالي نهر مينة شرقاً ومدينة سيق غرباً من عمالة وهران ، وعاصمتها « قلعة مغيلة دلول » على مسافة يومين من مستغانم - بتقديرهم وهو ما يبلغ نحو المائة كيلومتراً ؟ - ، وكانت رئاسة هؤلاء لرجل يقال له ابن مسالة الاباضي ، وهو مخالف للآفة الرستيين بنهرت . ويذكر ابن خلدون ان الصفرية وهم من الخوارج ، هم الذين اختطوا مدينة « سجلماسة » تافيلالت سنة ١٤٠ هـ = ٧٥٧ م وانها فلاريب بانها كانت ضمن هذه الامارات .

المذاهب والعقائد

لا نشك ونحن في هذا الدور الاول من تاريخ الفتح الاسلامي للمغرب ، بأن المغرب يومئذ كان في تدينه بالاسلام متمسكاً به على طريق المذهبية او الدعوة السياسية في عقيدته او في عبادته ومعاملاته كلا ، بل نراه بعيداً عن ذلك كله حيث لم تكن حينئذ مدارس او آراء لهذه المذاهب مدروسة منظمة ولا مناهجها وقواعدها معروفة والكثير

منها كان متعمداً لم يكتب له وجود بعد ، فكانت العقيدة والعبادة والمعاملة وكل ما جاء به الصحابة والتابعون معهم لفتح هذه البلاد هو ما تلقنوه وسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو حفظوه عن بعضهم بعض ممن شاهده منه من الاصحاب : من قول أو عمل أو تقرير ، ولم يكن معهم من تفسير القرآن الكريم إلا ما وعوه في صدورهم أو جمعوا عليه وعاء قلوبهم من تفسير الرسول أو فهم صحيح أوتيهم أو لول القطة والذئب منهم من كثرة مدارستهم لاسلوب القرآن الكريم وعلوتهم لغة وقصيم لكلام العرب أو ما ارتسم على صفحة قلوبهم من عمل أكبر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، فالعقيدة الاسلامية والقيام بجميع الواجبات الدينية كان سترًا على طريقة الحق لا شائبة فيه لمنهج خاص أو مني من لتحيي حقيقة التي اتبعها لو اضطر للاخذ بها اهل المذاهب الاسلامية قبايس ، ولتعلي ذلك من تشوهد كثرة ومنها هذه البعثة العلمية النبوية اختارة من التبيين الذين يستقيم عمر بن عبد العزيز الى الغرب لتتبع الهدى في لغة النبوة وتتبع العروة قواعد هذا الدين كما جاء بها صاحبه صلى الله عليه وسلم ، فهي كما تراها ليلها كتابها خالصة من كل شائبة تركيب لموتقيد او اشترة ان رأي او مبدأ خاص :

حدث عبد الاعلى بن عتبة القفاري فقال : لما عرفت الحولج على حنظلة بن صفوان بطنبجة ، جمع حنظلة علماء افريقية ، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية ليفقهوا اهلها في الدين ، منهم سعد بن مسعود وحبان بن ابي جيلة وطلح بن حبان وغيرهم فكثروا له هذه الرسالة ليقندي بها المسلمون ويمتدوا ما فيها وهي :

باسم الله الرحمن الرحيم

من حنظلة بن صفوان الى جميع اهل طنبجة

اما بعد فان اهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قالوا : انه يرجع جميع ما اتزل الله عزوجل الى عشر آيات : آخرة ، وزاجرة ، ومبشرة ، ومنذرة ، ونجوة ، وحكمة ، ومشتبة ، وحلال ،

وحرام ، وامثال . فأثرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكرة ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ونجوة بغير الاولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال امر ان يوتى ، وحرام امر ان يجتنب ، وامثال واعظة . فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة واقدردته المنذرة ، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله ، مع طاعة واضحة ، ونية صالحة ، فقد افلح وانجح وحيا حياة الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ^(١) .

وعن معاوية الصناديق حي عن عبد الرحمن بن زياد قال : ان الحر كانت عند اهل افريقية حلالا حتى بعث عمر بن عبد العزيز هؤلاء الفقهاء فعفروا انها حرمت ، ثم ايضا لما دخلت المسودة يعني الجند فشا ذكروا انها حرام ^(٢) .

هكذا كان اهل هذا العصر في تدينهم بالاسلام من غير التفات الى راي او مذهب خاص . اذ لم تكن المذاهب اذ ذاك - بمعناها الاصطلاحي - معروفة ولا موجودة .

الاهم الا ما يذكر عن بعض من جره دعاة الاعتزال الى عقائدهم ، وهؤلاء لم يكن لهم كبير شان في اجراء قواعد هذا الدين بين الناس ، فقد روي عن واصل بن عطاء راس المعتزلة (٨٠ - ٨١ / ٥ = ٧٠٠ - ٧٩٧ م) انه بعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير ، وفي ذلك يقول صفوان الانصاري يمدح واصلا .

له خلف شعب الصين في كل ثغرة الى سوسها الاقصى وخلف البرابر رجال دعاة لا يقل عزيمتهم نهكم جبار ولا كيد ماكر
اما عن شان الاديان الاخرى فقد تضاهل شانها امام الاسلام .

(١) رياض النفوس لابي بكر عبد الله الهالكى ج ١ ص ٦٧ ط القاهرة ١٩٥١ م

(٢) طبقات علماء افريقية لابي العرب ج ١ ص ٢٠ - ٢١ ط باريس ١٩١٥ م

المجتمع المغربي

ان اعظم واجل مظهر برزت به افريقية العربية المسلمة في هذا العصر هو اتجاه شملها الى الشرق في اقتباس حضارته ومدنيته ؛ فالى مركز الوعي كان ثقافته في تصحيح عقائده وعباداته ؛ والى عوامم الشرق اللامعة كان اتجاهه في ثقافته العلمية الفنية ، لو لا ما نشأ يومئذ عن بعض الواردين عليه من المشرق من دعاة الحزبية والطائفة والسياسة المفرقة فعاد عن جادة الاسلام حتى كاد يكون ان لا اسلام ! ... فنشأت عن ذلك تلك الفتن والاضطرابات التي شملت المغرب العربي كله وكانت منها تلك الوقائع التي فصلناها فيما تقدم وكلها نشأت عن سوء التوجيه في نشر تعاليم الاسلام مع ما يمازجها من النزعات السياسية والمذهبية . وقد نشأ عن ذلك نفور في النفوس من اهل التأويل والاحتكام الى العقل من المشاركة ، فابتعدوا لذلك عن مذهب ابي حنيفة الذي اشتهر اهله بالرأي والقياس وتركوا فقهه ونبذوا عقائد المعتزلة نتيجة لما اصاب بلادهم وما تعرضت له من المتاعب بسبب اصحاب الآراء والتأويلات من دعاة الآراء والمتطرفة وتقسكوا بالكتاب والسنة تمسكاً شديداً حتى انهم رفضوا القياس والاجماع ؛ واقبلوا يومئذ على الاخذ بما جاءهم به من حضر مجالس مالك بن انس بالمدينة ممن قصد الحجاز من طلبة العلم الافارقة حيث علموا فيه التزام القرآن والحديث والابتعاد عن التأويل والقول بالرأي مع الاقتصاد في القياس ما امكن وان كان جل اعتماد امراء افريقية من العرب في هذه الفترة الى آخر عهد الاغلبة على العراقيين من فقهاء المذهب الحنفي ، وبذلك انقسم اهل المغرب الى قسمين ، فالحكام كانوا على مذهب اهل العراق ، والافريقيون وزعمائهم من الفقهاء كانوا مالكية ، وقد شعر الحكام والامراء بهذه المعارضة القوية الخطرة التي يتزعمها اولئك الفقهاء . فبطشوا ببعضهم وقتلوا البعض الآخر ، فزاد ذلك من تقدير الناس اياهم ، ولم يصبحوا مجرد فقهاء ذوي دين وخلق متينين فعسب ؛ بل شهداء لقوا الاذى والختوف ايضاً في سبيل العقيدة الصحيحة وفي سبيل الضعفاء والمظلومين من اهل البلاد ، وانتقلوا - بهذه الصفة المزدوجة - الى مقام الاولياء ، وارتبط في اذهان

الناس معنى الولي بصورة الزعيم القومي ، وهكذا نرى مبادئ العقيدة التي اشتهر بها اهل المغرب في الاولياء والصالحين ، ونستطيع ان نفسير تفاني المغاربة في سبيل الصالحين وكبار الفقهاء ، ذلك لان الولاية ارتبطت في اذهانهم بمعنى الدفاع عن الحق وحماية الرعية من الحكم الاجانب ، ومن هنا نضع ايدينا على عصب ثان من اعصاب التاريخ المغربي الاسلامي ، عصب الايمان في الزهاد والاولياء الذي ما زال ينبض حتى قامت بفضلها الدول المغربية الاصلية ، وغير غريب في هذه الحالة ان نجد الذين وضعوا اسس دولتي المغرب الكبيرتين - المرابطين والموحدين - كانوا من الفقهاء المالكيين على وجه التحديد^(١) ، وبذلك عم تقليد المذهب المالكي وصاحبه في سيرته ، وحتى في حياته الخاصة التي كان يعيشها الامام لنفسه ، سواء ذلك في مأكله ومشربه وملبسه وفي مشيته وحديثه الخ ... وبذلك نستطيع ان نقول ان حضارة المغرب العربي وتهذيبه كانا على يدي مالك كما ان تمدن الاندلس كان على يدي زرباب .

ولاية الجزائر وزعماؤها

كان من اشهر من عرفه التاريخ من ولاية الجزائر في صدر الاسلام الاغلب بن سالم التميمي عامل طبنة - عاصمة الزاب الجزائري - قبل ولايته الامارة ؛ كما عرفنا المهنا بن الحارق الذي استخلفه عليها ايضاً عمر بن حفص سنة ١٥٤ هـ - ٧٧١ م ، وعاصم السدراتي ، والمنصور الزناتي ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري والفضل بن روح قبل امارته وهو آخر المهالبة بها ، فكل هؤلاء كان على ولاية طبنة ؛ وكان على ولاية تلمسان ابو قررة اليفرني ، ومومى بن ابي خالد مولي معاوية بن حديج ، عزله ابن الجحباب وولى مكانه حبيب بن ابي عبيدة ، وكان على ولاية وطن زناتة بهذا المغرب الاوسط عبد الجبار بن قيس المرادي ، وامير ورفجومة النفزاوية بجبل اوراس عاصم بن جميل الكاهن .

(١) راجع مقدمة حين مولس لكتاب وياض النفوس ط القاهرة ١٩٥١ م .

امراء افريقية وحكامها

الامويون

تاريخ التولية

- عبد الله بن موسى بن نصير (اثناء تغيب والده بالاندلس) . ٩٥ = ٧١٤ م
محمد بن يزيد ، مولى قريش (١) . ٩٦ = ٧١٥ م
اسماعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر دينار . ٩٩ = ٧١٨ م
يزيد بن ابي مسلم دينار الثقفي . ١٠١ = ٧٢٠ م
محمد بن اوس الانصاري . ١٠٢ = ٧٢١ م
بشر بن صفوان الكلبي . ١٠٢ = ٧٢١ م
عبيدة بن عبد الرحمن (بن ابي الاغر) السلمي (ربيع الاول - جوان) ١١٠ = ٧٢٩ م
عبد الله بن الجعاب الموالي (ربيع الثاني - ماي) ١١٦ = ٧٣٥ م
كلثوم بن عياض القيسي (القشيري) ؟ (رمضان - جوليظ) ١٢٣ = ٧٤١ م
حنظلة بن صفوان الكلبي (ربيع الثاني - فيفري) ١٢٤ = ٧٤٢ م
عبد الرحمن بن حبيب الفهري . ١٢٧ = ٧٤٥ م
الياس بن حبيب الفهري . ١٣٨ = ٧٥٦ م

(١) كانت له عملة مفروبة باسمه .

الخلفاء الامويون

تاريخ التولية

سليمان بن عبد الملك .	٩٦ هـ = ٧١٥ م
مهر بن عبد العزيز .	٩٩ هـ = ٧١٧ م
يزيد بن عبد الملك .	١٠١ هـ = ٧٢٠ م
هشام بن عبد الملك .	١٠٥ هـ = ٧٢٤ م
الوليد بن يزيد بن عبد الملك .	١٢٥ هـ = ٧٤٣ م
يزيد بن الوليد .	١٢٦ هـ = ٧٤٤ م
ابراهيم بن الوليد .	١٢٦ هـ = ٧٤٤ م
مروان بن محمد الجعدي .	١٢٧ هـ = ٧٤٤ م

امراء افريقية وحكامها

العباسيون

تاريخ التولية

- حيب بن عبد الرحمن (رجب - ديسمبر) . ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م
عاصم بن جهيل الوردفجومي (ثائر) (محرم - ماي) . ١٤٠ هـ = ٧٥٧ م
عبد الملك بن ابي الجعد اليفرني (ثائر) . ١٤٠ هـ = ٧٥٨ م
ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري الاباضي . ١٤١ هـ = ٧٥٩ م
محمد بن الاشعث الخزاعي . ١٤٣ هـ = ٧٦٣ م
عيسى بن يوسف (او موسى) الحراساني (ربيع الاول - افريل) ١٤٨ هـ = ٧٦٦ م
علي بن موسى الحراساني (ثائر) . ١٤٨ هـ = ٧٦٦ م
الاغلب بن سالم بن عقال التميمي (جمادى الثانية - جولييط) ١٤٨ هـ = ٧٦٦ م
الحسن بن حرب الكندي . ١٤٩ هـ = ٧٦٦ م
الاغلب (للمرة الثانية) . ١٥١ هـ = ٧٦٧ م

بنو المهلب

- ابو جعفر عمر بن حفص هزار مراد المهلي^(١) (صفر - فيفري) ١٥١ هـ = ٧٦٨ م
ابو خالد يزيد^(٢) بن حاتم بن قبيصة بن المهلب . ١٥٤ هـ = ٧٧٠ م

(١) ضرب العملة باسمه .

(٢) استمر ابو خالد على امارته بافريقية الى ان توفي يوم ١٨ رمضان سنة ١٧٠ هـ = ٧٨٧ م وقد ضرب العملة باسمه ، وفي عهده تأسست الدولة الرستمية بتهرت سنة ١٦٠ هـ = ٧٧٦ م وهي اول دولة مسلمة مستقلة تأسست بالجزائر .

الخلفاء العباسيون

تاريخ التولية

١٣٢ هـ = ٧٥٠ م	أبو العباس السفاح .
١٣٦ هـ = ٧٥٤ م	أبو جعفر المنصور .
١٥٨ هـ = ٧٧٥ م	المهدي بن المنصور .
١٦٩ هـ = ٧٨٥ م	المهدي بن المهدي .
١٧٠ هـ = ٧٨٦ م	هارون الرشيد .

من مشاهير الجزائر

سمكو بن واسول

هو بربري من قبيلة مكناسة من اهل مواطن ملوية ، كان يعد من تابعي التابعين ، وهو جد ملوك سجلماسة من بني مدار كان من حملة العلم الذين اخذوا عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس ، وناهيك بعكرمة ، فقد قيل لسعيد بن جبير هل تعلم احدا اعلم منك ؟ ... فقال : عكرمة ؛ وجزم ابن خلكان في تاريخه بان عكرمة من برايرة المغرب .

ابو الوليد مروان المسيلي

ترجم له ابو العرب في طبقات علماء افريقية وقال عنه انه كان ثقة مستجابا فاضلا في مثل سن سحنون بن سعد ، وكان سحنون يقول : مروان رجل صالح وهو مولى ال عمر بن حنبل : ما رايت احدا اوعى من وكيع ولا احفظ ، وكيع امام المسلمين . وكان سحنون يعرف فضله ، وحدث عن ابي الوليد هذا ولده عبد الرحمن فقال : كان ابي يعمل الطوب بيده ، فيتصدق بثلاث ما يربح ، وينفق الثلث ويرد ثلثا في الطين والتبن وفيما يصلح به عمل الطوب . قال : ولم يكن له سرير يرقد عليه ، انما كان قد نصب

طوباً فعلية ينام في بيته . وكان يرمي بالتشبيه ، فقليل لسحنون ان مروان يرى التشبيه فلم يقبل ذلك وقال : مروان لا يقول الا ما روى ؛ ونفى ذلك الى الامير محمد بن الاغلب فوجه في طلبه فوافى قبل دخوله عليه خصياً بيده عود او طنبور فأخذه مروان من يده بنزع عنيف فكسره . فدخل الحضي على الامير وقال شيخ بالباب كسر من يدى كذا وكذا وخرق الحضي ثيابه لعظم ما نزل به عند نفسه ، فلما دخل مروان على الامير عاتبه فيها صنع ، فقال نعم رايت منكراً فغيرته ! ... فلم يراجعه الامير ، وسأله عن مذهبه فيها قيل له وما يدين به في ذلك ؟ .. فقرأ عليه سورة الاخلاص حتى ختمها . قال وانما شنع عليه اهل الزيغ وكان بعيداً مما قيل فيه ... قال وكان موته فيها احسب قريباً من موت سحنون^(١) في حدود سنة اربعين ومائتين للهجرة .

(١) طبقات علماء افريقية لاني العرب ص ١١٥ ط باريس ١٩١٥ م ورياض النفوس
للالكبي ج ١ ص ٣٠٣ ط القاهرة ١٩٥١

جَدْوَل تَارِيخِي

٨٥ - ١٥٧ هـ

٧٧٤ - ٧٠٤ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وأبرز الاحداث
٨٥ = ٧٠٤ م	عزل حسان وبدء ولاية موسى بن نصير .
٨٦ = ٧٠٥ م	فتح زغوان .
٨٩ = ٧٠٧ م	حملة موسى بن نصير على المغرب الاوسط : الجزائر .
٩٠ = ٧٠٨ م	حملة على المغرب الاقصى .
١٢٢ = ٧٤٠ م	ثورة ميسرة المطفري - او المدغري - ومبايعته بالخلافة .
١٢٣ = ٧٤٠ م	واقعة الاشرف بنواحي وادي شلف ؛ ومقاتلة كلثوم بن عياض لحبيب بن عبيدة بتلمسان .
١٢٤ = ٧٤٢ م	واقعة القرن والاصنام ، وحروب حنظلة بن صفوان مع الخوارج .
١٤٠ = ٧٥٧ م	ثورات البربر بنواحي تلمسان ومبايعتهم لابن قره اليفرني مؤسس مملكتهم .
١٤٤ = ٧٦١ م	مقاتلة محمد بن الاشعث للخوارج وموت زعيمهم ابي الخطاب .
١٤٨ = ٧٦٥ م	مقاومة الاغلب بن سالم التميمي لبرابرة تلمسان .
١٥٠ = ٧٦٧ م	حصار البربر من الخوارج للامير ابي جعفر عمر بن حفص بمدينة طنبنة .
١٥١ = ٧٦٨ م	تعمير طنبنة على يدي الامير عمر بن حفص .
١٥٧ = ٧٧٤ م	قضاء يزيد بن حاتم على الخوارج .

الدولة الرستميّة

١٦٠ - ٢٩٦ هـ

٧٧٦ - ٩٠٩ م

نشأتها

خرج ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمع المعافري امام الاباضية من القيروان سنة ١٤٩ هـ - ٧٥٨ م لقمع شوكة قبيلة وفرجومه المقيمة بطرابلس ، واستخلف عنه القاضي عبد الرحمن بن رستم ، وبقي ابو الخطاب هنالك الى سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م حيث بعث لابن رستم ليتحقق به في وقائع الامير محمد بن الاشعث ؛ وما كاد ابن رستم يتصل في جنوده وعساكره الجراة بأبي الخطاب حتى بلغه نعيه وانهمزم جيشه ؛ وشاهد يومئذ ابن رستم في قابس حوادث ثورات الاهالي على العامل بها ؛ فما وسعه الا الرجوع الى القيروان فصادفها كذلك في ثورة عامة عارمة فنسل منها في اهله وولده وخرج محتقياً عن الاعين الى ان حل بالمغرب الاوسط فنزل على قبيلة (لماية) بجبل منيع يسمى سوفجج . فاقبله اهالي الجبل بما يليق به من الاكرام ، وشاع يومئذ ذكره في الآفاق فوفدت عليه وجوه الاباضية من العلماء والاعيان واخذوا حينئذ في تدبير امرهم وتنظيم شؤونهم من رفع شأن الخوارج بانشاء دولة لهم ؛ وبينما

القوم يخوضون في ذلك اذ فاجأهم جنود ابن الاشعث فأحاطت بالجبل ثم ارتدوا عنه بأمر اميرهم ؛ ويومئذ خرج ابن رستم في اصحابه يطلبون مكاناً مئباً يتخذونه كمرکز لبث دعوتهم ونشر مبادعهم بتلك النواحي ، فكان ذلك المكان بعمالة وهران على غيضة بين ثلاثة انهر عند سفح جبل جزول^(١) ، هو (تهرت) المعروفة اليوم بتاقدمت غرب المدينة الرومانية (تبارت) الحالية اي على نحو خمسة اميال منها^(٢) ، وكان شروعهم في ذلك سنة ١٤٨ هـ - ٧٦٥ م ؛ ثم كانت بيعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة فيه سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٦ م فكان بذلك عبد الرحمن اول مؤسس لدولة اسلامية جزائرية مستقلة ، ويبدو من عدم مقاومة الامير العباسي بالقيروان لهذه الدولة الجزائرية الناشئة ان الامارة العربية كانت ضعيفة بالمغرب العربي يومئذ ؛ كما ان اهمال الاغالبية لها هو كذلك من بواعث نشاط هذه الدولة في توطيد ملكها بهذه الديار .

ولقد نجحت هذه الدولة في تأسيس مركزها هذا فوفقت فيه غاية التوفيق فان قرب تهرت من الصحراء يمنحها من الوقوع في يد العدو في ايام الحرب ، كما ان موقعها هذا بين جبال الاطلس الى بلاد التل الحصينة جعلها تهيمن على بلاد المغرت من جهاتها الاربع ، فلا هي متطرفة جنوباً ولا شمالاً ، ثم انها كانت حسب موقعها الجغرافي ايضاً متوسطة بين ولاية تونس والمغرب الاقصى .

نظامها الحكومي

يرتكز محور نظام الحكم بهذه الدولة على قواعد الكتاب والسنة حسب ما تؤديه قواعد اجتهاد ائمة المذهب الاباضي تحت ادارة واشراف ورئسها

(١) وهو جبل متصل بارض السوس ويسمى عندهم بجبل دري وهو ما يسمى في ارض الزاب الجزائري بجبل «أوراس» . انظر البقوني : كتاب البلدان ص ٣٠ ط ليدى ١٨٦٠ م .

(٢) انظر البكري ص ٦٦ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

الاعلى الملقب بالامام - اذ لا خلافة وراثية عندهم - والامام يتعين في منصبه هذا بالانتخاب والكفاءة او العهد اليه من سلفه ؛ وله مستشارون ومحتسبون وامناء بيت المال ؛ وللقاضي السلطة المطلقة في تنفيذ الاحكام الشرعية وهو في الغالب يكون من غير اهل البلد ليهابه الناس ، وهناك شرطة لحماية الامن العام وجند محتلط من العرب والعجم والبربر . وماليتها متكونة مما يتجمع في خزينتها من مال الزكاة والجزية والحراج^(١) مع ما كان يتجمع لديها من تبرعات خوارج المشرق ايضاً . فكانت الحكومة تنفق منها بالعدل وما فضل عنها رده على الفقراء والمساكين ، وللحكومة سكة مضروبة باسمها اما لغتها الرسمية فهي العربية وبجانبها البربرية وكثيراً ما ترجمت اليها كتب العلم والدين والدواوين ايضاً وحتى القرآن الكريم ؛ ولقد تعاقب على ملك هذه الدولة ثمانية من الائمة .

حدود المملكة الرسمية

يحد هذه المملكة شمالاً تلول منداس الى قرب غليزان ، ويذهب الحط جنوباً من هناك الى فرندة وينعطف شرقي جبل هور ، ومن هنالك الى وطن ميزاب والى واحة ، وينبعث الحط من الناحية الشرقية الى تيسبيل والسرسو ، ويذهب صعداً الى ثنية الاحد والى قصر البخاري مشرقاً واعالي وادي شلف : ويذهب جنوباً شرقي الاغواط الى تمرت وادي ريغ ؛ وبالجمله فان هذه الدولة قد استولت على جميع التراب الجزائري الحاضر ما عدا ناحية الزاب شرقاً وتلمسان غرباً .

وفي كتاب البلدان لليعقوبي قال : « ويتصل بمدينة تاهرت بلد عظيم ينسب الى تاهرت في طاعة محمد بن افلح بن عبد الرحمن بن رسم ، والحصن الذي على ساحل البحر الاعظم ترمي به مراكب تاهرت يقال

(١) الجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والحراج مال يؤخذ من ارض الصلح وما فتح هوة (قهراً وقسراً) بخلاف الفاء فانه لا يؤخذ الا من ارض النوة فقط .

له مرمى فروخ . وفي سياق حديثه عن مدينة طرابلس وارض نفوسة قال : وان بهذه الارض قوم عجم الالسن اباضية كلهم ، لهم رئيس يقال له الياس لا يخرجون عن امره ومنازلهم في جبال طرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة لا يؤدون خراجاً الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الاباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم فارسي ،^(١) الخ ...

هذا النص يجعلنا نعتقد سعة رقعة المملكة الجزائرية وانتشار سلطان الرستيين بها الى ما وراء طرابلس الغرب شرقاً . ويذكر لنا ياقوت الحموي عاصمة الرستيين - تاهرت - فيقول انها لم تكن في طاعة صاحب افريقية ولا بلغت عساكر المسودة اليها قط ولا دخلت في سلطان بني الاغلب .

الامام عبد الرحمن بن رستم

اصل هذا الامام فارسي وينسب الى الاسرة الملكية الكسروية ؟ ... وهو من موالي عثمان بن عفان ، بويغ بالامامة سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٦ م بتاهرت وكان على جانب عظيم من العلم والعمل والعدل والزهد ؛ وكانت له عناية كبرى باعلاء شأن دولته ، وله اهتمام خاص بفن المعمار ، مشغول بشؤون الرعية والسر على مصالحها ؛ وبلغ من زهده ان رد على اهل المشرق ما بعثوا به اليه من عشرة اجمال ذهباً ، وقد سبق ان قبل منهم مثلاً قبل ذلك حيث كانت الدولة في حاجة اليه ايام التأسيس ، وكانت ايامه كلها سلاً وامناً ، وله من التأليف تفسير للقرآن العظيم وديوان خطب ، ورسائل اخوانيات كاتب بها اخوانه واصدقائه ، وكانت وفاته سنة ١٧١ هـ - ٧٨٧ م وقد عهد بالامر بعده الى سبعة من الاعيان

(١) كتاب البلدان ص ٧ و ١٤ ط ليدن ١٨٦٠ م .

منهم ولده عبد الوهاب فبايعه الناس بعده ^(١) .

الامام عبد الوهاب

بويح اثر وفاة والده بشهر ، وهو من اعلم علماء الاباضية في وقته ، كان متضلماً في علوم الشريعة وله في الفقه كتاب اشتهر باسم « مسائل نفوسة » ، ما عدا فتاوي ورسائل في مسائل شتى . واشتهر بقوة الشكية والدهاء السياسي والحزم والثروة الطائلة ؛ وان اول ما قام به من الاعمال السياسية ان عمل على موادعة امير القيروان روح بن حاتم وربط صلته به ، فاطمان الناس الى ذلك وتأكدوا من رسوخ قدم الدولة الرستمية في الملك .

ثورة ابن فندين

هو احد الرجال السبعة الذين عهد اليهم عبد الرحمن بن رستم بأمر الشورى بعده ، فطمح اولاً الى الملك وتطلع الى منصب الامامة ، وبعدما تحقق اخفاقه بمبايعة عبد الوهاب تشوف الى تبوأ المناصب الممتازة في الدولة فلم ينجح كذلك ، ويومئذ عمل على ايقاد نار الفتنة ضد الحكومة القائمة ودبر مكيده لاغتيال الامام وجاء بشيعته من النكارية - وهم من الحوارج ايضاً - فكانت بينه وبين الحكومة وقائع عديدة سفكت فيها الدماء انهارا فاضطرت الحكومة الى مهادنته حقناً للدماء ؛ وبقي ابن فندين مع ذلك يتربص الفرصة للوثوب مرة ثانية على الدولة ؛ فاتفق يوماً ان صادف تغيب الامام عن العاصمة - تاهرت - فزحف هذا الناصر باتباعه على المدينة فكان فيها حقه على يد افلح بن عبد الوهاب ، ويقدر عدد القتلى في هذه الواقعة بانني عشر الفاً ، فاستثار ذلك دفين حقد البكارية وكين ضغينتهم فهاجموا العاصمة وقتلوا ميسون بن عبد الوهاب ثم انهزموا واندحروا .

(١) يذكر النسابون ان لعبد الرحمن بن رستم بنتا اسمها « اروي » تزوجها مدرار المنتصر صاحب سجلماسة ؛ بنى بها بعد اعتزاله الملك توفي سنة ٥٣٥ = ٨٦٧ م .

عصيان زناتة (١)

رفضت هذه القبيلة الجزائرية مبايعة الدولة الرستمية وأعلنت عصيانها سنة ١٧٣ هـ - ٧٨٩ م و مدت يدها الى دولة الادراسة القائمة يومئذ بالمغرب الاقصى وتلسان ؛ فنهضت اليها الحكومة الجزائرية لردّها الى الطاعة وسعت لديها بكل وسيلة فلم تنجح ويومئذ أعلنت الدولة الحرب في وجه القبيلة وخاصة منها بطن مغراوة وبني يفرن فلم يجد الحكومة ذلك نفعاً واستمرت زناتة على عصيانها خاضعة للادراسة الى النهاية .

ثورة بني مسالة

كانت رآسة قبيلة هواوة التي تحتل الساحل من برقة الى قابس ، لهؤلاء من بني مسالة فاتقوا ان خطب احد رؤسائها يد بنت رئيس من رؤساء قبائل البربر بالجزائر بقصد الالتحام مع هذه القبيلة تعزيزاً لقبيلته ؛ فحال بينها الامام الرستمي خشية تحزب القبيلتين ضده وعقد هذه المصاهرة لنفسه ، فغضب لذلك بنو مسالة فهاجموا المغرب الاوسط وحلوا على الرستمين السلاح فانصر عليهم الامام عبد الوهاب وطاردتهم جيوشه الى ناحية تلسان .

امتداد المملكة الرستمية

استد سعي التنافس بين امراء افريقية من الاغالبية ورؤساء هواوة ،

(١) قبيلة بربرية عريقة في القدم منتشرة في كامل الشمال الافريقي وهي تسكن على الاخص المغرب الاوسط - الجزائر - بحيث انه ينسب اليها ويعرف بها ، فيقال وطن زناتة ؛ ومنها بطن مغراوة وجراوة قوم الكاهنة ، بنو يفرن ورجله بالجنوب الجزائري ، وكانت الرآسة فيهم قبل الاسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن وموطنها بنواحي تلسان الى وهران وشققت ثلثاً الى غريس من ناحية المسكر جنوباً . ويقول الادريسي ان زناتة عرب حرج وانما تبرزوا بالمجاورة والمخالفة للبربر من المصاميد ؟ ... ويؤثر من حسان بن النعمان انه كان يقول بعروبيتهم ؟ ... ومن زناتة بنو ورسيفن ملوك ميلة ، وبنو مندبل ملوك مازولة ، وبنو خزر ملوك وهران .

فأدى ذلك الخلاف والنزاع الى اعتقاد الحرب بينها وكاد النصر ان يكون حليف الامارة الاغلبية لولا استنجد هوارة بالدولة الرستمية واستنصارها بها ويومئذ رأى الامام عبد الوهاب ان الفرصة سنحت له لبسط نفوذه على النواحي الشرقية ففتح منها طرابلس وقابس وجزيرة جربة ؛ وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ... وبلغ الحبر - أي خبر ثورة هوارة بطرابلس ضد الاغالبية ١٩٦هـ - ٨١١م - الى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البرابر وجاء الى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناته وكان يقاتل من باب هوارة ثم جاءه الحبر بوفاة أبيه فصالحهم على ان يكون البلد والبحر لعبد الله - والي طرابلس من قبل الاغالبية - واعمالها لعبد الوهاب ، وسار الى القيروان^(١) . وقضى عبد الوهاب نجه سنة ١٩٠هـ - ٨٠٥م وقيل انه عاش الى سنة ٢٠٨هـ - ٨٢٣م فبويع بعده لابنه افلح .

الامام افلح

هو أطول ائمة هذه الدولة مدة في الملك ، فانه بويع اثر وفاة والده عبد الوهاب سنة ١٩٠هـ - ٨٠٥م الى ان توفي سنة ٢٤٠هـ - ٨٥٤م أي مدة خمسين سنة ، وكان يسلم عليه بالخلافة كما ذكره ابن الفقيه الميذاني^(٢) ، وكانت ايامه كلها ايام رغد ويسر ؛ وهو احد افذاذ ائمة الدولة البارزين والعلماء العارفين ذا أدب جم واطلاع واسع وشعر رقيق ومتانة في الدين ؛ كانت له مواقف حاسمة رد بها علي ثوار جبل نقوسة ، وهو تارة يسلك معهم مسلك اللين والالطف ، وتارة يأخذهم بالشدة والعنف وكان الانتصار حليفه دائماً .

اما علاقته بالخارج ، فانه كان على صفاء واتصال ودي مع خلفاء

(١) العبر جزء ٤ ص ١٩٧ ط بولاق ١٢٧٤هـ .

(٢) كتاب البلدان ص ٣٠ ط الجزائر ١٩٤٩م .

الاندلس الامويين ومع السودان ايضاً تربط بينهم جميعاً أواصر التجارة ووحدة الهوى ايضاً ؛ ويظهر ذلك جلياً في جفاء الامام للدولة الاغلبية المجاورة التي هي من صنائع الدولة العباسية : فانه لما بنى ابو العباس محمد بن الاغلب مدينة « العباسية » بقرب تهرت سنة ٢٢٧هـ - ٨٤١م هدمها الامام اقلع وأحرقها وكتب في ذلك الى صاحب الاندلس يتقرب اليه ، فبعث اليه هذا بمائة الف درهم ؛ فانتقم لذلك العباسيون بالقبض على ابنه أبي اليقظان حين قدم الى الحج وأودعوه السجن ببغداد ، فحزن الامام على ولده ولم يزل محزوناً مهوماً الى ان توفي سنة ٢٤٠هـ - ٨٥٤م وتولى بعده ولده الثاني أبو بكر .

الامام ابو بكر بن اقلع

اشهر الامام أبو بكر بمخصال الكرم والجود ولين العريكة والتسامح وسهولة الخلق ميالاً الى الدعة والرفاهية ، تاركاً أمر ملكه وادارة شؤون دولته الى صهره ابن عرفة التهرتي الذي أصبح بعباية من الوشاة والحسدة ينافس الامام في ملكه فحصلت بينهما من ذلك وحشة أدت الى اغتيال ابن عرفة واضطراب جبل الحكومة بقيام اصحابه على الامام واستمرت الفتن بتيهرت الى ان عاد أبو اليقظان من الشرق واستلم زمام الدولة من أخيه فقهر النازين وقضى على الحصوص فسكنت البلاد مدة ثم نشأت حركات ثورية ايضاً من الاعاجم المزامحين لآل ابن رستم في الرئاسة ، انتصر فيها هولاء مراراً على الحكومة كما أذاقهم الجند بأسه ايضاً في كثير من مواقف القتال ، وامت الفتنة اباضية جبل نفوسة فانضم اليهم أبو اليقظان وتعددت المارك بين الطائفتين وكان النصر فيها سجالاً ، ولم يزل شأن أبي بكر يضعف أمام خصومه وأعدائه حتى لاذ بالفرار بعد عامين من ولايته فقط ، واحتل المدينة محمد بن مسالة المواري فقبض على دفعة الحكم وأجلى عن المدينة من كان فيها من أهل لواتة ثم أجمع الناس على مبايعة أبي اليقظان .

الامام أبو اليقظان

هو محمد بن افلع بوبيع بحصن لواتة على قرب من تاسلونت حيث تنفجر عيون نهر مينة الجاري قبله تيهرت ، وكانت مبايعته اثر خروج اخيه الامام أبي بكر سنة ٢٤١ هـ - ٨٥٥ م . وقد حفظ لنا التاريخ من صفاته الخلقية انه كان ربة ابيض الرأس واللحية ؛ ومن الخليفة انه كان ذا علم وورع متعففاً ناسكاً زاهداً فان كل ما وجد في تركته بعد موته هو سبعة عشر ديناراً فقط ! ... وقد سبقت منا الاشارة الى حبه ايام ولاية والده افلع وقبض العباسيين عليه الى خلافة المتوكل حيث رفع عنه القبض فعاد الى الجزائر ، فوافاها ثائرة على اخيه فحاول القبض على زمام الدولة فلم ينجح واستمرت حوادث اصحاب ابن عرفة والمنافسين من الاعاجم حتى انضم ابو اليقظان الى اباضية نفوسة فاعانوه على القضاء على الثورة وفتح تيهرت صلحاً واستقر بها اماماً مطاعاً الى وفاته سنة ٢٨١ هـ - ٨٩٤ م عن سن تناهز المائة سنة قضى منها زهاء اربعين سنة في الولاية .

مجاوعة ووباء ! ...

استند القحط بالناس وعت المجاعة جميع بلاد المغرب والاندلس من سنة ٢٥٣ الى ٢٦٥ هـ (٨٦٧ - ٨٧٨ م ثم اعقب ذلك وباء وموت مئات سنة ٢٨٥ هـ - ٨٩٨ م وقد عم ذلك بلاد مصر والحجاز ايضاً .

ظهور الدعوة الشيعية بالجزائر

ظهرت هذه الدعوة الشيعية بالجزائر لأول مرة في وادي الرمل (سوق حمار) بنواحي قسنطينة ومرماجة (ما بين مجانة وسيبة) وكان ظهورها على يدي رجلين كلاهما جاء من الشرق سنة ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م موفداً من طرف جعفر الصادق لبث الدعاية ضد الخلافة العباسية القائمة يومئذ ببغداد ، وخلافة الامويين بالاندلس والمغرب ، ونشر مبادئ الشيعة التي ترمي الى

اقامة الخلافة الاسلامية في آل البيت ، فقاما بهذه الاوساط المغربية يعملان على تنفيذ خططهما الى وفاتها فخلفهما من بعد ابو عبدالله الشيعي بكتامة ، وهو الذي قضى على مملكة الاغالبة شرقاً وبني رستم غرباً .

الامام أبو حاتم

هو يوسف بن أبي اليقظان جاءته البيعة اثر وفاة والده سنة ٢٨١هـ - ٨٩٤م وهو متغيب بجيشه في حاية القوافل فعاد الى العاصمة مسرعاً لتحمل اعباء المملكة وكان رجلاً وسيماً حياً كريم السجايا والاخلاق مدرباً على ادارة شؤون الدولة وتنظيم شأن الحكومة ، وبعد سنة من ولايته خرج عليه عمه يعقوب بن افلح وكان يكره الاباضية مع شذوذ فيه وجمع حوله طائفة من أهل تيهرت ومشيختها فأقصاهم الامام عن العاصمة ثم عادوا فاقترحوها عليه وأناروا بها فنتهم ؛ ويومئذ خرج أبو حاتم عن عاصمته فاجتمع اليه انصاره فزحف بهم الى العاصمة وضرب عليها الحصار مشدداً عليها الحناق الى ان اضطر اهله الى طلب الكف عنهم والمهادنة ، فكف عنهم الامام على ان يسلموا اليه رؤساهم وكباراهم ، فأبوا ، وحينئذ عادت الحرب الى ما كانت عليه من قبل وبايعوا عمه يعقوب بن افلح .

الامام يعقوب بن افلح

يبيع وهو بأرض زواغة غربي طرابلس ، فأسرع من حينه الى العاصمة تيهرت فقاتل بها أبا حاتم ودامت الحال على ذلك مدة أربع سنوات الى ان سمى ذور الوجاعة والفضل في الصلح بين الطرفين فانتشر السلم بالمملكة أربعة أشهر . وفي اثناها حمل أبو حاتم على استمالة القلوب اليه واكتساب مودة القوم فالت اليه الرعية وانقلبت على عمه يعقوب فخلعته ، فذهب حينئذ الى حيث كان بجبهات طرابلس ، وطال به أجله الى ان شاهد سقوط تيهرت بيد الشيعة العبيدين ، فارتحل اثرها الى بني وارجلان

- وارقة - وهنالك عرضت عليه البيعة فأبى لما علمه من ضعف الرستميين أمام الشيعة وقال يومئذ كلمته المشهورة التي أرسلها مثلاً : لا يستتر الجمل بالغنم ! ... ومات هنالك .

عودة أبي حاتم

تصدى ابو حاتم في هذه المرة الى قمع الفتن وتسكين الثوار ورفع شأن العلماء على اختلاف مذاهبهم ونزعائهم والعناية باصلاح البلاد ونشر العدل والامن بين الناس ، فجاءته وفود الخطباء والشعراء قائمة بين يديه تعدد اباديه وتشر مناقبه ، واخيراً ائتمر عليه منافسوه من بني عمه واخوته فقتلوه غيلة سنة ٢٩٤هـ - ٩٠٦م وقيل بعد سنتين من هذا التاريخ ؟ ... وفر حينئذ ابو سليمان بن يعقوب بن عم ابن حاتم الى ورجلان ، وبايعوا اخاه اليقظان .

الامام اليقظان

هو ابن اليقظان محمد تولى الامامة وایام دولته ذاهبة والحكومة مضطربة ، فعاش مهدد الجانب مختل النظام ولم تطل ايامه حتى دخل عليه ابو عبدالله الشيعي فقتله في خاصته وجماعة من اهل بيته في شوال سنة ٢٩٦هـ = جوان ٩٠٩م وذلك بايعاز ومؤامرة من وجوه الرعية .

المذاهب والعقائد

كان اهل المغرب العربي في صدر الاسلام يسيرون في عقائدهم وعباداتهم حسبما يرشد اليه الكتاب والسنة وما ورد في ذلك من الآثار عن السلف الصالح من غير انشاء الى اهل مذهب او طائفة او فرقة او نخلة الى ان قدم عليه جماعة من المشرق ممن تشبعوا بآراء اهل العراق فكانوا يرون راي ابي حنيفة واصحابه مثل عبدالله بن عمر بن فروخ الفارسي واسد بن الفرات قاضي افريقية فنشروا مذهب الكوفيين بافريقية وهكذا

الى ان تولى سحنون بن سعد القضاء فنشر مذهب مالك ؛ وكان الحوارج يومئذ بمن وفدوا على المغرب مختفين فنشروا هم كذلك عقائدهم ومذاهبهم من نكارية وصفرية واباضية الخ ... وكان ابن رستم مؤسس هذه الدولة على مذهب الاباضية^(١) فوضع قواعد دولته على اسس مذهب الحارجي وكان مع ذلك هو وجميع من خلفه على عرش تيهرت متساحاً مع جميع اهل المذاهب الاخرى من اهل الرأي وغيرهم ، فقد كانت المناظرات والمباحثات العلمية تعقد بين ايدي الائمة للنظر والجدل في مسائل الاعتقاد وغيرها وذلك بصدر رحب . قال ابن الصغير الملكي مؤرخ هذه الدولة ... ومن اتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربه وناظره الطف مناظرة ، وكذلك من اتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سيئه كذلك^(٢) ... ورغم ذلك فانه وقع شيء من التنازع المذهبي بين النكارية والاباضية على عهد الامام عبد الوهاب وهو في حقيقة امره نزاع سياسي لا ديني سببه التهاكك على الراس من اصحاب المقاصد والمنافع الشخصية وهو الذي كان سبباً في فتح باب الطعن في الامام والانكار

(١) راجع هامش صفحة ١٧٨ عن هذا الجزء .

(٢) كان اكبر معول فقهاء الاباضية على مدونة ابن غانم وهي بربرية القان ثم مزجوا فقههم بالعربية ولا تريد مسائل الخلاف بين الاباضية وغيرهم من الملحن اهل السنة عن بضع مسائل اجتهادية ؛ أهمها مسألة الصفات فقير الاباضية يقولون انها غير الذات المقدسة وانها قديمة بقدمه عز وجل ، والاباضية يقولون بانها عين الذات . ومسألة رؤية الباري سبحانه فقير الاباضية يثبتونها كما يليق بجلاله ، وهم ينكرونها . ومسألة القرآن فقير الاباضية ينكرون خلقه ، وهم يقولون بانه مخلوق محدث . ومسألة الايمان فهو عند الاباضية لا يتم الا بالعمل ، وعند غيرهم انما هو مجرد اعتقاد يصحبه النطق . ومسألة الخلود في النار فقير الاباضية لا يقولون بخلود العصاة المؤمنين ، اما عندهم فيخلدون . ومسألة الكفر فانه لا يطلق عند الاشاعرة الا على من كفر بالله او اشرك ، وعند الاباضية يطلق ايضاً على المنافق وعلى كل من كفر بالنسبة . ومسألة الشفاعة فلا ينالها عند الاباضية اصحاب الكبائر ، اما عند غيرهم نعم . الخ ... وهناك مسائل اخرى لا تختلف كثيراً عما هو موجود ومعلوم كذلك بين الاشاعرة والماتريديين من الخلافات العقلية والاجتهادية ؛ كما ان هنالك ايضاً مسائل خلافية في الدروع الفقهية هي من قبيل ما هو مستفيض وشائع بين سائر المذاهب الاسلامية ؛ ولكل وجهة ، ولكل مجتهد أجر .

عليه ، وقد أدى ذلك الى وقائع دامية ، وهكذا حب الرئاسة مهما دخل شيئاً الا وافسده .

الثقافة والحضارة والعمران

ليست هنالك دولة من الدول الاسلامية الجزائرية كانت تداني حضارة هذه الدولة فيما بلغته من الرقي والازدهار المادي والادبي سوى حضارة الدولة الحمادية التي تلالأت أنوارها بالقلعة وبجاية كما سنحدثك عنها فيما يأتي ؛ فلقد بلغت تهرت يومئذ شأواً عظيماً من المدنية والعمران ومن توفر أسباب الحضارة والرفاهية حتى انها كانت تشبه وتقارن بقرطبة وبغداد ودمشق من عواصم الشرق اللامعة ، حتى انها كانت تدعى بعراق المغرب وكان بها من القصور العالية والمنازل الرفيعة والحصون الحصينة والعمارات والمساجد والمنزهات ما يشبه منشآت هذه البلاد ، وسكن بها من أهل الكوفة والبصرة والقيروان والاندلس وبلاد العجم وغيرهم من أرباب الصناعات والحرف والفنون الجميلة عدد وافر ، وكان فيمن وفد على الجزائر يومئذ من أكابر أعيان المشرق : عبد الرحمن الداخل - صقر قريش - فلقد حل بها مستجبراً ببلاط أئمة تهرت وملوكها الرستمين ، وتقلب بين قبائل البربر هناك الى ان استقر عند قوم من زناتة قبل انتقاله الى الاندلس^(١) .

ولا ننسَ ان امه بربرية نفزية من قبيلة نفزاوة . وقد كان بالجزائر من العلماء والادباء ما يحق لها ان تقتخر بهم يومئذ على البلاد مثل : أبي الفضل احمد التاهرتي ، ومشاهير بيت آل الطنبي زيادة الله ، وسعيد بن واشكل التاهرتي ، وبكر بن حماد الشاعر وغيرهم ... ويكفيها في الاستدلال على ذلك نبوغ امثال يوحنا ابن قريش التاهرتي - في القرن الرابع الهجري - فانه كان متضلعا في كل من اللغات العربية والعبرانية

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٣١٢ وج ٤ ص ٢٨ ط القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٩م .

والآرامية والفارسية والبربرية ، وحاول المقاربة بين بعضها ، وهو الواضع
لاساس النحو التنظيري ، وله في ذلك كتاب موجود بمكتبة اوكسفورد
من بلاد الانكليز هو من انفس ما كتب في الموضوع . وقد كان ائمة
هذه الدولة ورؤساؤها يعقدون مجالس العلم والتعليم يعلمون الناس ويلقون
عليهم بأنفسهم دروساً عامة بالمساجد في فنون من العلم مختلفة ؛ وفيهم
من يقول الشعر ايضاً ؛ فمن ذلك قول الامام افلح في العلم :

العلم ابقى لاهل العلم آثارا يريك اشخاصهم روحاً وابكارا
حي وان مات ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك اوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة كبت قد نوى في الرمس اعصارا
فه عصة اهل العلم ان لهم فضلاً على الناس غياباً وحضارا

وهي قصيدة طويلة تنيف على الاربعين بيتاً وكلها على هذا المنوال
في مدح العلم وبيان فضله ومزايا العلماء ... ولهؤلاء الائمة والولاة عناية
شديدة يجمع الكتب النادرة وجلبها من اي مكان كانت فتكونت لهم
بذلك خزانة دار الامارة المشهورة بمكتبة قصبة المعصومة وكان فيها من
نوادير المخطوطات ونقائس الكتب ما يؤسف لفقده اليوم ! ... ولقد
فقدت هذه الخزانة العائرة في حوادث الاحتلال الفاطمي ، ويقال عنها
انها كانت تشتمل على ثلاثمائة الف مجلد ؟ ...

وبينا الحال على ما وصفنا في الجزائر ازدهاراً اذ كان شارلمان امبراطور
فرنسا الاكبر - في القرن الثاني الهجري ، والثامن الميلادي - يحاول
ان يتعلم ويتجسس الى الآداب نجياً ساذجاً كما يجب غير المتعلمين ان
يروا احياناً السطور المكتوبة ، وكانت تشبه آداب عصره ادب صبيان
المدارس وغاربنهم اليوم ، بل لم يكن في غالباً - فرنسا - شيء يشبه
الادب ، ولقد فقد منها على عهد شارلمان وبعده بزمان طويل كل اهتمام
بشيء يقال فيه الثقافة العامة .

اما عن الحياة الاقتصادية من فلاحه وتجارة وحركة الصادرات والواردات
فان مملكة تهرت كانت تعد احدى محطات العالم الاقتصادية الكبرى

فهي واسعة الاخذ والعطاء فكانت الجبوب والازهار بأنواعها تزرع بأرض الجزائر والاسواق مملأى بمختلف البضائع والمصنوعات ، وكانت طرق القوافل معبدة متصلة بصحراء افريقية وبلاد السودان شرقاً وغرباً ، قال البكري : « وفيها - اي تهرت - جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسناً وطعماً ومشياً ويسمى بالفارس ، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والتلج ... قال : وبتهرت أسواق عامرة وحمامات كثيرة ، يسمي منها اثني عشر حماماً ، وحواليها من البربر امم كثيرة ، ومدمم الذي يكتالون به خمسة افقزة ونصف قرطية ، وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره فانه قنطار عدل ، ورطل اللحم عندهم خمسة ارطال . ويفرق المقدسي في وصفها بأوصاف الحسنة والكمال الى ان يقول فيها : هي بلد كبير كثير الخير ... هي بلخ المغرب ... » (١) . كما ان السفن تغدو وتروح بين بر العدوة ومرامي الجزائر مشحونة بشئ أصناف السلع ... ولقد خست أخبار تهرت بالتدوين ، فأفردتها بالتأليف أبو عبدالله محمد بن يوسف التاريخي الاندلسي المشهور بالوراق في كتاب خاص لا ندري أين هو اليوم ؟ ... !

انهار الدولة الرستمية

ان اكبر عامل في سقوط هذه الدولة هو اختلاف الكلمة بين الحكومة والشعب وما انتشر عن ذلك يومئذ من الفتن والاضطرابات التي اضعفت الدولة امام رعيتهما فتضععت بفقد جندها الحامي . واخذت احزاب الامة يومئذ في حبك المؤامرات ضد الحكومة فقتل الامام ابو حاتم ؛ وقامت « دوسرا ، بنت اليعقظان - الامام نفسه - تشارك في حملة ابي عبدالله الشيعي للقضاء على الدولة وقتل الامام ! ... وكانت الدعوة الشيعية يومئذ قد اطبقت البلاد وذاع خبر انتصارها على الدولة الاغلبية المجاورة فخرج

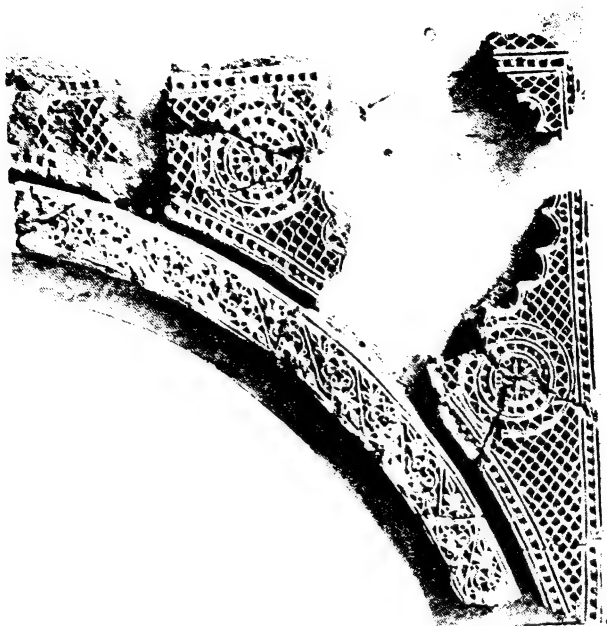
(١) السالك والمالك لبكري ص ٦٦ - ٦٩ ط الجزائر ١٨٥٧م ، واحسن التماسي للندسي ص ٢٢ ط الجزائر ١٩٥٠م .

الامام اليقظان مستملاً للعبيدين ففضوا عليه وعلى دولته سنة ٨٢٩٦ - ٩٠٩ م فكان ذلك كله من عوامل تيسير الاستيلاء الشيوعي على البلاد فسقطت يد العبيدين من غير قتال ولا حرب .

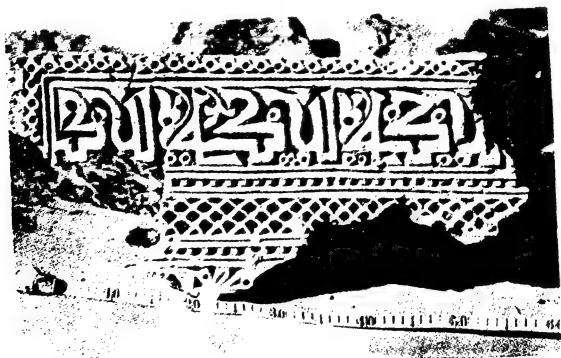
تأسيس بلاد مزاب

كان لسقوط هذه الدولة وقع عظيم في نفوس اولى الغيرة الوطنية والحماة الديني فهاجروا تهرت الى الجنوب فمنهم من هاجر الى الجنوب الغربي ، ومنهم من هاجر مع الامام يعقوب الى نواحي وادي مينة فأسسوا مدينة الكريمة ، ودخلوا مدينة بنى وجلان - وارقلة - وهناك على بعد اربعة عشر كيلومتراً جنوباً اخذوا في تأسيس عاصمتهم الجميلة « سدراتة » المعروفة عند البربر بأسدراتن ذات المدينة العظيمة ، فأنشأوا بها قصورهم البديعة والمنازل الرفيعة واقاموا بها البساتين والمزارع والمنشآت الضخمة ونشروا فيها من الرفاهية والحضارة ما اعجب منه العلماء اليوم . ولقد شرع الباحثون من علماء الآثار والحفريات منذ ربيع سنة ١٩٥١ م في الكشف عن هذه المدينة التي غطتها الرمال وتراكت عليها الكثبان ؛ فعثروا في مجوهم الحفيرة على آثار جليله قبة من مبان عجيبة ونقوش مزخرفة وخطوط كوفية واشكال هندسية واوان متنوعة ذات اهمية كبرى في تاريخ الجزائر الحافل ولا يزال البحث وأعمال الحفر والتنقيب مستمرة حول هذه المدينة التي يبلغ طولها اكثر من كيلوميتين ، وعرضها نحو كيلومتر واحد : فهي حقاً احدى ذخائر وكنوز الفن الجزائري باتم معناه ؛ وبالمتحف الجزائري اليوم بعض تحف ثمينة وقطع نفيسة عثر عليها بهذه المدينة فهي موضوعة هناك معروضة للجمهور ، آية ناطقة بعبقريّة الجزائري وتقدم الفن الاسلامي بالجزائر منذ اكثر من ألف سنة ؛ قال الشريف الادريسي عن مدينة « وارقلان » - وارقلة - هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار اغنياء يتجولون في بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة - هكارة ؟ - فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلدم - عملة مسكوكة - باسم بلدم ، وهم وهيبة اباضية .

وبعد ما اظهر القوم هنالك نشاطهم الاقتصادي والاجتماعي هاجم اهل

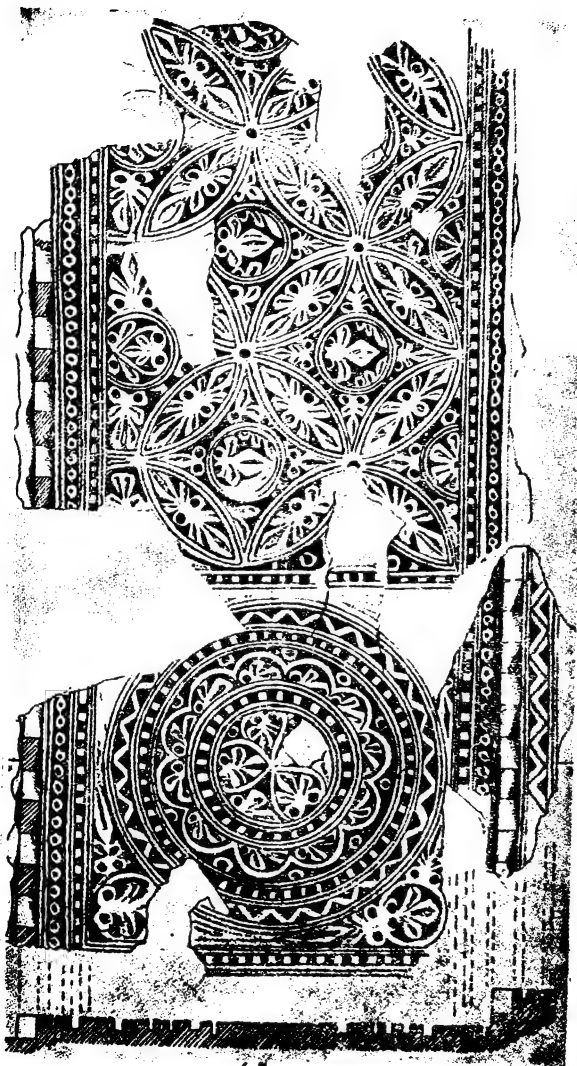


من آثار مدينة سدراه في القرن الرابع الهجري



من آثار مدينة - سدراه - : (بركة)

من آثار المدينة الجزائرية في القرن الرابع الهجري — مدينة مدراة —



وارقلة وتوجسروا منهم خيفة وخشوا منهم المنافسة والمزاومة ؛ فأجلوهم عنها وحل محلهم الزوج . فخرج الاباضية منها يومئذ الى جبال بني مصاب ، اومزاب بالشمال الغربي من وارقلة وجنوب مدينة الأغواط فسكنوا اولاً الحيام ثم اخذوا في تأسيس المدن والقرى ، فكان اول ما اسسوا هنالك مدينة العطف اختطها رئيسهم خليفة بن آبنغور سنة ٥٤٠٢ هـ - ١٠١١ م . وفي سنة ٥٤٣٧ هـ - ١٠٤٥ م تأسست مدينة بنورة ، ثم العاصمة غرداية سنة ٥٤٧٧ هـ - ١٠٨٤ م اسسها ثلاثة من زعماء الاباضية : سليمان بن يحيى وعيسى بن علوان ، وابو جمعة ، واصبحت هذه المدينة مركزاً لتلك القصور الاباضية السبعة التي انشئت بعدها : كبني يسقن ، ومليكة ، واخيراً القاررة وبريان . ومن الاباضيين من توجه بعد الجلاء من تهرت وسدراته الى البلاد الطرابلسية والتونسية فهم فيها الى الآن .

وذكر ابن خلدون بلاد « مزاب » هذه ورسم اسمها بصورة صاد وسطها زاي كرم أهل المصحف لحروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف ، فان النطق بصاد فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي ودل ذلك على التوسط بين الحرفين ، قال وهو اسم للقوم الذين اختطوا هذه البلاد ونزلوها ، و (بنو مصاب) من البربر وهم فخذ من بطن بادين بن محمد من ولد زحيك بن واسين بن ورشيك بن جافا (من قبيل زناتة) المتشعبين الى شعوب كثيرة منهم بنو عبد الواد وبنو مرين وبنو توجين وبنو مصاب وبنو زردال ، يجمعهم كلهم نسب بادين بن محمد ، وفي محمد هذا يجتمع بادين وبنو راشد ، ورشد هذا هو أخو بادين ... قال وسكانها - أي بلاد مصاب - لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فسين يضاف اليهم من شعوب زناتة ، وان كانت شهرتها مختصة بمصاب ، وحالها في المباني والاغراس وتفرق الجماعة بتفرق الرئاسة شبيهة بحال بلاد بني ريفعة والزاب (١) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧ ط بولاق ١٣٧٤ هـ ، وتاريخه ج ٧ ص ٥٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .



١٩٥٠ سنة اكتشف بيدرارة
تأصيل من الرخايل الخشب



١٩٥١ سنة اكتشف بيدرارة
الكلال دار حرمية

من اكتشافات (مارفوريت فان برشم) في حليمانا بيدرارة

كما يسكن بتلك النواحي ايضاً غير هؤلاء قوم من صنهاجة ولماية
وبني فائن وغيرهم .

ولاية الجزائر وزعماؤها

كان ممن حافظ التاريخ على اسمائهم من ولاية هذا العصر وزعمائه :
محمد بن مسالة امير هواراة المستبد بتيهت امام ابي بكر بن افلح وكان
يسكن مدينة الجبل ، ومحمد بن عرفة التيهرتي مفوض حكومة ابي بكر ،
ويزيد بن فندين مناهض بني رستم ، وشيخ المدينة ابو مسعود ، وعبد
الرحمن بن صواب النفوسي امير بيت المال ، ومحكم الهواري الاورامي
قاضي تيهت على عهد الامام افلح ، ومثله القاضيان : ابو عبدالله محمد
بن ابي الشيخ وشعيب بن مدمان ؛ ومزور بن عمران وزير الامام عبد
الوهاب ، ووزكار وابراهيم بن مسكين رئيس الشرطة على عهد الامام
ابي حاتم . وابو سهل الفارسي من احفاد الامام افلح تولى خطة الترجمة
بدواوين الحكومة على عهد الامامين : افلح وابي حاتم ، وله تأليف
كثيرة باللغة البربرية ودواوين شعرية وكان افصح اهل زمانه بها .

ائمة الدولة الرستمية

تاريخ التولية

١٦٠ هـ - ٧٧٦ م	الامام عبد الرحمن بن رستم
١٧١ هـ - ٧٨٧ م	الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن
١٩٠ هـ - ٨٠٥ م	الامام افلح بن عبد الوهاب
٢٤٠ هـ - ٨٥٤ م	الامام ابو بكر بن افلح
٢٤١ هـ - ٨٥٥ م	الامام ابو يعقظان بن افلح
٢٨١ هـ - ٨٩٤ م	الامام ابو حاتم بن ابي يعقظان
٢٨٢ هـ - ٨٩٥ م	الامام يعقوب بن افلح
٢٩٤ هـ - ٩٠٦ م	الامام يعقظان بن ابي يعقظان

مَنْ مَشَاهِيرُ الْجَزَائِرِ

بكر بن حماد

٢٠٠ - ٢٩٦ هـ

٨١٦ - ٩٠٨ م

ابو عبد الرحمن بكر بن حماد بن صهر او سهل ؟ ... بن ابي اسماعيل الزناتي التاهرتي هو من اشهر كبار علماء الجزائر وادباؤها في هذا العصر ، ولد ونشأ بتيهرت حوالي سنة ٢٠٠ هـ - ٨١٦ م فاخذ العلم والادب عن علماء بلده ثم ارتحل الى القيروان فاخذ عن امثال صاحب المدونة سحنون بن سعد ، ودخل بغداد سنة ٢١٧ هـ - ٨٣٢ م فاخذ عن ابن مسدد وعمر بن مرزوق وبشر بن حجر ، ولقي من الادياء امثال ابي تمام صاحب ديوان الحماسة ، ودعلج الخزاعي ، وعلي بن الجهم ، ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) وابن الاعرابي ، والريائي وابي حاتم السجستاني وغيرهم من فطاحل الادب العربي وشيوخ المشرق وعلمائه وكانت له مع هؤلاء مساجلات ومطارحات ادبية شعرية ونثرية ؛ واتصل بخلفاء الدولة العباسية وبملوك بلده تيهرت ، وحصلت له جوائز وصلات من الملوك والامراء ؛ قال عنه البكري انه : كان ثقة مأموناً حافظاً للحديث ؛ وقال ابن عذاري : كان عالماً بالحديث وتميز الرجال وشاعراً مقلقاً . تصدر الشيخ بجامع القيروان لاملأه الادب والعلم سنة ٢٧٤ هـ -

٨٨٧ م فارتحل اليه الكثير من اهل الاندلس للاخذ عنه والتخرج على يده ، وكان منهم قاسم بن اصبح البياني ؛ وقد وقعت له مع هذا قصة حوار ادبي دار بين الشيخ وتلميذه ، وتدلل هذه القصة على تواضع الشيخ وتجافيه عن مقاعد الكبر ورجوعه الى الصواب ، قال القرطبي :

« وذكر ابو محمد قاسم بن اصبح قال : لما رحلت الى المشرق نزلت القيروان فاخذت على بكر بن حماد حديث مسدد ، ثم رحلت الى بغداد ولقيت الناس ، فلما انصرفت عدت اليه لتمام حديث مسدد ، فقرأت عليه فيه يوماً حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قدم عليه قوم من مضر مجتبي النار ، فقال : انما هو مجتبي النار ، فقلت انما هو مجتبي النار ، هكذا قرأته على كل من قرأت عليه بالاندلس والعراق ، فقال لي . بدخولك العراق تعرضنا وتفخر علينا ! ... او نحو هذا . ثم قال لي : ثم بنا الى ذلك الشيخ - لشيخ كان بالمسجد - فان له بمثل هذا علماً ، فقمت اليه فألناؤه عن ذلك فقال : انما هو مجتبي النار ، كما قلت : وهم قوم كانوا يلبسون الثياب ، جيوبهم امامهم ، والنار جمع غمرة . فقال بكر بن حماد واخذ بانفه : رغم انفي للحق ، رغم انفي للحق ، وانصرف ^(١) .

وكان مجلس ابن حماد حافلاً بطلبة العلم على اختلاف مذاهبهم ؛ كانت عودته الى بلده تهرت سنة ٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م ثم كانت وفاته بقلعة ابن حجة شمال مدينة تهرت وذلك في شوال سنة ٢٩٦ هـ - جوان ٩٠٩ م اي في نفس السنة التي سقطت فيها الجزائر الرسمية بيد العبيدين ؛ ومن شعره قوله لما عاد من العراق معذراً للامام ابي حاتم :

ومؤنة لي بالعراق تركتها وغصن شبابي في الفصون نضير
فقال كما قال النواصي ^(٢) قبلها « عزيز علينا ان نراك تسير ،

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٨٧ ط القاهرة ١٣٥٤ = ١٩٣٥ م .

(٢) ابو نواس الشاعر الباسي المشهور .

فقلت جفاني يوسف بن محمد فطال علي الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة ولكن اتت بعد الامور امور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم فداريتهم ، والدائرات تدور

وله في جميع اغراض الشعر قصائد طويلة وقطع رائعة هي متفرقة
في كتب الادب والتاريخ ومنها قوله في وصف طقس مدينة تاهرت
الشديدة البرد شتاء :

وأطرف الشمس بتاهرت	ما أخشى البرد وريعانه
كأنها تنشر من تحت	تبدو من الغيم اذا ما بدت
كفرحة الزمن بالسبت	فنحن في بحر بلا لجة



جَدْوَل تَارِيخِي

١٦٠ - ٤٠٢ هـ

٧٧٦ - ١٠١١ م

أم الحوادث وأبرز الاحداث	تاريخ الحوادث
انشاء مدينة تاهرت - تيهرت .	١٤٨ هـ = ٧٦٥ م
مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة بتاهرت .	١٦٠ هـ = ٧٧٦ م
توثيق العلائق بين الحكومة الرسمية والاغلبة وولاية الامام عبد الوهاب .	١٧١ هـ = ٧٨٨ م
مقاومة الدولة لقبيلة زناتة النائرة .	١٧٣ هـ = ٧٨٩ م
تخريب مدينة العباسية واحتراقها على يد الامام اقلح .	٢٣٩ هـ = ٨٥٣ م
امتناع تاهرت عن ابي القحطان .	٢٤١ هـ = ٨٥٥ م
ابتداء ذبوع الدعوة الشيعية بالجزائر والمغرب الاقصى .	٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م
الحلاف بين ابي حاتم وعمه يعقوب .	٢٨٢ هـ = ٨٩٤ م
انتشار المجاعة والوباء .	٢٨٥ هـ = ٨٩٨ م
اغتيال ابي حاتم وولاية القحطان	٢٩٤ هـ = ٩٠٦ م
سقوط الدولة الرسمية وقتل القحطان .	٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م
تأسيس مدينة سدراتة وبلدة الكريمة بالجنوب الجزائري .	٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م
تأسيس بلاد مصاب - مزاب .	٤٠٢ هـ = ١٠١١ م

الدولة الأدرسية

١٧٢ - ٣١١ هـ

٧٨٨ - ٩٢٣ م

نشأتها

خرج ادريس الاكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه من الشرق لما يئس من نجاح مطلب الطالبيين هنالك ونجا بنفسه من اضطهاد العباسيين الى المغرب ، وقد علم يومئذ ضعف سلطانهم به وانحراف اهلهم عنهم فقصده ونزل منه بمدينة « ويلي » بالمغرب الاقصى ، فصادف تعطش المغاربة الى تأسيس دولة اسلامية مستقلة عن المشرق كما فعل اهل الاندلس من قبل ، وكانوا من قبل يبحثون عن زعيم لهم ليكونوا حوله الوحدة المغربية ؛ وكان العلويون - ومنهم ادريس هذا - يرون احقيتهم في الخلافة دون العباسيين ، وذلك لانعقاد الامامة الشرعية لهم قبل اولئك ^(١) ويومئذ انتهز ادريس هذه الفرصة واباح بسرّه حول تأسيس الدولة الجديدة واطهر بالمغرب دعوة العلويين الشيعية الزيدية ^(٢)

(١) بويص محمد بن عبد الله - النفس الزكية - بالخلافة في المدينة ، وهو اخو ادريس الاكبر وكان فيمن حضر البيعة يومئذ وبايحه ابو جعفر المنصور العباسي واخوه السفاح ثم نكث المنصور بيعته وقتله سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٢ م

(٢) لا يزال يوجد اتباع هذه الدعوة باليمن الى اليوم ، وم يتقربون في دعوتهم الى زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ؛ خرج زيد على هشام بن عبد الملك بن مروان فقتله الخليفة وصلبه ١٢١ هـ - ٧٣٩ م

فبايعته حكومة المغرب البربرية غرة ربيع الاول ١٧٢ هـ - اوط ٧٨٨ م وكان على راس هذه الحكومة يومئذ اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربي المعتزلى ، واطاعته معها القبائل البربرية المجاورة وخلعت طاعة العباسيين ، ويومئذ قضى ادريس على ما بقي هنالك متفرقا بالبلاد من عقائد المجوسية واليهودية والنصرانية ومذاهب الاعتزال ووجد كلمة المغاربة حول الدولة العلوية الجديدة .

نظامها الحكومي

لا تختلف هذه الدولة في نظامها الاداري وشكلها السيامي عن نظم بقية الدول الاسلامية المعاصرة عامة ؛ سوى انها غير مركزية ، وهي جنابة سياسية كانت عليها وبالا ؛ وكان ائمة هذه الدولة يرون انفسهم احق بامارة المؤمنين من غيرهم لسبق انقادها لهم قبل سوام من العباسيين كما ذكرنا .

قال ابن خرداذبة : وليس يسلم عليه - يعنى الامام الادريسي بالخلافة ، وانما يقال والسلام عليك يا ابن رسول الله ، ^(١) . والامام هو صاحب السكة والواء ^(٢) والدعاء على المنبر ؛ واقامته كانت بفاس وهناك ولاية وامراء وعمال منتشرون في انحاء المملكة ولهم فيها نوع استقلال .

الجزائر الادريسية

وبعد ما اطمان المولى ادريس على المغرب الاقصى واذعنت له قبائله زحف في جموع مطفرة وغيرهم على المغرب الاوسط - الجزائر - لفتح الطريق الى المشرق وتوسيع مملكته المغربية ، فنزل على محمد بن خزر بن صولات المغراوي

(١) المالك والمالك لابن خرداذبة ص ١٠ ط الجزائر ١٩٤٩ م

(٢) كانت راية هذه الدولة بيضاء عكس السودة من بني عباس ، وظلت كذلك الى عهد الدولة الصنهاجية فانخذلتها هذه من حرير ووشتها بالذهب ؛ واشتهر الملويون وم الطالبيون عموما باسم الميضة لانخادهم البياض شارم في لباسهم وراياتهم مخالفة لعباسيين اعدائهم في اتخاذ شارم - السواد - وذلك حزنا منهم على شهدائهم من بني هاشم ولما على بني امية في قتالهم

امير تلمسان فبايعه محمد في رجب سنة ١٧٢ هـ - ديسمبر ٧٨٨ م واسلم له تدبير شؤون ولايته الجزائرية بدون محاربة ولا قتال ، ودانت له القبائل المجاورة هنالك من بني يفرن ومغراوة وجميع امهات قبائل المغربين الاقصى والأوسط وقد كان لهذه المبايعة اثر خطير في فصل الشمال الافريقي عن الخلافة العباسية وفي ظهور تلك القبيلة العتيدة زناتة على مسرح تاريخ هذا الشمال وخاصة الجزائر .

حدود الجزائر الادريسية

واذا نظرنا الى حدود الجزائر الادريسية وجدناها لا تتعدى من جهة الشمال الشرقي مدينة وهران ونهر سلف ؛ ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر الى جبال مدبونة قبلي فاس ؛ ولك ان تقول انها تمتد على الساحل من الريف غرباً الى ارض الحظنة من عمالة قسنطينة شرقاً ، ثم تعود بناحية تنس غرباً وجنوب سلف الى مليانة وتنتهي بمتيجة .

امارة تلمسان

مكث ادريس الاول بتلمسان نحو السبعة اشهر وفيها كان تأسيس مسجده الجامع ونقش على صفح منبره هذه العبارة : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما امر به الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن علي رضي الله عنهم وذلك في صفر ١٧٤ هـ . ولم يبق من اثر لهذا المسجد اليوم الا اطلال من مآذنته بأكادير^(١) - تلمسان القديمة - ثم عاد بعد ذلك ادريس الى عاصمته « وليلى » المعروفة اليوم بقصر فرعون^(٢) وترك

(١) كلمة سامية استعملها الفينيقيون والبرانيون بمعنى « الجدار » وهي من لغة البربر بمعنى الحصن والابواب وهو المكان الذي يجتمع وينفذ فيه الزرع والحبوب .

(٢) هي اليوم خراب واطلال قائمة على ربوة متصلة بجبل زهرون من جهة وادي خوفان ، تعرف في الخرافات باسم (Volubilis) تبعد عن الفريخ الادريسي بنحو ثلاث كيلومتراً وعن مدينة فاس بخمسين كيلومتراً غرباً .

ابن العلاء والياً على تلمسان . وفي هذه السنة اتخذ ادريس السكة وضرب عملته بمدينة ترغة ، وفي فاتح سنة ١١٩٩ هـ - ٨١٤ م احدث طائفة الصفرية وقبائل نفزة ثورات بتلمسان عجز العامل عن اخادها ، وهو يومئذ محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل ، فزحف اليهم ادريس الثاني من عاصمته الجديدة - فاس - فأقمع الثائرين وقضى على الفتنة ومكث هنالك بتلمسان ثلاث سنوات رسم فيها حدود مملكته وعقد فيها اتفاقية مع جيرانه الاغالبه على ان يكون نهر شلف هو الحد الفاصل بين المملكتين وتعاهدوا على السلم والموادعة . وأمر ادريس يومئذ بترميم ما بلي من المسجد الجامع الذي اشاده والده واصلح منبره ، وجدد العهد لابن عمه محمد على ولاية تلمسان ثم عاد الى فاس ؛ وبقي محمد هذا على ولايته مقيماً بعين الحوت الى وفاته بجبل وهران ، فخلفه يومئذ ابنائوه وحفدته . واستمرت هذه الولاية فيهم الى ان سقطت بيد موسى بن ابي العافية المكنامي عامل الشيعة سنة ١٢١٩ هـ - ٩٣١ م ويومئذ خرج منها عاملها الادريسي الحسن بن ابي العيش وهو من اعقاب سليمان بن عبد الله الكامل ملتجئاً الى جزيرة ارشقول ؛ وانتشر الادارة يومئذ بالمغرب العربي كله واعقبوا فيه ، ومنهم من استقل ببعض المدن الجزائرية ، فعك بعضهم ارشقول ، وهي على خمسة عشر ميلاً شمال تلمسان ، ومنهم من سكن تنس ، ومنهم بقرانا على ثمانية أميال من ندرومة ، ومنهم بفليزان ومدكرة بنواحي مليانة ومنهم من حل بسوق ابراهيم بنواحي شهونة والسرسو حيث مصب نهر اسلي في شلف وغيرها . وهي آخر المدن التي بأيديهم وكل من هذه الاماكن والجهات كان مستقلاً بيد هؤلاء الادارة لا ارتباط لهم مع امامة فاس الا في الدعاء على المنابر والسكة .

امارة متيجة

كانت لبني محمد بن سليمان العلوي بمالك متفرقة بالمغرب ، ومنها بالجزائر امارة متيجة هذه ، وهي ارض فسيحة كلها سهل واسع يمتد من العلة شرقاً الى مارانكو غرباً ويحدها من جهة الشمال مدينة الجزائر ،

وجنوباً جبل بني صالح وبني ميسرة ، و « متيجة » اسم قاعدة هذه الامارة القديم ويقال لها ايضاً « قزرونة » ولعلها نفس المكان المدعو اليوم خزرونة قرب مدينة البلدة بامبال . كانت هذه الولاية تحت ادارة وتصرف محمد بن جعفر عم ادريس الاول ؛ ومن نسله ابو فريك الكافر المسماة به ناحية بوفاريك الحصبة الشهيرة بسهل متيجة قرب البلدة ، فهو من ولد جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذكر ابن حزم ان نسله بمتيجة .

امارة هاز

هاز اسم مدينة قرب المسيلة بنواحي عين بوسيف يسكنها بنو يرثان أو يرثان من زناتة وهي عاصمة البلاد التي بين البويرة وجبال جرجرة الى قصر البخاري ونواحي زاغز الشرقي ، وتشمل سهل حمزة الفسيح المنسوب الى حمزة بن الحسن بن سليمان الطالبي العلوي مؤسس مدينة البويرة ، وبه ابناؤه اصحاب هذه الديار ، ومن الاماكن والبلاد المشهورة بهذه الامارة مدينة عين بسام وسور الغزلان وسيدي عيسى ؛ وكان خراب هذه الامارة على يد زيوي بن مناد الصنهاجي حين أخذ يبادىء الدعوة العبيدية - الفاطمية - ثم أجلب عليها بعد ذلك جوهر الصقلي قائد المعز العبيدي ففضى عليها .

متنبيء تلمسان ؟ ! ..

وفي هذا العهد ٢٣٧ هـ - ٨٥١ م ظهر بنواحي تلمسان رجل كان مؤذناً باحد المساجد هناك ولم يذكرنا لنا التاريخ اسمه ؟ .. فادعى النبوة واخذ يفسر القرآن الكريم على غير وجهه ويحمله من المعاني ما يتبرأ منه الاسلام والعربية ، ونهى الناس عن خصال الفطرة قائلاً : لا تغيير لخلق الله ! ... فاجتمع عليه من الاوغاد من يصح فيهم قول القائل : انفق بما شئت تجد انصاراً ! ولما شعر بعزم الشرطة على القبض عليه ذهب الى مرمى

هتين فركب من هناك الى الاندلس فراراً من امير تلمسان ، وهناك في الاندلس فعل مثل ذلك بحيث اخذ في نشر دعوته فاجتمع عليه الاندال والاباش فقبض عليه الامير فاستتابه فلم يتب فقتله وصلبه .

اختطاط مدينتي تنس وهران

كثيراً ما كان البحارة الاندلسيون يرتادون السواحل الجزائرية والاماكن المنية منها امناً من الزواجع والاضطرابات البحرية ، وللتجارة ايضاً . وكان بما اعتادوا النزول به ساحل تنس وهران ، وخاصة في الشتاء فانهم كانوا يقصدون ساحل تنس خاصة ، ولم يكن بذلك المكان يومئذ سوى قلعة فقط . وفي ذات يوم اجتمع عليهم سكان هذه الناحية ورغبوا منهم اتخاذ هذا المكان سوقاً لتجارتهن وسمحوا لهم باقامة ما شاؤوا من البنيان في تلك البقعة ، ووعدهم بالعون والمساعدة وحسن الجوار والعشرة ؛ فلبى هؤلاء الاندلسيون هذه الرغبة واجابوهم الى ذلك فكان يومئذ تأسيس مدينة تنس سنة ٢٦٢ هـ - ٨٧٥ م على يد جماعة من الاندلسيين منهم ابو عائشة والصقر وصهيب والكركري ... وسكن بها على الاخص اهل البيرة وتدمير من بلاد الساحل الاندلسي ؛ واصحاب تنس يومئذ هم ابناؤ ابراهيم بن محمد الحسيني ، وما كاد يتم اختطاط المدينة حتى اقبل على تعميمها ايضاً سكان سوق ابراهيم في اربعمائة بيت ، فافوسع لهم اهلها واشركوهم في اموالهم وتعاونوا جميعاً على انشاء المدينة واشادة بنيانها ؛ فأصبحت اذ ذاك عاصمة من عواصم القطر الجزائري ومركزاً علمياً ثقافياً اشتهر بها جماعة من العلماء منهم ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي مفتي مدينة الزهراء بالاندلس ... ثم خربتھا الفيضانات وسيول المياه الدافقة سنة نيف وعشرين وسبائة .

اما وهران فانها استت كذلك على يد جماعة من الاندلسيين كانوا تجاراً ينتجعون مرفئ المدينة الاثرية « ابفري » بمعنى الكهوف ، بمشارة نفزة وبني مسقن ويقال لهم مسرقين وكلاهما من قبيلة زداجة الزناتية ، وبذلك المكان تأسست مدينة وهران سنة ٢٩٠ هـ - ٩٠٣ م . ومن هؤلاء الاندلسيين الذين شاركوا في هذا العمل العبراني الجليل : محمد بن ابي عون

ومحمد بن عبدوس في آخرين من مجارة الاندلس فاستوطنها هؤلاء سبع سنين ثم نشب الخلاف بينهم فغربت المدينة واضربت فيها النيران ثم انشئت من جديد كما ستقف عليه في مكانه ؛ ويذكر المشرقي في بهجة الناظر : « ان الصحيح في تأسيس هذه المدينة انما يرجع الى ما يعرف عن خزر بن حفص بن صولات المغراوي فهو الذي انشأ مدينة وهران وبنائها على سيف البحر الرومي كما امره بذلك امرؤه الامويون بالاندلس حيث كان يرجع اليهم بالولاء . واشتهر من علماء وهران غير واحد ، فمنهم عبد الرحمن بن عبدالله الوهراني شيخ الحافظين الاندلسيين ابن عبد البر وابن حزم ...

المذاهب والعقائد

ما كان لهذا المغرب ان يتحد في عقيدته ومذهبه الا في عصر هذه الدولة الادريسية ؛ فانه بمجرد ما اطمأن ادريس الاول لتدعيم اركان دولته وتوطيد دعائم ملكه نهض للقضاء على ما كان بالمغرب من مختلف العقائد والاديان فقصى على بقايا اليهودية والنصرانية والمجوسية وناهض الحوارج والمعتزلة وجمع الناس على عقيدة السلف ودعاهم الى الاقتصاد على مذهب الامام مالك وجاءهم بالموطأ فشره بينهم ، ويقال ان اول من جاء بالموطأ الى المغرب هو علي بن زياد التونسي المتوفى سنة ١٨٣ هـ - ٧٩٩ م وان روايته للموطأ مشهورة بين الموطآت توجد منها قطعة صالحة بمكتبة القيروان العتيقة ^(١) وكان ادريس يقول نحن احق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه ، وذلك لرواية الامام في الموطأ عن والده عبدالله الكامل ، ولما كان يراه مالك ايضاً ويفتي به من خلع الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور وصحة البيعة لمحمد النفس الزكية اخي ادريس ؛ وقد لحق مالكاً في ذلك من المحنة والاذى ما لحقه ^(٢) ! ... فانشر لذلك

(١) تاريخ ابن ابي الضياف ج ١ ص ١٠٠ ط تونس ١٩٦٣ م .

(٢) راجع الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٨٢ ط القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م وابن خلدون ج ٤ ص ٣ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

يومئذ المذهب المالكي بالمغربين الاقصى والاوسط كما نشره سحنون بالمغرب
الادنى - تونس - فعمت المالكية المغرب الكبير مع ما في ذلك ايضاً
من عقائد الزيدية والمذهب الشيعي .

الثقافة والحضارة والعمران

كان عهد الادارسة بالمغرب عهد عمارة وتأسيس وذلك ما تمتاز به
الحضارة الادريسية ، فانهم كثيراً ما انشأوا مدناً مزدهرة ومبان فخمة
وخاصة بالمغرب الاقصى اعظمها عاصمة فاس وسبتة ... اما في الجزائر فلم
يكن لهم بها كبير اثر بسبب بعدها عن مقر الامارة ودار الملك ؛ وقد
شاهدنا كيف تأسست مدينة تنس ووهران على يد الاندلسيين واكادير
بتلمسان على يد ادريس الاول والبويرة على يد حمزة بن سليمان العلوي ،
كما ان ابا العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان العلوي اسس
مدينة جراوة سنة ٢٥٩ هـ - ٨٧٣ م وهي على مرحلة من وادي ملوية
الى ناحية تلمسان ؛ وقد دعت بهذا الاسم لكثرة من سكن بها يومئذ
من اهل قبيلة جراوة ، وهي متقدمة اليوم ويذكر اليعقوبي مدينة تلمسان
فيقول : « عليها سور حجارة وخلفه سور آخر من حجارة ايضاً ، وبها
خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة » (١) . كما يمتاز هذا العصر - في اوله -
بانتشار الرخاء وخفض العيش وكثرة الحصب حتى يبيع وسق القمح
بدرهمين وثلاثة دراهم ووسق الشعير بنصف ذلك ، والكبش بدرهم ونصف ،
والبقرة بأربعة دراهم ، وخمسة وعشرون رطلاً من العمل بدرهم واحد ،
واما الفواكه والخضر والبقول والقطنية فلا سوم لها بحيث لا تباع ولا
تشرى وليأخذ منها من شاء ما شاء ، ولقد دام هذا الرخاء والبسر
عشرات السنين الى توالي ابام القحط والابوثة الفتاك ٢٥٣ - ٢٦٥ هـ
٨٦٧ - ٨٧٨ م فتغيرت الاحوال حينئذ وارتفعت الاسعار الى حد الشطط .
اما عن الحياة الثقافية والحركة العلمية فلا نعلم عنها يومئذ الا هذه

(١) كتاب البلدان ص ١٧ ط ليدن ١٨٦٠ م .

المؤسسة العلمية الضخمة التي احدثت بفاس : جامعة القرويين ٨٢٤٥ - ٨٥٩ م
التي هي اقدم الجامعات - بعد جامعة الزيتونة بتونس ^(١) - فكثرت وفود
العلماء عليها من كل ناحية وصوب ؛ وخاصة من اهل القيروان والاندلس .

اما عن الجزائر فقد حدثنا التاريخ عن عدة شخصيات لامعة جزائرية
كان يشار لها بالبنان امثال الفضل بن سلمة البجائي وابي بكر بن مجي
الوهراني وغيرهما من مشاهير علماء الجزائر في التاريخ .

انهار الجزائر الادريسية

اول ما يلاحظه طالب التاريخ في سقوط هذه الدولة هو انقسامها
اولاً على نفسها ، فانه لما توفي ادريس الثاني وتولى مكانه ولده محمد قسم
بلاد المغرب بين ابنائه واخوته وبني عمه وهم كثيرون ، فاقطعهم البلاد
وجعل منهم في كل بلدة او ناحية اميراً مستقلاً لا يشاركه الامام الا
في الدعاء له على المنبر فقط ! ... فكان هنالك من خرج عن طاعة
الامام وباع الامويين كأهل تيهرت وسجلماسة وذلك رغبة او طمعاً
في نيل رتبة منهم او رهبة لقرب بلاده من ولايتهم . وهكذا تقطعت
اوصال الحكومة الادريسية وتبعثت وحدثها فتمرد الامراء والعمال والمخاز
كل الى عمله ؛ وقد اكتنف الدولة يومئذ مطامع دولتين عظيمتين :
الدولة الاموية بالاندلس ودولة العبيديين الفاطمية بتونس . ثم ان الحكومة
نفسها لم تكن لتعني بالشعب المغربي العناية اللازمة التي تتطلبها الظروف
المكتنفة بها من حيث السياسة الخارجية ؛ مع شراسة اخلاق البوير
ووضعيتهم الشاذة ؛ بل تركتهم على فطرتهم وطبيعتهم الفوضوية ينهضون مع
كل ناعق ويتبعون كل ناعر ، حتى اذا صاح بهم داعي الشيعة العبيدي
فسقطت فاس عاصمة الدولة بيده بسرعة ثم انتهت بالقبض على آخر

(١) تظافرت الروايات على ان المؤسس لهذا الجامع هو الامير عبد الله بن الحبحاب
سنة ٨١١٤ م وتم تأسيسه سنة ٨١٤١ م (٧٣٢ - ٧٥٨ م) واما جامع القرويين فالفضل
عالمه في تأسيسه لامرأة بربرية من هواة كانت تسمى بام البنين فاطمة بنت محمد الفهري .

ملوكها الامام الحسن الحجام^(١) سنة ٣١١ هـ - ٩٢٣ م وتأخرت قليلاً بعدها امارات الجزائر الى ان جاء دورها فسقطت سقوط اوراق الحريف الواحدة تلو الاخرى ؛ فأولها سقوطاً جراًوة وكانت تحت الحسن بن ابي العيش عميد بني محمد بن سليمان بن عبدالله الكامل فتغلب عليها موسى بن ابي العافية عامل العبيدين سنة ٣١٧ هـ - ٩٢٩ م فانقل اهله يومئذ الى جزائر ملوية ومنها الى مدينة ارشقول ؛ فتمتعهم ابن ابي العافية واخلى منهم البلاد واستولى على جميع ملكهم سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م ، ثم رفض موسى التشيع واتصل بعبد الرحمن الناصر بالاندلس ودعا الى الخلافة الاموية . ثم كان سقوط ولاية تنس التي كان يرأسها علي بن يحيى فانتصر عليه زيري بن مناد الضنهاجي حليف العبيدين سنة ٣٤٢ هـ - ٩٥٣ م فلقق يومئذ علي بالخير بن خزر المقرائي صاحب وهران مستنصراً به وبعث بولده الى الناصر الاموي بالاندلس ، ثم عاد زاحفاً على تنس فلم يظفر بها فكان ذلك آخر العهد بالدولة الادريسية بهذه الديار وقد عمرت بالجزائر مائة وسبعين سنة . اما في اقصى المغرب حيث كان مركز خلافتها فقد تقدم انهيارها عن امارات الجزائر باحدى وثلاثين سنة ، ولقد نهض بعض الادارسة بعد ذلك يحاولون اعادة مجدهم فلم ينجحوا .

ولاية الجزائر وزعمائها

كان محمد بن خزر المقرائي هو صاحب تلمسان قبل ولاية هذه الدولة على المغرب ، ولما احتلها ادريس الاول ولى عليها رجلاً يعرف بابن العلاء ، ثم كانت من اقطاعات سليمان بن عبدالله اخي ادريس ثم خلفه عليها ابنه محمد ، ثم احد اخوان ابناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد الزناتي . ولما تولى الخلافة محمد بن ادريس الثاني جعل المغربين الاوسط والاقصى اوزاعاً بين اخوته واقاربه فكانت تلمسان وامهالما لاخته حمزة ، ثم تولاهما ابو العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان

(١) كان يمت بذلك لشجاعته وطنه لاعدائه في الهاجم .

وتوارثها عنه ابناؤه من بعده الى زمن ظهور بني عبيد . وكان على امارة متيجة بنو جعفر بن حسن عم ادريس الاول ومنهم ابو فريك الكافر ، وعلى تهرت الحسن بن محمد بن سليمان ، وعلى امارة هاز ابناؤه الحسن بن سليمان ، وعلى مدينة مدكرة بعيد متيجة محمد بن سليمان ثم ولده ، وعلى سوق ابراهيم ، عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان ؛ وعلى مدينة انغالة قبل وادي ملوية غرباً : محمد بن علي بن سليمان ؛ وكان على مدينة ارشقول على ضفة نهر التافنا عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان الى وفاته سنة ٢٩٥هـ - ٩٠٧م فتولاها بعده ابنه ابراهيم المعروف بالارشقول ثم يحيى بن ابراهيم ، ثم اخوه ادريس بن ابراهيم الى ظهور الشيعة عليه سنة ٣٢٣هـ - ٩٣٥م وتولى قضاها يومئذ عيسى بن جنون ، وكان على مدينة جراوة - على ستة اميال من البحر وعلى مرحلة من ملوية الى ناحية تلمسان - ادريس بن ابراهيم ثم ولده الحسن . وكان للحسن هذا ولد يدعى بعبد الله الترناني لولايته على ترنانا وهي على مرحلة من تلمسان ، وكانت ولاية مازونة وتنس ومستغانم لابراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده ثم ليحيى بن محمد ثم لملي بن يحيى الى ان تغلب عليه زييري بن مناد سنة ٣٤٢هـ - ٩٥٣م الى الجبل بن محمد بن خزر . وجاز ابناؤه حمزة ويحيى الى الناصر بالاندلس فتلقاهما رجلاً وتكرمة ورجع عنهما يحيى الى طلب تنس فلم يظفر بها - وهكذا افترس الطالبيون المغرب الاوسط بينهم كما فعلوا ايضاً بالمغرب الاقصى .

قال ابن خلدون : وسليمان بن محمد بن ابراهيم من رؤساء المغرب الاوسط وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وبطوش بن حناش بن الحسن بن محمد بن سليمان . قال ابن خزم : وهم بالمغرب كثير جداً وكان لهم بها ملك وقد بطل جميعها ولم يبق منهم بها رئيس بنواحي بجاية ، وحمل بني حمزة هؤلاء جوهر الى القيروان وبقيت منهم بقايا في الجبال والاطراق معروفون هناك عند البربر^(١) .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨ ط بولاق ١٢٨٤هـ .

أئمة الدولة الادريسية وخلفاؤها

تاريخ التولية

ادريس الاول بن عبد الله الكامل (٤ رمضان - ٥ فيفري) ١٧٢ هـ - ٧٨٩ م	
ادريس الثاني بن ادريس الاول (فاتح جمادى الثانية - ١٣ سبتمبر) ١٧٧ هـ - ٧٩٣ م	
محمد بن ادريس الثاني (ربيع الاول - ماي) ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م	
علي الاول بن محمد (ربيع الثاني - مارس) ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م	
يحيى الاول بن محمد (رجب - جانفي) ٢٣٤ هـ - ٨٤٩ م	
يحيى الثاني بن يحيى الاول	د د
علي الثاني بن عمر	د د
يحيى الثالث بن القاسم	د د
يحيى الرابع بن ادريس	٢٩٢ هـ - ٩٠٤ م
الحسن بن محمد بن القاسم الحجام	٣١٠ هـ - ٩٢٢ م
موسى بن ابي العافية (مفتصب)	٣١٣ هـ - ٩٢٦ م
القاسم كنون بن ابراهيم بن محمد	
ابو العيش احمد بن كنون	٣٣٧ هـ - ٩٤٨ م
الحسن بن كنون	٣٤٣ هـ - ٩٥٤ م

من مشاهير البحار

الفضل بن سلمة البجائي

٥٣١٩ - ٩٣١ م

الحافظ الحجة والفقير الضليع الفضل بن سلمة بن جرير الجمي البجائي اخذ عن مشيخة بلده ثم ارتحل الى افريقية فلقى بها ابن مجلون والمغامي احمد بن سليمان ويحيى بن عمر ولازم منهم العالم حماسا ومن في طبقة من العلماء فذاع صيته يومئذ ونبه ذكره ، وارتحل اليه الناس للتلقي عنه فتخرج على يديه جم غفير من ذوي المكانة العلمية والتحقيق العلمي الدقيق ، منهم ولده ابو سلمة واحمد بن سعيد بن حزم وسعيد بن عثمان ومحمد بن عبد الملك الحولاني واحمد بن خالد ، وابو العرب ومحمد بن النجار في آخرين من اهل الاندلس والقيروان ، وله من التأليف : مختصر المدونة والواضحة والموازية ، وله كتاب جمع فيه مسائل الموازية والمستخرجة . توفي رحمه الله سنة ٥٣١٩ - ٩٣١ م

ابو بكر يحيى الوهراني

١٠٣٩ - ٥٤٣٠ م

المحدث الكبير ابو بكر بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن يحيى القرشي الجمي الوهراني ، روى عن الفتية ابي محمد عبد الله بن ابراهيم الاصلي وابي عمر الاسبيلي وعباس بن اصبغ وابن العطار وابي نصر النحوي وآخرين ... وعنه تخرج ابو حفص عمر بن الحسن الهوزني وابو محمد بن خزوج وقال في شيخه الوهراني : كان شيخنا هذا متصرفاً في العلوم قوي الحفظ حسن الفهم ، وكان علم الحديث اغلب عليه ، توفي حدود سنة ثلاثين او احدى وثلاثين واربعمائة هجرية - ١٠٣٩ م .

جدول تاريخي

١٧٢ - ٣٧٥ هـ

٧٨٩ - ٩٨٥ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
١٧٢ هـ = ٧٨٩ م	تأسيس الدولة الادريسية ومبايعة ادريس الاول بالامامة (٤ رمضان - ٥ فيفري) .
١٧٣ هـ = ٧٩٠ م	اذعان تلمسان للادراسة (رجب - ديسمبر) .
١٧٤ هـ = ٧٩٠ م	تأسيس المسجد الجامع بأكادير - تلمسان - (صفر - جوان)
١٩٢ هـ = ٨٠٧ م	تأسيس مدينة فاس .
١٩٩ هـ = ٨١٤ م	قضاء ادريس الثاني على ثورة الصغرية وتغزة بتلمسان .
٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م	تأسيس جامعة القرويين بفاس (فاتح رمضان - ٣٠ نوفمبر)
٢٥٩ هـ = ٨٧٣ م	تأسيس مدينة جراوة قرب تلمسان - لا وجود لها اليوم .
٢٦٢ هـ = ٨٧٥ م	تأسيس مدينة تنس .
٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م	تأسيس مدينة وهران .
٣١٧ هـ = ٩٢٩ م	انتصار ابن ابي العافية على امارات الادولة بالجزائر والمغرب الاقصى .
٣١٩ هـ = ٩٣١ م	سقوط ولاية تلمسان بيد الشيعة العبيدين .
٣٤٣ هـ = ٩٥٣ م	قضاء زيري بن مناد - عاهل صنهاجة وحليف العبيدين - على امارة تنس .
٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م	نهاية عمر الادراسة بالمغرب الاقصى .

الدولة الأغلبية

١٨٤ - ٢٩٦ هـ

٨٠٠ - ٩٠٩ م

نشأتها

كانت ولاية افريقية الشمالية بأواخر القرن الثاني الهجري تحت امره محمد بن مقاتل العكي - رضيع هرون الرشيد - فهو الذي كان يومئذ اميراً بالقيروان وبيده زمام هذه الولاية العربية بافريقية وكان لسوء سلوكه مع الرعية وحيفه واستبداده وجوره ان كرهه الناس وثاروا ضده سنة ١٨٣ هـ - ٧٩٩ م ومعهم يومئذ عامل تونس تمام بن تميم ، فانزعم ابن مقاتل وحاول الفرار من التائبين الى دار الامارة بالقيروان ، فعال الناس بينه وبينها فخرج يومئذ على مدينة طينة عاصمة الزاب الجزائري مستنجداً بعاملها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التيسي فأخذ بيده العامل وخرج معه الى قمع هؤلاء الناقمين فهزهم وكسر من شوكتهم ، وعاد الامير منتصراً الى مركزه بالقيروان ، ولكن الرعية بقيت على كراهيتها له وعملت على خله بمدخله ابراهيم بن الاغلب وحشه على توليه الامارة ؛ فكتب ابراهيم الخليفة في ذلك ملتزماً له بدفع اربعين الف دينار سنوياً الى دار الخلافة ببغداد واسقاط ما كانت تتقاضاه هذه الامارة من النفقات : (مائة الف دينار) من خزينة الدولة العباسية لتتفق بمصالح افريقية وان يتولى ابراهيم قبض الحراج والجزية وسائر الضرائب وينفق منها في مصالح الدولة بالمغرب

ما يشاء ولا يكون مطالاً لهم الالفة العباسية الا بما تعهد به للخزينة وهذا ما يسمى بتضمين الخراج او تقييله . فاستشار يومئذ الخليفة رجال السلك السياسي في ذلك فاستصوبه اهل الرأي منهم واشادوا عليه بقبوله نظراً لتقل كاهل الدولة العباسية الناشئة بولاياتها المترامية الاطراف من الهند والصين شرقاً الى المغرب الاقصى وبلاد الاندلس غرباً ؛ ودفعاً للدعوة العلوية التي اقامها لنفسه المولى ادريس بن عبدالله بالمغرب ؛ وحينئذ اصدر هرون الرشيد امره في اواسط جمادى الثانية ١٨٤ هـ - جوان ٨٠٠ م بعزل محمد بن مقاتل العكي عن ولاية افريقية وتولية ابراهيم بن الاغلب عليها وجعلها ورائية في عقبه ومنحه شبه استقلال داخلي ؛ وهذا ما يسمى في اصطلاح الادارة ونظام الحكم العباسي بأمره الترفيض او الاستكفاء وهي الامارة العامة . وهو يرمي بذلك الى تمكين المغرب من الدفاع عن حوزة الخلافة العباسية امام الدولتين الناشئتين بالمغرب : دولة العلويين - الادريسية - الفاتحة يومئذ بالمغرب الاقصى ، ودولة الامويين بالاندلس ، ومن هنا ابتداء استقلال افريقية الذاتي ، فكانت بذلك ولاية المغرب هي اول من استقل بالحكم من الولايات العباسية في العالم الاسلامي يومئذ وكان مما ساعد الاغلبة على الاقدام على هذه الخطوة هو بعد موقع البلاد عن دار الخلافة العباسية ومساندة البربر لهم على ذلك في اول الامر .

نظامها الحكومي

الحكومة الاغلبية حرة في داخليتها تابعة اسماً للخلافة العباسية في ظاهرها يدير امورها اميرها او الملك ^(١) المقيم بالقيروان فهو صاحب النفوذ الاعلى على جميع المملكة المستدة من طرابلس الى الحضة والزاب الجزائر ؛ وبعاضده في ذلك وزراء فيها المتصرفان في انواع مصالح الدولة الاربعة : البحرية ، والحربية ، والمالية ، والبريد ، ولكل من هذه النواحي الاربع

(١) كان لقب الملك شامخاً عند ولادة الاطراف والعمال بالدولة العباسية . راجع ابن خلدون ج ١ ص ٦٢ ط القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .

رئيس مفوض مسؤول عن ادارة كل واحدة منها ولكل ادارة كتاب ،
فوق ذلك كله منصب الحجابة ، فالحاجب عندهم بمنزلة مدير النشريات
اليوم ، واما الجند فأنه يشتمل على اربعة فيالق ، وكل فيلق منها مختص
بطبقة او صنف من الناس ؛ وهم ما بين عرب وعجم وبربر وعبيد سود ،
والكل مأجور ، وهم ينقسمون حسب اعمالهم الى ثلاثة اقسام : الحرس
الملكي ، والجيش البري والجيش البحري ، وسلاحهم جميعاً السيوف والرماح
والحراب والاقواس والدروع والدرق وما كان مستعملاً كذلك يومئذ
من بعض الآلات وادوات الحرب مثل المنجنيق والكبش والدبابة الخ ...
ويرجع امر الجيش كله الى تصرف مصلحة الجيش العامة وقيادة الحرب
العليا ؛ وللا حكومة الاغلبية اسطول ضخم عتيد توصلت به الى الاستيلاء
على سواحل مملكة فرنسا وابطاليا وجزائر كورسيكا ومردانيا وصقلية ،
وهو يشتمل على عدة قطع فيها اشكال وانواع من هيات السفن البحرية ؛ من
اغربية وشواني وطرادات وحراقات الخ ... قال ابن خلدون : وكان ولاية
افريقية من الاغلبة ومن قبلهم ايضاً يرددون عساكر المسلمين واساطيلهم
من العدو حتى غلبوا - الافرنج - على الجزر البحرية ونازلوهم في
بساط عدوهم^(١) . قال ابن حمديس الصقلي السرقوسي يمدح ابا يحيى الحسن
بن علي بن يحيى :

انشأت شواني طائرة	وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها	في ثم شواها قنا
ترمي ببروج ان ظهرت	لعدو مخرقة بطنا
وبنفط ايض تحسبه	ماء وبه تذيي السكنا
ضمن التوفيق لها ظفرا	من هلك عداتك ما ضنا

ولقد خلد تاريخ الاسطول الاغربي ذكراً حسناً وصفحة ماجدة في تاريخ
البحرية العربية الافريقية بما يبعث المغربي على المفاخرة والمباهاة به .
ومنذ يومئذ اصبحت دولة الغرب الاسلامي دولة بحرية .

(١) العبرج ٤ ص ٢٠٠ - ٢٠٥ و ج ٦ ص ٢٩٠ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

واما القضاء فانه كان اولاً من خصوصيات الخليفة فهو الذي يبعث برسم ولاية القضاء لمن يستحقه من صدور العلماء وأئمة الفقه والتشريع ، وللقاضي التفويض في اصدار احكامه في جميع الحوادث والقضايا التي من شأنها ان ترفع الى القضاء من احكام الدماء او غيرها من المعاملات ، وله ان ينب عن من يتولى الحسبة والشرطة وغيرها من المناصب التي تعينه على فصل النوازل والقضايا اليومية التي تجري بالقرى والاسواق . ولهذه الدولة علمتها الخاصة وسكنتها المضروبة باسم ملوكها ، ومصدرها الحراج والجباية ، ولها علاقات ودية وتجارية مع دول اوروبا المجاورة لها .

وفيا يرجع الى مبلغ جباية هذه البلاد فالمنقول عن قائمة ابن خلدون انه كان يبلغ على عهد الخليفة المأمون الى ١٣.٠٠٠.٠٠٠ درهماً و ١٢٠ بساطاً ، وخراج القدان الواحد كان يبلغ ١٨ ديناراً ؛ ولا يستبعد ان يستمر الاغلبة على تسديد هذا المبلغ الى ايام المأمون ، ذلك لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون المغرب او بالاحرى افريقية من مملكتهم أيام الاغلبة وكانوا يعينون الولاة عليهم من بغداد باعتبار ان الاغلبة تحت هؤلاء الولاة ^(١) .

حدود الجزائر الاغلبية

كان المغرب العربي منذ عهد الفتح الاسلامي الى انتصاب هذه الدولة منقسماً الى خمسة اعمال : طرابلس ونواحيها الى حدود برقة ؛ وقسطنطة وهي بلاد الجريد اليوم وعاصمتها مدينة توزر ؛ وتونس وما حولها من شمال القطر التونسي ؛ وبلاد السوس او المغرب الاقصى وعاصمتها يومئذ مدينة طنجة ؛ والخاص من هذه الاعمال هو بلاد الزاب الجزائري وقاعدته مدينة طنبه - شرقي الحضنة - وثارة بسكرة ويمتد الى جنوب عمالة قسنطينة ؛ وكانت الحدود الاغلبية بهذا القسم تمتد من سكيكدة شرقاً الى وطن زواوة غرباً ، ومن ميلة وسطيف شمالاً الى شط الجريد جنوباً ،

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ - تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٥ - ٩٠ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

البحر الأبيض المتوسط



- المملكة المغربية
- المملكة الرومانية
- المملكة العربية
- مراكز الخوارج

المغرب العربي في القرن الثاني والثالث الهجري - أوائل "التاسع الميلادي -
(نقل وتحرير غالب الجليلي ابن المؤلف عن تاريخ الفريفة الشاذلي لاندري جولان)

وبصح ان نقول هي عمالة قسنطينة بمحدودها المعروفة اليوم مع شيء قليل من التغيير ، وذكر اليعقوبي مدينة اربة فقال هي آخر مدن الزاب بما يلي المغرب في آخر عمل بني الاغلب ، ولم يتجاوزها المسودة . يعني بني العباس . ولكل من هذه الاعمال عامل يتصرف في دائرته الخاصة به تحت سلطة دار الامارة العليا بالقيروان . والباقي من ارض الجزائر موزع بين دولة الرستين شرقاً ودولة الادراسة غرباً . وقدردت مساحة القطر الجزائري يومئذ بـ ١٨٤٥٠٠ ميلاً .

اهم الاحداث الجزائرية

ليس هنالك ما هم ذكره في تاريخ الجزائر في هذا العصر سوى بعض الوقائع والاضطرابات التي حدثت بالزاب ، واغلبها يرجع الى نفور الشعب الجزائري من سوء معاملة السلطة الحاكمة المتمثل في ظلم بعض ولائها وجورهم . وقد قام بعملية القمع والزجر يومئذ ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب فقضى على اهل الزاب قاطبة كبيراً وصغيراً وحلهم على العجل - عربات النقل - فألقاهم في الحفر سنة ٢٦٨ هـ - ٧٨١ م كما اوقع ايضاً بأهل بلد بلزمة - على مسافة ٢٧ كيلومتراً في الشمال الغربي من مدينة باتنة - سنة ٢٨٠ هـ - ٨٩٣ م . وقام بمثل ذلك ابو العباس ابن ابراهيم الاغلب سنة ٢٨٦ هـ - ٨٩٩ م فاقوع بني بلطيط ببسكرة فقاتلهم وشردهم في البلاد ؛ ثم كان منه بعض اصلاح لما جرت هذه الوقائع من التخريب والتدمير . وعاد ابو عبدالله الاغلب بأمر والده ابراهيم بن احمد الى اهل الزاب فحمل عليهم في جيش عظيم سنة ٢٨٨ هـ - ٩٠١ م ثم كان استيلاء محمد بن خزر الزناتي وتغلبه على الزاب سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م فسقطت ببسكرة بيده . وذلك كله يعود الى انزعاج الاهالي من جور الحكومة وسططها في المغرب وتأنيها عن طبقات الشعب المغربي . ويمكن ان يلاحظ كذلك ما حدث يومئذ ٢٥٣ - ٢٦٥ هـ (٨٦٧ - ٨٧٨ م) من القمع والجذب الشديد الذي عم المغرب والاندلس وما

اعقبه ايضاً من المجاعة الكبرى التي حلت الناس على اكل بعضهم بعضاً ؟ ! ...
فاذا استعصرنا كل ذلك علمنا اسباب الاضطراب الواقع يومئذ بالجزائر
ايام بني الاغلب .

ظهور ابي عبدالله الشيعي

لقد كان جميع ما تقدم ذكره من الظروف القاسية التي احاطت
بالشعب الجزائري وما كان من تعسف بعض امراء بني الاغلب فرصة
ساحنة لظهور دعاة الشيعة في الجزائر وانتشار مبادئ دعوتهم بها ، والتبشير
بقرب انهيار ملك الاغلبة وظهور المهدي المنتظر وقيام حكومة عادلة
تحت طاعته وامره ، فكان ظهور هذه الدعوة الشيعية اولاً بوادي الرمل
(سوق حمار) بنواحي قسنطينة ، ومرماجنة - ما بين بجاية وسيدي -
سنة ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م ، ثم كان ظهور داعي الدعاة الاكبر ومعتد
المهدي العبيدي بهذه البلاد ابي عبدالله الشيعي الصنعاني ، فظهر بارض
فرجيوة من بلاد كتامة^(١) منتصف شهر ربيع الاول سنة ٢٨٠ هـ -
اوائل جوان ٨٩٣ م ، وقد سبق له التعرف ببعض رؤساء هذه القبيلة
العتيبة في الحج ، فنزل عليهم ضيفاً مكرماً واخذ في نشر دعوته بينهم
عشر سنين الى ان افتضح امره للامير ابراهيم الاغلي الاصغر ، فبعث
الى عامله على الزاب موسى بن العباس يستطلعه خبر ابي عبدالله الشيعي ،
فهون هذا عليه الامر واجابه بان الرجل بعيد عن مظان التهم ؟ ! ...
وانه رجل دين وتكشف لا غير ، فلم يقنع الامير الاغلي بجواب عامله
ولم يطمئن لتعليله هذا فبعث من يكفيه مؤونة الشيعي بمخالطته والاتصال
به حتى يقف على حقيقة امره بنفسه فكان الامر كذلك ، وبعد ما
انضح امر الشيعي وانكشف حاله خاطبه الامير بواسطة رسوله هذا قائلاً

(١) هي من أشهر القبائل الجزائرية الكبرى ، تسكن الفحوس والسهول والجبال
فما بين قسنطينة وبجاية ، يوجد منها بعض البطون بمجال اوراس ، وهي من اشد القبائل
بأساً واطولها باعاً في الملك ؛ ولها العزاز وبطالون منتشرة بالمغرب الاوسط .

له : ما حملك على التعرض لسخطي والثوب على ملكي وافساد رعيتي
والخروج علي ؟ ... فان كنت تبغي عرضاً من عرض الدنيا فانك تجده
عندي ، وان كان قصدك غير ذلك فلقد علمت عواقب من سولت له
نفسه ما سولت لك نفسك . وانما اردت الاعذار اليك ، وهذا اول
كلامي لك وآخره فانظر في يومك لعدك ! ... فاجاب الشيعي رسول
الامير بقوله : قد قلت فاسمع وبلغت فابلغ ، اما ما ذكرت من التهديد
فما انا بمن يروع بالايعاد ؛ واما تخويفك اباي برجال دولتك ابناء حطام
الدنيا فاني في انصار الدين وحماة المؤمنين الذين لا تروهم كثرة انصار
الظالمين مع قول الله عز وجل (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة
باذن الله والله مع الصابرين) واما اطعاه لي في دنياه فليست من اهل
الطمع فيما عنده ، انما بعثت رسولا لامر 'حم' وقرب وانجاز وعد من
الله سبق والله لا يخلف الميعاد ، هذا جواب ما جئت به . وما كاد
ينتشر تصريح الشيعي هذا بين الاوساط الاغلبية حتى تأمروا على قتله
والقتل به لولا ان فرقتهم السياسة ، فخلص يومئذ داعي الشيعة الى
غرضه ونجح ...

عاربة الشيعي

وبعد ما تحقق الاغلبة الخطر في جانب هذا الداعي الشيعي الكبير
وادركوا ان ملكهم مهدد بالزوال عزموا على مقاتلته . فخرج اليه ابو عبد الله
الاحول بن الامير الاغلي سنة ٢٨٩ هـ - ٩٠٢ م فنازله بنواحي طبنة ،
على نحو اربع كيلومترات من شمال بركة ، وكان النصر بينهما سجالاً ...

زحف الشيعي على عمالة قسنطينة

وفي نفس التاريخ غزا ابراهيم الاصفر جزيرة صقلية وخلف ابنه ابا
العباس وصياً على العرش واوصاه بمراقبة موقف الشيعة من المملكة والدفاع
عن الحوزة وكان من المقدر ان توفي الامير الاغلي في غزوته هذه سنة

٢٨٩ هـ - ٩٠٢ م ، ودفن بصقلية . فخلفه ولده ابو العباس على امارة افريقية ، فسكن الشيعة يومئذ الى ان نهبأت لهم الفرصة باشتغال الامير ابي العباس بولده ابي مضر والي صقلية حيث انكر عليه والده اشياء فغزله وادخله السجن سنة ٢٩٠ هـ - ٩٠٣ م ، فاغتاز لذلك ابو مضر وعمل الحيلة للتخلص من السجن والقضاء على والده فقتله وجلس على عرش الاغلبة بالقيروان ليلة الاربعاء ٢٩ شعبان ٢٩٠ هـ - فاتح جويليت ٩٠٣ م واصل السيف في جميع من كان مظنة الخروج عليه من اهله واقاربه وبني عمه ويومئذ اندفعت الشيعة لاختلاس الفرصة من بين هذه الظروف والزواجع الحرجة القائمة يومئذ في بيت الملك فزحف ابو عبد الله الشيعي على بلاد كنامة فاحتلها ودخل ميلة وباغاية وسطيف وبلغت جيوشه الى بجانة فاصبحت جميعها تحت طاعته وامره .

منازلة كنامة

استمرت الوقائع والحروب بين جموع الشيعة والاغلبة بنواحي كينونة ؟ ... وكان النصر فيها للشيعة ، ويومئذ حشد زيادة الله الثالث جموعه وفياتهم وجمعهم كلهم تحت قيادة حاجبه ابي المقارع ومعه شبيب القمودي وخفاجة العبسي يعاضدانه وخرجت الكتائب سنة ٢٩٣ هـ - ٩٠٥ م ، لمقاتلة كنامة المائلة يومئذ للعدو فكانت هنالك وقائع حربية هائلة قتل فيها عدد عظيم من الطرفين وكان ذلك مقدمة لانتيار قوى الاغلبة وضعفها بالمغربين : الجزائر وتونس .

المذاهب والعقائد

لا يخفى ما كان لقاضي قضاة الخلافة العباسية ابي يوسف صاحب ابي حنيفة من نفوذ الكلمة والسطوة والمشورة عند خلفاء بغداد والمقام السامي الذي كان يحتله بين رجال البلاط العباسي وخاصة الخليفة الرشيد نفسه المسيطر على جميع الولايات الاسلامية يومئذ ، وما الامارة الاغلبية الا

صنيعته ، فكان من الطبيعي ان تأخذ هذه الامارة بتقاليد دار الخلافة فتقلدها فيما تدين به من المذاهب والعقائد وخاصة في تشريع الاحكام والقوانين التي يجري عليها نظام الحكم في البلاد ؛ فكانت الدولة الاغلبية بذلك حنيفة ؛ ثم انه لا يخفى كذلك ما كان يتمتع به تلامذة المدرسة المالكية من الجاه والحرمة والتقدير عند الشعب خاصة ، مثل أبي القاسم الزواوي تلميذ الامام مالك ، وأسد بن الفرات وسحنون بن سعد ، وما قام به ادريس بن عبدالله الكامل بالمغرب الأقصى من نشر المذهب المالكي وأخذ الامة المغربية به ، وما كان كذلك ليحيى الليثي من الحضرة والسلطان لدى خلفاء بني أمية بالاندلس الخ ... فكل ذلك كان عاملاً قوياً في نشر المذهب المالكي . بالمغرب ، فاجتمع يومئذ بالمغرب المذهبان الحنفي والمالكي وقد عرف الناس مع ذلك مذهب الشافعي وداود ولكنه بقلة ، وفي ذلك يقول عياض في مقدمة كتابه المدارك :

واما افريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين الى ان دخل علي بن زياد وابن اشرس والبهلول بن راشد وبعدم اسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يفشوا الى ان جاء سحنون فقلب في ايامه . وفرض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الاقطار الى وقتنا هذا (٤٧٦ - ٥٤٤ هـ) وكان بالقيروان قوم قلة في القديم اخذوا بمذهب الشافعي ، ودخلها شيء من مذهب داود (الظاهري) ولكن الغالب عليها اذ ذاك مذهب المدينة والكوفة . وروى ابن البزاز الكردي في تاريخه بسنده عن عبدالله بن عبيدالله قال : رأيت أبي يناظر في المسجد الحرام رجلاً غريباً في المسائل الدقاق وحوله جماعة ، فقال له ابي من أين أنت ؟ ... قال : من طنجة أقصى بلاد المغرب لبس وراه اسلام ، من مكة على رأس الف وخمسة مائة فرسخ أو أكثر ، قال : وكيف وقعت هذه الدقائق عندكم ؟ ... قال : وقعت عندنا كتب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه ؛ وقد تذكر عندنا أقاويل الامام مالك والاوزاعي ،

وفترانا على رأي أبي حنيفة^(١) وطالما شاهدنا الخلاف قائماً بين اتباع المذهب المالكي والحنفي وكثيراً ما تفاقم الخلاف والجدل بين الحاكم والمحكوم حتى بالغ الولاة في البطش بمخالفهم الى حد القتل في بعض الاحيان ، ولكن المالكية تصلبوا في التمسك بموقفهم الى النهاية . ولقد استمر مذهب أهل العراق سائداً بالمغرب بجانب المذهب المالكي الى أواخر القرن الثالث الهجري حيث أفل نجمه الى العهد التركي في القرن العاشر الهجري فأخذ به بعض أهل الحواضر الجزائرية أي حيث يغلب وجود الأتراك .

وكانت العقائد ومباحث أصول الدين بعيدة عن الآراء الفلسفية والمذاهب الاعتزالية فالإيمان البسيط الواضح عندهم كافٍ في صحة عقيدة السلم ، وكيف يستطيع أهل الجدل الديني التظاهر بعقيدتهم أو المناظرة في علم الكلام في دولة منع قاضي قضائها الصلاة خلف المتكلمين الذين يجادلون في الصفات ؟! ...

الثقافة والحضارة والعمران

يمتاز عصر الاغلبة هذا بكثرة عقد الرحلات في طلب العلم . وكتب التراجم حافلة بذكر اسماء العلماء من أهل المغرب الذين أخذوا عنهم عن مالك وابن القاسم ومحمد بن الحسن وسفيان بن عيينه واضرابهم من ائمة المشرق ؛ وشاع يومئذ بين الناس التعليم العام والخاص في المساجد والكتاتيب وغيرها وعلى الخصوص علم الفقه والتشريع ، ولقد خصص الخليفة المنصور (الجزائر) ببعثة من الفقهاء فجاءت الى هنا واستقرت بمدينة مرمى الحرز - القالة - وكان بما انيط بهذه البعثة علاوة على ما عهد اليها من نشر الاحكام الشرعية بين الناس انها تتولى جباية أموال الزكاة ، وما فعل ذلك المنصور الا خدمة للدين ، وذلك لعله بشدة حاجة الناس اليه

(١) مناقب الامام الاعظم لابن البراز الكردي ج ٢ ص ١٠٥ ط حيدر آباد الدكن ١٣٢١ هـ .

يومئذ حيث انهم لا يزالون حديثو عهد بنظام الاسلام وقوانينه التشريعية .
فكثير من الجزائريين اشتهروا بالتفوق الادبي وحازوا على الرئاسة
في العلم ببلدهم وفي غيرها كذلك ، مثل محمد بن حسين الطيني واسحاق
الملشوني وأحمد بن علي الباغي وأبي القاسم يوسف البكري وأبي الفضل
عطية الطيني وهو القائل :

قالوا التحي وانكسفت شمسه وما دروا عذر عذاره
مرآة خديه جلاها الصبي فلاح فيها في صديقه

كما انتشرت يومئذ بالمغرب علوم الحكمة والفلسفة والطب على يد
العالم الحكيم ابي يعقوب اسحاق بن عمران البغدادي فقد استدعاه الامير
زيادة الله الثالث لمعالجته حين اصاب بمرض اعجز الاطباء علاجه ، فجهاد
هذا الى القيروان ومعه ابو الحسن بن حاتم ؛ وكان ابو يعقوب هذا ماهراً
حاذقاً في صناعة تأليف الادوية المركبة والبسيطة بصيراً بتفرقة العلل
واسع الاطلاع على علوم الفلسفة جيد القرينة ، فاستوطن القيروان سنة
٢٩٣هـ - ٩٠٥م وبها الف كتبه ونشر علمه وعنه اخذ المغاربة الطب
والفلسفة ؛ ولا ننس كذلك فضل علي بن قافع الملقب بزرياب وما جاء
به من علم وادب وفن الى بلاد المغرب ايام مكثه بالقيروان في طريقه
الى الاندلس ؛ وكان بما زان هذا العصر ايضاً نبوغ احمد بن الجزار
صاحب كتاب « زاد المسافر » الجامع للمعلومات الطبية المتعارفة في وقته
واليه يرجع الفضل في انتشار هذه العلوم بأوروبا ابان القرون الوسطى
كما اعترف بذلك كبار دكاترة الغرب انفسهم . وتعتبر اعمال هؤلاء جميعاً
النواة الاولى لتأسيس دار الحكمة في القيروان .

وذكر ابن جليل في طبقات الاطباء : انه لم يكن في الاندلس لغاية
عهد اميرها عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٧ - ٢٣٨هـ) الا اطباء نصارى
يعتمدون في علمهم ودراساتهم على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال
له الابريشم ومعناه المجموع او الجامع .

ثم يذكر ابن جليل عهد الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨ - ٢٧٣ هـ) والامير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فيقول : انه برع بعض الاطباء على عهد هذين الاميرين ولكن لم تعرف لهم مؤلفات ، اما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) فظهر بعض الاطباء الذين بدأوا بتأليف الكتب ^(١) ...

واذا كان شأن الطب والاطباء المسلمين يومئذ هكذا بالاندلس والدولة الاموية قائمة هناك مستكملة لقواعد الخلافة والملك ، صحيحة الدعائم ، والحضارة الاسلامية آخذة في الاندفاع نحو التقدم والرفي ، فكيف يكون حال المغرب العربي وهو كما علمت احدث عهداً بالحضارة الاسلامية والثقافة العربية بالنسبة الى الاندلس ؟ ... فلا شك انه كان متخلفاً ، ولا ننس ان اقليم الاندلس هو بما كان يعد مع الاقطار المغربية .

ويرجع الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه (دراسات عن العصر العباسي الاول) ان يكون مصدر قصة الساعة الهداة من طرف الخليفة هارون الرشيد الى شريمان هو ان نقرأ من تجار المغرب ارادوا ان تكون لهم حظوة عند ملك فرنسا لتيسير اعمالهم التجارية فزعموا انهم رسل الخليفة وحلوا اليه الهدايا ومنها هذه الساعة الدقاقة ^(٢) ؟ ...

ثم ان هذه الدولة عرفت كيف تستشر خلاصة حضارات من تقدمها من الدول العظيمة الكبرى التي حكمت هذه البلاد مثل دولة الفينيقيين والرومان ، فانها انتفعت بما احده هؤلاء من سبل وجهازات للري ، واستفادت كذلك بما جاء به الاعاجم من صناعات النسيج والطرز وبما خلقه الكنعانيون من اساليب التجارة في البر والبحر والزراعة وغيرها من

(١) طبقات الاطباء والحكماء لابن جليل الاندلسي ص ٩٢ ط القاهرة ١٩٥٥ م .

(٢) راجع هامش تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢١٦ وج ٥ ص ١٧٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

صناعة البناء^(١) فأحدثت المساجد والاسوار والقصور والمنائر^(٢) قال ابن خلدون : ولما توفي ابو العباس محمد ابن ابي عقال سنة اثنتين وسبعين وبى مكانه ابنه ابو ابراهيم احمد فأحسن السيرة واكثر العطاء للجنود وكان مولماً بالعمارة فبنى بأفريقية نحواً من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد ... وذكر ابا الغرانيق محمد فقال عنه : انه بنى حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشرة يوماً من برقة الى جهة المغرب وهي الآن معروفة^(٣) . وتعمدت الطرق وعبدت السبل

(١) جاء في كتاب التاريخ العام للعالمين : لافيس ورامبو ، ان انكلترا الانكلوساكسونية في القرن السابع الميلادي الى ما بعد العاشر كانت فقيرة في ارضها منقطعة الصلة بغير بلادها ، سمجة وحشية تبني البيوت بمجر غير نجيح وتشيدها من تراب مدفوق وتجهلها في وطاً من الارض ... ولم يكن الناس احسن مسكناً وامناً من الحيوانات ، وكانت البيوت في باريس ولندن تبني من الخشب والطين المصبون بالقش والقصب ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة . وقد اعترف المنصفون من علماء اوربا بان كل ما كان بعد ذلك من اشراق وفن وجمال في حضارة اوربا ورقبها المادي والادبي انما كان مطلعه شمال افريقية في عهدها العربي الاسلامي وذلك لان المدينة القرية تكونت بعد فتح العرب للاندلس وجنوب فرنسا وصقلية وسواحل ايطاليا وسائر جزر البحر الابيض المتوسط ، وكل هذه الفتوحات ما عدا جزيرة قبرص صدرت عن شمال افريقية كما تشهد لهم بذلك آثارهم الباقية يعضها الى اليوم .

(٢) هي موانيد بنيت على رؤوس الجبال العالية بحيث يتقارب بعضها ويشرف بعضها على بعض ، ويقال لها ايضاً القباب والمناور او المناظير ، يقام فيها حراس يستعملون المرايا لارسال الملائم بالنهار عندما يرون حدوث شيء مهم يجهتهم ؛ ويولدون النيران بالليل ، وهكذا يفعل الذين يلونهم ثم الذين يلونهم الى ان يصل الخبر الى المدينة او الثغر او الملحة في زمن قليل فقد كانت الرسائل تصل من سبتة الى الاسكندرية بواسطتها في مدة اقل من اربع ساعات ، وقد كان بالمغرب يومئذ نحو عشرة آلاف منار ، وكلها كانت مبنية بالحجارة والكلس وعليها ابواب من حديد ولم تكن هذه المنائر معروفة عند المسلمين الا في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية من قبل . قال ابن خلدون في سياق حديثه عن ولاية ابراهيم - الاصغر - ابن احمد ... وبناء الحصون والمحارس بواحد البحر حتى كانت النار تولد في سواحل سبتة للتنذر بالمدو فيصل ايقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة ، وبناء سورة سوسة ... وفي سنة احدى وثلاثين انتقل الى سكنى تونس والقد بها القصور (ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠١ .

واسست المدن مثل العباسية بالجزائر قرب تاهرت ٢٢٧ هـ - ٨٤١ م ،
 احرقها افلح بن عبد الوهاب ابن رستم وكتب بذلك يتقرب لصاحب
 الاندلس فبعث اليه هذا بناية الف درهم^(١) كما اسست هذه الدولة
 وغيرها بولاية تونس وكان السمر مأموناً والاميال معلمة بمسوحة ؛ فان
 طول المسافة من القيروان الى السوس الادنى على المحيط الاطلسي يبلغ
 الفين ومائة وخمسين ميلاً ، وكان على طول مسافة الساحل المغربي حصون
 ومخارس ومخافر لجند الحماية ، وكانت الصناعات مثل الحدادة والنجارة
 والنقش والحياكة والتعدين منتشرة في انحاء المملكة فانهم كانوا يستخرجون
 من معادن محانة ومناجم بونة وغيرها انواع الحديد والرصاص والفضة
 والكحل ، ومن مرسى الحرز - القالة - انواع اللؤلؤ والمرجان ونشطت
 الحركة التجارية في المواني فكانت متصلة بالعواصم الاروباوية مما لم يتفق
 لغير هذه الدولة بمن حكم هذه البلاد من قبل وقد ذكرنا فيما سبق
 مبلغ بلغ خراج القدان^(٢) الواحد على عهد ابراهيم بن الاغلب ١٨ ديناراً ،
 وكان مبلغ خراج ارض افريقية وجبايتها في اوائل القرن الثالث
 ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهماً و ١٢٠ بساطاً وكل ذلك يدلنا على سعة ثروة
 البلاد ورفاهيتها .

وقال علي بن الفتح المعروف بالمطوق : أهدى زيادة الله بن عبد الله
 بن الاغلب صاحب المغرب الى المكتفي بالله في سنة احدى وتسعين
 ومائتين (٩٠٣ م) هدايا لها قدر جليل ، فيها مائة خادم ، ومائة جارية
 ومائة فرس ، ومائتا لبد مغرية وتركش (الكنانة او الجعبة يوضع فيها
 النستاب) وطبيب وزرافة وبقر وحشية ومائة الف دينار كل دينار
 عشرة دنانير ؛ قال وقرأت ديناراً من تلك الدنانير فاذا عليه مكتوب
 في الجانب الاول :

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠ .

(٢) مساحة من الارض تقدر بـ ٤٢٠٠ متراً مربعاً .

يا سائراً نحو الخليفة قل له ان قد كفأك الله أمرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيدي ف الله من دون الخليفة سله
وفي الجانب الآخر :

ما ان يرى لك بالخلاف منافق الا استباح حريمه واذله
من لا يرى لك طاعة فانه قد أمناه عن طرق الهدى وأضله
قال وكان تحت هذه الايات احرف لم اقف عليها .

وحين هرب زيادة الله بن الاغلب من القيروان حين دخلها ابو عبد الله
داية المهدي فر سنة ست وتسعين ومائتين (٩٠٩ م) متوجهاً الى مصر
خرج معه بالف خادم دفع الى كل واحد منهم الف دينار سوى ما
كان في خزائنه من الاموال والجواهر والاثاث المحمول والمقروك ، وذل
عنده من ماله ثلاثون حملاً دنائير خالفته الى ناحية تونس ، وانتهت من
امواله امثال ما خرج معه ^(١) .

انهيار الدولة الاغلبية

ان أم ما أضر بهذه الدولة وكان سبباً مباشراً في سقوطها هو
معاملتها القاسية للشعب وأخذها له بالعنف والتضييق عليه في ضرب المغارم
والاقتارات الباهضة واثارة مشاعره بالعصية العربية والتعصب المذهبي مع
اتخاذ الجند المأجور الذي لا يتحرك إلا عن طمع وجشع فلاحية دينية تبعه ولا
حفيظة أو حماسة وطنية تجرؤه انما هو أجير ، ومنى اجارك أجير ؟ ...
ويلاحظ على الدولة في قصر نفوذها واكتفائها في حكم المغرب الاوسط ببسط
يدها على قسم من نواميد الشريعة فقط ؛ مع سوء سلوكها مع أهل
الزاب وبلازمة من ايقاعها بهم واهلاكهم سنة ٨٢٨٠ - ٨٩٣ م كل ذلك
ما زاد في نفور الرعية وهيجان كتامة والتغالي في تصلبها ونسكها بالدعوة

(١) الذخائر والتحف لغاضي الرشيد بن الزبير ص ٣٧ - ٢٢٦ ط الكويت ١٩٥٩ م .

الشيعة ؛ وبشرح لنا العالم الانكليزي (نيلكسون) أسباب هذا التدهور الذي لحق دولة الاغالبه بالمغرب ونجاح الدعوة الشيعة وانتصارها عليها هناك بما كانت عليها دولة العباسيين المهيمنة على العالم الاسلامي من الضعف الذي لحقها في جميع أقطار البلاد الاسلاميه التي زال عنها نفوذ بغداد الفعلي ، وبما كان عليه البربر واشتهروا به من حب القتال وما تعودوه من شطط العيش وما فطروا عليه من عدم اخلاص للنظام ، كانوا متأهين للمخاطرة بأرواحهم اذا ما عرض لهم باعث بحرك في نفوسهم ما جلبوا عليه من اقدام على المخاطرة وركوب متن الاهوال ، زد على ذلك ان عمل الشراعه الذي فطر البربر على ارضائه وما انطوت عليه أخلاصهم من حق وخشونه - كل ذلك جعلهم أسلس قياداً الى أبي عبدالله الشيعي فتمكن من الوصول الى أغراضه من اثار حميتهم واعجابهم بآل علي والمهدي (١) . ثم كان القضاء المبرم الذي قضى به زياده الله الثالث على دولته بالدمار وهو الموقف الشنيع الذي وقفه نجباء والده وغالب رجال البيت الاغلي من القضاء عليهم باراقه دمهم جميعاً ظالمأ وعدواناً وكأنه في ذلك كان مقتدياً بسلفه ابراهيم بن أحمد الاغلي ، أضف الى ذلك وهتكه لحرمات الملك بتهتكه في الخلعة والانهاك في الشهوات حينما كان الشيعة يتقدمون سراعاً في مواقفهم الحربية منتصرين على خصومهم ، فكان هذا كله فرصة لابي عبدالله الشيعي لاذعته في القوم فكرة التحرر والاستقلال عن الدولة العباسية وانتظار المهدي المنتظر وبثه فيهم مذهب الاسماعيلية فتغلغل فيهم عقائد الشيعة وتجمع الناس حول الداعي أبي عبدالله وكانت هنالك حروب خرج لها زياده الله الثالث في ثمانين الف مقاتل ، فالتقى الجمعان بنواحي الاربس - قرية بنواحي الكاف بتونس - وهنالك دارت بينهم رحى الحرب فكانت هذه الوقعة هي المعركة الفاصلة في مستقبل البلاد فانزمت الاغالبه فيها شر هزيمة وخرج زياده الله هارباً من رقادة (٢) مصحوباً بأهله

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم س ٤٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) مدينة أسسها ابراهيم الاخير سنة ٢٦٤ هـ - ٨٧٧ م تبعد عن القيروان بثانية اميال جنوباً وهي اليوم اطلال .

وذويہ ليلة الاثنين ٢٦ جمادي الثانية ٢٩٦ هـ - مارس ٩٠٩ م ، وذهب
بعدها الى بيت المقدس وسقطت مملكة الاغالبة بما فيها - الجزائر - بيد
الشيعة . فكانت مدة حكمهم ١١١ سنة وثلاثة اشهر .

ولاية الجزائر وزعمائها

لم تكن سلطة الاغالبة في الوطن الجزائري لتتعدى حدود عمالة
قسنطينة كما ذكرنا ، وكانت عاصمة الجزائر الاغلبية يومئذ هي مدينة طبنة
على نحو اربع كيلومترات شمال بريكة وقد تولاهما لهذا العهد الاغلب
بن تميم ، ثم المحارق بن غفار الطائي ، ثم المهلب بن يزيد من آل المهلب
بن ابي صفرة ثم ابراهيم بن الاغلب ثم عمر بن حفص المهلب المعروف
بهمارمرد ، وكان من ولاتها ايضاً منصور التومذي فانتقض يوماً على
زيادة الله الاول وسار الى تونس فلحقها سنة ٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م ؛ ولما
فتح الشيعة طبنة كان بها يومئذ امير مسالة : الفتح بن يحيى فقتله
الشيعة ؛ وكان على بلد ميلة رجل من بني سليم يقال له موسى بن
العباس بن عبد الصمد فقتله الشيعة ايضاً وولى مكانه ماكون بن ضبارة ؛
وكانت ولاية سطيف لبني اسد بن خزيمه وآخرهم علي بن جعفر بن
عسكوجة واخوه ابو حبيب ، وكانت ولاية بلزمة في بني تميم ومواليهم
وكانت ولاية المسيلة وميلة لموسى بن العياش فقتله الشيعة في غزوه لهاته
المدينة . وكان من امراء كتامة لهذا العهد عروبة بن يوسف ؛ وعلى
باغاية هرون الطنبي ؛ وكان على الزاب سالم بن غلبون فقتله الاغالبة مع
ولده اذهر بسبب ثورتها عليهم سنة ٢٣٣ هـ - ٨٤٧ م . وكان من ولاية
الزاب ايضاً احمد بن سودة المتوفي سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م .

وذكر بعض مؤرخي المغرب ان مناد بن منقوش والد زيري عامل
صنهاجة ، امتلك جانباً من افريقية والمغرب الاوسط - الجزائر - مقبلاً
لدعوة بني العباس وراجعاً الى امر الاغالبة .

امراء الدولة الاغلبية

تاريخ التولية

ابراهيم بن الاغلب	جمادى الثانية - جوان	١٨٤ هـ = ٨٠٠ م
ابو العباس عبدالله الاول	صفر - اكتوبر	١٩٧ هـ = ٨١٢ م
زيادة الله الاول	ذو الحجة - جوان	٢٠١ هـ = ٨١٧ م
ابو عقال الاغلب	١٤ رجب - ١١ جوان	٢٢٣ هـ = ٨٣٨ م
ابو العباس محمد الاول	٢٢ ربيع الثاني - ١٨ فيفري	٢٢٦ هـ = ٨٤١ م
ابو ابراهيم احمد	٢ محرم - ١١ ماي	٢٤٢ هـ = ٨٥٦ م
زيادة الله الثاني	١٣ ذي الحجة - ٢٨ ديسمبر	٢٤٩ هـ = ٨٦٣ م
ابو الفرائق محمد الثاني	٢٠ ذي القعدة - ٢٣ ديسمبر	٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م
ابراهيم الاصغر	٦ جمادى الاولى - ١٦ فيفري	٢٦١ هـ = ٨٧٥ م
ابو العباس عبدالله الثاني	شعبان - جولييط	٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م
زيادة الله الثالث	رمضان - جولييط	٢٩٠ هـ = ٩٠٢ م

من مشاهير البحار

اسحاق الملقب

أواسط القرن الثالث الهجري
(أواسط التاسع الميلادي)

هو شيخ امراء بني الاغلب ونديم بلاطهم اسحاق بن ابي عبد الله عبد الملك الملقب نسبة الى ملشون قرية من قرى بسكرة قرب تهودة وهي يومئذ حاضرة العلم ؛ كان اسحاق هذا عالماً ثقة مؤرخاً ثبّتاً ذا دراية ومعرفة واسعة بفن التاريخ والمحاضرات ، كان يحمل عنه وعن ابيه العلم ، اخذ عن والده وعن مشايخ بلده ، كما جالس الامام سحنون بالقيروان واخذ كل منهما عن صاحبه قال ابو العرب كان ابو القاسم بن شبلون الفقيه رضي الله عنه يروي فيما كان يرويه ان سحنون بن سعد دخل على محمد بن الاغلب الامير اول يوم من شهر رمضان فالتقى الامير خالياً ، فقال له : اراك ايها الامير خالياً ، فقال نعم ، انفردنا في هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركتنا ما كان لغير الله عز وجل ، فقال سحنون : فأين انت ايها الامير من اسحاق الملقب يحدثك بأخبار الامم السالفة والاعوام الماضية ؛ فأمر محمد بن الاغلب باحضاره ، فكان يحضر عند محمد بن الاغلب في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان ؛ قال ابو العرب : وسمعت بعض المشايخ من يروي البويه من الاخبار يحدث عن اسحاق بن عبد الملك الملقب انه قال : لم يدخل افريقية نبى قط ، واول من

دخلها بالايان بعض حوارني عيسى بن مريم عليه السلام ^(١) فأبن زعم
القائلين بوجود قبر النبي خالد بن سنان بالقطر الجزائري ودفنه حيث
الضريح المنسوب اليه المشهور قرب بسكرة ...

نعم روى ابو العرب في طبقاته والمالكي في رباذه كلاهما عن قاضي
افريقية الثقة عبد الرحمن بن زياد بن انعم المتوفي سنة ١٦١ هـ - ٧٧٧ م .
انه قال : كنت امشي وانا غلام مع عمي بقرطاجنة فاذا بقبر مكتوب
عليه بالحيرية : « انا عبد الله بن الاراشي رسول رسول الله صالح بعثني الى اهل
هذه القرية ادعوم الى الله ، اتيتهم ضعى ، قتلوني ظمأ حسيهم الله »
وقيل ان شعيبا هو الذي بعث عبد الله ابن الاراشي . والاراش فخذ
من بلي ^(٢) ولم نعث على اي رواية صحيحة تثبت لنا صحة نسبة القبر
الى خالد بن سنان العبسي ^(٣) .

محمد بن حسين الطنبلي

٥٣٩٤ هـ - ١٠٠٤ م

الاديب الكبير والشاعر الملقب ابو عبد الله محمد بن حسين بن محمد
الطنبلي نسبة الى طنبنة عاصمة الزاب الجزائري ولد بها سنة ثلاثمائة او ٣٠٣ هـ ؟ ...
وصفه ابن بشكوال بسعة العلم والتبحر في الادب وقال : انه لم يصل
الى الاندلس اشعر منه ، وكان اتصاله بالاندلس سنة ٣٢٥ هـ وكانت وفاته
منسلخ شهر ذي الحجة سنة ٣٩٤ هـ - اكتوبر ١٠٠٤ م وشاهد جنازته
المظفر عبد الملك بن ابي عامر في اهل دولته وصلى عليه ابن فطيس
رحمهم الله جميعاً .

(١) طبقات علماء افريقية ص ٨ ط باريس ١٩١٥ م .

(٢) طبقات علماء افريقية ص ٧ ط باريس ١٩١٥ م ورياض النفوس ص ٥ ط القاهرة
١٩٥١ م .

(٣) راجع ص ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ من كتابنا هذا .

جدول تاريخي

١٨٤ - ٢٩٦ هـ

٨٠٠ - ٩٠٩ م

أهم الحوادث وأبرز الاحداث	تاريخ الحوادث
تأسيس الدولة الانغلية (جمادي الثانية - جوان)	١٨٤ = ٨٠٠ م
استيلاء منصور الترمذي - والى طبة - على تونس	٢٠٧ = ٨٢٢ م
انشاء مدينة العباسية - قرب تهرت - قضى عليها الرستبيون	٢٢٧ = ٨٤١ م
استرداد ازمة القحط بالمغرب العربي كله ، وقد دام سنوات	٢٥٣ = ٨٦٧ م
فتك ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب بأهل الزاب .	٢٦٨ = ٨٨١ م
ظهور الدعوة الشيعية بنواحي قسنطينة .	٢٧٩ = ٨٩٢ م
ظهور ابي عبد الله الشيعي بأرض فرجيو من بلاد كتامة	٢٨٠ = ٨٩٣ م
مقاتلة الحكومة لبني بلطيط بيسكرة .	٢٨٦ = ٨٩٩ م
مقاتلة اهل الزاب .	٢٨٨ = ٩٠١ م
منازلة الدولة لابي عبد الله الشيعي بنواحي طبنه .	٢٨٩ = ٩٠٢ م
سقوط بلاد كتامة وميلة وباغاية وسطيف ومجانة	٢٩٠ = ٩٠٣ م
بيد الداعية الشيعي .	
انتقام الدولة من كتامة .	٢٩٣ = ٩٠٥ م
انهيار الدولة الانغلية ووقوعها بيد الشيعة (٢٦ جمادي	٢٩٦ = ٩٠٩ م
الاولى مارس) .	

الدَّولة العَبِيدِيَّة «الْفَاطِمِيَّة»

٢٩٦ - ٣٦١ هـ

٩٠٩ - ٩٧٢ م

نشأتها

تنتسب هذه الدولة - حسب اسمها - الى عبيد الله المهدي الشيعي مؤسس الخلافة العبيدية بالمغرب ، وجد الخلفاء الفاطميين ^(١) بالشرق ؛ فهو عبيد الله ابن احمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ؛ على ما في هذا النسب من جدل وخلاف ؟ ... ! ولد عبيد الله بالسلمية من بلاد الشام وقيل ببغداد سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م ؛ وبني خطته السياسية على فكرة القول بالامام المهدي المنتظر وما يحيط بها من غموض وخفاء ، وكثيراً ما استعملت هذه الفكرة في انشاء دول وعصبيات سياسية لترويج دعوتها والقضاء على غيرها ؛ وهي فكرة شيعية محضة .

والشيعية لقب اصطلاحى خاص باحدى الفرق الاسلامية التي ترتكز في دعوتها السياسية والاجتماعية والدينية ايضاً على تفضيل آل البيت ولا سيما منهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقالوا بتقديمه على غيره من

(١) سموا بذلك تمييزاً بالعباسيين ؛ فقد يقول هؤلاء انهم ابناء العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم لا يتناولون الى الانتباه الى فاطمة الزهراء ، فهو انتباه الى بيت النبوة ذاته ، وليس هو كالانتباه الى الاعمام ...

الصحابة ؛ وانه الوصي على الخلافة وانها مستمرة في عقبه الى النهاية ،
وان الخلفاء من نسله معصومون الخ ... وكان من فرق الشيعة المشهورة
طائفة الاسماعيلية الملقبة بالباطنية ذات البدع الشيعية في الاسلام ، القائلة
بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، مع انه مات قبل والده ! ... وذلك
توصلاً منهم الى انتقالها في عقبه المتحدر منه عبيد الله المهدي مؤسس هذه
الدولة ؛ ولا تزال طائفة الاسماعيلية هذه قائمة الى اليوم في بلاد العجم
والهند والشام يرأسها اليوم « آغاخان » الزعيم الديني الهندي المشهور .

في الوقت الذي كان عبيد الله المهدي مضطهداً من طرف العباسيين
بالمشرق مخفياً عن اعين الناس مطارداً ؛ كان داعيته الاكبر ابو عبد الله
الصنعاني الشيعي بالمغرب يعمل على توطيد الدعوة الشيعية وتركيز الخلافة
وتبنيها لسيده المهدي ؛ فكث بني كتامة بجبل أوراس عشر سنين ولما
اطمان بنجاحه في الدعوة بعث الى عبيد الله يستقدمه - وهو يومئذ مخفياً
بمصر فخرج المهدي مع ولده ابي القاسم وابي العباس احمد اخ الصنعاني
فارتحلوا جميعاً في زي التجار وجاؤوا الى المغرب فاخفوا بطرابلس فكث
بها ابو العباس وارتحل عنها المهدي وولده الى قسنطينة ثم الى سجلماسة -
تافيلالت - وهناك وقعا معاً في قبضة صاحبها البسع بن ميمون المنتصر
من بني مدرار عامل بني العباس ؛ وسريعاً ما اتصل الخبر بالصنعاني
فاستقدم اخاه من طرابلس فخلقه على ولاية رقادة وخرج يحرق وراءه
جيشاً اضطرب له المغرب الاوسط ، ففرض على دولة بني رستم وامتلك
تاهرت وانتعى بجيشه ناحية المغرب الاقصى فاستولى في طريقه على عدة
مراكز وتابع سيره الى سجلماسة فشن عليها الغارة وقضى على عاملها
البسع من بني مدرار وخلص الى المهدي وولده فانقذهما من الاسر
ورجع بها الى رقادة ، فدخلها المهدي راكباً على فرس ورد عليه ثوب
خز اذكن وعمامة مثله متملاً نعلان عربية وخلقه ولده ابو القاسم مرتدباً
ثوب خز خلوتي وعمامة مثله وتحت فرس اشقر ؛ متقدماً امامها الصنعاني
على فرس كميث وعليه ثوب توتي ، وظاهرة كتان وعمامة ومنديل
اسكندراني وبيده سنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه والناس بين

يديه يسمون وهو يقول : هذا مولاكم حتى انزله الحيم بوقادة ، وهناك كانت البيعة له بأمر المؤمنين وذلك يوم الجمعة ٢١ ربيع الثاني ٢٩٧ هـ - ٩ جانفي ٩١٠ م فأشبه في ذلك سلفه عبد الرحمن الداخل ، غير ان المهدي يمتاز عن صاحبه بأنه كان بذلك اول من أعلن مزاحمة الخليفة العباسي في لقبه ؛ والواقع ان عبيد الله الشيعي لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية في (رقادة) حتى كان قد زال ملك بني الأغلب من افريقية ، وملك بني مدرار من سجلماسة ، وملك بني رستم من تاهرت . ولقد اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمات والهيئة ، كما اتصف ايضاً بالقبضة واصالة الرأي والعلم مع سعة الحيلة ورباطة الجأش وشدة الحزم فأعانت صفاته الخلقية هذه وما اعتمده في دعوته من الوسائل الدبلوماسية التي لم يسبق اليها سابق ولم يتد اليها احد قبله على انشاء دولته التي اقامها بين اكثر من ست دول اسلامية وغيرها كلها تحاربها وتخشى عاقبتها .

نظامها الحكومي

قامت هذه الدولة الشيعية على كاهل فن التخذييل او كما يسمى في العصر الحديث « الطابور الخامس » فكانت لذلك اعظم واجل رتبة بها هي وظيفة داعي الدعاة ، لا يفضلها الا مقام قاضي القضاة او الخليفة نفسه الذي يعتقدون فيه العصمة ، ولم يكن لهذه الدولة في أول أمرها بالمغرب وزراء الا بعد انتقالها الى مصر في عهد الخليفة العزيز بالله ، وهناك خطة صاحب المظلة ^(١) يختار لها فارس مجاذي الملك في سيره من حيث كانت الشمس ، ولا يعلم احد من الملوك اتخذ هذه المظلة المكلفة قبل بني عبيد ، وفي ذلك يقول ابن هانيء الاندلسي من قصيدة يمدح بها الخليفة المعز العبيدي :

(١) وصفها الفلقشندي في حجه (ج ٤ ص ٧ - ٨) بأنها قبة من حرير اصفر مزركش بالذهب ، على اعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان في العيدين .

وعلى امير المؤمنين غمامة نشأت تضلل تاجه تضليلاً
نهضت بمثل الدرع ضعف نسجه وجرت عليه عسجداً محلولاً

وفي القصر منشؤون وكتاب لا يقل مرتب احدهم عن ثلاثين ديناراً لكل شهر ولرئيسهم مائة وخمسون ديناراً ، ولجلب الخراج والجباية والمفرم وقبض الزكاة موظفون آخرون . والنظر في الجرائم والجنح واقامة الحدود راجع الى صاحب الشرطة ، ووظيفة الحمية مندرجة تحت رعاية القاضي فهو الذي يولي عليها من شاء . وللعمل بالبلاد اناس هم غالباً من سكان البلاد الوطنيين واكثر الجند متجمع من قبيلة كتامة الشديدة البأس ، وكان ابو عبد الله الصنعاني اذ اراد ان يركب للحرب نادى مناديه : يا خليل الله اركبوا ، وكتب على افخاذ الخيل « الملك لله » وعلى السلاح « عدة الله » وعلى الراية البيضاء « سيهزم الجمع ويولون الادبار » ؟ وقد يكون على الويتهم احياناً أهلة من ذهب في كل منها صورة سبع ، وكان منقوشاً على خاتمه الذي يختم به السجلات « وقت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » . وللأسطول العبيدي ميزانية ضخمة من خراج الانقطاعات الموقوفة عليه ولرؤساء المراكب مرتبات تبلغ العشرين ديناراً في كل شهر ؛ قال ابن خلدون : وكان لكل بلد تتخذ فيه السفن اسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبر امر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر امر جريه بالريح او بالمجازيف وامر ارسائه في مرفئه ، فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض سلطاني مهم عسكرت بمرافقتها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله ، وانجاد عساكره ومواليه ، وجعلهم لنظر امير واحد من اعلى طبقات اهل مملكته ، يرجعون اليه كلهم ثم يسرحهم لوجههم وينتظر اياهم بالفتح والغنية^(١) وتمتاز هذه الدولة العربية الناشئة بالمغرب بالمحافظة على عاطفة الاهالي سكان البلاد الاصليين فأشركتهم في الادارة باسنادها مشيخة النواحي وادارة البريد وحماية الفرسان اليهم ؛ ثم كان لهم التقدم في المناصب والرتب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

على غيرهم اثر الفتح الفاطمي بالشرق . فقد رأيت كيف كان تأسيس هذه الدولة بالمغرب امراً مشتركاً بين العرب والبربر كما كان الشأن في انشاء الخلافة العباسية بالشرق بين العرب والفرس . وللدولة بعد ذلك عملتها وسكتها المضروبة باسمها منقوش فيها « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الآخر « تفرق اعداء الله » وهي مستقلة استقلالاً تاماً لا يسيطر عليها فيه احد ، وبقيام هذه الدولة في المغرب كان في العالم الاسلامي يومئذ ثلاث خلافات : خلافة العباسيين ببغداد ، وخلافة الامويين بالاندلس ، ثم هذه الخلافة العبيدية بالمغرب .

حدود الجزائر العبيدية

لأول مرة في تاريخ المغرب العربي اتخذت افريقية الشمالية تحت لواء دولة اسلامية واحدة ، وقد كان بالوطن الجزائري يومئذ اربع ولايات : ولاية المسيلة وهي تشمل على مواطن زناتة بالزاب والحضنة ومواطن عجيسة ما بين سطيف وقلعة بني حماد ؛ وولاية باغاية المشتلة على وطن كتامة من نواحي عنابة وقالة الى نواحي سطيف وجيجل ، وولاية اشير المحتوية على مواطن صنهاجة وما يجاورها من زواوة وزناتة ، وولاية تاهرت المشتلة على مواطن مغراوة ما بين مليانة ومازونة ، ويفرن وغالب زناتة .

فتح عمالة الجزائر الشرقية

كان ابتداء ظهور الدعوة الشيعية بالجزائر حوالي سنة ٨٢٧٩ - ٨٩٢ م ، بواسطة الدعاة المنبئين في الاقطار المرسلين الى المغرب من طرف جعفر الصادق ، وكان ظهورهم اول مرة بناحية قسنطينة - سوق حمار - ما بين ارض مجانة وسببية ثم ظهر بكتامة^(١) ابو عبد الله الصنعاني ؛ المنتصر بقبائل

(١) اعلى الجبال الواقعة ما بين مدينة القل وبجاية الى مجانة

لهيصة وغسمان المتحالفة معه ضد كل مماكس له في دعوته ، وهكذا استمر ابو عبد الله بذكائه وعزمه النادر في استئالة القوم اليه بدعوى التحرير من ربقة السلطة الاغلبية والانتصار للدين حتى امتلك قلوبهم واكتسب مودتهم فاجتمعوا عليه وكثر عددهم حوله فأخذ حينئذ في تأسيس مدينة بـ «ايكجان» قرب Chevreul الحالية بنواحي «فج مزالة» فجمع بها انصاره وسماها «دار الهجرة» ومنها زحف الى ميلة ففتحها سنة ٥٢٩٠هـ - ٩٠٢م . وجرت بينه وبين الاحول اخ ابي العباس الاغلي حروب طاحنة ووقائع شديدة بنواحي سطيف وبلزمة انتصر فيها الاحول اولا ثم دارت الدائرة عليه فتغلب الشعبي وفتح طبنة عاصمة الزاب - على نحو اربع كيلومترات شمال بريكة - واحتلها صلحا في آخر ذي الحجة سنة ٥٢٩٣هـ - اكتوبر ٩٠٦م تظاهر امام اهلها بالتقشف والتعصب للكتاب والسنة وانتهاج مناهج العدل والاستقامة فتمسك به القوم ورغبوا في توليه عليهم ؛ وفي شعبان سنة ٥٢٩٤هـ - ماي ٩٠٧م خرج الشعبي من طبنة في جموعة فاستولى على بلزمة وباغاية ومنها توجه الى مكيانة وتبسة ، وهناك جاءتة الوفود من اهالي مدينه سطيف مستأمنة على نفسها فأمنها بعد ما هدم المدينة ، ثم استولى بجنوده واتباعه على تيجس ومرماجنة وقسنطينة ومجانة وسائر بلاد الجزائر ونواحيها الشرقية ، ومنها اندفع الى ناحية تونس وقفصة وكان معه يومئذ ما ينيف على مائتي الف جندي ؛ وهناك التقى بجيش الاغابة الذي كان يبلغ نصف العدد المذكور وكانت المعارك بينهم بالابس فانصر عليهم الصنعاني بجيوشه واحتل القيروان في اواخر جمادى الثانية ٥٢٩٦هـ - مارس ٩٠٩م وتقدم في رجب - افريل الى رقادة دار ملك الاغابة فتبوأها ، فكان ذلك آخر العهد بدولة بني الاغلب .

فتح عمالة الجزائر الغربية

بعد ان ظفرت الدولة العبيدية بالملكة الشرقية من الجزائر الى تونس حولت انظارها الى امتلاك الجهة الغربية ؛ فجهزت لها جيشاً عتيداً بقيادة

عروبة بن يوسف الكتامي فاحتل مملكة الرستمين وقضى على امامة الخوارج بها لتناقض الفكرتين فيها ، وجعلت ولاية العاصمة تاهرت الى ابي حميد دواس بن صولات الابهصى والسيد الصغير ابراهيم بن محمد المعروف بالهوارى وفي سنة ٢٩٧هـ - ٩٠٩م هجم محمد بن خزر الزناتي امير مغراوة في قبيلة على تيهرت فهزمه واليها ابو حمدة وامره في قومه بحصن ابن بخانة - المعروف بتاهرت القديمة - ثم اجهز عليهم ونجا ابن خزر بنفسه ، وفي سنة ٢٩٨هـ - ٩١٠م غرض التاهريون ضد عامل الشيعة العبيدي فخرج منها العامل ملتجئاً الى حصن ابن بخانة واسند اهلها رأستهم الى امير مغراوة محمد بن خزر الزناتي فنزل هذا المدينة وتغلب على ارباضها : ثم جاءت الحملة الشيعية في شهر صفر ٢٩٩هـ - سبتمبر ٩١١م فاقتحمت مدينة تيهرت قهراً ونصبت على رأسها مصالة بن حبوس المكناسي ، واستمرت هذه الولاية في عقبه الى سنة ٣١٤هـ - ٩٢٦م حيث عاد اليها ابن خزر السالف الذكر وهاجها مراراً فلم ينبجع ، وقد انتهت النيران في تيهرت سنة ٣٠٥هـ - ٩١٧م فأحرقت اسوانها . وفي سنة ٣١٥هـ - ٩٢٧م تقدم ابو القاسم بن عبيد الله المهدي متوغلاً في اعمال تيهرت ففتح يومئذ بلاد هواوة وزانة ومطاطة .

وفي ذي الحجة سنة ٢٩٧هـ - اوط ٩١٠م اوعز الخليفة عبيد الله المهدي الى ابي حميد الابهصى عامل تيهرت بحصار مدينة وهران ومقاتلة اهلها من بني مسقن الزناتين ان هم امتنعوا عن الاستسلام ، فحوصرت وهران ومنع اهلها الماء فخرج منها بنو مسقن ليلاً وتركوا اموالهم الى النهب وخربت وهران فاضرمت فيها النيران وفر عنها يومئذ مؤسسوها الاندلسيون ، محمد بن ابي عون ومحمد بن عبدوس في جماعة ... ثم ردم اليها ابو حميد وشرعوا في تجديد المدينة في شعبان - افريل ٢٩٨هـ - ٩١٠م فعاتد ابيج بما كانت عليه من قبل وتولى عليها يومئذ محمد بن ابي عون الاندلسي فتقدم بها العبران والرقى الى منتصف جمادي الثانية سنة ٣٤٣هـ - اكتوبر ٩٥٤م . حيث كانت بها الوقعة المشهورة بين يعلي بن محمد بن صالح اليفرني وبين زداجة وبني مسقن - كلهم من

زناة ومواطنهم بازاء وهران - فاحتل يعلي المدينة وعمل على خرابها والعيث والفساد فيها واورقد فيها النيران فعادت وهران الى ما كانت عليه من التدمير والحراب واخذ يعلي في نقل اهلها الى موطنه الزناتي ، وكانت الغاية من هذه الرقعة مقاومة الشيعة لا غير وبقيت وهران على ذلك مدة سنوات ثم تراجع الناس اليها وبنت من جديد . وفي سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م تحرك محمد بن ابي العافية عامل العبيدين على المغرب الاقصى فجاء في جموع كثيرة فاحتل ولاية تلمسان ووهران وتنس وشرشال وقطع يومئذ دعوة الادارسة من المغرب الاوسط ؛ فخرج حينئذ اعقاب محمد بن سلجان من سائر اعمال تلمسان واخذوا بدعوة الامويين بالاندلس واجازوا اليهم ثم كان بعد ذلك من الفتن والثورات بهذا الوطن ما اخرجه مراراً عن طاعة العبيدين وادخله في طاعة الامويين تحت تصرف يعلي الافريقي عامل الناصر الاموي بالمغرب ، وبقي الامر على ذلك يتأرجح بين الطائفتين ما بين مد وجزر الى ان تجرد لها القائد جوهر الصقلي سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م فاخضع جميع هذه النواحي الجزائرية نهائياً الى سلطة الدولة العبيدية وأضافها الى اعماله بالمغرب الاقصى . ثم منحتها الحكومة الى حليفها حاكم مدينة اشير مؤسسها زيري بن مناد الصنهاجي .

مؤامرة تنس

يقال ان ابا العباس احمد المعروف بالخطوم اخ ابي عبدالله الصنعاني ندم على ما صدر منه ومن اخيه في خدمة الدولة الشيعية وتوطيد الملك وتهييده لبني عبيد ، فكان بما رواه التاريخ عنه انه أمر لاخته ذات يوم فقال له : تكون انت صاحب البلاد والمستقل بامورها وتسلمها الى غيرك وتبقى من جملة الاتباع ؟ ! ... فكان هذا مما حسم ابا عبدالله على ان يفرض شخصيته على الحكومة وعلى اصهار الغدر بعبيد الله المهدي وفي يوم الجمعة ١٧ ذي الحجة ٢٩٧ هـ - اوط ٩١٠ م تم تدبير المؤامرة

بمدينة تنس ضد الخليفة ؛ وبيتوا على قتل المهدي فكان هناك من نفي
 الحبر الى الخليفة فاحترس اولاً من المتآمرين متربصاً بهم الدوائر الى ان
 حان الوقت فندس لابي عبد الله واخيه من قتلها صبراً ، وذلك وقت
 الزوال من يوم الثلاثاء منتصف جمادي الاولى سنة ٢٩٨ هـ - ١٩ فيفري
 ٩١١ م وكان المباشر لقتل ابي عبد الله هو عروبة بن يوسف من وجوه
 كتامة ؛ ومعه اخوه حباة ، وقيل معه جبر بن غاسب الميلي ؛ يقال
 انه لما حمل عروبة على الداعية الضعافي واراد قتله ، قال له لا تفعل
 يا بني ! ... فأجابه هذا : ان الذي امرتنا بطاعته امرنا بقتلك . وقتل
 معها جماعة من شيوخ كتامة بمن قاتلوا على ذلك ، وظهر الخليفة
 الرضى عن غيرهم بمن ظن فيهم الظنون وكانوا عنده من المشبهين ،
 فجعل يفرقهم في المناصب النائية وكأنه يفعل ذلك تكريماً منه وبجازاة
 لهم وانهم محل نفسه وهو في الواقع يقصهم عن مواطن الخطر ويوقع
 بينهم الحذر والمنافسة .

مناهضة الشيعة بالجزائر

استد غضب كتامة على الخليفة حين اوقع ببعض الذوات من رؤسائهم -
 الذين شاركوا في المؤامرة - فأزعموا على الانتقام واصروا على الخلاف
 فكثرت الحوادث والوقائع والحروب ضد الشيعة ؛ وفي سنة ٢٩٩ هـ -
 ٩١١ م اقتطع الزاب عن العبيدين فقويت شوكة اعدائهم به ؛ فنهض
 اليهم يومئذ ابو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي فأخضعهم واحتل مدينة
 قسنطينة واعمالها ؛ وفي سنة ٣١٥ - ٩٢٧ م غزت قبيلة زناتة بلاد كتامة
 بدعوى مناهضة الشيعة المحتلين لتلك البلاد ، فكانت الحرب بينهم شديدة
 انهزمت فيها زناتة ، فانتهزها يومئذ الامويون فرصة فدوا ايديهم للاخذ
 بضبع زناتة فبايعهم رئيساً يومئذ محمد بن خزر سنة ٣١٦ هـ - ٩٢٨ م
 واذعن للخلافة الاموية وحمل على ناحية التل فاستولى على مدينة وهران
 وتنس وشلف ثم اخفق في الاخير .

مقتل عامل اوراس

لقد بالغ ابو معلوم فلهجون الكتامي عامل اوراس في مطالبة رعيته بدفع المبالغ الباهضة من المغرم وكلفها من الكلف ما لا تطيقه ، فأظهرت له الرعية الطاعة والامثال مترتبة به حتى ظن انه نجح في خطته واطمان فانقض عليه يوماً اهل الجبل فقتلوه ومن معه من الحامية والجند ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م ؛ فكانت هذه الحادثة من متمات حوادث مناهضة الشيعة بالجزائر .

مقتل عامل تاهرت

كثيراً ما خرجت ولاية تاهرت عن طاعة العبيدين ، وتولاها رؤساء زناتة تلك القبيلة التي لم تكن لتدعن لهذه الدولة الشيعية طيلة ولايتها على المغرب ؛ وكثيراً ما نشأت بينها حروب دامية ، منها هذه الحرب التي خرج فيها مصالة ابن حبوس عامل تاهرت مهاجماً لقبيلة زناتة المنشقة ، وقد استولى في طريقه على النواحي ؛ وفيها كان حقه يوم الجمعة ٣٠ شعبان سنة ٣١٢ هـ - ١٩ جانفي ٩٢٥ م وانهمز يومئذ حزب الشيعة ، ولم تكد تنقطع الوقائع بين زناتة والشيعة ومن والاها من قبائل صنهاجة وكتابة مدة نحو خمسين سنة .

انشاء مدينة المسيلة

بعدما انتهى الخليفة ابو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي من جولاته في انحاء الوطن للقضاء على الثورات القائمة ضده تقدم يومئذ لبلاد مطهاطة وهوارة ونواحي تاهرت ففتحها نهائياً واوغل في التخوم الى ما وراءها فكسر من شوكة المعارضين هنالك ، وفي منصرفه الى قاعدته مر في طريقه على وادي سهر فأعجب بهذا المكان الذي كان يسكنه يومئذ بنو ملكان من بطون هوارة ، فأمر بنقلهم الى فج القيروان ، واخذ رعيه فاخبط به في ذلك المكان مدينة المسيلة وهو راكب على فرسه ؛ وقد كان ذلك اليوم الاحد ٩ صفر سنة ٣١٥ هـ - ابريل ٩٢٧ م وعهد بالقيام على بنائها

والوقوف على تحصينها وتحسينها الى احد قادته المشهورين ابني الحسن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسي^(١) وجعلها سداً منيعاً بينه وبين عادية زناتة ، ولما تم بناؤها نسبها الخليفة الى نفسه ودعاها باسمه « المحمدية » ونقلت ادارة الزاب اليها من طنية ، فأصبحت المسيلة - المحمدية - هي عاصمة الزاب يومئذ وبلغت من الحضارة والعمران الغاية القصوى ، فقد كان بها من القصور والمنشآت المعمارية من حمامات ومنزهات ومساجد الخ ... ما يحق للجزائر ان تفخر به على غيرها في ذلك العصر ؛ وقصدها يومئذ العلماء والادباء فجاؤوها من كل جهة وصوب وجعلت ولايتها لمؤسستها علي بن حمدون الى ان هلك في حرب ايوب بن يزيد الخارجي سنة ٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م فخلفه عليها ابنه جعفر بمدوح ابن هاني ، وبقي في ولايته الى ان نافسته ضهاجة ونشأت الحرب بينهما فقتل فيها زيري بن مناد الضهاجي وذهب فيها ضحية عشرة فرسه ، فقام ابنه بلكين منتقماً لوالده وظهر على جعفر فخرج منها حينئذ يوم ١٨ رمضان ٣٦٠ هـ - ١٥ جويلط ٩٧١ م . وذهب الى قرطبة فكان هو واخوه يحيى في جانب المنصور بن ابني عامر على اعدائه وقتل جعفر هناك وفر يحيى الى مصر ، فأضاف المعز العبيدي ولاية المسيلة يومئذ الى بلكين الضهاجي فعمت ولايته حينئذ كلا من اعمال الجزائر الثلاثة : المسيلة وتاهرت واشير .

انشاء مدينة اشير

هي مدينة بالجنوب الشرقي من البوواقية قرب « ثلاثاء الدوائر » لا تزال اطلالها باقية الى اليوم عند الكاف الاخضر على المنحدر الجنوبي الشرقي لجبال تطبرى وهي تبعد بنحو ٢٥٠٠ متراً الى الشمال الغربي من (بنية) او منزل (بنت السلطان) وهي المدينة التي اقيمت مكان اشير ، وقد تهدمت هذه كذلك ايضاً . انشأها زيري بن مناد رئيس

(١) هو الذي خرب مدينة أدلة - على مرحلة شرقي المسيلة - وامر باحاطتها عند رجوع ميسور الفتي من الغرب سنة ٣٢٤ هـ - ٩٣٥ م .

صنهاجة وامبرها سنة ٥٣٢٤هـ - ٩٣٦م وجعلها مركزاً حربياً لمقاومة بلاد زناقة المحتنة عن طاعة العبيدين المغيرة على نفورهم ، جلب اليها البنائين والصناع من المسيلة وطبنة فاحكموا وضعها واشادوا بناءها حتى قيل انه ليس في هذه الاقطار احصن ولا احسن منها ولا احكم ؛ ووصف يحيى ابن خلدون الحصن الذي بناه زيدي ابن مناد الصنهاجي على جبل تيطرى حيث كانت توجد مدينة اشير فقال : معقل تيطرى المشهور الحصانة الآخذ من الصحراء والتل المزاحم بناكبه السحاب ؛ ... ووصف صاحب العبر هذا الجبل او المكان الذي اقيمت عليه مدينة اشير فقال ... الذي كانت فيه المدينة الكبيرة ... وذكرها صاحب الاستبصار فقال : ليس في تلك الاقطار احسن منها ^(١) . وبعد ان رأى الخليفة المنصور شدة نكابة مؤسسا في العدو - ابي يزيد - بقلعة كتامة واخلاصه في نصرة الدولة وصله بتحف وهدايا نفيسة وعقد له على قومه وعلى تيهوت واعمالها واذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة اشير فاستبحر بها العبران وقصدها العلماء والتجار من القاصية وكانت بها سوق تباع فيها كل لطيفة وظريقة ، وضرب بها العبيدون عملتهم ، ثم جاء بلكين ولد المؤسس فابتنى سورها سنة ٣٦٧هـ - ٩٧٧م وبقيت المدينة حرماً آمناً الى ما بعد سنة ٥٤٤٠هـ - ١٠٤٨م حيث خربها يوسف بن حماد الصنهاجي ، ثم تراجع اليها الناس بعد سنة خمس وخمسين واربعمئة - ١٠٦٣م فعادت الى ما كانت عليه .

ثورة ابي يزيد الغارجي

كان ابو يزيد هذا رجلاً مشهوراً بالتشف يركب الحمار ويلبس الحشن من الصوف منسماً بالسنة آخذاً نفسه بالحسبة يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويعلم الصبيان القرآن ويؤدبهم ، واسمه ابو يزيد مخلد بن كيداد

(١) بغية الرواد ج ٢ ص ١٨٥ ط الجزائر ١٣٢٢هـ والمبر ج ٦ ص ٦٤ ط بولاق ١٢٨٤هـ والاستبصار ص ٥٨ - ٥٩ ط فينا ١٨٥٢هـ .

المشتهر بصاحب الحمار ومذهبه النكارية من فرق الخوارج ، متعصباً لمذهبه وهو من أهل جبل اوراس ففي سنة ٨٣٣٢ - ٩٤٣ م بايعه اهل الجبل على الثورة في وجه الشيعة وتلقب بشيخ المؤمنين وعمره يومئذ ستون سنة فخرج معه الكثير من خوارج زناتة ومشيخة المالكية أيضاً وكلهم يدعوا الى مبايعة الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي صاحب قرطبة ، وذلك توصلاً منهم الى نبذ الدعوة الشيعية وتحرير البلاد من سلطة بني عبيد ، فخرج ابو يزيد من اوراس على رأس هذه الجموع نائراً ألويته الصفر فاحتل من بلاد الجزائر مدينة تبسة وبجاية وغالب مدن القطر الجزائري الشرقية وحاصر قسنطينة وبلغ في سيره الى القيروان ثم الى تونس فاحتلها وحاصر المهدية دار ملك العبيدين ثمانية عشر شهراً حتى كاد الخليفة المنصور العبيدي - وهو يومئذ بها - ان يغم ويأس لولا انه عمل الحيلة في التخلص بنفسه منها وذهب الى بسكرة ثم الى مقره من بلاد الزاب الجزائري ، ومن هناك كاتب رئيس صنهاجة زيري بن مناد مستنجداً به على أبي يزيد وأهدى اليه في ذلك أموالاً كثيرة وحللاً وتحفاً نفيسة كما استعان أيضاً بصاحب المسيلة علي بن حمدون ، فلبى كل منهما دعوة المنصور وخرجت الجحافل فأحاطت بأبي يزيد - وهو يومئذ محاصر للمهدية - فأفرج عنها في صفر سنة ٨٣٣٤ - سبتمبر ٩٤٥ م وفي اثناء ذلك نهض شاب بجبل اوراس متزهماً حركة اخرى ضد الشيعة أيضاً فقبض عليه صاحب المسيلة وجاء به مصفداً الى الامير فأمر بحمله معه وصلبه ابناً حل وارتمل فكان يظهره للناس مصلوباً ارباباً لهم وضل ابو زيد ينتقل في العواصم والبلاد الجزائرية والخليفة المنصور في اثره الى ان بلغ باغاية فامتنع عنه أهلها ومنعوه من الدخول اليها فضرب عليها الحصار ونزل المنصور يومئذ بطبنة وفي تلك الاثناء فصدت سيرة أبي يزيد وساء سلوكه فاختلفت عليه زناتة وانقلبت ضده ، فجاءت رسل محمد بن خزر الزناتي أمير مغراوة الى الخليفة تستأمن للقبيلة فأمّنهم الخليفة مشروطاً عليهم تسليم أبي يزيد ، فانطلقوا جميعاً خلفه وكانت له معهم وقائع وابام مشهورة بأسمائها في التاريخ كوقعة يوم الرؤوس بقفص باتنة ، ووقعة

الحريق بجبل كيانة - قلعة بني حماد - حيث أحاط العبيدون بالقلعة ، وبعد حرب ضروس قبض الخصوم على أبي زيد متخفياً بالجراج بجبل معديد أو المعاضيد كما هو معروف به اليوم بشمال الحفنة في المحرم ٣٣٦ هـ - جويلت ٩٤٧ م فأمر الخليفة بإسعافه فغلب عليه نزف الدم فمات يوم الخميس ليلة بقيت من المحرم ؛ فقتل الحصاء بجسته وعينوا بها ... ويومئذ نهض أبناء أبي يزيد الثلاثة : الفضل وأيوب ويزيد في قومهم منادين باستمرار الثورة على العبيدين والمطالبة بدم أبيهم فانتشبت الحرب من جديد وتقدم الفضل على رأس جيوشه فحاصر طبة وبسكرة وباغاية وكاد لهيب الفتنة يعم الاوراس لولا ان قتل الفضل غدرأ في شهر ذي القعدة من سنة - ماي ، جوان - وقتل أخوه أيوب بعده ٣٤١ هـ - ٩٥٢ م وزحف بعدها يزيد الى باغاية فانهزم عنها ولم يحمّد أوار الثورة بأوراس الى ان جهز لها الخليفة رئيس صنهاجة بلكين بن زيري الصنهاجي ففضى على الثائرين هنالك وانتهت يومئذ حركات الخوارج بالمغرب ، واستندت ولاية باغاية الى قصر الصقلي مولى المعز العبيدي وبقي في منصبه هذا الى ان ظهر منه ما استوجب قتله فقتله سيده سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م .

اصطدام الدعوة الشيعية بالاموية في الجزائر

كان المغرب العربي في اوائل القرن الرابع الهجري محط انظار الدعاة السياسيين من الامويين والشعة ، يزدهون عليه ويتسابقون بينهم في مد ايدهم اليه ؛ فانه بعد ما تمكن العبيدون من دولة الادارسة والاغالبة بالمغرب وبلغت دولتهم الى شواطئ المحيط وسيطة واخذت تهدد الاندلس ، وكان الثوار في الاندلس يومئذ يفاوضون العبيدين ويتآمرون معهم على الدعوة لهم ؛ أمرع عبد الرحمن الناصر الخليفة الاموي الى دفع هذا الخطر عن دولته فنزل بساحل افريقية وفتح مليّة سنة ٣١٤ هـ - ٩٢٤ م وبث دعائه هنالك فاخترقوا المغرب الى بلاد الجزائر فلباهم صاحب ارشقول -

فرضة تلسان وهي على مسافة عشرين ميلاً منها - وهو يومئذ ادريس بن ابراهيم ، واقتفى اثره في ذلك الحسن بن ابي العيش صاحب جرواة ، وموسى بن ابي العافية صاحب المغرب الاقصى ، ومحمد بن خزر المغراوي عاهل زناته ، فنشبت يومئذ حروب بين الشيعة ودعاة الاموية في هذه الامارات المذكورة فانحزم فيها هؤلاء وخضعوا للشيعة ؛ ثم عادت زناته الى الدعوة الاموية لما كان للامويين عليها من الولاء من عهد هجرة أميرها صولات بن وزمار الى الخليفة عثمان بن عفان بالمدينة المنورة ، فاتحد أميرها الحير بن خزر وحيد بن يصل على رفض دعوة العبيديين فحوصرت يومئذ تهرت واحتلت وهران وأقيمت بها دعوة الامويين سنة ٣٣٣هـ - ٩٤٥م واخذت البيعة للخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله صاحب قرطبة ، وكان العبيديون يومئذ في شغل عن هذا مهتمين بحروب أبي يزيد الخارجي ، وبعدما قضوا عليها عمدوا الى القضاء على الدعوة الاموية القائمة بالمغرب ، فخرج المنصور بنفسه سنة ٣٣٦هـ - ٩٤٧م ونزل بسوق حمزة - قرب البويرة من عمالة الجزائر - ومعه زيري الصنهاجي في جموعه وهناك أخذ الخليفة في حشد الجنود وجمع العساكر مندفعاً نحو تهرت ، فأخرج حميد عنها وعقد المنصور عليها ليعلي بن محمد اليفرني كما انه عقد لزيري بن مناد الصنهاجي على قومه وسائر بلاد صنهاجة .

وفي سنة ٣٤١هـ - ٩٥٢م أعاد الناس الدعوة الى الامويين بالمغرب الاوسط ، فقدم على الناصر الاموي بقرطبة في ذلك قاضي وهران أحمد بن أبي عون في وجوه أهل البلد وأعيان الوطن ، فتجهز لهم جوهر الصقلي قائد المعز العبيدي وخرج لقتالهم سنة ٣٤٧هـ - ٩٥٨م فاعتزله يعلى بن محمد اليفرني في جيوش عظيمة على مقربة من تهرت ، وكانت هنالك مقتلة شديدة بين الطائفتين ، فعمد يومئذ جوهر الى بذل الاموال وتوزيعها بين رؤساء كتامة على ان يفتكروا بيعلى ويعفوا اثره . فجاوزه برأسه وهزم يومئذ بنو يفرن قوم يعلى وانتصر العبيديون ثم كانت فترة قصيرة سكنت فيها الجزائر الى ان غزا ابن خزر الزناتي مدينة

بإغابة سنة ٣٥٨هـ - ٩٦٨م وأعلن عصيان الشيعة ، ودعا للناصر الاموي أيضاً وامتدت الفتنة الى الزاب وواد ريغ ووارقة - بالقاف المعقودة - ويومئذ خرج المعز الفاطمي لقتالهم جميعاً فشنت جموعهم وأعاد الدعوة للشيعة ، وفر ابن خزر مختفياً حيث لم يظهر له اثر ، فاجتهد المعز في القبض عليه فلم ينجح ، ويومئذ انتدب له بلكين الصنهاجي وأوغل في البلاد باحثاً عنه أيضاً بالسهول والنجاد مقتنياً اثره فلم يظفر به ، وبعد مضي سنة من الحادثة أقبل ابن خزر بنفسه فدخل على الخليفة المعز بدار الخلافة « المنصورية » (ربيع الثاني ٣٥٩هـ - فيفري ٩٧٠م) ، مستأناً على نفسه فأمنه وعفا عنه وأبقاه هنالك حتى قضى بالقيروان وقد أناف على مئة سنة ؛ ويومئذ تلاشت أطماع الامويين في المغرب .

حروب صنهاجة وزناتة

ولما هلك محمد بن خزر الزناتي خلفه على رئاسة القبيلة ولده الخير متمسكاً بدعوة الامويين الى وفاته ، ثم قام بعده ولده محمد متمسكاً بمحزب والده السامي ، وكان متجبوراً عاتياً ، فاثار العبيدون عليه قبيلة صنهاجة الموالية لهم وكان على رأسها بلكين بن زيري فنشبت الحرب القبيلتين سنة ٣٦٠هـ - ٩٧٠م وكاد ان يؤسر فيها ورئيس زناتة لولا انه عرف كيف ينجو بنفسه من ذل الامر فانتحر ، وقتل يومئذ سبعة عشر اميراً من صنهاجة . ثم نهض الخير بن محمد الزناتي فقام مكان والده المنتحر متزعماً قبيلة زناتة فقاتل صنهاجة حتى وقع اميرها زيري عن فرسه فصرع ؛ ولقد استمرت المناوشات بين هاتين القبيلتين نحو نصف قرن ، وكلها كانت ناشئة عما تكنه زناتة في نفسها من اثر الحرمان بما كانت ترجوه من خلفاء الشيعة من الرئاسة والتزعيم على المغرب الاوسط المعروفة به وقد فاز بذلك خصماؤها الصنهاجيون وكتامة .

انشاء مدينة أفكان

هي على نحو الحسة والعشرين كيلومتراً بالجنوب الغربي من معسكر

المعروف مكانها اليوم باسم أفكان بتشديد الكاف ، من مواطن جبل بني راشد وهو احد جبال درن المعروف بالاطلس ، وقاعدته مدينة الراشدية - معسكر - كان مركز هذه المدينة اولاً سوقاً لزناطة ؛ فبذلها رئيسها يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى واسس بهذا المكان مدينة عظيمة سنة ٨٣٣٨ - ٩٤٩ م واتخذها مركزاً لرئاسته فارتحل اليها الناس يومئذ من تهرت ووهران ومعسكر وغيرها من بلاد الجزائر فانتشر بها العمران واسس بها مسجداً جامعاً وارجاء وحمامات الخ ... ثم كان خرابها على يد القائد العبيدي جوهر الصقلي في حوادث ثورات زناطة على الشيعة سنة ٨٣٤٧ - ٩٥٨ م .

قال الادريسي وأفكان هذه مدينة كانت لها ارجاء وحمام وقصور وفواكه كثيرة وكان عليها سور تراب لكنه الآن تهدم وبقي أثره ، وواديا يشقها نصفين ويمضي منها الى تاهرت (١) .

مهاجمة الاندلسيين للجزائر

لقد علمنا بما تقدم مبلغ الخلاف والنزاع الذي كان ناشئاً عن تنافس الشيعة والامويين بالمغرب ، ويومئذ أمر المعز اسطوله الرابض بصقلية ان يهجم ويفزو سواحل الاندلس ؛ فخرج الاسطول سنة ٨٣٤٤ - ٩٥٥ م غازياً سواحل المربة فعاث فيها وغنم وسبى ثم عاد الى مقره ، ويومئذ خرج الاسطول الاموي منتقماً لدولته فحل بسواحل افريقية فأخفق ، ثم عاد فكرر الهجوم في سبعين مركباً وحل بمرسى الحرز - القالة - شرقي بونة فأحرقها وكانت بها يومئذ مصانع السفن وأساطيل الدولة .

حوكات الاسطول

لم يسمح التاريخ - في هذا العصر الذي نؤرخه - لاي دولة مطلقاً

(١) نزهة المشتاق ص ٨٢ - ٨٣ ط ليدن ١٨٦٤ م وابن حوقل ج ١ ص ٨٩ ط ليدن ١٩٣٨ م .

ان تفتخر بالتفوق البحري بهذا البحر المتوسط والانفراد بالسيادة العالمية فيه غير هذه الدولة المغربية الاسلامية ، فقد كان سلطانها به مرهوباً وجانبها مرموقاً ما بين بوغاز طارق الى بيروت فجميع مدنه الساحلية ومراسيه وجزره المنقطعة مثل كورسيكا وسردانية وصقلية الخ ... كلها كانت بيد هؤلاء العبيدين الذين عنوا كثيراً بتقدم الحركة البحرية وصناعة السفن ، فقد بلغ عدد ربابنة البحر في هذه الدولة الى خمسة آلاف رباب^(١) وكانت مدينة بونة - عناية - ومرسى الحرز - القالة - بالجزائر كلاهما مركزاً هاماً لصنع المراكب البحرية ، ومقرراً عاماً للاسطول الذي بلغ المائتي مركب علاوة على مرفأ المهديّة بتونس الذي كان يسع مائة سفين ، فمن هذه الامكنة كانت تصدر البعثات البحرية لغزو بلاد الروم وفتح ما ولاها من بلاد ضفاف البحر الابيض المتوسط ، كما انها كانت تغدو وتروح كذلك فيه مواخر للتجارة واستخراج معادنه وكنوزه من صدف وخرز وودع ومرجان وفصوص الحجارة الخ ... ولعظم حولة العرب البحرية وشدة شكيمنتهم به انحاز الافرنج بمراكبهم يومئذ الى الجانب الشمالي الشرقي منه فتراهم لا يعدونه ابداً فلم يكن لاوروبا سلطان على هذا البحر خلال القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - اذ كان لا بد لمن يريد منهم قضاء مأرب فيه ان يخطب ود العرب كما فعلت نابولي وغيتة وأمالفي^(٢) قال ابن خلدون :

وكان المسلمون لهدد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر - الابيض المتوسط - من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة وبابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج . وكان

(١) رئيس الملاحين .

(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٦٦ ط القاهرة ١٩٥١ م .

أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهديّة الى جزيرة جنوة فتقلب بالظفر والفنينة ... والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والساكن الاسلاميّة تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوّة الشماليّة فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم ... وانحازت امم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد بفريسته ، وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلباً وحرباً فلم تظهر للنصرانية فيه الواح^(١) فاسمع الآن الى قول شاهد عيان وهو شاعر الدولة أبو القاسم بن هاني يصف اسطول المعز بقصيدة تدل على مقدار ما وصلت اليه قوة هذه الدولة البحرية العظيمة :

لقد ظاهرتها عدّة وعديد	اما والجواري المنشآت التي سرت
ولكنّ من ضمت عليه أسود	قباب كما ترحى القباب على المها
مسومة تحذوها وجنود	ولله بما لا يرون كتاب
فمن وقفت خلف الصفوف ردود	اطال لها ان الملائك خلفها
وان النجوم الطالعات سمود	وان الرياح الذاريات كتاب
تنشر أعلام لها وبنود	وما راع ملك الروم إلا اطلاعا
له بارقات جمّة ورعود	عليها غمام مكفهر صيره
بعزمك بأس او لكفك جود	مواخر في طامي العباب كأنه
بناء على غير العراء مشيد	انافت به اعلامها وسماها
وليس من الصفائح وهو صلود	وليس بأعلى شاقق وهو كوكب
فمنها قنّان شمخ وربود	من الراسيات الشم لولا انتقامها
فليس لها الا النفوس مصيد	من الظيور الا انهن جوارح
فليس لها يوم اللقاء نخود	من القادحات النار تضرم للصلي

(١) المقدمة ص ١٢٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج
فأنفاسهن الحاميات صواعق
لها شعل فوق الغمار كأنها
يشب لآل الجائليق سعيرها
تعانق موج البحر حتى كأنه
ترى الماء فيه وهو قان خضابه
وغير المذاكي نجرها غير انها
فليس لها الا الرياح اعنة
ترى كل فود للتليل كما اثبت
رحية مد الباع وهي نتيجة
تكبرن عن تقع يشار كأنها
لها من شقوف العبقري ملابس
كما اشتملت فوق الارائك خرد
لبوس تكف الموج وهو عظامط
فمنه دروع فوقها وجواشن

كما شب من نار الجحيم وقود
وافواهمن الزافرات حديد
دماء تلاقتها ملاحف سود
وما هي من آل الطريد بعيد
سليط له فيه الذبال عتيد
كما باشرت درع الخلق جلود
مسومة تحت الفوارس قود
وليس لها الا الحباب كديد
سوالف غيد اعرضت وخدود
بغير شوى ، عذراء وهي ولود
موال وجرد الصافنات عييد
مقوفة فيها النضار جسيد
او التفتت فوق المنابر صيد
وتدراً بأس اليم وهو شديد
ومنها خفاتين لها وبرود

ويقول Adam Mez مؤرخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ان
في سنة ٨٣٢٤ - ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبيد الله المهدي الفاطمي ان
تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوة ، وان تنهبها ، وان تفعل مثل هذا
بمدينة بيزا في عامي ١٠١١ - ١٠١٤ م مع ان اسطول الفاطميين كان
في ذلك الحين اقل كفاية من اسطول الشام ... وكانت مراكب العرب
تقطع البحر الابيض عرضاً في سنة وثلاثين يوماً من مبدئه في الغرب
الى آخره حيث انطاكية (١) .

المذاهب والعقائد

نشأت دولة العبيديين بالمغرب ونشأ معها فيه مذهب التشيع بمقائده

(١) جغرافية الادريسي طبة دوزي ص ٢١٤ .

وقواعده ، وهو مذهب آل البيت النبوي المظهر كذهب جعفر الصادق وزيد بن حسن واسماعيل بن جعفر الصادق سابع الائمة الاثني عشر ؛ وان اشهر فرق الشيعة اثنان : الامامية والزيدية ، ولكل منهما طوائف وفروع ؛ منها مذهب الاسماعيلية المتفرع عن الامامية وهو مذهب الدولة الرسمي ؛ غير انه مدخول بعقائد الروافض المقتبسة من الماجوسية والمناوية والمزدكية والدهرية ؛ وفي المذهب كثير من الافكار الشرقية التي حلت مكان الافكار الاسلامية المحضة ؛ بل يرى بعضهم ان الاصل في عقائد الشيعة الباطنية انها منبعثة عن مبدأ سيامي محض وما هو الا امتداد لما بيته خصاء الاسلام من الكيد له المندرج تحت الصراع القائم يومئذ بين الموالي والعرب . ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاص بهم بل ترام بأخذون بمذهب اهل الاعتزال في ذلك .

كان اول من نشر الافكار الشيعة بالجزائر منيب بن سليمان الكناسي نزل بأعمال تهرت ونواحي وانثريس فنشرها هنالك بين العامة ، ثم جاء بعده السفياي والحلواني^(١) فنشرها ايضاً ما بين اهالي مرماجة من بلاد بجانة وسوق حمار بنواحي قسنطينة ، وهكذا استمرت الدعوة الشيعة في سيرها سرّاً حتى جاء ابو عبد الله الصنعائي فأفشاها بهذه الاوطان ثم تعين الاخذ بها ايام ابي عبيد الله المهدي ، قال ابن خلدون : وشذ اهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بمعصية الأئمة ورفع اخلاف عن اقوالهم وهي كلها أصول واهية . وشذ بمثل ذلك الحوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الانكار والقدح فلم نعرف شيئاً من مذهبهم ولا نرى كتبهم ولا أثر لشيء منها الا في مواطنهم ، فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة بالمغرب والمشرق واليمن والحوارج

(١) ذكر ابن الأثير والمقرئزي ان ابا عبد الله جعفر الصادق - الامام السادس - بم هذين الداعيين الى المغرب سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٣ م وقال لهما : ان المغرب ارض بور لم تخرث قط فاذهبا فاحرقاها حتى يحرق صاحب البندر . والفترة التي بين دخول هذين الداعيين بلاد المغرب ودخول ابي عبد الله الشيعي الى هذه البلاد : ١٤٣ سنة .

كذلك ولكل منهم كتب وتأليف وآراء في الفقه غربية ^(١) وكان بما أحدثه الصنعاني هذا ان قطع صلاة التراويح في شهر رمضان وامر بصيام يومين قبله ، وقتت في صلاة الجمعة وجهر بالبسلة في الصلاة المكتوبة ، واسقط من اذان صلاة الصبح : « الصلاة خير من النوم » وزاد « حي على خير العمل محمد وعلى خير البشر » وكان نص الاذان طول مدة بني عبيد بعد التكبير والشهدين : « حي على الصلاة وحي على الفلاح » مرتين « حي على خير العمل محمد وعلى خير البشر » مرتين مرتين « لا اله الا الله » مرة . ثم يقول : المؤذن احياك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ؛ جامع شمل الاسلام والمسلمين ؛ واعز بسلطانك جانب الموحدين ؛ واباد بسيفك كافة المللعددين ؛ وصلى الله عليك وعلى آبائك الطاهرين ؛ وابنائك الاكرمين ؛ صلاة دائمة الى يوم الدين ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ^(٢) ومن فقه الشيعة انهم لا يقتنون الا في الركعة الثانية من صلاة الجمعة ، ولا يجيزون القصر في الصلاة للمسافر الا لمن كان قاصداً الحرمين الشريفين او الى الكوفة وكربلاء ، والحجر عندهم طاهر ، وهم لا يحتسون طهارة مكان الصلاة ما دامت النجاسة لا تعلق لها بالثوب وشعر رمضان هو دائماً وابدأ عندهم شعر كامل ولا يتوقف الافطار والصوم على الرؤية والزكاة عندهم لا تجب في أموال التجار بل يدفع التاجر الشيعي خمس ايراده الى الامام ، ونكاح المتعة عندهم مباح ، وليس عندهم في الموارث عول ولا تعصيب ، وخلصوا من العول بادخال النقص على بعض اصحاب الفروض فالقراية عندهم مقدمون على العصة ولعلمهم بذلك يريدون تقديم فاطمة على العباس رضي الله عنهما ، ولا يرث الجد عند وجود ابن الابن فالاجداد والاخوة والاخوات عندهم في الدرجة الثانية بعد الابناء ، فالبنات اذا انفردت وليس معها احد من الابوين فانها تحوز المال كله نصفه بالفرض ونصفه بالرد ، وبذلك لا يشارك

(١) المقدمة ص ٢١٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

(٢) اخبار ملوك بني عبيد الله لابن حاد ص ١٥ - ١٦ ط الجزائر ١٣٤٦ هـ .

فاطمة عليها السلام احد في ميراثها من ايها صلى الله عليه وسلم ، ولا يرث مع أم احد من الاخوة والاخوات ، ومع قولهم بان قاعدة الميراث عندهم هي تقديم الاقربة فانهم يقدمون ابن العم الشقيق على العم للأب مع ان العم اقرب من ابن العم . وهم لا يقولون بالقياس فاصبح لهم بذلك فقه يتفق ويختلف مع فقه اهل السنة وجميع شرائع القرآن لما عندهم معنيان ظاهر وباطن ، والعارف هو الذي يطلع على المعنى الباطن ويتخلص من الظاهر ، وكثيراً ما عقدت مجالس المناظرة والمساجلة بين شيوخ المذهب المالكي مذهب البلاد القديم ، وبين رؤساء وزعماء المذهب الشيعي الجديد وكانت هنالك المساجلات والمجادلات بين فقهاء المذهبين طالما افهم فيها فقهاء الشيعة بالحجة وقاطع البرهان ، وجرت هنالك محن ورزايا لمشيخة المالكية وعظمت فيها الحوادث والوقائع استشهد فيها عدد عظيم من العلماء والعباد ، ولم ينج احد من اهل المذاهب الاخرى يومئذ الا الحلفة لموافقتهم للشيعة في مسألة التفصيل فكان فيهم القضاة والراثة^(١) ولا تزال من هذه الفئة طائفة من الناس منبثة في انحاء بلاد الهند في كشمير وبومباي وجزيرة سرنديب - سيلان - وبالاغافان والباكستان الغربي واليمن وشرقي افريقية وسوريا . وعددهم ينيف على مليونين نسمة ، ورئيسهم الحالي هو الامير كريم خان بن الامير علي خان النجل الاكبر لزعيمهم الروحي المشهور « آغاخان » المتوفي سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م ويعد الامير كريم اليوم هو الامام الثاني والاربعون من ائمتهم وهو يحمل لقب جده « آغاخان » .

والملاحظ ان مذهب الشيعة لم ينتشر هنا بارض المغرب على طريق الارغام او العنف والاكراه كلا ، وانما اعتنقه من اعتنقه عن طوعية وموافقة وذلك ما نستنتجه من حديث اربين الاخوين زعيمي الشيعة بالمغرب : ابي عبد الله واخيه العباس ، قال النويري « انه لما وصل ابو العباس الشيعي الى ارض المغرب اراد ان ينفي عن القيروان من يخالف

(١) مقدمة كتاب المدارك ص ٢١ ط باليرمو ١٩١٠ م .

مذهبه ، فقال له اخوه ابو عبدالله : ان دولتنا دولة حجة وبيان وليست بدولة قهر واستطالة فاترك الناس على مذاهبهم .

واذن فليس بعجيب اذا لم نَرَ البربر يتعمقون في دراسة المذهب الاسماعيلي وتقم تعاليمه التي تحتاج الى اعمال فكر وروية ودراسة فلسفية عميقة ، وعذرم في ذلك واضح اذ هم قوم سذج وليس لهم في ذلك الوقت من الاستعداد الكافي لفهم مذهب الشيعة الاسماعيلي بدرجاته المختلفة والمتدرجة في الصعوبة ما كان لغيرهم من اتباع هذا المذهب بفارس ومصر ، وانما كان اعتناق البربر لاول وهلة لهذا المذهب هو يباعث العداء لاجلابة الذين طالما اضطهدوهم وضيقوا عليهم الخناق ومن هناك لم يكن ما يساعد على رسوخ هذا المذهب في نفوس البربر بما أدى به الى الزوال من بلاد المغرب حيث لم يبق له الا الآن بقية أنو^(١) وبقي المذهب الملكي راكداً بهذه الديار نحو نصف قرن حتى كانت مناهضة الرافضة على عهد باديس عامل صنهاجة ؛ فبعثه من مرقده وبقي اهالي هواردة من بني كملان ومكناسة وسكان مدينة باغاية وفحصها من قبائل مزانة وضريبة من قلاع جبل اوراس على مذهب الاباضية .

الثقافة والحضارة والعمران

لم تطل اقامة الدولة العبيدية بهذه البلاد حتى تتمكن من بسط حضارتها بهذا الاقطار ، ومع ذلك فقد نهجت في سيرها نهج الدول المثقفة التي تسعى لتوطيد ملكها وتثيب حكمها باساليب الحكمة والعدل وهي في ذلك تنافس دولة العباسيين بالشرق والامويين بالمغرب . ويبدو ان الدولة العبيدية عملت على نشر الثقافة الاسلامية وخدمة العلم بمختلف اللسان

(١) نهاية الارب لتونري ج ٦ ورقة ٢١ مخطوط بدار الكتب المصرية وتاريخ الولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم ص ٤٩ - ٥١ - ٥٢ ط القاهرة ١٩٥٨ م وتاريخ التشريع الاسلامي للحفري ص ٣٤٠ ط القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م وتاريخ التربية الاسلامية للدكتور احمد شلي ط بيروت ١٩٥٤ م .

واللغات ، فقد احتفظ لنا التاريخ بوثيقة ملكية يصرح فيها الخليفة المعز بأن دعااته منتشرون في الاقاليم يدعون الى الدولة ويبدشرون بأبامها وينشرون علمها وينذرون بأسها بتصاريف اللغات واختلاف اللسن ^(١) وهو نفسه كان يحسن لغات جميع الامم التي تتصل بالخلافة العبيدية كالبربرية والرومية والايطالية والنوبية علاوة على توسعه في علوم العربية . وبما بدلنا على انتشار الروح العلمية يومئذ كثرة حلق الجدول والبحث بين علماء الشيعة ومعارضهم من اهل المذاهب الاخرى فكان ذلك اول عهد المغرب بالفلسفة ومباحثها الممتزجة بعقائد الشيعة ، وانشاء المصانع الحربية لصنع السلاح والاساطيل كمنصع بونة والمهدية ، وصناعة تعدين الحديد التي كانت من اشهر خصوصيات افريقية الشمالية ومصنع الزجاج الصافي وتفاصيل الصوف بطرة (اوطرا) من بلاد نغزوة ؛ ويدل على ذلك نسج ذلك البساط العجيب الذي امر بصنعه المعز من حرير ازرق ملون مطعم بالذهب فيه صورة الاقاليم والبحار والانهار والجبال والطرق وفيه صورة الحرمين الشريفين مكتوبة اسمائها عليها وفيه هذه العبارة التالية : « بما امر بعله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ . وكانت النفقة عليه اثنين وعشرين الف ديناراً ، وهذا نهاية التفوق الصناعي في فن الزخرفة ، ويوم ان توجه المعز للرحيل الى الديار المصرية حمل معه من بلاد المغرب والاندلس صناعات التصاوير وكل نوايع الفنون الجميلة وكان فيهم رجال من القبيلة الجزائرية الكبرى (كتامة) يسمون المزوقين كانوا يزوقون الجدران بألوان متعددة من الاصباغ ، اذا نظرت اليها من ناحية كانت صورة تغاير الحقيقة وكذلك اذا نظرت اليها من ناحية اخرى ، وكان اول من افاد بمواهبهم زوجته السيدة « تغريد » فانها شيدت لنفسها مسجداً جميلاً بالقارفة واستأجرتهم للعمل فيه وكان رئيس الجماعة رجلاً يعرف باسم « الكتامي » صنع صورة ليوسف عليه السلام وهو في الجب عريان والجب كله اسود ، فكانت هذه الصورة اول أثر للتصوير الفاطمي في صدر الاسلام قرأنا عنه ولكننا مع كثير من الاسف فقدنا أثره . وبما

(١) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٥٨ .

اثبت التاريخ أيضاً لهذا الخليفة العبيدي من ابتكار واختراع ، انه هو الذي امر بصنع قلم الحبر Stylographe على هذا الشكل ، والوضع المعروف به اليوم : فلقد ورد في كتاب الحصاص والمسامرات قال عند كلامه عن الامام المعز مخترع هذا القلم وقد وصف صناعته قال : ثم مرت بضعة ايام حتى جاء الصانع يحمل قلماً من ذهب فأودعه المداد وكتب به وزاد شيء من المداد عن مقدار الحاجة فأمر باصلاحه فاذا هو بقلب باليد ويميل الى كل ناحية ثم اذا رفعه عن الكتاب امسك المداد فرأيت صنعة عجيبة لم اكن احلم اني أرى مثلها . وتقدمت اقتصاديات البلاد تقدماً باهراً ، فقد بلغ ثمن بيع وقر جبل من التمر بدرهمين ، وكانت القوافل تخرق الصحراء تحمل التمر في الغالب وتعود بسبائك الذهب وسبي العبيد اذ كان شمال افريقية في القرن الرابع مثل مصر وجنوب جزيرة العرب من اكبر اسواق الرقيق الاسود كما ان صناعة تجفيف السك والتجارة فيه كانت رائجة بالمغرب ايضاً ، مثل استخراج المرجان بمرسى الحرز وسبتة ؛ فقد كان يعمل في ذلك ما يزيد على الخمسين قارباً ، وفي كل قارب نحو العشرين عاملاً ، وكان اكثر ما يحمل الى بلاد غانة والسودان ، كما انتشرت خدمة القطن ايضاً فكانت بذلك ثروة البلاد واسعة ، قال ابن حوقل انه دخل القيروان من مال المغرب سنة ٣٦٠هـ - ٩٧٠ م فوق سبع مائة الف دينار وهذا من اعظم ما يسجل في تاريخ دخل الدول في القديم . وكان من آثار الدولة المعمارية بالجزائر مدينة المسيلة واشير وبونة الحديثة (٣٥٠هـ - ٩٦١ م) ودار الهجرة - المدرسة الآن - وهي ذات حضارة ومدنية عجيبة ، بله ما اقامته في الافطار الشقيقة مثل طرابلس وتونس والمغرب الاقصى من المنشآت والمؤسسات المتنوعة الكثيرة .

ومجدتنا اهل الجغرافية ومؤرخو القرن الرابع بانه لم يكن في المغرب من الفواشش وتماطي الامور المنكرة والفسق مثل ما هو موجود اذ ذاك بالشرق^(١) ؛ وكان الزواج بينهم مقصوراً على الواحدة ولم يفسح التعدد

(١) ابن حوقل ج ١ ط ليدن ١٩٣٨ م .

امتثالاً وطاعة للخليفة المعز ، فانه خاطب جماعة من شيوخ كتامة قائلاً لهم يوماً : « واقبلوا بعد الاعمال على نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشربوها الى التكاثر منهن والرغبة فيهن فينقص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا ابدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نخاتركم ، فعسب الرجل الواحد الواحدة ^(١) .

ومن مبررات الفاطميين بالمغرب ما حكاه ابو جعفر الجزار عن احداث سنة ٣٤٠ هـ ٩٥١ م ، قال انه في هذه السنة امر الخليفة المنصور اسماعيل بن القائم بامر الله الفاطمي ان يكتب له اولاد القواد ووجوه رجاله من كتامة والعييد والجند وضعفاء الناس من اهل القيروان وغيرها ، ليختنوا ويحسن اليهم بالكسى والصلات فبلغوا اكثر من عشرة آلاف ، فابتدأ في ختانهم ، وعمل ولائم واطعم خاصة الناس وعامتهم ، واعطى الصبيان على قدر مراتبهم من مائة دينار لكل واحد الى مائة درهم واقل من ذلك ، فكان يختن في كل يوم من خمسمائة الى الف وثلاثمائة ، فاقام على هذا سبعة عشر يوماً ، قال ابو جعفر الجزار : فسمعت من يقول من اهل الخدمة انه احصى ما انفق في هذا الحتان فكان مائتي الف دينار ، وحدث في البلد عند ذلك من الانفاق واللهو ما لم ير مثله ^(٢) .

وفي سنة ٣٥١ هـ - ٩٦٣ م قام حفيده المعز لدين الله بأعظم من ذلك يوم اعدار بنيه الامراء : عبد الله ونزارو عقيل اذ كاتب عماله وولاته من لدى بركة وعاملها الى اقاصي سجلاسة وحدودها وما بين ذلك وما حوته بملكته الى جزيرة صقلية وما ولاها من حضر وبدو وبحر وبر وسهل وجبل بطهور من وجد من اولاد سائر الخلق غير مطهر حرم وعيديم وابيضهم واسودم ودينهم وشرفهم وملتيمهم وذميمهم الذين حوتهم المملكة لمدة شهر واحد ، وتوعد على كراهية ذلك ، وارم بالقيام بجميع نفقاتهم وكسواتهم وما يصلح احوالهم من مطعم ومشرب وملبس وطيب وغير

(١) خطط القرطبي ج ١ ص ٣٥٢

(٢) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥١

ذلك بمقدار رتبهم واحوالهم ، وكان من جملة المنفق في ذلك ما حمل الى جزيرة صقلية وحدها من المال سوى الخلع والثياب خمسون حملا من الدنانير والحمل عشرة الاف دينار - ومثل ذلك الى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه على اهل عمله ، وكان الميز ربما طهر في اليوم الواحد من ايام الشهر بجزيرته اثني عشر الف صبي وفوقها ودونها . كان وزن خرق الاكياس المفرغة فيها انفق في هذا الاعذار مائة وسبعين قنطاراً بالبغدادى (١) .

فتح مصر وانتقال الخلافة الفاطمية اليها

طالما رأينا نشوب الخلاف واحتدام اوار النزاع بين الحكومة العبيدية الشيعية وبين الرعية السنية ، وطالما اختلفت وجهة النظر بين الراعي والرعية وتباينت الافكار بينهما ، وكانت هنالك مواقف حرجية ادت الى المقاطعة والنفور بين الطرفين فكان ولا بد للدولة من التفكير والبحث عن بلاد اخرى تبث فيها دعوتها ؛ فعول الخليفة الفاطمي بومئذ نظره الى غير المغرب وعزم على الانتقال الى المشرق والقضاء على الخلافة العباسية هنالك وقد حاولت الدولة ذلك مرتين من قبل فلم تنجح فكان من المصادفة هذه المرة اضطراب الحال بمصر لوفاة صاحبها كافور الاخشيدي وقد كان الدعاة بها من قبل يعملون على تمهيد الفتح الفاطمي فكانت المراسلة والمكاتبة بينهم وبين المعز دائمة دائبة وكانوا بما يرمزون به في مكاتبتهم للخليفة بالمغرب قولهم ؛ « اذا زال الحجر الاسود ملكت الدنيا » وهم يعنون بذلك كافوراً لسواده ؛ وقد كان من مقاصد الخليفة العبيدي واغراضه السياسية التوصل الى الانتفاع بثراء البلاد المصرية الواسع حيث كانت اسواقها مستودعاً عاماً لتجارة اوروبا مع الهند وبلاد العرب قبل اكتشاف بحر رأس الرجاء الصالح فكانت جميع سلع اسواق المشرق تمر مضطرة من طريق الاسكندرية الى المغرب (٢) . فلما توفي كافور واضطربت المملكة

(١) الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير ص ١٢٤ ط الكويت ١٩٥٩ م .

(٢) تاريخ حضارة العرب ص ٢٧٨ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

المصرية بما وقع فيها من الغلاء والوباء انتهز المعز الفرصة وامر قائده جهر
 بن عبد الله الصقلي بغزو المشرق على ان تكون البداية بمصر ، فخرج القائد
 من رقادة يوم السبت ١٤ ربيع الاول ٣٥٨ هـ - ٧ فيري ٩٦٩ م ومعه
 من الجند اكثر من مائة الف فارس ، ومن الاموال ما يزيد على الف
 ومائتي صندوق يحتوي على نحو ثلاثة وعشرين مليون ديناراً ؛ وهو مبلغ
 عظيم يدلنا على سعة مداخيل ميزانية الدولة وما تجمع لديها من الثروة
 الطائلة باستطاعتها في جمع المال ؛ وكان معه كذلك من السلاح والخيول
 والعدد الجم الكثير ؛ وما كان يبلغ خبر تجهيز جيش الفتح هذا الى مصر
 حتى تفرق عنها اهلها وتركوها نهياً للغالب ، فاحتلها جهر يوم الثلاثاء
 ١٨ شعبان - ٨ جولييط من نفس التاريخ ، وخطب فيها يوم الجمعة
 ٢٠ منه - ١٠ جولييط باسم مولاه وسيد المعز لدين الله ، ثم اختط
 مدينة القاهرة المعزية وبعث ببشارة الفتح الى الخليفة بالمغرب فسر لها
 سروراً بليغاً ، وعزز البعثة يومئذ ببعوث اخرى فتحت الشام واحتلت
 الرملة ودمشق . وبعد رسوخ قدم الخلافة الشيعية بمصر والشام والحجاز
 وانتظام احوال الدولة بها انتقل اليها المعز فخرج من عاصمته المنصورية -
 صبرة - في ابهة الملك وعظمة السلطان يوم الاثنين ٢٢ شوال ٣٦١ هـ -
 اوط ٩٧٢ م فنزل اولاً جزيرة سرديانة ريثما التحقت به الجوع التي صعبت
 الى المشرق ، وبها عقد العهد للكين الصنهاجي على ولاية المغرب العربي ،
 ثم اخذ ينتقل ويطوف بالبلاد فيقيم اياماً في بعضها ثم يجد السير الى ان
 عبر النيل ودخل القاهرة يوم الثلاثاء ٥ رمضان ٣٦٢ هـ ٩ جوان ٩٧٣ م .
 وكان فيما استصحبه معه المعز من الذخائر والاموال الى القاهرة الفا
 جل من ابل زناته جاءه بها بلكين بن زيري عاهل صنهاجة فعمل عليها
 جميع ما كان له بالقصور من الذخائر والاموال وسبك الدنانير على شكل
 الطواحين جعل على كل جل قطعتين في وسط كل قطعة نقباً تجمع به
 القطعة الى الاخرى فاستعظم ذلك الجند والرعية وصاروا يقفون في الطريق
 لرؤية بيت المال المحمول ، وكان فيما نقله الخليفة الفاطمي معه الى القاهرة ،

يومئذ توابت آباؤه واجدادهم فدفنهم في قصره (١) .

شدة شكية كتامة واباؤها للضم

كان لشريف الطبع الذي جبل عليه أهل كتامة كما جبل عليه بقية البربر كافة من إياهم للضم وعلو الهمة وعزة النفس انه لما اخذ المعز الفاطمي في تجهيز جوهر بالعساكر لفتح الديار المصرية ونهياً للمسير اليها بعث صاحب سره «خفيف الصقلي» الى شيوخ كتامة يقول لهم : «يا اخواننا قد رأينا ان ننفذ رجالاً الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها عليهم في بلادهم ، فاذا احتجنا اليهم اتقذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغت ذلك : قل لمولانا والله لا فعلنا هذا ابداً ... كيف تؤدي كتامة الجزية ويصير عليها في الديوان ضريبة وقد أعزها الله قديماً بالاسلام وحديثاً معكم بالايان ، وسيفننا بطاعتكم في المشرق والمغرب ؟ ... فعاد خفيف الى المعز بذلك فأمر باحضار جماعة كتامة فدخلوا عليه وهو راكب فرسه فقال لهم : ما هذا الجواب الذي صدر عنكم ؟ ... فقالوا : هذا جواب جماعتنا ، ما كنا بامولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا . فقام المعز في ركابه وقال : بارك الله فيكم فهكذا اريد ان تكونوا ، وانما اردت ان اختبركم فانظر كيف انتم بعدي اذا سرنا عنكم الى مصر هل تقبلون هذا وتقبلونه وتدخلون تحته بمن يرومه منكم ؟ والاكن سررتوني بارك الله فيكم (٢) .

وقد انقرض اهل هذا القبيل - كتامة - ولم يبق كما قال الادريسي -

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٥ ج ٢ ص ١٣٤ ط بولاق ١٢٩٩ هـ - اتمام الحنفاء للمريزي ص ١٤٤ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م - تاريخ الاسعالي ص ١١١ ط القاهرة ١٣١٠ هـ

(٢) خطط المريزي ج ١ ص ٣٥٢ ط بولاق ١٨٧٠ هـ و اتمام الحنفاء ص ١٤٠ ط مصر ١٩٤٨ م .

أواسط القرن السادس الهجري - الا نحو اربعة آلاف رجل وكانوا من قبل ذلك عدداً كثيراً وقبائل وشعوباً^(١) .

ولاية الجزائر وزعمائها

كان القطر الجزائري يومئذ مجزءاً الى اربع ولايات ؛ ولاية المسيلة ، وباغاية ، وأشير ، وتيهرت ؛ فأما ولاية المسيلة فانها كانت لعلي بن حمدوي المعروف بابن الاندلسية الى ان انتقل ولده جعفر الى الاندلس سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧١ م . فأضافها يومئذ المعز الى بني زيري رؤساء صنهاجة ؛ وأما ولاية باغاية فقد تولوها كنون وعروبة بن يوسف الكتامي المقتول في ثورة ٣٠٢ هـ - ٩١٤ م وأبو معلوم فلحون الكتامي المقتول سنة ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م وقصر الصقلي المقتول أيضاً سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م . وأما ولاية اشير فانها كانت في بني زيري الصنهاجيين الى نهاية ايامهم . أما ولاية تيهرت فقد تولوها على عهد القواطم جماعة ، عرفنا منهم أبا حميد دواس الهيصي ولاء عليها أبو عبدالله الصنعاني حين توجه منها الى سجلماسة سنة ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م ومات أبو حميد قتيلاً مصروعاً عنها ، ثم تولوها مصالة بن حبوس المكنامي سنة ٢٩٩ هـ - ٩١١ م الى ان قتله محمد بن خزر الزناتي في شعبان سنة ٣١٢ هـ - نوفمبر ٩٢٤ م فوليها بعد اخوه يصل بن حبوس الى ان توفي سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م . فوليها يومئذ أبو مالك بن يغمراسن^(٢) بن أبي شحمة - بضم الشين وسكون الحاء وفتحها - الهيصي الى ان ناهضه اهل البلاد فخرج منها مطروداً سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م . وولوا عليهم أبا القاسم الاحدب بن مصالة بن حبوس فجارهم ميسور الحصي عند منصرفه من المغرب سنة ٣٢٤ هـ - ٩٣٦ م فظفر بالبلاد وقتل أبا القاسم وولى عليها داود بن ابراهيم العبيسي فأقام بها داود الى ان اخرجته منها حميد بن يصل في جمادى الثانية سنة ٣٢٣ هـ -

(١) زهرة المشتاق ص ٩٩ ط ليدن ١٨٦٤ م .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الباء والعين وكسرهما ، وفتح السين وكسرهما .

جائفي ٩٤٥ م . وأقام بها الدعوة الاموية الى ان اقتنع عليه المدينة الخليفة اسماعيل المنصور سنة ٣٣٦ هـ - ٩٤٧ م وعقد لميسور عليها ؛ فخرج منها حميد الى الاندلس ، وسار ميسور في الرعية بالظلم والجور فنهضت الرعية في وجهه وأضرمت البلاد عليه ناراً واستدعت محمد بن خزر الزناتي مفوضة اليه أمر المدينة ، فكر محمد بقومه على تبهرت ومعه ولده الخير وأظهر الانتصار لميسور حتى وقع بين يديه فقدر به وأسرره واحتلت زناتة المدينة ؛ ثم اضطرب أمر هذه الولاية فتغلب عليها يعلى بن محمد اليفرني الزناتي ودعا فيها الى الاموية ورفض التشيع ، الى ان كانت حملة جوهر الصقلي الكبرى سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م فزحف على المغرب العربي كله واحتل تبهرت وقتل يعلى وأسندت رئاسة هذه الولاية الى زيري الصنهاجي ؛ ويذكر لنا التاريخ ان رئاسة مدينة الجزائر يومئذ كانت لجزء بن ابراهيم ، وعالة بسكرة لزبدان الحصي ، وقيادة الجيش لموسى بن محمد الكتامي ورئاسة البحر ليعقوب الكتامي ، وكان من ولاية ميلة ماكنون بن ضاربة ولاء عليها أبو عبدالله الصنعاني ، ورئاسة قبيلة يفرن لمحمد بن صالح المقتول على يد عبدالله بن بكار اليفرني ، ولم يكن هذا الرئيس اليفرني خاضعاً لدعوة العيدين .

الخلفاء العبيديون بالمغرب

تاريخ التولية

٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م

عبيد الله المهدي

٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م

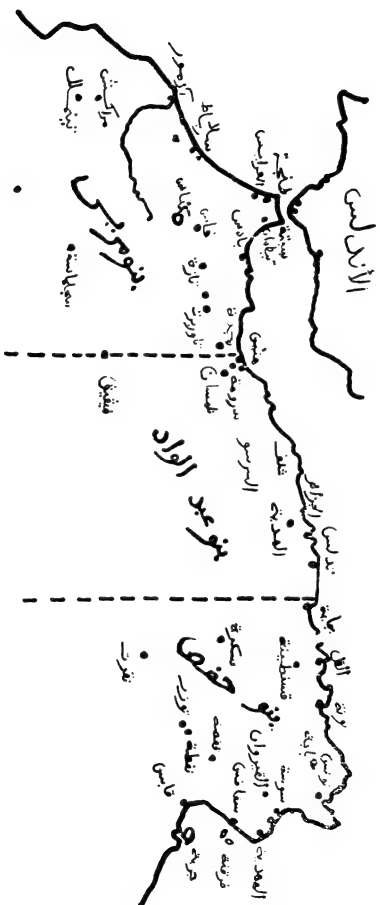
ابو القاسم محمد بن عبيد الله (القائم بأمر الله)

٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م

الطاهر اسماعيل المنصور بن القائم

٣٤١ هـ = ٩٥٢ م

ابو تميم معد المعز لدين الله بن المنصور



خريطة المغرب الاسلامي

من مشاهير الجزائر

جعفر بن علي

٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م

ابو علي جعفر بن علي بن احمد بن حمدون المعروف بابن الاندلسي صاحب المسيلة وامير الزاب ؛ قال ابن خلكان : كان سمحاً كثير العطاء مؤثراً لاهل العلم ؛ تولى امارة المسيلة بعد وفاة والده سنة ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م . في وقعة ايوب بن ابي يزيد الخارجي . قال ابن حماد : ووصلت هذه المدينة - المسيلة - من العمارة والحضارة ، وملك علي بن حمدون وابنيه جعفر ويحيى الى الغاية القصوى والامد الاقصى ؛ وقال البكري في وصف المسيلة : وللمدينة اسواق وحمامات وحولها بساكن كثيرة ويجود عندهم القطن وهي كثيرة اللعم رخيصة السعر .

ولما تمكن زيري بن مناد الصنهاجي من ولاية اشير وامارة صنهاجة زاحم جعفرأ في خدمة الدولة ونافسه في التقرب من الخليفة العبيدي وسما به في الرتب وتاخذه في العالة ، وكان للدولة صاغية اليه والى ابنه بلكين فاخذوا يريان جعفرأ بالميل الى زفاعة حتى اوغرا عليه صدر المعز بن المنصور ، فلما اعتزم الخليفة على الرحيل الى مصر اشيع عنه انه مستخلف بلكين ، فعظم على جعفر ان يبقى تحت ولاية منافسه ، ثم ان المعز ارسل اليه احد مواليه يستقدمه ويطعمه في خلافته ، فقويت

استرايته وغادر المسيلة في اولياته بني برزال ، ولحق بزناة سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م فجهز العز زيري صاحب صنهاجة اثره فكانت حرب صرع فيها زيري واحتز رأسه فذهب به وفد من وجوه زناته يرأسهم يحيى بن علي اخر جعفر ؛ الى المستنصر الاموي بالاندلس فقام يومئذ بلكين مقام والده فقاتل زناته وثار لايه منها واستظهر على جعفر ، فلحق جعفر بأخيه يحيى وبقي هنالك مرموقين بعين التجلة والاحترام الى ان حدث في السياسة الاندلسية ما دعا المنصور بن ابي عامر الى الاستعانة بجعفر وشيعته بني برزال من زناته على مزاحمه من رجال الدولة ، فلما قضى عليهم خشي جعفر أيضاً فقته سنة ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م وفر يحيى الى مصر فنزل علي العزيز بن العز الى ان مات ^(١) ولقد ام جعفر بالمسيلة الشاعر العظيم ابو القاسم محمد بن هانيء فمدحه بقصائد بليغة منها قوله :

المدتقان من البرية كلها جسمي بابلي وطرف احور
والمشرقات النورات ثلاثة الشمس والقمر المنير وجعفر

وقوله من اخرى :

ابني العوالي السهرية والمواضي المشرفية والعديد الاكثر
من منكم الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تبع في حمير

قال ابن معصوم : يحكى انه انشد هذه القصيدة ومدوحه راكب في جيشه ، فلما بلغ ذينك اليتيم ترجل العسكر كله ، ولم يبق احد راكباً سوى المدوح . فلم يعلم سؤال كان جوابه نزول عسكر جرار غيره .

ويقول في مقطوعة له اخرى في مدح جعفر أيضاً :

ألا ابا الوادي المقدس بالندى واهل الندى قلبي اليك مشوق

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٤ وابن خلكان ج ١ ص ١٤٠ وتاريخ الجلي ج ٢ ص ٩٦ واخبار ملوك بني عبيد ص ١٣ .

ويا ايها القصر المنيف قبابه على الزاب^(١) لا يسدد اليك طريق
ويا ملك الزاب الرفيع عماده بقيت لجمع المجد وهو نزيق
على ملك الزاب السلام مردداً وريحان ملك بالسلام فتيق

جعفر بن فلاح الكتامي

٨٣٦٠ - ٩٧١ م

القائد الجزائري العظيم رئيس اركان حروب المبيدين وفتوحاتهم
بالمشرق ابو علي جعفر بن فلاح الكتامي نسبة الى كتامة تلك القبيلة
العتيقة الكبرى بالجزائر التي قامت على سواعدها الدعوة الشيعية بالمغرب ؛
اشتهر جعفر بقوة البأس وشدة الشكينة والبطولة في الحرب ، ولما اجمع
الخليفة المعز على فتح المشرق بعث به مع القائد جوهر على رأس
الجيش الفاتح ، فذهباً معاً الى مصر وفتحها وتولى جعفر وحده فتح
بلاد الشام فدخل الرملة عنوة في ذي الحجة سنة ٨٣٥٨ - اكتوبر
٩٦٩ م . وقضى على حكومة ابن طغج ، واحتل ايضاً طبرية ثم قصد
عاصمة الامويين - دمشق - فاحتلها في شهر المحرم سنة ٨٣٥٩ - نوفمبر
٩٦٩ م وحدث بها يومئذ اضطراب وفتن من اهلها فأقمهم صاحب الشرطة
ثم سعى اهلها في الصلح فصالحهم جعفر واستقام له الملك بها ، وبعدها
نزل الى الدكة فوق نهر يزيد بظاهر دمشق فابتنى بها قصره العجيب

(١) قال السلفي سمى الأم المنورقي يقول : الزاب الكبير منه بسكرة وتوزر وقسنطينة وطولة
ونفصة ولفزاوة ونفطة وبادس ، قال والزاب ايضاً كورة صغيرة يقال لها ريخ ، وهي كلة برية
مناها السبخة واللينة اليها ريخ ، والزاب ايضاً كورة عظيمة ونهر جراد بارض المغرب على البر
الاعظم عليه بلاد واسمة وقرى متواسطة بين تلسان وسجاسة والنهر متسلط عليها (انظر معجم البلدان
ج ٤ ص ٩٠٣ ط لبيزج ١٨٦٧ م) : وازى ان تسمية هذا الموطن بالزاب يعود الى اسم نصبتة او
قد عاصمته في القديم « زان » وهي مدينة المسلة - المحمدية - .

ومكث هنالك الى ان زحف القرامطة على الشام تحت راية رئيسهم الحسن بن احمد القرمطي المعروف بالاعصم ، فخرج اليهم جعفر وهو يومئذ عليل فانصر عليهم ، ثم وقع تحاذل في جيس جعفر فظفر بهم القرمطي وقتل جعفر في جماعة من اصحابه يوم الخميس ٦ ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ - ٣١ اوط ٩٧١ م . قال ابن خلكان : وكان جعفر رئيساً جليل القدر مدوحاً وفيه يقول ابو القاسم محمد بن هانيء الاندلسي الشاعر المشهور .

كانت مساهمة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح اطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني بأحسن مما قد رأى بصري

وكان فيما تولى اماره دمشق بعده من الجزائريين : ابناءه الثلاثة سلمان وعلي وابراهيم ، وكذلك القائد تموصت المعروف بطزملت او طيزان البربري الاسود .

كما اشتهر من اهل مدينة الجزائر في هذا العصر ابو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الفرج الجزائري المصري ، يروى عن ابن قديد ، توفي في ذي القعدة سنة ٣٦٨ هـ - جوان ٩٧٩ م .

جندول تاريخي

٢٩٦ - ٣٦١ هـ

٩٠٩ - ٩٧٢ م

أهم الحوادث وبرز الاحداث	تاريخ الحوادث
تأسيس الدولة العبيدية .	٨٢٩٦ = ٩٠٩ م
مبايعة عبيد الله المهدي بالخلافة .	٨٢٩٧ = ٩١٠ م
هيجان الشعب الجزائري ضد الشيعة وقتل الداعية الصنعاني .	٨٢٩٨ = ٩١٠ م
الحملة الشيعية الكبرى على المغرب الاوسط .	٨٢٩٩ = ٩١١ م
مقتل ابي معلوم فلحون عامل اوراس .	٨٣١٠ = ٩٢٢ م
مقتل مصالة بن حبوس عامل تيهرت .	٨٣١٢ = ٩٢٤ م
ابتداء ظهور الدعوة الاموية بالمغرب العربي .	٨٣١٤ = ٩٢٦ م
انشاء مدينة المسيلة .	٨٣١٥ = ٩٢٧ م
انشاء مدينة آشير .	٨٣٢٤ = ٩٣٦ م
القضاء على ثورة ابي يزيد الخارجي صاحب الحمار .	٨٣٣٦ = ٩٤٧ م
انشاء مدينة افكان .	٨٣٣٨ = ٩٤٩ م
هجوم اسطول الامويين بالاندلس على مرمي الحرز - القالة - وطبوقة .	٨٣٤٥ = ٩٥٦ م
اعادة ظهور الدعوة الاموية بالجزائر وفتح البلاد المصرية .	٨٣٥٨ = ٩٦٩ م
انتقال الخلافة الشيعية الى مصر .	٨٣٦١ = ٩٧٢ م

الدولة الزيرية «الصنهاجية»

٣٦١ - ٤٠٥ هـ

٩٧٢ - ١٠١٤ م

نشأتها

تتنسب هذه الدولة الجزائرية لحماً ودماً الى عاهل صنهاجة وزعيمها الاكبر زيري بن مناد الصنهاجي منشاء مدينة اشير بجبل تبطري - شرقي قصر البخاري - او البوغاري نسبة الى بوغار اسم لذلك المكان .

وصنهاجة - بضم الصاد وكسرهما - علم يطلق على وطن وقبيلة ، اما الوطن فهو قطعة من ارض الجزائر ما بين زاوية شرقاً وزفانة غرباً ، ويمتد على الساحل البحري من مدينة الجزائر الى تنس ، يحده وطن الحضنة والمسيلة والمدينة ومليانة . واما القبيلة فانها راجعة بنسبها الى جذمين : قار وحزمار ابني صنهاج . من قبائل البرانس ، وهي ذات بطون وافخاذ منتشرة بكامل هذا الشمال الافريقي فلا يكاد يخلو منها مكان . وعدها الممداني صاحب الاكلیل وغيره من المحققين فخذاً من قبائل حمير العربية ، وليس لها في البربرية سوى النسبة العرفية .

كانت هذه القبيلة مرغمة على الخضوع للخلافة العباسية والاذعان للامارة الاغلبية ، وذلك لكونها علوية بالولاء . فلما استتب الامر لدولة بني عبيد العلوية بهذه البلاد انقلبت على العباسيين فكانت بجانب الفاطميين ، فاستعان

بها هؤلاء على محاربة اعدائهم زناتة احلاف الامويين ومواليهم ، فكانت هنالك حروب واهوال عظيمة بين هذين القبيلتين وكلها ترجع الى هذا الاختلاف السياسي في المبدأ والتزام على الرئاسة ايضاً ، وقد ألمعنا فيما تقدم الى ما كان من حوادث الشيعة والامويين بالمغرب ، وما كان لزيري الصنهاجي من اليد البيضاء في القضاء على ثورة ابي يزيد الخارجي سنة ٨٣٥ - ٩٤٦ م وموقفه في فتح المغرب الاقصى سنة ٨٣٤٧ - ٩٥٨ م ومقاومة كل ناهض ضد بني عبيد الخ ... فأحرزت صنهاجة بذلك مقاماً رفيعاً ومكاناً سامياً لدى الدولة الفاطمية وعلا شأن رؤسائها عند الخلفاء فبالغ هؤلاء الملوك والخلفاء في اكرام رؤساء صنهاجة وتقديرهم ؛ واطلق الخليفة يد زيري في قومه وعلى كل مكان تغلب عليه او احتله بأي صفة كانت ، وولاه امر تاهرت وباغاية فأمنت دولة العبيديين يومئذ من اخطار سكان هذه النواحي من بني يفرن الزناتيين ؛ فللك زيري يومئذ البلاد وضرب العملة باسمه .

ولما عزم المعز بن المنصور العبيدي على الانتقال الى مصر دعا جمفر بن علي بن حمدون امير ولاية المسيلة والزاب ليعهد اليه بأمر افريقية ، فاستجاب جمفر من ذلك لما علمه من سعاية منافسة زيري الصنهاجي لدى البلاط الفاطمي وامتنع ، فأكد المعز دعوته هذه بارسال بعض مواليه الى جمفر ، فخشي جمفر مغبتها وخرج عن ولايته معتصماً بمفراوة وقام هنالك مع الحير بن محمد الزناتي بالدعوة الاموية ؛ فنشبت الحرب حينئذ بين زناتة وصنهاجة ، وفيها كان مقتل زيري الصنهاجي عرضاً ^(١) في رمضان ٣٦٠ هـ - جوان ٩٧٠ م وذلك بعد ما غلغله بهذه الديار ستاً وعشرين سنة ويومئذ علم الخليفة الفاطمي انه لا احق ولا اجدد بالولاية من هذه القبيلة الصنهاجية المتفانية في نصره الدولة الشيعية وتوطيد اركان ملكها بالمغرب ؛ فكان لها من الجزاء مثل ما كان لانصار الخلافة العباسية من الفرس حينما ظاهروهم على قهر اعدائهم الامويين .

(١) احتزمت مفراوة رأسه وبميت به الى الحاكم المستنصر الاموي بالاندلس ؛ ولما تغلب زلوي ابن زيري الصنهاجي على قرطبة سنة ٤١٠ هـ - ١٠١٩ م نقل رأس والده من هنالك الى الجزائر فوضه الى الجند فدفن معه .

كيف استخلف بلكين على المغرب

قال المقرئزي : ولما عزم المعز على السير الى مصر أجال فكره فبين يخلقه بالمغرب فوقع اختياره على ابي محمد جعفر ابن علي امير المسيلة فاستدعاه وامر به اليه انه يريد استخلافه بالمغرب ، فقال جعفر : « تترك معي أحد اولادك واخوتك جالساً في القصر وانا ادبر ولا تسألني عن شيء من الاموال لأن ما احييه يكون بازاء ما انفقته ، واذا اردت امرأ فعلته ولم انتظر ورود امرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والحراج وغيره من قبل نفسي » .

فغضب المعز وقال : « يا جعفر عزلتني عن ملكي ، وأردت ان تجعل لي فيه شريكاً في امري ، واستبددت بالاعمال والاموال دوني ، قم فقد اخطأت حظك وما اصب رسدك ، فخرج جعفر .

ثم استدعى بعده بلكين بن زيري الصنهاجي وقال له : « تأهب لخلافة المغرب ، فاكبر ذلك بلكين وقال له : « يا مولانا انت وآباؤك الائمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصقولي وانا صنهاجي بريري ؟ » قتلني يا مولانا بلا سيف ولا رمح ، فلم يزل به حتى اجاب وقال : « يا مولانا بشرطة ان تولي القضاء والحراج لمن تراه وتختاره والخبر لمن تتق به ، وتجعلني انا قائماً بين ايديهم فمن استعصى عليهم أسروني به حتى اعمل فيه ما يجب ، ويكون الأمر لهم وانا خادم بين يديك ، فعسن هذا عند المعز وشكره ، فلما انصرف قال له عم ابيه ابو طالب احمد ابن عبيد الله المهدي : « يا مولانا اوتتق بهذا القول من يوسف وانه يفي بما ذكره ؟ ... » فقال المعز : « يا معناكم بين قول يوسف وقول جعفر ؟ واعلم يا عم ان الامر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه أمر يوسف ، فاذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا اولاً احسن واجود عند ذوي العقول وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره ^(١) .

(١) خطط المقرئزي ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ ط بولاق ١٢٧٠ هـ والماط الخفاء ص ١٤٨ — ١٣٣ ط القاهرة ١٣٦٧ — ١٩٤٨ م .

ويومئذ اصطلت الدولة العبيدية آل زيري وعهدت بالامارة والوصاية على المغرب العربي بلكين بن زيري مستتنية طرابلس وقبيلة كتامة الموالية .

وفي ذلك يقول ابن خلكان والمقرئزي معه ايضاً : « وخرج المعز من المغرب - يوم الاثنين لثانِ بقين من شوال سنة احدى وستين وثلاثمائة وخرج من المنصورية ومعن بلكين - واسمه يوسف - الى سردانية من بلاد افريقية فلم اليه افريقية والمغرب يوم الاربعاء لتسعِ بقين من ذي الحجة وار سائر الناس له بالسمع والطاعة وفوض اليه امور البلاد ما خلا جزيرة صقلية فانه ترك امرها للحسن بن علي بن ابي الحسين ، وطرابلس واعمالها ، وقال له : ان نسبت ما اوصيناك به فلا تقسئ ثلثه اشياء ، اباك ان ترفع الجباية عن اهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر ولا تول احداً من اخوتك وبني همك فانهم يرون انهم احق بهذا الأمر منك ، وافعل مع اهل الحضرة خيراً ، وفارقه ^(١) .

قال ابن ابي الضياف : وهذه الرصية منه معقولة المعنى لان اهل البوادي لولا الجباية ما عمروا ارضاً ولا سعوا في تكسب لما في طباعهم من الدعة ، وارزاقهم في ظل رماحهم وليلجئهم بذلك الى الابنية من القرى والمدن ، وهو انما اوصاه بعدم المساحة في الجباية التي هي من الاموال لا بالظلم والاخذ الربيل ، واما البربر فان سيوفهم لم تزل بادية البغي والقتل لكثرة قبائلهم وعصائبهم والشر يدفع بمنله اذا اعياك غيره فالقتل انقي للقتل ، واما تقديم اخوته وبنيه فقد ذكر سببه . واما وصايته بالمدن فلتكثر في الوجود ^(٢) .

حدود الجزائر الزيرية

كان بالجزائر على عهد الفاطميين اربع ولايات : اشير ، وناهرت ، والمسيلة ،

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٥ - ج ٢ ص ١٣٤ ط بولاق ١٢٩٩ هـ واتساظ الحنفاء ص

١٤٤ ط القاهرة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ م .

(٢) انخاف اهل الزمان ١ ص ١٣٦ ط تونس ١٩٦٣ م

وباغاية ؛ وفي أيام الدولة الزيوية هذه ضمت الولايات الأربع الى بعضها فأضيفت احوال باغاية والقسم الشمالي من ولاية المسيلة الى اشير ، وجعل القسم الجنوبي من ولاية المسيلة الى تاهرت ، فأصبحت الجزائر ذات ولايتين عظيمتين ، هما ولاية تاهرت واشير .

الامير بلكين بن زيري

تولى الامارة على افريقية الشمالية بعهد من الخليفة المعز الفاطمي يوم الاربعاء ٢٢ ذي الحجة ٣٦١ هـ - ٤ اكتوبر ٩٧٢ م ولقبه بسيف الدولة وكناه بأبي الفتوح وسماه بيوسف وأنقذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الاعمال وأمر الناس بالسمع والطاعة له وأوصاه بأموار كثيرة مؤكداً عليه في المحافظة عليها وخاصة منها أمور أربعة قائلاً له : ان نسيت ما أوصيتك به فلا تنسَ أربعة أشياء : اباك ان ترفع الجباية عن أهل البادية ، والسيف عن البربر ، ولا تولِّ أحدًا من اخوتك وبني عمك ، فانهم يرون انهم أحق بهذا الامر منك ، وافعل مع أهل الحاضرة خيراً . ولعل الشيعة كانت شائعة بين أهل الحضر خلافاً لأهل البادية ؟

كان بلكين في أول أمره والياً على مدينة الجزائر أيام امارة والده زيري على صنهاجة ؛ ثم خلفه في امارته هذه قبل ان يتولى ولاية افريقية ، واشتهر يومئذ فيها بالثبات ومضاء العزم والشجاعة النادرة مع حدة الذهن وتوقد القرينة ؛ ولقد استطاع هو وحده ان يحقق تدريجياً وحدة الشمال الافريقي على نحو لم يوفق اليه حكام المغرب العربي قبله ؛ ف ضرب العملة باسمه وبعث بالعمال والجباة الى الآفاق واستعد للطوارئ ؛ ويجلس بلكين على عرش افريقية انتهى عهد العرب بالملك والدولة بهذا المغرب الاسلامي واستقل البربر بأمر وطنهم تحت لواء الاسلام تتداوله قبائلهم طائفة بعد اخرى وجيلاً بعد جيل تارة يدعون الى الامويين خلفاء الاندلس وتارة الى بنى هاشم العباسيين الى ان استقلوا بالدعوة لانفسهم الى زمن الاتراك بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب .

مناجزة صاحب المسيلة

كان من الطبيعي ان يستمر جعفر بن علي صاحب ولاية المسيلة والزاب على عصيانه للشيعه وعلى مقاومة مزاحيه الصنهاجيين ، فكانت يومئذ حركة بلكين الى المغرب الاوسط وهي اول حركاته الى الجزائر بعد الامارة فقضى على قبيلة مغراوة الزناتية التي كانت ملجأ لحصنه جعفر صاحب المسيلة وشتت شمل المحاربين فاستأصل شافتهم وفتح معاقل بلاد زناتة وسبي الذراري والاموال ؛ فانزمت جعفر وكسرت شوكته ففر الى الاندلس يوم ١٨ رمضان ٣٦٠ هـ - ١٥ جولييت ٩٧١ م والمغر الفاطمي لا زال يومئذ بالمغرب ، وتقدم بلكين بمخوض غمار البلاد الجزائرية شرقاً وغرباً الى ان بلغ سجلماسة - تافيلالت - فأخضعها واوغل في بلاد المغرب الاقصى الى ان بلغ حصن تيطوان وهو في ذلك لا يعترضه حصن او اي معترض كان الا وحطبه ؛ وهو الذي قضى من قبل على حركة محمد بن الحسن بن خزر المغراوي في قيامه ضد الشيعه وافضى به الى الانتحار .

زحف بلكين الى المغرب الاوسط

كان الداعي الاول الى خروج بلكين وزحفه على الجزائر هذه المرة ٣٦٣ هـ - ٩٧٤ م هو عصيان اهل باغاية وتمردهم على عاملهم وانتصارهم عليه وشاركهم في ذلك ايضاً اهل شرقي جبل اوراس تمرداً على السلطة القائمة مع الشيعه ، ثم انتشرت الفوضى والاضطرابات فعمت القطر الجزائري فكانت هنالك ثورة بتاهرت خرج منها العامل مطروداً ، واخرى بأعمال تلمسان حيث نزلت عليها زناتة الاموية مناهضة للشيعه ، فغضب يومئذ بلكين الى منازلة هؤلاء الثوار وحاصر تلمسان وقضى على حركة زناتة بها ونقل اهلها الى اشير ، وانتصر على تيهرت ايضاً فبطش بأهلها وخرب المدينة ، ويومئذ اسرع اليه بالطاعة الثائرون من اهل شرقي جبل اوراس وباغاية وجاؤوه مستأمنين خاضعين فأمنهم وعفا عنهم

واجلام عن بلام بعد ما خربها وهدم سورها ، فذهب الكثير منهم ملتجئاً الى المغرب الاقصى معتصماً بجباله وصحاربه ، ويومئذ حمل بلكين على تغيير حدود المناطق والولايات الجزائرية فحذف ولاية المسيلة بالكلية وازاد ناحيتها الجنوبية الى تيمرت وضم ناحيتها الشمالية الى اشير : وجعلها ولايتين اثنتين : ولاية بأشير واخرى بتاهرت .

اجلاء زناتة ووفاة بلكين

اعاد بلكين زحفه على زناتة سنة ٣٦٩ هـ - ٩٨٠ م ففرض عليها وابعدھا عن المغرب الاوسط فأفقرو منها واحلھا ما بين ملوية وطنجة وتقدم بزحفه الى سجلماسة فاحتلھا واستولى على مدينة فاس ، وبينما هو سائر في فتوحاته بالمغرب الاقصى اذ جاءه كتاب من الخليفة الفاطمي ينھاه عن التقدم والسير في طريق الفتح بأقصى المغرب فرجع ، وفي اثناء ذلك تغلب خزرون بن فلفول المغراوي الزناتي على سجلماسة فعاد اليھا بلكين سنة ٣٧٣ هـ - ٩٨٤ م فهزمه واسره واستعاد سجلماسة الى طاعته ، وفي طريقه الى اشير ادركه حمامه فمات بمكان يقال له واركلان او - وارکش ؟ - بين تلسان وسجلماسة ، وذلك يوم الاحد ٢٢ ذي الحجة ٢٧ ماي من هذه السنة .

الامير المنصور بن بلكين

كان المنصور يوم وفاة والده مقيماً بدار ولايته : اشير وقد عهد اليه والده بالامارة بعده فبيع بها يوم وفاة والده سنة ، ٣٧٣ هـ - ٩٨٤ م فوفدت اليه العمال جهادياهم ، فأجزل اكرامهم ، وخرج لبيته العلماء والقضاة والاعيان من القيروان فوصلوا اليه بأشير وهو خارج البلد ، فبايعوه واكرمواهم ، وفي اليوم الثاني احتفل للملاقاتهم في ديوانه ، وظهر من شارات الملك وفخامته ما اعجبوا به وقال لهم : يعز عليّ تعبكُم في هذا الزمان مع ان سروري باجتماعكم عندي ، فاجتماعي بكم احب اليّ من الدنيا ، .

وامر لهم بمشرة آلاف دينار وزعت عليهم^(١) . وكان المنصور رجلاً شجاعاً عادلاً ذكياً جواداً حازماً صارماً في الحق عطوفاً شفوفاً بالريّة عفيفاً عن الدماء سائراً سنن ابيه ، واليك نتقاً من خطاب العرش يوم تولى الامارة على المغرب فيها اجمال لحظته السياسية وبرنامجه الحكومي فقال : ان ابي وجدي كانا يأخذان الناس بالسيف قهراً ، وانا لا آخذ احداً الا بالاحسان ، ولا اشكر على هذا الملك الا الله تعالى ، ولست بمن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لاني ورثته عن آبائي واجدادي وورثوه عن آباؤهم واجدادهم حمير^(٢) . وقال يوم ان انكر عليه اعيان دولته مصاهرته وعقده لاحد ابنائه على بنت سعيد بن خزون سيد زناتة - المعادية - : كان ابي وجدي يستبعان زناتة بالسيف ، اما انا فمن رماني برمح رميت بكيس حتى تكون مودته طبعاً واختياراً ! ... على هذه الاسس السياسية الرشيدة بنى المنصور قواعد ملكه وقاد امته الى المجد ، فكان يعامل جميع رؤساء القبائل والعشائر بكل مكرمة واحسان ، ويجاذبهم بمحدث كله لطف وود واخاء متناسياً كل سخية وحقد . وكانت اقامة المنصور تارة بالمنصورة - هي مدينة صبرة القرية من القيروان - وتارة بأشير ، فتراه متنقلاً بينها متصلاً بجميع المملكة ، وله سكة باسمه تضرب بها العملة مثل ابيه من قبل .

ثورة ابي الفهم الكتامي

لقد كان لقبيلة كتامة كما علمت يد في اشادة ملك الفاطميين بالمغرب وكان بما اجازهم به العبيديون على ذلك ان رفعوا عنهم يد الامارة الصنهاجية واوصوها بهم خيراً ؛ فكانت كتامة مستقلة عن دولة صنهاجة لا طاعة لهذه عليها : غير ان ذلك لم يكن في نظر كتامة كافياً في مكافأتها عما قامت به تجاه العبيديين في دور التكوين ؛ بل كانت ترجو ان تكون

(١) ابن ابي الضياف ج ١ ص ١٣٢ ط تونس ١٩٦٣ م .

(٢) راجع نسب الامرة الزيرية في وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢١ .

خليفتهما على المغرب لما تراه هي في نفسها من الجدارة والاستحقاق والتقدم على غيرها في هذا الامر ؛ فلما رأت ذلك كله بيد صنهاجة نهضت بقيادة ابي الفهم حسن بن نصر الكتامي الحراساني وظهرت العداوة والبغضاء لصنهاجة ؛ وخرج ابو الفهم للقتال فضرب سكتته ونشر بنوده وجمع حوله من الجند والعسكر ما كثر به جمعه ، فاستأذن الامير المنصور في قتال كتامة بكتاب وجهه الى الخليفة الفاطمي بمصر ، فبعاه الجواب بواسطة رجلين بعث بها الخليفة الى المنصور ؛ يأمره بعدم التعرض لكتامة حيث لا سلطان له عليها ثم اراد الرجلان الالتحاق بكتامة حسب مأموريتهما فسجنهما المنصور وحال بينهما وبين كتامة .

القضاء على شوكة كتامة

يبدو من جواب الخليفة للمنصور حول قبيل كتامة ان الدولة الفاطمية كانت مستعمرة عظيمة صنهاجة وانها كانت تخشى استتعال امرها وتضخم سلطانها فتركت بجانبها قبيلة كتامة مستقلة عنها استعداداً للطوارئ فعمي من نوع سياسة التفرقة التي ساد بها اليوم الغرب على الشرق ، وما يدرينا ان ثورة كتامة كانت بتألؤ وإيعاز من الشرق ؟ ... والا فما معنى اعتراض الخلافة الفاطمية على المنصور في محاربة هؤلاء ؟ ... وما معنى محاولة الرجلين المبعوثين من الشرق الى المنصور الاتصال بكتامة ؟ ... ولكن ذلك كله لم يحل بين المنصور وبين ما بينه من عزيمة في مقابلة هذه القبيلة المحاربة ، فنزل بالشمال الغربي من قسنطينة محاصراً مدينة ميلة في شوال سنة ٣٧٨ هـ - جانفي ٩٨٩ م ونشر هنالك أعلامه الكبيرة الموشاة وقرع بها الطبول إيداناً بمحاربة كتامة ، فخرج اليه المعجائز والصبيان متضرعين باكين متوسلين اليه في ترك الحرب والبقاء عليهم فرقى لحالهم وبكى لذلك المنظر الحزين ورجع عن ميلة بعد تخريب أسوارها ونقل أهلها الى باغاية شرقي اوراس ، وفي طريق هؤلاء الى باغاية لقيهم ماكسن بن زيري الصنهاجي - عم المنصور - فجردهم بما كان معهم من المال والنشب .

ثم جعل المنصور لا يمر في طريقه على مدينة او قرية من بلاد كتامة الا ويأمر بتحطيسها ، حتى بلغ الى مدينة سطيف وهي يومئذ مركز عز كتامة فعصل بينه وبين ابي الفهم قتال عنيف انهزم فيه ابو الفهم وفر الى جبل هنالك بعصه من الموت او القتل ، فكان مثل ولد نوح في ذلك ! ... فأدركه المنصور فقتله فاستكانت يومئذ كتامة لصهاجة واذعن لطاعتها وحدث المنصور اذ ذاك منصب خليفة عنه بملة وآخر بسطيف واذن بالافراج عن مبعوثي الخليفة فلحقا بالبلاط الفاطمي وحدثا هنالك بما رأيا من جرأة المنصور وانتصاراته فجاءت الهدايا من القصر الى المنصور توددا وتقديرا لمركزه السياسي الذي احرزه بشجاعته واقدامه .

ثورة ابي البهار بتاهرت

ما كادت تنتهي حوادث كتامة حتى ظهرت علام الخلف والشقاق من والى تيهرت ابي البهار بن زيري الصنهاجي عم المنصور ؛ فقلب على وهران وشلف وكثير من بلاد الزاب فبرز اليه المنصور سنة ٣٧٩هـ - ٩٨٩م ففر ابو البهار من تيهرت واخفى بالمغرب الاقصى ، ودخل عسكر المنصور المدينة فأكثر بها النهب والقتل يومئذ ثم خرج منها بأمر من الامير وامن المنصور اهل تيهرت على انفسهم ونصب عليها اخاه يطوفت وانتقل منها الى قاعدته الجزائرية « اشير » فعقد لآخيه حماد عليها ثم عاد الى المنصورية . وفي سنة ٣٨٣هـ - ٩٩٢م ظهر ابو البهار بالقيروان بعد اختفائه بالمغرب فوفد على المنصور معاتباً فعفا عنه واكرمه واتزله احسن منزل ثم اعاده الى ولايته على تيهرت .

اقامة الدعوة الاموية بالجزائر

كان لسقوط مدينة فاس بيد زيري بن عطية من بني خزر المغراويين سنة ٣٧٧هـ - ٩٨٧م اثر ظاهر في انتشار الدعوة الاموية بالمغرب من جديد وتسربها الى الجزائر وكان يومئذ على ولاية تاهرت ابو البهار عم المنصور

فرفض دعوة العبيدين ودعا الى الخلافة الاموية القائمة يومئذ بالاندلس وخالف على ابن اخيه للمرة الثانية وتغلب على مدينة تلمسان ووهران وشلف وجبال وانشريس وشرشال وكثير من بلاد الزاب وغيرها من النواحي الشرقية بالجزائر ايضاً وبعث ببيعته الى المؤيد الاموي وحاجبه المنصور بن ابي عامر بالاندلس ، فكتب اليه هذا بالعهد على ما بيده من البلاد مع هدايا وخلع واربعين الف دينار ، فقبض ابو البهار ذلك ومكث يدعو الى الاموية مدة شهرين ثم خلعهم وعاد الى العبيدين ، فغضب لذلك المنصور بن ابي عامر فكتب بعده على بلاد المغرب الى زيري بن عطية وامره بمقاتلة التحالفين ؛ فبرز ابن عطية في عدد لا يحصى من قبائل زناتة وغيرها متوجهاً من فاس الى قتال والى تاهرت ، فخرج يومئذ ابو البهار من ولايته ملتحقاً بابن اخيه الامير المنصور الصنهاجي ، فاحتل زيري المغراوي مدينة تلمسان واستولى على جميع اعمال ابي البهار بالجزائر ؛ ثم كانت هنالك مقاومة لدعوة زيري الاموية من قبل بعض الولاة الصنهاجين فسكنت رجة هنية ، وأخيراً تحرك زيري للقضاء على هؤلاء التحالفين فتم له النصر على القطر الجزائري سنة ٨٣٨١ - ٩٩١ م وأقام به دعوة الامويين الى وفاته سنة ٨٣٩١ - ١٠٠٠ م فانحاشت الدعوة اذ ذاك الى المغرب الاقصى .

انشاء مدينة وجدة

ولما تمكن زيري بن عطية المغراوي الزناتي من ملك المغربين الاوسط والاقصى وصفا له الجر وخلا عن المنازع والمزاحم رغب في تأسيس عاصمة له تكون واسطة عقد مملكته ، فاختر موقع مدينة وجدة ، واخذ في تأسيس المدينة وشرع في بنائها في شهر رجب سنة ٣٨٤ - اوط ٩٩٤ م فشيّد سورها وقصبتها وركب أبوابها وانتقل اليها بأهله وحشبه وحمل اليها جميع امواله وذخائره وجعلها عاصمة الامارة الزناتية التابعة للخلافة الاموية بقرطبة ، ثم آلت هذه الامارة بعده الى ابنائه عمومته ، وكان آخر الامراء فيهم معنصر بن المعز المغراوي الذي قتله المرابطون

وقضوا على امارته سنة ٤٦٢هـ - ١٠٦٩ م ثم وقع تجديد هذه المدينة
بامر السلطان ابن يعقوب يوسف المرين سنة ٦٩٧هـ - ١٢٩٨ م .

استئصال كتامة

كان كتامة لم تكتف بما تلقت من النكبات في حوادث ابي الفهم
الماضية ، فتمردت هذه المرة عن دفع الجباية وامتنعت من الرضوخ
للدولة ، فقامت خلف رجل ينتسب للقائم العبيدي اسمه ابو الفرج فضرب
السكة باسمه واتخذ البنود والطبول وجرت بينه وبين عاملي المنصور
الصنهاجي على ميعة وسطيف حوادث كبرى وحروب عظيمة هي اشد
واعظم من وقائع ابي الفهم السالفة ، فبرز لها يومئذ المنصور سنة
٣٨٠هـ - ٩٩٠ م فظفر بابي الفرج فقتله وشحن جميع ارض كتامة
وبلادها بالجند والحامية وبث العساكر في الشكنات بجميع النواحي
والجبهات حتى لا يستطيع احد منهم ان ينهض او يتحرك ، وبعث
بالولاة والعمال الى سائر الاعمال فقفى بذلك على كتامة .

الامير باديس بن المنصور

توفي المنصور يوم الخميس ٣ ربيع الاول ٣٨٦هـ - ٢٦ مارس
٩٩٦ م فبويع ولده باديس الذي كان حائراً على سجل ولاية عهد ابيه
من العزيز الفاطمي منذ سنة ٣٨١هـ - ٩٩١ م ، وبعد مبايعته بالامارة
اتصل بموافقة الحاكم الفاطمي في السنة التالية ولقبه بنصير الدولة ، وكان
مولد باديس بمدينة اشير - بالجزائر - ليلة الاحد ١٣ ربيع الاول
٣٧٤ - ١٤ اوط ٩٨٤ ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازم
الرأي شديد البأس ، وكان يعتم بالحمرة وفيه يقول الشاعر :

تجاول عمامته الحمراء غرته كانه قمر في حمرة الشفق

وناسة ولاية الجزائر

كان اول ما قام به باديس من الاعمال الادارية ان خالف وصية المعز العبيدي لجده بلكين حين قال له : لا تول احدآ من اخوتك وبنيك لانهم يرون انهم احق بهذا الامر منك وقد كان الامر كما قال كما سنشرحه لك فيما يلي ، ففقد لعمه حماد بن بلكين على جميع ولاية الجزائر الشرقية واقطعه مقاطعة آشير وامده بالحلل والسلاح وعدد الحرب اتقاء لطواريء القبيلة المعادية زناتة ، وجعل ولاية تاهرت وجميع ارض الجزائر الغربية لعمه ايضاً بطوفت بن بلكين ويحمل كل منها لقب نائب باديس ، وكثيراً ما كان الاخوان يطوفت وحماد وعمهما ابو البهار يتداولون عمل اشير .

فوز الامويين بالجزائر

حاولت قبيلة زناتة افلاك بعض الاعمال الجزائرية من يد صنهاجة فظهرت الخلاف على باديس ، وعملت على مناهضته ، فانتهزها يومئذ زيري ابن عطية فرصة ودعا لمبايعة المؤيد الاموي بالاندلس فبايعته زناتة ، فزحف يومئذ زيري بمجموعه على ولايتي تلمسان وتيهرت فاستولى عليها سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م فنهض اليه باديس من مركزه وصر في طريقه بطبنة فاستجاش بصاحبها فلقول بن عم زيري بن عطية المغراوي فامتنع وانقلب على باديس ؛ واندلع لميب الثورة يومئذ ضد صنهاجة وامتد شررها من طبنة الى تيجس من أعمال قسنطينة وحاصر فلقول مدينة باغاية سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٩ م . واحتلها ثم انزعم عنها فلحقته جنود صنهاجة وطاردته من مرماجنة ايضاً فلحق بالجلال ، وهناك اتصل فلقول بخصوم باديس وزواجه من آل زيري الصنهاجي فنزلوا تبسة فحمل عليهم باديس وأجلاهم عنها . ويومئذ حدثت وحشته بين الامير زيري بن عطية الزناتي وبين الوزير المنصور بن أبي عامر حاجب الخلافة الاموية بالاندلس فأعلن الوزير الحرب على عدوه الزناتي وكان ميدانها المغرب الاقصى واندلع لهيها الى المغرب الاوسط فسقطت أعمال تاهرت وتلمسان بيد الحاجب الاموي .

خبيّة زنّانة في حملتها على تيهوت

هاجمت هذه القبيلة على امال تيهوت سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٨ م ، وكادت ان تنتصر عليها فكتب عاملها يطوفت بن المنصور الى باديس مستدأ ومستصرأ ، فجهز اليه الامير جيشاً عرمرماً وجعله تحت قيادة كاتبه محمد بن أبي العرب وخرج القوم من دار الامارة في منتصف صفر - فيفري - من هذه السنة قاصدين تيهوت ، فمروا في طريقهم على آشير مستعينين بجندية حماد بن بلكين فانضم اليهم حماد بجنوده والتحق الجميع بعسكر يطوفت وزحف الجيش الصنهاجي من هنالك نحو أماكن العدو فالتقى الفريقان غرة جمادى الاولى - ٢٠ افريل - بوادي مينا - على مرحلتين من مدينة تاهرت - فانتصرت زنّانة وانهزمت جنود صنهاجة الى آشير تاركة خلفها جميع معداتها الحربية وأموالها نهباً للعدو ، واحتلت زنّانة معظم العواصم الجزائرية فنزلت تيهوت ، وتلمسان ، وشلف ، وتنس ، والمسيلة ، وجملة من بلاد الزاب ، وحاصرت آشير أيضاً ؛ وكان السبب في خذلان صنهاجة هذه المرة كراهية الجيش الحمادي لاميره لقلّة عطائه وحدة أخلاقه الشرسة .

وطار خبر هذه الهزيمة الشنعاء الى باديس فسخط لذلك وحمل بنفسه على مراكز العدو بتيهوت ، ففرت أمامه زنّانة الى باغاية وطنة ، واختلفت عليه من هنالك ، فتمتعها باديس بجنوده ودحرها في وقائع وحروب طاحنة .

عصيان ماكسن وزاوي

هما أخوان من أبناء زيري بن مناد الصنهاجي حاولا الخروج عن طاعة باديس وأظهرا الخلاف والمصية في جملة أمهامه الذين لم يتبع لهم التسع بالحكم والرئاسة ؛ فمقد باديس لعبه الداهية حماد على اخضاعهم سنة ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م . فقتل ماكسن وانحصر أخوه زاوي ببجل شنوه بناحية شرشال مستأمناً فيمن كان معه من الاتباع فاشتوت عليهم حماد الجلاء عن بلاد الجزائر ، فخرج زاوي يومئذ في فتنه وأبناء أخيه الى

الاندلس سنة ٣٩١هـ - ١٠٠١ م ملتحقاً بالمنصور بن أبي عامر فأكرم المنصور وفادتهم ، ثم كان لهم بعد ذلك شأن وملك هنالك .

انبعاث الدعوة الاموية بالجزائر

كنا ألمعنا الى سقوط ولايتي تلمسان وتيهرت بيد زيري بن عطية المغراوي الزناتي القائم بدعوة الامويين بالمغرب سنة ٣٨١هـ - ٩٩١ م . ثم بيد المنصور بن أبي عامر الحاجب الاندلسي سنة ٣٨٩هـ - ٩٩٩ م . واستمرت هذه القطعة من الجزائر تحت ادارة المنصور هذا الى ان عهد بها وبعمل سجلةاسة الى المعز بن زيري بن عطية سنة ٣٩٣هـ - ١٠٠٣ م فاستبد هذا بالمغرب الاقصى وجعل على ولايتي تلمسان وتيهرت ولده يعلى سنة ٣٩٦هـ - ١٠٠٦ م فجدد بها الدعوة الى الخلافة الاموية ، وأورثها بنيه ، ولم يزل بعد ذلك بنو يعلى في حرب مع بني حماد الى ان قتلهم عليهم أخيراً المرابطون فأجلوم عن هذه الامارة سنة ٤٧٣هـ - ١٠٨٠ م .

قهر زناتة

استمرت زناتة على تمردھا ضد السلطة الحاكمة فاضطرب لذلك حبل النظام بالمغرب الاوسط وقلق منه باديس ، فأوعز الى عمه حماد بالقضاء على حركة زناتة واتحاد ثوراتھا المتحددة ، فاقتمحم حماد هذه الفرصة السانحة ليحقق أغراضه في الملك والرئاسة فاشتروط على الامير انه ان نجح في زحفه على زناتة ان يوليہ المغرب الاوسط ، وان له جميع ما يملكه في غزواته هذه من البلاد ، وان تكون له الحرية في اختيار مكان اقامته بالبلاد ، فوافقه باديس على ذلك ؛ فقزا حماد يومئذ زناتة سنة ٣٩٥هـ - ١٠٠٥ م فظفر بهم واستأصل شافتهم بحيث لم يظهر لهم بعد ذلك أي أثر في الحرب مع حماد . وما كانت ثورات زناتة في حقيقة أمرھا إلا عن ضغينة وحقد لحقھا من خيبتها ، اذ لم يكن لها في هذه الدولة من الحكم والرئاسة نصيب .

انشاء قلعة بني حماد

اندفع حماد بعد انتصاره على زناتة يتجول في انحاء الجزائر ثملاً بنخوة الظهور والغلبة على خصومه وهو في ذلك يرتاد مكاناً حصيناً يتخذ مركزاً لسلطانه ويحتاط فيه لنفسه، فوق الى جبل منيع مطل على بحيرة الحضنة يعرف بجبل كياتة المسمى بجبل معبد وهو المعروف اليوم باسم « المعاضيد » وهو على نحو ٣١ كيلومتراً جنوب برج بوعرييج وعلى نحو ٢٠ كيلومتراً بالشمال الشرقي من مدينة المسيلة تحيط به سهول وبأعلاه حصن « تاقربوست » المعروف في القديم باسم قلعة أبي طويل على نحو ١٥ كيلومتراً شرقي برج الغدير ؛ وهناك شرع حماد سنة ٣٩٨هـ - ١٠٠٧ م في وضع قلعة وتأسيس عاصمته التي قدر لها ان تكون حيناً من الدهر عاصمة القطر الجزائري ؛ وقد تم قصورها في عامين ، ثم أحاطها بسور من الحجارة سنة ٤٠٥هـ - ١٠١٤ م يبلغ ارتفاعه متراً واحداً ويمتد حول جبل كياتة على استدارة سبعة أميال ، وأقام حماد بها ملكاً يتمتع بكثير من مظاهر الاستقلال مقرأ بالولاء لابن أخيه باديس بن المنصور بالقيروان والمهدية .

يقول الادريسي في وصف هذه القلعة انها من أكبر البلاد قطراً وأكثرها خلقاً وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصوراً ومساكن ، وأعمها فواكه وخصباً ، وحنظتها رخيصة ولحومها طيبة سميحة ؛ وكانت مقصد التجار ومحط رحالهم يأتون اليها من العراق والحجاز والشام ومصر الخ ... وأهلها في غاية الذكاء والفطنة ولم في ذلك نوادر وأقاصيص عجيبة يرويا أهل الجغرافية والتاريخ ^(١) .

وفياً يعود الى أسباب خراب أمثال هذه المدينة وغيرها من العواصم والمدن التي اضمحلت وعفت وتلاشت آثارها من الوجود يقول ابن خلدون :
« ان المدن والعواصم المشيدة من طرف الدولة انما تبقى بعد ذهاب

(١) راجع المسالك والممالك للبكري ص ١٨٤ ونزعة المشتاق ص ٨٦ ط ليدن ١٨٦٤ .

نشئها اذا كانت لتلك المدن من الضواحي والقرى والجبال والبساتين المجاورة لها ما يمدّها بالعمران فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة الازاهية كما تراه بقاس وبجاية من المغرب وبمرّاق العجم من المشرق ... واما اذا لم تكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بتراصف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً او ان يبدع عز ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها^(١).

بدانة اغلاف بين حماد وباديس

استقر حماد بن بلكين بعاصمته الجديدة - القلعة - وصار ينتقل بينها وبين آشير يوماً هنا ويوماً هناك ، وأصبح حسب تقويض الامير صاحب التفوذ المطلق بالجزائر وأرض الزاب أيضاً وركدت ربيع زناتة وتبدد شملها ؛ واشتهر ذكر حماد فطار بالبلاد صيته وعظم شأنه وكثر دخله ؛ ويومئذ عملت عوامل الحسد وحسانك الحقد والضعينة في صدور أعدائه فأخذوا في السعاية والوشاية به الى باديس وذكروا له أشياء كرهها الامير من حماد وخشي على ضياع نفوذه واستفحال أمر عمه حماد ، وبقي باديس يلتبس الفرصة ليطلع بنفسه على عمه حول الامارة والملك ؛ ففي شهر ذي الحجة ٤٠٧ هـ - ماي ١٠١٧ م جاء العهد من الخليفة الحاكم الفاطمي بولاية المعز بن باديس اماراة افريقية بعد والده ، فبادر باديس الى امر حماد بالتنازل عن ولاية عمل قسنطينة وتيجس - على نحو تسعين كيلومتراً بالجنوب الشرقي من قسنطينة - للمعز ولي عهد اماراة صنهاجة ، فامتنع حماد لهذا الامر وامتنع وأصر على بقاءه في ولايته وجاهر برفض التشيع وقتل الروافض ؛ فنشأت عن ذلك عداوة ووحشة بين القصر وحماد .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

نشوب الحرب بين حماد وباديس

ولما اتضح لباديس موقف عمه العدائي تجاه ملكه والدعوة الشيعية جهز له جيشاً وامر عليه كبير قادته هاشم بن جعفر واهب به الى ناحية الجزائر فخرجت الكتائب من القيروان فلقيا حماد بمدينة الكاف ومعه ثلاثون الف مقاتل فانهمز جيش هاشم وتقدم حماد الى تونس وباجة فاحتلها واثار اهلها ضد الشيعة ، ويومئذ زحف اليه باديس فهزمه ونكص محاد على عقبه ملتجئاً نحو آشير فتتكر له اهلها ففر الى ناحية شلف فلحقه باديس وقد امتلك في طريقه مدينة المسيلة وآشير وبلغ الى سهل السرسو فانضم اليه هناك جميع اعداء حماد وخصومه الناقبين عليه ، فاشتد ساعد باديس بأولئك فأجاز بهم وادي شلف وقضى على قوات حماد الكامنة هنالك في اوائل جمادي الاولى سنة ٤٠٧ هـ - اكتوبر ١٠١٦ م ، فانهمز حماد من بجاية الى شلف وهرب الى القلعة فتخلى عنه اصحابه وذهبوا الى الامير ، واشتغل القوم يومئذ باستفادة ما خلفه حماد وراه من الغنائم والاموال والانتقال بما لا يحصى عدداً ! ... ثم احاط الجميع بقلعة حماد فحاصروها وكادوا ان يظفروا به لولا ان فاجأهم موت باديس بالمسيلة يوم الثلاثاء ٣٠ ذي القعدة ٤٠٧ هـ - ٣٠ افريل ١٠١٧ م فرأسوا عليهم اخاه كرامة وجعلوه كقائد اعلى يرجعون اليه في تسيير هذه المعركة وكتبوا موت الامير ، فعمل يومئذ كرامة على حماد في سبعة آلاف مقاتل وانفق في ذلك اموالاً طائلة ، واستعد حماد لمقاومته في الف وخمسمائة فارس فهزمه الى القيروان ومعه جثمان باديس فدفن بها وبويع لولده المعز .

الامير المعز بن باديس

سير اليه الخليفة الفاطمي تشریفاً وسجلاً لقبه فيه بشرف الدولة ، وكانت توليته الامارة يوم ٢١ ذي الحجة سنة ٤٠٧ هـ - ٢١ ماي ١٠١٧ م وسنه يومئذ ثمان سنوات واربعة اشهر ، فكفلته عمته ام ملال الى ان

بلغ سن الرشد فاشتهر بالتدين والعلم ورقة القلب والتعفف عن سفك الدماء الا ما كان في حق وكان يجيد الشعر ويحسن الالخان الموسيقية والعزف على آلة الغناء وله خبرة ودراية بالاحجار الكريمة محباً لاهل العلم والادب ومحط آمالهم ، فكان عصره اضخم وارتف ملك عرفه البربر بافريقية ، فهو ثالث ملوك هذه الدولة الذين ضربت السكة بأسمائهم ، واول من اتخذ المهدي قاعدة للكره الى ان استولى عليها الصقليون سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م . ولم تطل مدة احد من اهل بيته في الولاية والملك كمدته ، اذ كان فيها من اكرم اهل بيته فهو أحقهم باسم المؤسس الحقيقي لدولتهم ، اذ هو اول من اعلن انفصال المغرب عن العبيدين وخلع طاعتهم ولما بعث اليه المستنصر الفاطمي بالقاهرة يتهدده ويتوعده أجاب الرسول بقوله : قل لأميرك ان لنا ملك افريقية قبل ان يكون للعبيدين ذكر ! ... وكانت وفاته بالمهدية سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٣ م ودفن برباط المنستير وكانت ولايته تسعاً واربعين سنة .

استمرار الحرب بين حماد والمعز بن باديس

استمر كرامة بن المنصور محافظاً على عرش اخيه باديس حتى تمت المبايعة لابنه المعز ، ويومئذ تخلى كرامة عن العرش لابن اخيه وصالح حماداً على اموال قبضها والتحق بالبلط الضهاجي ؛ فأمرع حماد يومئذ الى تبوئة مكانه بالمغرب الاوسط ودخل المسيلة وآشير واستعد فيها للقتال ، وخرج لحصار باغاية فأجلاه عنها جيش المعز وهزمه يوم ٢٢ صفر ٤٠٨ هـ - ٢١ جويليت ١٠١٧ م فسر لذلك اهل باغاية وبعثوا بهدايا وتحف نفيسة الى المعز كان من بينها عبيد وثلاثمائة وخسة وثلاثون برذونا مسرجة بالسروج المحلات الخ ... ثم بعد مضي شهر من وقعة باغاية كانت هنالك وقعة ثانية هي اشد واعظم من الاولى انهزم فيها حماد ؛ كذلك وتفرق عنه الجند واسر اخوه ابراهيم بما معه من العتاد ونجا حماد بنفسه ، ثم سار جند المعز الى مدينة سطيف وقصر الطير وقفل بعدها الى حضرته .

الصلح والمواودة

ولما استبان لحمد عجزه عن مداومة الحرب بعث الى المعز مستسماً طالباً للامان فقبل منه ذلك مشروطاً عليه ارتهان ولده القائد ؛ وبعد ما استوثق حماد على ابنه بواسطة اخيه ابراهيم بعث به الى المعز ومعه هدايا نفيسة فاقبله الامير في منتصف شعبان ٥٤٠٨ هـ - جانفي ١٠١٨ واکرمه وغمره باحسانه وامضى له ما ارتضاه والده من الصلح واقطعه مدينة المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وسوق حمزة - برج حمزة قرب البويرة - وزواوة ومقرة واستقل والده حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب واشير وتاهرت وبما سيفتحمه من غيرها من بلاد الجزائر ، فكان ذلك كان ترشيعاً من المعز لانشاء دولة بني حماد ثم عاد القائد بعد ذلك الى والده في رمضان من سنته يحمل معه صكوك السلم والاقطاع ؛

ثم كانت هنالك حوادث زناة بالزاب فنهض اليها الجند الصنهاجي فأخدهما سنة ٥٤٢٩ هـ - ١٠٣٨ م بعد ما قتل فيها عدداً وافراً من الناس واحتل جميع قلاع الزاب . ثم في سنة ٥٤٣٢ هـ - ١٠٤١ م حدثت وحشة بين عاهل صنهاجة وحماد ، فزحف المعز الى القلعة الحمادية فحاصرها مدة سنتين ثم اقلع عنها وعاد الى حاضرتة ؛ فلم يختلفا بعد ذلك ؛ ويومئذ تمحض ملك الجزائر للامرة الحمادية واستمرت الولاية فيهم زهاء قرن ونصف كما سنقصه في تاريخ دولتهم ؛ ومنذ ذلك الحين انقسمت المملكة الزيرية الصنهاجية بالمغرب الى قسمين : بملكة شرقية وقاعدتها القيرون ثم المهدي حكم فيها ابنا المعز الى ان قضى عليهم النورمان سنة ٥٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م . وبملكة غربية كانت لبني حماد وقاعدتها القلعة ثم بجاية الى ان سقطت بيد الموحدین سنة ٥٥٤٧ هـ - ١١٥٣ م كما سنذكره .

المذاهب والعقائد

كان المغرب العربي في اول عهده بالاسلام سائراً في تدينه على مذهب السلف الصالح وعقائد اهل السنة والجماعة ؛ الى ان كانت حوادث فتنة

الجل وصفين بالشرق فنشأت عنها احزاب وطوائف سياسية مختلفة تسربت الى المغرب فتطورت العقائد معها الى احساس سيامي وتفرقت الامة في عقائدها واتجاهها الديني الى مذاهب وطرق شتى فحدثت يومئذ مذاهب الاعتزال والخارجية واختلفت الآراء في اصول الاعتقاد ؛ وسلك الناس في عبادتهم ومعاملاتهم هذا المسلك ايضاً ، فاختلغوا الى مذاهب شتى ؛ وكان اظهر المذاهب الاسلامية يومئذ بالمغرب مذهب ابي حنيفة ومالك كما المعنا الى ذلك فيما تقدم .

وفي عهد بني عبيد الفاطيين حاولت هذه الدولة نشر مذهب الشيعة الاسماعيلي بعقائده وعباداته بين الشعب الافريقي كله ، وبحو مذاهب اهل السنة ، فكان هنالك من اخذ به ، ومنهم من رفضه ؛ وكان فقهاء المالكية على الخصوص في محنة عظيمة مع هؤلاء الروافض من الشيعة الى سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٧ م . حيث اختلف حماد بن بلكين على باديس وفسدت ذات البين بينهما فأعلن حماد برفض عقائد الروافض والغاء مذهب الشيعة والتسك بمذهب اهل السنة ؛ فانقطعت بذلك دعوتهم بالجزائر ؛ واستمرت المعارضة المالكية تعمل في الشعب المغربي حتى تغلغل فيه الوعي السني فانتهز المعز بن باديس هذا الموقف ليتخذ منه سبيلاً الى اعلان انفصاله ايضاً عن دولة الفاطيين واستقلاله بالمغرب العربي ، فانتحل يومئذ مذهب اهل السنة وحمل الناس على مذهب الامام مالك ومنهم من تعدد المذاهب ، فجمع الفقهاء للمناظرة بين يديه ، وكان فيهم المالكية والحنفية ، فسألهم عن موطن ابي حنيفة ، فقبل له الكوفة ، فقال ومالك ؟ ... فقالوا المدينة ، فقال عالم اهل المدينة يكفينا وامر باخراج اصحاب ابي حنيفة ، وقال لا احب ان يكون في عملي مذهبان . ولم يقتصر البلاء على مذهب الشيعة فقط ، بل شمل مذهب الاحناف السنيين الذين كانوا يظلونهم برعايتهم ، وانتقل المغرب الى مذهب مالك الذي لا يزال عليه الى اليوم . واُبطل المعز يومئذ انفصاله السيامي عن الفاطيين ، ولعن مذهب الروافض ، وابطل شعارهم وقطع الخطبة باسمهم ودعا للخلافة العباسية ببغداد تثبيتاً للملكة ، فحظى منها بالتقليد والخلع فنشر الرايات السود وهدم دار الاسماعيلية وذلك

حدود سنة ٤٣٥هـ - ١٠٤٣م ويجعل ذلك ابن ابي الضياف سنة ٤٣١هـ - ١٠٣٩م فاندفع الناس حينئذ لمقاتلة الشيعة واضطهادهم ابرح قتال واشد اضطهاد ؛ فكانت هذه الحركة الدينية الفقية بالمغرب العربي حركة قوية نشيطة اكثر ما خدمت فقه الامام مالك واستقلال البلاد .

ويحدثنا المقدسي في كتابه الجغرافي الجليل « احسن التقاسيم » ط ليدن ١٨٧٧م الذي وضعه سنة ٣٧٥هـ - ٩٨٥م بعدما جال في هذه الاوطان المغربية واتصل بأهلها ، فقال « ان اهل المغرب لا يكادون يعرفون الا كتاب الله وموطأ مالك ؛ ... وانهم لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله ، انما هو ابو حنيفة ومالك ؛ قال « وكنت يوماً اذا كر بعضهم في مسألة ؛ فذكرت قول الشافعي ، فقال : اسكت من هو الشافعي ؟ انما كان بجران ابو حنيفة لاهل المشرق ومالك لاهل المغرب ، افتركها ونشتغل بالساقية ؟ ... قال ورأيت اصحاب مالك رحمه الله يفضون الشافعي ، قالوا اخذ العلم عن مالك ثم خالفه ؛ وما رايت فريقين احسن اتفاقاً واقل تمصباً منهم ... وسألت بعضهم : كيف وقع مذهب ابي حنيفة اليكم ولم يكن على سابلكم ؟ ... قالوا : لما قدم عبد الله بن وهب من عند مالك وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استكشف اسد بن عبد الله ان يدرس عليه جلالاته وكبر سنه ، فرحل الى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلاً ، فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع الى ابن وهب فقد اودعته علمي ، وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على اسد ، ثم سأل هل يعرف لمالك نظير ؟ ... فدل على محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ، فرحل اليه ، واقبل محمد عليه اقبالاً لم يقبله على احد لما رأى منه من فهم وحرص ، فلما رأى محمد انه قد بلغ مراده سببه الى المغرب ، فلما دخله اختلف اليه الفتيان ورأوا فروعاً حيرتهم ، ودقاتي اعجبتهن ، ومسائل ما طنت على اذن ابن وهب ففشا مذهب ابي حنيفة بالمغرب .

وفىا يرجع الى رواية القرآن الكريم وقراءاته بالمغرب فانه كان يتلى بقراءة الامام حمزة بن حبيب ، الى ان رحل ابن خيرون الاندلسي الى

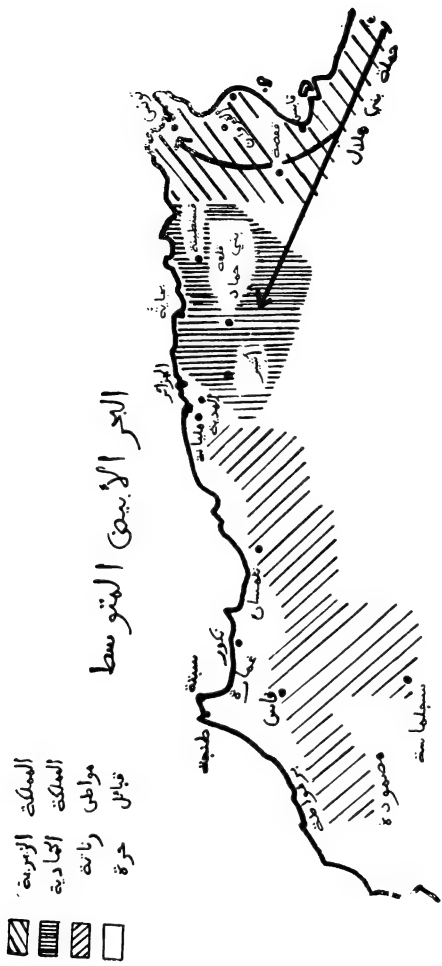
المشرق في صدر المائة الرابعة فعاد برواية قالون وورش عن نافع فانتشرت هذه القراءة أيضاً بين الناس بعد ان كان لا يقرأ بها الا الخواص .

الزحف الملالي

تأثر الخليفة الفاطمي كثيراً لهذا الحادث الخطير وهذا الانقلاب الديني السياسي العظيم الذي وقع بأفريقية ، فعظم عليه خروج المغرب عن الامبراطورية الفاطمية وانقراض دعوة الشيعة به ، فكتب المستنصر بالله العبيدي الى المعز بن باديس كتاباً يتهدده فيه ويقول : هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء ؟ ... فأجابه المعز قائلاً ؛ ان آبائي واجدادي كانوا ملوك المغرب قبل ان يملكه اسلافك ، ولهم عليهم من الخدم اعظم من التقديم ولو اخروهم لتقدموا بأسياهم .

وبومئذ دبوت مكيدة الحملة الهلالية بإشارة من اليازوري وزير المستنصر حيث كان واغر الصدر على المعز ، وكان هؤلاء الاعراب من بني هلال وبني سليم ورياح وزغبة قد اضرخوا بالديار المصرية واصبحوا خطراً على الدولة هناك ففتح لهم الخليفة باب الهجرة الى المغرب ورغبهم فيه بأنواع من المرغبات وعقد لرؤسائهم ورجالاتهم على امصار البلاد المغربية وثغورها وقدم كثيراً من الاعمال والولايات انتقاماً من دولة صنهاجة الزيرية المشاقة ؛ واذن لهؤلاء الاعراب في الانتقال الى هذا الشمال الافريقي ؛ وقال لهم : قد اعطيكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي ذلك العبد الآبق فلا تفتقروا ؛ وترك تحقيق ذلك الى سيوفهم ورماحهم .

خرجت الحملة الهلالية الاولى من الدبار المصرية سنة ٤٤٢ هـ - ١٠٥١ م في نحو الاربعمئة الف شخص ، واذ ذاك كتب اليازوري الى المعز (... اما بعد فقد ارسلنا اليك خيولاً ، وحملنا عليها رجالاً فعولاً ليقضي الله امرأ كان مفعولاً) ونزل هؤلاء الاعراب بأفريقية فانتشروا ببرقة ونواحي قابس وتونس ؛ فأكثروا فيها الفساد والنهب وتكررت الوقائع بينهم وبين



الغرب الاسلامي في اواسط القرن الرابع عشر الى اواسط السادس الهجري - اواسط الحادي عشر الميلادي -

الاهالي والدولة وتعددت النكبات فتخلى لهم المعز عن القيروان الى المهدية
فتعقبوه اليها ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

وان ابن باديس لا حزم فارس لعمرى ولكن ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا هزمت له ثلاثين ألفاً ، ان ذا لنكال

وكان الملتحم بالجزائر في نواحي جبل راشد ومصاب والزاب الشرقي
وفيه قتل القائد ابو سعدى خليفة الزناتي الفتري وزير بني خزر بتلمسان ؛
وكان من جملة المقلدين في هذه الحملة من طرف الفاطميين : الحسن بن
سرحان فانه جاء برسم ولاية قسنطينة فاحتلها وقد شهدت البلاد في هذه
الآونة من البلايا والاهوال والحروب الالية ما يشيب لها الاطفال ! ...
وعجز عن المقاومة كل من صنهاجة وزناتة وامراء تلمسان من بني خزر
وامراء القلعة من بني حماد وفاز هؤلاء الزاحفون من الاعراب المهلايين
بامتلاك اعظم الجهات بافريقية ، وذلك بسلوكهم سبيل التفرقة بين اهلها
واعانة بعضهم على بعض بشتى الوسائل وكان الربيع دائماً في الجانب العربي .
انظر الخريطة . فكان لبني سليم نواحي المغرب الشرقية ، ولبني هلال النواحي
الغربية ، ولقد احدث هذا الغزو الهلالي انقلاباً عظيماً في البلاد من حيث
الاقتصاد والسياسة والاجتماع .

فكان دخول بني هلال الى المغرب الاسلامي من الحوادث الفاصلة في
تاريخه فقد قضوا على دولة بني زيري الصنهاجيين في تونس وعلى دولة ابنائه
عمومتهم بني حماد في المغرب الاوسط - الجزائر - وانقطعت نتيجة لغارتهم
هذه الصلات السياسية بين المغرب وبين المشرق ، واتجه المغرب بعد ذلك
وجهة خاصة منفصلاً عن بقية المجموعة الاسلامية بما كان له أسوأ الاثر
على مصير المغرب والاندلس - ايضاً - في اواخر العصور الوسطى (١) .

(١) راجع هامش تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ، ص ٥٣ ط القاهرة ١٩٥٨ م

أهم المواطن الهلالية بالجزائر

كل ما في هذا الوطن من عرب هذه الخلطة يرجع نسبهم الى اصول اربعة ، بني هلال ، بني سليم ، زغبة ، رياح ؛ وكانت مواطنهم الاصلية بالحجاز غربي نجد حول مكة والمدينة وبسائط الطائف الى جبل زغوان وبأرض تيماء من نجد والبحرين واليمن . وكان انتقالهم لمصر ايام عبيد الله بن الجحباب عليها ، ثم انحاز الكثير منهم الى القرامطة ايام ظهورهم وتغلبهم على بلاد الشام ومصر في القرن الثالث الهجري ؛ ثم بعد الفتح الشيعي للبلاد المصرية اسكنهم الخليفة العزيز بلاد الصعيد وانزلهم بالعدوة الشرقية تجاه بحر القلزم - البحر الاحمر - فأقاموا هناك يعيشون على البدانة والحشونة . ويجرون على طبيعتهم في السلب والنهب فصحت منهم اضرار كثيرة بالبلاد الى سنة ٤٤٢ هـ - ١٠٥١ م فانتقلوا من بلاد النيل الى المغرب فسكنوه وتفرعت عنهم فروع كثيرة وبطون عديدة انتشرت بأنحاء الشمال الافريقي وامتزجت بأهل امتزاج الماء بالماء حتى كدت لا تفرق اليوم بين العربي والهجين .

فمنهم بعمالة الجزائر : قبائل الثعالب والمقل وهم بسهولة متبعة ؛ وعبيد ومراوة حول بلاد جرجرة ؛ واولاد ماضي وسليمان حول مدينة سور الغزلان ؛ وجندل والعطاف حول جنوب مليانة ونواحي المدية ، واولاد نائل في نواحي الصحراء ، وزغبة بين مصاب وجبل راشد .

وبعمالة وهران : بنو عامر وهم ما بين مدينتي وهران وتلمسان ، والغرابية هم بتلك النواحي ايضاً ، والمجاهر قرب مستغانم ، وصهيب قرب الاصنام ، والجعافرة واولاد خالد واولاد الشريف ما بين الساحل وفرندة وسعيدة .

وبعمالة قسنطينة : المحادمة واولاد جلال ، واولاد سعيد في المضاب العليا والصحراء ومنهم عتبة بنواحي بجاية ، ورياح بنواحي قسنطينة والمسيلة والزاب الخ ... ولقد حصلت لهؤلاء العرب رئاسة وزعامة بهذه الاوطان فاندمجوا فيها واصبحوا يدافعون عنها دفاع الاسد عن العرين .

رفاهية البلاط الصنهاجي وثراء الجزائر

لا ادل على الحقائق التاريخية ولا اثبت للعبة من ذكر الحوادث والوقائع مجردة يستنتج منها الباحث والمطلع عليها بنفسه الحكم على العصر الذي جرت فيه تلك الحوادث ؛ وما نحن نقدم له اسناداً صحيحة واقعية كبرهان قاطع يوضح لنا مبلغ ما وصلت اليه هذه الدولة الزيرية من الرفاهية والبذخ وما بلغت اليه الرعاية من الثراء والغنى .

قال صاحب البيان المغرب في سياق الحديث عن وقائع حماد ضد باديس سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م : ان الناس اخذوا من غنائم حماد وامواله ما لا يحصى عدداً وكثرة ، ووجد رقتان فيهما ان الذي عند القائد فلان صندوق فيه خمسون الف دينار وسبعمائة ، ومن الورق الف الف وخمسمائة درهم ، ومن الامتعة خمسون صندوقاً ، غير ما كان في بيت حماد وخزائنه .

قال ابو اسحاق وجد رجل بين يديه بغل يسوقه ، ففتشه بعض الوصفان بين ايدينا ، فوجد في حشورذعته وصوفها ثمانية آلاف دينار ، ومثل هذا ما لا يحصى كثرة وذكروا ان اعشار بعض اعمال الساحل بناحية صفاقس كان خمسين او ثمانية الف فقيز^(١) وان مداخيل مدينة بونة غنابة - عشرون الف دينار غير جباية بيت المال^(٢) واهدى المنصور بن بلكين الى الخليفة نزار العبيدي بمصر هدية قيمتها الف الف دينار .

وفي سنة ٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م وقف شرف الدولة المعز بن باديس لهدية صندل والى بسكرة فعرضت عليه ، فاذا هي ثلاثمائة حصان ، ومائة فرس اثني ، وبغلات منها عشرون بالسروج الحلاة وعبيد ومائة حمل من المال ، فخلع عليه وجدد له الولاية على بسكرة ، وبلغت عطية عامل باغاية مائة حمل من المال ، واعطى باديس الى فلفول بن مسعود الزناتي صاحب طينة ثلاثين حملاً من المال وثمانين تحتاً من الثياب وعشرة

(١) هو ما يعادل ١٢ صاعاً ويكاد يعادل ما يزيد قليلاً على ١/٤ ٦٤ رطلًا من الفصح .

(٢) البكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

بنود مذهب ، ومراكب بالسروج المحلاة وكانت منعة المعز بن باديس المنتصر بن خزرون الزناتي مائة الف دينار . ولما ذكر ابن خلدون رفاهية بلاط الصنهاجيين قال : انهم كانوا اذا أجازوا الوفد من امراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال أحمالاً والكساء نخوتاً بملوكة والمحلات جنائب عديدة^(١) ... وقد لا يخلو كلام ابن خلدون هذا من مبالغة ؟ ...

وجرت بين المعز بن باديس والظاهر لإعزاز دين الله مهادات جليلة وكان فيما أهداه المعز الى الظاهر سنة عشرين وأربعمائة (١٠٣٩ م) : ثلاثة أرؤس من جياذ الحيل الثينة ، منها كمت بسرج ذهب صياغة المغرب ، وزن ذهبه قنطار ، وأشقر سرجه لؤلؤ ، وأدم سرجه فضة بياض وزن مائة قنطار ، وثلاثة آلاف منازعفران ، وخمسون درقة موكية مغطاة ببدياج ، وألف وخمسمائة نوب من الران الحُر المغربي الملبس ، واربعمائة غفارة من رفيع الطالقان ، ومن الرماح الزان ما لا يعد كثرة ، ومن الصناديق والاقفاص المملوءة سيوفاً ، وغيرها مثل ذلك ، ومن الثياب الصقلي والثياب السوسي والفرخات والمهائم الصقلي عدة الوف ، وعشرون جارية لم يرَ أحسن قدوداً ووجوهاً وألواناً وأجساماً منهن ، ومعهن جارية تفوقهن مفردة حسناً وكلاً ، وعلى نهودهن حقائق فضة ، واثنان عشر صقلياً بيض صيان حسان الوجوه والقودود ، وعشرون خادماً من ملاح السودان صياناً ، وفي جملة الهدية ألف قنطار شمعاً . وجلس الظاهر لاقتبال رسول المعز على السرير الكبير المذهب وقرى كتابه وعرضت عليه هديته ، وقد كان ذلك في يوم الاحد لثمان خلون من شهر شوال (٤٣٠ هـ - ١٠٣٩ م) . ولقد انفذ اليه الظاهر كذلك هدية فيها من غرائب الطرف والتحف النفيسة ما لا يحصى ...

وفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة (١٠٣٢ م) أهداه المعز أيضاً أربعة سباع أعظم ما يكون منها وأهلها ، وعشرين كلباً سلوقية ، وعدة غنور ، وشمعاً كثيراً ، ومتاعاً جماً من ثياب خز وسوسي وصقلي ،

(١) المقدمة صفحة ٩٧ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

وزعفران ، وعبيد من خدم بيض وسود ورقيق رائع وغير ذلك ؛ كما انه أهدى كذلك الى المستنصر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٥ م) هدية جليلة قومت بأربعين الف دينار ، من جللتها ورقة مكللة بالجواهر كانت للهدى بالله بالمغرب^(١) .

وبما ما اروع يوم زواج ام العلو بنت باديس بعبدا لله بن حماد وما اجل الايوان ايام ذلك العرس وما اهى موكب زفاف العروس ! فانه لما كان يوم الاربعاء غرة شعبان ٤١٥ هـ ٨ اكتوبر ١٠٢٤ م زين الايوان المعظم للسيدة الجليلة ام العلو ، ودخل الناس خاصة وعامة فنظروا من صنوف الجواهر والاسلاك والامثلة النفيسة واواني الذهب والفضة ما لم يعمل مثله ولا سمع لاحد من الملوك قبله ، قال ابو اسحاق الرقيق : فبهر عيون الخلق حال ما عاينوه ، وابهتهم عظيم ما شاهدوه ، وحمل المهر في عشرة احمال على عشرة بغال ، وعلى كل حمل جارية حسناء ، وجملته مائة الف دينار عينا ؛ وذكر بعض الخذاق من التجار انه قوم ما هو لها فكان ما يزيد على الف الف دينار ، ولم ير مثل هذا لاراة قبلها بافريقية .

وزفت العروس يوم الخميس ومضى بين يديها عبيد اخيها شرف الدولة المعز ، وابيها نصير الدولة باديس ، وجدها عدة العزيز بالله ، ووجوه رجال الدولة ، فكان يوماً سارت الركبان بمحاسن آثاره وعجبت الناس لعجائب اخباره ؛ وقل مثل ذلك في ماتهم ايضاً فانها كانت لا تقل عن افراحهم في مظاهر الابهة والبالذ .

فانه لما توفيت زوجة نصير الدولة باديس سنة ٤١١ هـ ١٠٢٠ م جهزت فيها لم يذكر ان ملكاً من ملوك الارض جهز في مثله الا ما كان من ملوك الفراغة بمصر ... فقد روى المؤرخون عن من حضر الجنائزة ان قبة جهاز التكفين بلغت مائة الف دينار ، من غير التابوت الذي

(١) الذخائر والتحف للفاخر الرشيد بن الزبير ص ٦٨ - ٧٣ - ٧٦ ط الكويت ١٩٥٩ م .

جعلت فيه فهو من عود هندي مرصع بالجواهر وصفائح الذهب وقدر مبلغ قيمة مساميره الذهبية بألفي دينار، وجعل عليه عشرون سبعة من نفيس الجواهر، وذبحت مائة بقرة وخمسون ناقة، والف شاة، وفرق على الناس عشرة آلاف دينار ! .

هذه صورة مصغرة لبلاط ملك دولة صنهاجة وما كان عليه حال الناس يومئذ من البسر والبذخ والرفاهية سقناه كتصديق لقول ابن خلدون عن ملك هذه الدولة : كان ملكهم اضخم ملك عرف للبربر في افريقية واترفه وابذخه .

الثقافة والحضارة والعمران

من القواعد المقررة لمعرفة حيوية المجتمع وحركته الصناعية والاقتصادية ، النظر الى منشآته ومؤسسته العمرانية ، فاننا اذا نظرنا الى ذلك في هذا العصر وجدنا حركة البناء والتعمير مطردة في تاريخ هذه الدولة ، اذا ما كان انشاء مدينة آشير ٨٣٢٤ - ٩٣٦ م الا على يد زيري بن مناد رأس الاسرة المالكة ، وقد كان فيها من الدور والقصور والمنازل والحمامات والمساجد ما حمل الكثير من السادة والاعيان والعلماء والادباء على الانتقال اليها فاستبحر عمرانها وضربت السكة بها ، وكذلك مدينة القلعة المشهورة التي وصفها صاحب « الاستبصار » بقوله « ولبنى حماد بالقلعة : مبان عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر فوضع في وسطه صهريج عظيم - يبلغ طوله ٦٧ متراً ، تلعب فيه الزوارق بدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد ، وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف وفيه قصور غير هذا ومبان عجيبة وفيها آثار للأوائل عجيبة ^(١) . » ويجدنا ابن خلدون عن العمران والحضارة بالقلعة فيقول : « وتم بناؤها وتصويرها على رأس المائة الرابعة ، وشيد - حماد من بنياتها واستكثر فيها من

(١) الاستبصار ص ٥٦ ط فينا ١٨٥٢ م .

المساجد والفنادق فاستبحرت في العمارات واتسعت بالتدريج ، ورحل اليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق اسواق المعارف والحرف والصنائع بها^(١) وقد مر بك قريباً ما حكاه الاديب عن هذه المدينة الحافلة . وكذلك مدينتا المدية ومليانة فانما كانتا بفضل بلكين بن زيري فانه هو الذي انشأهما بأمر والده سنة ٣٥٥هـ - ٩٦٦م وعاصمة الجزائر كذلك سنة ٣٦٢هـ - ٩٧٣م . وان لم تكن هذه المدينة مجهولة من قبل اذ هي مشهورة في الماضي باسم (جزائر بني مزغني) المقامة على انقاض (ايكوسيوم) العتيقة ولكن نصيرها كان على يد هذا الملك ، قال ابن خلدون : « وهذه المدن مليانة والمدية والجزائر - لهذا العهد من اعظم مدى المغرب الاوسط » وضبط لنا ابن خلدون اسم المدية فقال : هو بفتح اللام والميم وتشديد الياء وهاء النسب قال وهو حصن يسمى بأهله وهم بطن من بطون صنهاجة . وهذا من غير ما اشادته الدولة ببلاد تونس وغيرها من اسباب الحضارة والعمران . ويذكر ان من بقايا آثار هذه الدولة بالجزائر ذلك الباب الحشي الموجود الى الآن بضريرج سيدي عقبة بحوز بسكرة ، اما مهنة الزراعة والفلاحة فانما رائجة يومئذ بسبب التعامل التجاري الذي كان يجري مع الخارج فعم الرخاء وابسر الناس ، وبلغ دخل الدولة من موارد التجارة فقط نحو الستة ملايين فرنكاً ذهباً سنوياً ، وعن اقتصاديات البلاد وحرارة الانتاج الزراعي والصناعي وتربية الماشية فاليك قصته كما يروها لنا شاهد عيان معاصر لهذه الدولة التي نؤرخها وقد وطئت اقدامه هذه الارض على عهد عاهل صنهاجة « بلكين بن زيري » ، ذلك هو الرحالة الجغرافي الكبير ابن حوقل ، فأنصت اليه في حديثه عن مدينة الجزائر قال ... « وجزائر بني موغناي مدينة عليها سور على سيف البحر ايضاً وفيها اسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشرهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة واكثر اموالهم المواشي من

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ .

البقر والغنم سائمة في الجبال ولهم من العمل ما يجهز عنهم والسمن والتبن ما يجهز ويحلب الى القيروان وغيرها .

ويذكر لنا مدينة وهران فيقول : « فيها من جميع الفواكه وفي حاضرتها دهقنة وحذق وفيهم حمية مع الغريب وهي فرضة الاندلس اليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال .

وينتقل بنا الى مدينة بونة ويذكر لنا عن اسواقها فيقول عنها : انها حسنة وان تجارتها مقصودة وارباحها متوسطة وفيها خصب ورخص موصوف وفواكه وبساتين قريبة واكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في اكثر اوقاتها كما لا قدر له ، وبها معادن حديد كثيرة الغزير الكثير ويزرع بها الكتان ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة ، ومن تجارتها الغنم والصوف والملاشية من الدواب وسائر الكراع وبها من العمل والخير والميراث ما تؤيد به على ما داتها من البلاد المجاورة لها ، واكثر سوانهم البقر ولهم اقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثير وقل من بها تقوته الحيل السائمة للنتاج ، ونحن نعلم ان اكثر التجار بها هم من بلاد الاندلس .

وها نحن في مرمى المحرز ، ودائماً في الاستماع الى ابن حوقل ، فهو يحدثنا الآن عن النشاط الاقتصادي البحري في هذا الميناء قائلاً : « فيه معدن المرجان ... ولا اعرف في شيء من البحار له نظيراً في الجودة ... وللتجار بها اموال كثيرة من اقطار النواحي عند سماسة وقوف لبيع المرجان وشراؤه ، ويعمل بها في اكثر الاوقات في اثاره المرجان المحسون قارباً ، وما زاد على ذلك بما في القارب العشرون رجلاً الى ما زاد ونقص » .

ويتابع ابن حوقل حديثه عن ام مراسي الجزائر فينقلنا معه الى مرمى الدجاج قائلاً : « وبها من رخص الاسعار ايضاً في الفواكه والمأكول والمطاعم والقمح والشعير والالبان والمواشي ما يعرف غيرهم ممن يجاورهم ، وبها من الاشجار والتمر والتين خاصة العظيم الجسم ما يحمل منه الى البلاد النائية

عنه ... ، ويذكر مدينة « برشك » فيقول : « ان بها فواكه حسنة غزيرة وسفرجل معتق كالقرع الصفار وهو طريف واعناب الغالب على اهلها البربر ولما بادية يشتررون العسل من الشجر والاجباح لكثرة النحل بالبلد واكثر اموالهم الماشية ولهم من الزرع والحنطة والشعير ما يزيد عن حاجاتهم » ...

ثم بعد ما ينتهي ابن حوقل من وصف مدينة « تنس » ووضعها الجغرافي ويبين لنا شكلها وهندستها ينطلق بنا الى أسواقها ويقول « ... وهي اكبر المدن التي يتعدى اليها الاندلسيون ببراكهم ويقصدونها بتاجرم وينهضون منها الى ما سواها » ... وبها فواكه حسنة وهي من الحصب في جميع الوجوه الرفهة بأمر مستفاض وبها من الفواكه والسفرجل المعتق ما لا أزال احكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته كما نجدنا عن المناجم ببلدة بجانة وما احتوت عليه من الحيرات فيقول : « وبها معادن حديد وفضة ومنها الحجارة المجلوبة للمطاحن بجميع المغرب ... وهي كثيرة الزعفران والزرع ، ولهم وادي غزير الماء يزرعون عليه واسواق صالحة » .

وينتقل بنا الى الحديث عن مدينة المسيلة ويذكر لنا من تاريخ انشائها وانها مما استحدثه علي بن الاندلسي كما مرت بنا الاشارة الى ذلك . ويصف لنا تدفق مياه واديا « سهر » ويتعرض لمتوجاتها الزراعية وتربية المواشي بها ثم يقول : ولهم عليه - وادي سهر - كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفاتهم وحاجتهم ، ولهم من السفرجل المعتق ما يحمل القيروان واصله من تنس ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير وتكثر عندهم المواشي من الدواب والانعام والبقر ... ، ويلاحظ على سير النشاط التجاري بمدينة تهرت بعد ان يفرق لنا بين تاهرت القديمة وتاهرت الجديدة بقيدنا بأن التجارة في المدينة الجديدة هي اكثر رواجاً من اختها القديمة ويقول : ولهم بها مياه كثيرة تدخل على اكثر دورهم واشجار وبساتين وحمامات وخانات وهي احد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبرافين الفراهية ، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات . ويذكر مدينة « نقاوس »

بأنها مدينة كبيرة عليها سور من حجارة قديمة ازالة ولها مياه كثيرة وأجنة عظيمة وبها جميع الفواكه كاللوز والجوز والكرام وزرعهم غزير كثير .

ويحمل لنا ابن حوقل القول عن كل صادرات المغرب الاسلامي وما يحمل منه الى المشرق فيقول : « واما ما يجيز من المغرب الى المشرق فالمولدات الحسان الروقة كالتي استولدهن بنو العباس وغيرهم واكابر رجالهم وولدن غير سلطان عظيم ، كسلامة البربرية ام ابي جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، وقراطيس ام ابي جعفر هارون الواثق ابن المعتصم ، وقتول ام أبي منصو محمد القاهر بن المعتصم وغير من ذكرت من ملوك المشرق وامرائه . والغلمان الروقة الروم والعنبر والحري والاكسية الصوف الرفيعة والدنية الى جباب الصوف وما يعمل منه ، والانطاع الحديد والرصاص والزئبق والخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من ارض الصقالبة على الاندلس ولهم الحيل النفيسة من البوازين والبغال الغرة والابل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص .

فاما اسعارهم على تنائي مدنها وديارهم فعلى غاية الرخص في الاطعمة والاعذية والاشربة واللحان والادهان ولهم من جيد الفواكه والتمور والارطاب وسائر الاغذية . وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صهاريم التي لا تدانيها في الكثرة « ابل العرب » .

ويتعرض ابن حوقل لثروة البلاد المالية فيدرس احوالها عن كتب ويغيدنا بنتيجة درسه للاموال بالجزائر على عهده فيقول مثلاً عن مدينة تنس « ان لسلطانها وجوه من الاموال كثيرة الخراج والجوالي والصدقات والاعشار ، ومراسد على المتاجر الداخلة اليها والخارجة والصادرة والواردة ولها بادية من البربر كثيرة وقبائل فيها اموالهم جسيمة غزيرة) وعن اهل المسيلة يقول : « وعليهم صدقات وخراج يسير » .

واطال النفس قليلاً في كلامه عن النشاط المالي بالنسبة الى مدينة سجلماسة فقال : « واهلها قوم سرات مياسير ، يباينون اهل المغرب في

المنظر والتجبر مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال اللروة وسماحة ورجاحة ، وابنيتهما كأبنية الكوفة الى أبواب رفيعة على قصور مشيدة عالية ... وسكانها اهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق فهم واولادهم وتجارهم دائرة ومفرداتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة الى أرباب عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سائغة قل ما يدانيها التجار بلاد الاسلام سعة حال ، ولقد رأيت صكاً كتب بدين علي محمد بن ابي سعدون من تجار « اودغشت » وشهد عليه العدول باثنين وأربعين الف دينار ... قال : وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شهاً ولا نظيراً ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت ولم يزل المعترز ايام ولايتها وهو اميرها يجتئها من قوافل خارجة الى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة على ما يباع ويشترى من ابل وغنم وبقر الى ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي افريقية وفاس والاندلس والسوس والاغات الى غير ذلك بما على دار الضرب والسكة زهاء اربع مائة الف دينار يختص بها وبعملها ، وقد ذكرت ان ارتفاع المغرب من اوله الى اخره من ثمان مائة الف دينار الى ما زاد على ذلك يسير ... قال وسائر ارباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال (١) واستمر الحال على ذلك الى ايام الزحف الملالي حيث اشتدت الازمة بالناس ولحقهم من الضر كثير .

وأشهر الحرف يومئذ كانت صناعة استخراج المرجان من بحر بونة ومرسى الحرز - القالة - فكان العمل في ذلك لا ينقطع ليل نهار والتجارة فيه رابحة وبالاخص ما كان يصدر منه الى الهند والصين ، كما اشتهرت يومئذ صناعة الاسلحة والادوات الحربية ، فقد كانت المصانع المغربية تنتج منها في المدة القربية ما يعجز عنه غيرها في الزمن المديد .

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ج ١ ص ٦١ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٩١ - ٩٣ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ ط ليدن ١٩٣٨ م والبكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

ومما يدلّك على انتشار الحرف والصناعات وانطلاق أيدي الناس فيها سرعة ضرب السكة وسهولة أمرها على كل قائم بدعوة أو ثائر على الحكومة ؛ فقد كان لابي الفهم الكتامي الثائر حملة مضروبة باسمه ؛ ولاي الفرج الثائر بيلة وسطيّف كذلك ، ولاخير بن محمد بن خزر المغراوي أيضاً ، وليد وابن يعلى البفري النخ ... فكل ذلك يدلنا على فشو الصناعات والفنون ، وبكفينا في تصور مبلغ المستوى الثقافي وانتشار العلم والادب يومئذ ، اجتماع مائة شاعر على باب المعز بن باديس ونبوغ أمثال الحكيم ابن عمرو الوهراني وابن رشيق المسيلي والداودي التلمساني النخ ...

ومن ضمن الشعراء المائة الذين كانوا يتوددون على القصر ، الشاعر أبو إسحاق الرقيق القائل في وقائع شلف - بالجزائر :

لم أنس يوماً بشلف راع منظره وقد تضايق فيه ملتقى الحدق
والحيل تعبّر بالهامات خائضة من صافح الدم مجرى قانيء الفلق
والبيض في ظلمات النقع بارقة مثل النجوم تهاوت في دجى الفسق
وقد بدا معلما باديس مشتهرا كالشمس في الجو لا يخفى على الحدق
وان راحت له فاض نائلها وبأسها في الورى اشفوا على الفرق
تجلى عامته الحمراء غرته كأنه قمر في حمرة الشفق
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له أبو مناد تبدي ، مات من فرق

ولاية الجزائر وزعمائها

كانت رئاسة قبيلة مغراوة الزناقية لبني يعلى بن محمد النفزي ، وتوارثها كذلك بنو عطية بن عبدالله بن خزر ، وبنو فلقول بن خزر ، الى ان انتصر عليهم بلكين الصنهاجي فأخرجهم من مواطنهم هذه الى سبتة ؛ واستعمل على حروبه بني ومانو وبني يلومي ، وهما من أشد القبائل الزناقية الجزائرية شوكة وأوفرها بطوناً ، وكان على ولاية تيهرت ايام المنصور بن بلكين أخوه أبو البهار ، وعلى آشير أخوه يطوفت وتولى

يطوفت أيضاً على ولاية تيهرت ثم ابنه أيوب ، وعقد المنصور لاخته حماد على ولاية آشير والمسيلة ؛ وزاده المعز حمل طينة والزاب وتاهرت وأطلق يده في جميع ما يمتلكه من البلاد ؛ وكان سعيد بن خزرون والياً على طينة سنة ٥٣٨١ - ٩٩١ م ثم بعده ولده فلفول ، وابن أبي حلى كذلك كان والياً بطينة إمام باديس ، وكانت رئاسة قبيلة توجين - بنواحي شلف - لعطية بن دلفين وبدر بن اثمان بن المعتز ، وكانت طينة والمسيلة ومقرة ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة للقائد بن حماد ومتيجة للقائد يوسف بن أبي محمد ، وولاية باغاية وبسكرة لصندل ، وأعمال الزاب لابي سعيد خليفة البفري. وكانت مشيخة بسكرة في بني رمان لجعفر بن أبي رمان منهم صيت وشهرة .



أمراء الدولة الزيرية - الصنهاجية

تاريخ التولية

٩٧١ = ٣٦١ م

بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي

٩٨٤ = ٣٧٣ م

أبو الفتح المنصور بن بلكين

٩٩٦ = ٣٨٦ م

أبو مناد باديس بن المنصور

١٠١٦ = ٤٠٦ م

المعز بن باديس

توفي المعز سنة ٤٥٤ - ١٠٦٣ م ودفن حيث مدفن آباءه برباط
المنستير - تونس .

مَنْ مَشَاهِيرُ الْجَزَائِرِ

الحسن بن رشيق

٣٨٥ - ٤٦٣ هـ

٩٩٥ - ١٠٧١ م

أبو علي الحسن بن رشيق أحد أئمة الادب العربي ومفخرة من مفاخر الجزائر ، ولد بمدينة المسيلة^(١) سنة ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م ونشأ بها متادباً وتعلم صناعة الصياغة على والده وبرز في فنون الادب والفقه والحديث والتاريخ ، ولما بلغ احدى وعشرين سنة من عمره ارتحل من بلده للقاء الشيخ بالقيروان فنزل بعاصمة الشمال الافريقي سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م ولقي بها عميد علماء اللغة والادب الشيخ أبا عبدالله محمد بن جعفر القزاز ، وعبد الكريم النهشلي وغيرهما من العلماء ومشيخة القيروان فلازم مجالسهم حتى اشتهر فضله وذاع صيته في الاوساط العلمية والادبية فاختره المعز يومئذ لبلاطه وقربه اليه فكان بصحبته الى وفاته ، فالتحق ابن رشيق يومئذ بولده الامير نعيم ولم يزل مقرباً لديه الى ان كانت الحملة الهلالية فانتقل المترجم الى صقلية فسكن مدينة « مازرة » الى ان وافاه أجله بها سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م تاركاً وراءه ثروة أدبية ضخمة وتراثاً علمياً عظيماً .

(١) وتسمى المحمدية نسبة الى مؤسسها ابن القاسم محمد بن عبيد الله المهدي الناطلي ، راجع تاريخ انشائها فيما قدمناه من كلامنا في تاريخ دولة بني عبيد الناطليين .

ومن أشهر مؤلفاته كتابه الجليل «العمدة» وهو يبحث في صناعة الشعر وفنونه ونقده وعيوبه فهو أجل كتاب وضع في هذا الفن ، قال ابن خلدون : ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انقرد بهذه الصنعة وأعطاهها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله . وهو مطبوع بالقاهرة في جزئين . وله كذلك كتاب «قراضة الذهب في نقد اشعار العرب» وكتاب «الشذوذ» في اللغة و«نمؤذج الزمان في شعراء القيروان» و«ميزان العمل في تاريخ الدول» و«تاريخ القيروان» و«الروضة الموشية في شعراء المهدي» ورسالة «نجم الطلب» ورسالة «قطع الانفاس» ورسالة «رفع الاشكال» و«المساري» في السرقات الشعرية ، وشرح موطأ الامام مالك وله ديوان شعر ورسائل اخرى عديدة ، قال الصلاح الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات : وقد وقعت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تجرعه في الادب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتجرعه في النقد ؛ ومن شعره قوله في مدح الشعر :

الشعر شيء حسن	ليس به من حرج
أقل ما فيه ذها	ب المم عن نفسي الشجي
يحكم في لطافة	حل عقود الحجج
كم نظرة حسنها	في وجهه عذر سمج
وحرقه بردها	عن قلب صب منضج
ورحمة أوقمها	في قلب قاس حرج
وشاعر مطرح	مفلق باب الفرج
قربه لانه	من ملك متوج
فعلوا أولادكم	عقار طب المهج

والله رحمه الله يعزى ابتكار سبعة وثلاثين نوعاً من انواع في البديع ولطول مكث ابن رشيق في بلاط ملوك صنهاجة بالقيروان اشهر وعرف بين الادباء بالقيرواني والا فهو جزائري «مسيلي» ولادة ومنشأ .

أبو العباس أحمد الباغاثي

٣٤٥ - ٤٠١ هـ

٩٥٦ - ١٠١١ م

هو أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبدالله الربيعي الباغاثي المقرئ ، كان من أهل العلم والفهم والذكاء ، ذكره ياقوت الحموي في معجمه فقال : كان لا نظير له في علوم القرآن على مذهب مالك ، مولده بمدينة « باغاية » سنة ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م ودخل الاندلس سنة ٣٧٦ هـ - ٩٨٦ م وقدم لقراء بالمسجد الجامع بقرطبة واستأذنه المنصور محمد ابن أبي عامر لابنه عبد الرحمن ثم عتب عليه فأقصاه ثم رفاه المؤيد بالله هشام بن الحكم في دولته الثانية الى خطه الشورى بقرطبة مكان أبي ممر الاشيلي الفقيه وارتحل الى المشرق فكان فيمن روى عنهم من علماء الامصار ؛ أبو الطيب بن غلبون وأبو بكر الادفوي روى عنهما بمصر .

وكانت وفاته رحمه الله لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٤٠١ هـ - ١٦ جوان ١٠١١ م .

ابن عمرون الوهراني

هو الحكيم الرباضي والعالم الثقة ابو محمد عبدالله بن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني احد شيوخ العلم والحكمة له رواية واسعة عن شيوخ افرقية كآبي محمد بن ابي زيد وغيره من كبار علماء عصره ، متضلماً في علوم الحساب والطب نافذ البصر فيها ماهراً في المعالجة ومدواة ما استعصى من الملل والامراض سافر الى الاندلس في تجارة له سنة ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م فسكن اشبيلية عام السيل الكبير ، حدث عنه ابن خزرج وقال انه قارب الثمانين في عمره وترجم له ابن بشكوال ولم يذكر تاريخ وفاته .

احمد الداودي

١٤٠٢ هـ - ١٠١١ م

هو شيخ الاسلام وامام علماء الشريعة المجتهدين الشيخ ابو جعفر احمد بن نصر الداودي التلمساني ، اصله من مدينة المسيلة وقيل من بسكرة وسكن طرابلس الغرب طلباً للعلم ثم نزل تلمسان فاقام بها الى وفاته وبها الف كتابه الذي حاز به الفضل على غيره من جميع من تقدمه او تأخر عنه من علماء الاسلام ، الا وهو شرحه لصحيح الامام البخاري المسمى بالنصيحة ، فانه اول شرح وقع لهذا الكتاب الجليل اذ لم يسبقه غيره مطلقاً الى هذا الفضل ، وله كتب جليلة اخرى في الحديث والفقه كثيرة اهمها بعد شرحه على البخاري ، كتاب النامي شرح به موطأ مالك ، وكتاب الواعي في الفقه ، والايضاح في الرد على القدربة الخ ... وله من التلاميذ والمريدين كثير منهم ابو بكر بن محمد بن ابي زيد ، وعبد الملك البوني وغيرهما . توفي رحمه الله بتلمسان القديمة سنة ١٤٠٢ هـ - ١٠١١ م ودفن شرقي باب العقبة ، وضريحه مشهور بها ، ويقول ابوراس العسكري ان وفاته كانت في آخر القرن الرابع ، وذكره الشريف العلمي في نوازله وقال عنه انه توفي بتلمسان سنة ١٤٤٢ هـ - ١٠٥٠ م ؟ ... وعده ابن فرحون من اهل الطبقة السابعة .

جدول تاريخي

٣٦١ - ٤٤٢ هـ = ٩٧٢ - ١٠٥١ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وابرز الاحداث
٩٧٢ = ٣٦١ م	تولية الامير بلكين على المغرب العربي .
٩٧٤ = ٣٦٣ م	زحف بلكين على المغرب الاوسط - الجزائر .
٩٨٠ = ٣٦٩ م	القضاء على ثورة زناتة .
٩٨٤ = ٣٧٣ م	وفاة بلكين وولاية ابنه المنصور .
٩٨٩ = ٣٧٨ م	القضاء على ثورة أبي الفهم الكتامي وقتله .
٩٨٩ = ٣٧٩ م	خيبة أبي الهار في ثورته بتاهرت وولاية بطوفت عليها وحماد على آشير .
٩٩٠ = ٣٨٠ م	استئصال كتامة .
٩٩١ = ٣٨١ م	انتصار زيري بن عطية على الجزائر وبثه للدعوة الاموية .
٩٩٤ = ٣٨٤ م	انشاء مدينة وحدة .
٩٩٦ = ٣٨٦ م	وفاة المنصور وولاية ولده باديس .
٩٩٩ = ٣٨٩ م	سقوط أعمال تيمرت وتلسان بيد الحاجب الاموي .
١٠٠٥ = ٣٩٥ م	استئصال زناتة على يد حماد .
١٠٠٩ = ٤٠٠ م	تأسيس مدينة القلعة الحمادية .
١٠١٧ = ٤٠٧ م	اختلاف حماد على باديس ووفاة الامير وولاية ابنه المعز .
١٠٣٨ = ٤٢٩ م	رد هجمات زناتة .
١٠٤١ = ٤٣٢ م	حصار القلعة والافراج عنها - بعد سنتين - وانفصال مملكة الجزائر عن ولاية افريقية .
١٠٤٣ = ٤٣٥ م	رفض الدعوة الشيعية والتمسك بمذهب الامام مالك .
١٠٥١ = ٤٤٢ م	الزحف الهلالي .

الدَّولة الحَمَادِيَّة

٤٠٥ - ٥٤٧ هـ

١٠١٤ - ١١٥٣ م

نشأتها

هي ثاني دولة مسلمة جزائرية نظامية تأسست بهذه البلاد ، انشأها ذلك البطل الداهية مؤسس القلعة حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي ، فهي اخت دولة صنهاجة الشرقية غير انها كانت متقدمة عن اختها في الاستقلال ورفض التشيع والدعوة الى الخلافة العباسية ببغداد ، وذلك ما كان سبباً في نشوب ما تقدم ذكره من الحروب بين حماد وباديس ، ثم بين المعز وحماد ، كما علمت فيما ذكرناه من تاريخ دولة صنهاجة الزيرية ؛ وانتهى الامر باستقلال حماد بمملكة الجزائر سنة ٤٠٥ هـ - ١٠١٤ م .

كان ابتداء ظهور شخصية حماد وتألقها في عالم الحكم وميدان السياسة منذ سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م حيث ولاه الامير باديس اعمال الجزائر الشرقية واقطعه مدينة آشير ونواحيها ومنحه لقب نائب الامير بتلك النواحي ، ولقد اظهر حماد في ولايته هذه مقدرة عظيمة في السياسة والبطولة الحربية وقيادة الجيش ، وخاصة ايام ثورة الاخوين ماكسن وزاوي سنة ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م . وفي قضائه على زناتة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م قطمحت نفسه يومئذ لانشاء مملكة جزائرية مستقلة ، فأنشأ القلعة سنة ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م واتم

تحصينها في عامين كما مر بيانه ومكث بها منازعاً لباديس في حكم الجزائر فاستحكم بينها الشقاق الى ان اظهر حماد الانفصال عن دولة باديس ونقض البيعة سنة ١٤٠٥ هـ - ١٠١٤ م واعلن سلطته على الجزائر ؛ وانقسم يومئذ بنو زيري الى فرقتين : فرقة بني حماد بالقلعة وفرقة بني باديس بالقيروان فكانت هنالك حروب وخطوب بين عاهلي صنهاجة وكان النصر فيها سجالاً ثم كانت المودة والصالح بينه وبين المعز فقسلاً مدة اربع وعشرين سنة ، ثم تغير عليه المعز سنة ٤٣٢ هـ - ١٠٤٠ م فحاصره بالقلعة ثم عدل عنه وتركه لشأنه ففرغ يومئذ حماد لاقامة دعائم ملكه واشادة سلطانه .

يقول لسان الدين بن الخطيب في وصف حماد هذا بانه كان نسيج وحده ، وفريد عصره ، وفحل قومه ، ملكاً كبيراً ، وشجاعاً ثباتاً ، وداهية حصيفاً ، وكان من اكل الملوك ؛ قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدل . وحدثوا عنه انه قال ما تدهى علي احد قط ولا خدعني الا امرأة وكعاه من البرير ! ... في قصة وقعت له حكاه البكري في ماله (١) .

كان مقر حماد ثارة بالقلعة وثارة بآشير ، ويغلب عليه المكث بالقلعة وهكذا استمر في سلطانه الى ان وافاه اجله بالقلعة وقيل بمكان اخر يقال له « تازمرت » وذلك في شهر رجب ، سنة ٤١٩ هـ - ١٠٢٨ م وتولى مكانه ولده القائد .

نظامها الحكومي

شكلها السامي ملكي وادارتها حرة مستقلة تحت اشراف رئيسها الاعلى الامير او الملك كما شئت فسمه ، ولقد كان للمملكة عاصمتان ، القلعة اولاً ثم بجاية ، واعضاء الدولة يومئذ هم الوزراء والعمال المنتخبون في ام مراكز القطر الجزائري كقسنطينة وبونة - عنابة - والجزائر ، وآشير ، والقلعة ،

(١) راجع المالك والمالك ص ١٨٧ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

وجيجل ، ومرسى الدجاج - ما بين ازفون وبجاية - ونقاوس الخ ... ولادارة ارض الجنوب جماعة من المحنكين تصرف فيها تحت رعاية الملك الحمادي ، وعاصمة الجنوب يومئذ مدينة بسكرة . اما الجيش فهو متجمع من جميع بلاد الجزائر ، ولقد بلغ عدد فرسان القلعة فقط ايام الناصر اثني عشرة الف فارس ، عدا المشاة . والحكومة اسطول ضخيم كله من صنع دار الصناعة ببجاية ، وخزينة الحكومة غنية بمواردها من المغنم والحراج وغير ذلك من الموارد الشرعية . وقد خصصت لها ادارة خاصة ، اما النقود فانها لم تكن مسكوكة باسم هذه الدولة الا في عصر الملك المنصور بن الناصر بن علناس ، ويرجع نظام القضاء عندهم غالباً الى مقتضى سير مذهب الامام مالك ، وكانت صلاة الامير في المسجد في مقصورة خاصة على سنة الملوك وشارة السلاطين .

حدود الجزائر الحمادية

هي لا تتعدى حدود عمالي الجزائر وقسنطينة المعهودة اليوم تقريباً وتمتد في الجنوب الى بني وارجلان - وارقلة - ويذكر المراكشي ملك بني حماد فيقول : انهم كانوا يملكون من قسنطينة المغرب الى موضع يعرف بسيوسيرات بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل^(١) ويقول ابن خلدون : ان حماد اقتطع ممالك الغرب لنفسه ما بين جبل أوواس الى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها ، واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري واستحدث ملكاً آخر قسماً لملك آل باديس^(٢) وبجاورها غرباً دولة المرابطين ومواطن زناتة ، وشرقاً مملكة بني زيري الصنهاجية .

وهكذا كانت بلاد الجزائر في مستهل القرن الخامس الهجري - اوائل الحادي عشر الميلادي - مقسمة كلها بين امراء البربر .

(١) الموجب للمراكشي ص ٢٥٧ ط ليدن ١٨٨١ م .

(٢) المقدمة ص ١٤٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

الامير القائد بن حماد

تولى بملكة الجزائر سنة ٤١٩ هـ - ١٠٢٨ م وكان مثل والده في الحصافة وحسن الرأي والتدبير ذا دراية بشؤون الادارة عظيم القدر محترماً في قومه استقام له الامر عندما اشتغل عنه المعز بن باديس بما دهمه من زحف الاعراب .

حملة الجنويز على بونة

اشتدت شوكة المسلمين على النصارى بسواحل هذا البحر وجزره ، فانحدت يومئذ امم النصرانية مع الجنويز وسكان بيزة من الامة الطليانية ، وحلوا بتهور عنيف سنة ٤٢٥ هـ - ١٠٣٤ م على مركز الاسطول الاسلامي الجزائري ببونة فدمروا المرفأ وتركوا المدينة خراباً .

خيبة امير المغرب الاقصى في حملته على الجزائر

تحرك حمادة بن زيري المغراوي من مركز امارته بالمغرب الاقصى زاحفاً بجيوشه الجاراة الى الجزائر سنة ٤٣٠ هـ - ١٠٣٨ م فردته جيوش القائد بن حماد عن الحمى وظهرت عليه بحيلة حربية فاذعن حمادة يومئذ لبذل الطاعة والصلح .

رفض دعوة بني عبيد الشيعية

وبعد ان اطمان القائد وزالت الوحشة وارتفعت الاحن التي كانت بينه وبين المعز ، عاد الملك سنة ٤٣٢ هـ - ١٠٤١ م الى رفض الدعوة الشيعية مقلداً في ذلك والده حماداً ودعا مثل ابيه الى الخلافة العباسية ، فنهض المعز الى مقاتلته فحاصره بالقلمة وأشير واطال حصاره سنتين ثم كانت هدنة .

وفي سنة ٤٣٩ هـ - ١٠٤٧ م تظاهر القائد باظهار الطاعة لبني عبيد فاكتمسب بذلك مودة البلاط الفاطمي وحاز رضا الخليفة عنه فأنعم عليه بلقب

شرف الدولة ، وكان القائد يريد بذلك تأكيد حربيته واستقلال بلاده ، وان منزلته السياسية بالجزائر لا تقل رتبة عن المعز بافرقية ، ولما بلغ مبتغاه وحاز على مراده من عدوه ومنافسه انقلب على الفاطميين ونقض بيعتهم وعاد الى مبايعة الخلافة العباسية وبقي على ذلك الى وفاته في شهر رجب او ذي القعدة سنة ٤٤٦ هـ - اكتوبر ١٠٥٤ م فخلفه ولده محسن .

الامير محسن بن القائد

تسلم زمام الملك اثر وفاة والده سنة ٤٤٦ هـ - ١٠٥٤ م وكان شبيهاً به في اخلاقه وسجاياه ، غير انه كان شديداً قاسياً ، وكان فيما اوصاه به والده ان لا يخرج من القلعة ثلاث سنوات وان لا ينازع اعمامه في مناصبهم ، فخالف محسن ذلك كله ، فثار ضده عمه يوسف واستحكم الخلاف بينهما ونهضت الشحنة فقتل اربعة من عومته ، ويومئذ ابنتى عمه يوسف قلعة بجبل منيع سماها الطيارة وزحف منها اواسط القرن الخامس الهجري فخرّب مدينة آشير واستباح اموالها .

تزاحم آل حماد

حاول محسن الانتقام من عمه يوسف فجهز جيشاً لمقاتلته وجعله تحت امره بلكين بن محمد بن حماد ، قاصداً به الغدر ايضاً فجعل في مؤازرته رجلين هما من سادة العرب موعزاً اليهما بقتله فتفطن بلكين للمكيدة فعمد الى الاحسان اليهما وغمرهما باكرامه وافاض عليهما من انواع البر والجلود ما حول نظرهما اليه فعدلا عن الفكرة المبيتة واخبراه بما امرّ لهما الامير محسن فزادهما ذلك عنده شرفاً ورفعة ويومئذ تأمرؤا جميعاً على اغتيال الملك ورجعوا الى القلعة ولم يكن بها محسن ، ولما اتصل بخبر رجوع القوم ومعهم بلكين وكان يظن انه قد مات ؛ أخذ يسير الى القلعة فادركه بلكين وقتله في ربيع الثاني ٤٤٧ هـ - جولييت ١٠٥٥ م واحتل المدينة لئلا ودعا فيها لنفسه فأذعن له القوم وبايعوه .

الامير بلكين بن محمد بن حماد

اشتهر بلكين هذا بالبطولة والشهامة والنجدة والفتوح ، وكان جريئاً سفاكاً للدماء ذا ارادة وعزيمة جبارة مؤثراً للعزلة والانفراد عن الناس مولعاً بالادلج كثير الغارات ، وكان لا يخرج الا دارعاً ولكثرة غزواته ابفضته الرعية وانحرف عنه مال بسكرة من آل رومان فنكل بهم وقتل أميرهم جمعراً سنة ٤٥٠هـ - ١٠٥٨ م وعاقبهم عقوبة مؤلة ، وجعل أمر بسكرة بعدم لبني سندي من أهلها الى ان انقرض دولتهم .

الزحف الى المغرب الاقصى

لقد اكثر بلكين من زحفه على المغرب الاقصى حتى استولى على عاصمته فاس في صفر ٤٥٤هـ - فيفري ١٠٦٢ م وقاتل هنالك المصامدة وأخرج منها يوسف بن تاشفين منهزماً الى الصحراء واوغل بلكين في ديار المغرب .

اغتيال بلكين

بالغ بلكين في الغلظة والجفاء من قومه واخافة اقرانه واقاربه وغلا في الحذر منهم فقتل وسفك دماء الكثير ممن حامت حولهم الشكوك والظنون ، وكانت من بين هؤلاء القتلى زوجته « تاضميرت » ابنة عمه واخت الناصر بن علناس ، وكان قتله لما بتهمة انها مالأت على قتل اخيه مقاتل بن محمد فمقد عليه اخوها هذا واضمر الانتقام منه وكنتم غيظه الى ان واته الفرصة يوم ان عاد بلكين من غزو المغرب الاقصى سنة ٤٥٤هـ - ١٠٦٢ م فدخل عليه الناصر في مجلس انسه وطربه في جماعة من صنهاجة فقتلوه يوم الخميس منتصف شعبان - ٢٤ اوط .

الامير الناصر بن علناس

هو من اشهر ملوك هذه الدولة واعظمهم شأنًا واعلام كعباً واثبتهم قدماً في الملك ، كان جواداً كريماً وشجاعاً كميّاً ، سفاكاً للدماء وفي ايامه

استفحل ملك بني حماد وشف على غيره من بمالك الشمال الافريقي ، كان اول ما تولى الملك مقيماً بالقلعة ، ثم استوخها وكره المقام بها فابتنى لاقامته قصوراً شائعة خارج القلعة فسكن بها واحتفل بالمسجد الجامع فاشاده من جديد . قال ابن خلدون : وفي ايام الناصر هذا فاعتز آل حماد هؤلاء وعظم شأن اباهم فبنى المباني العجيبة المونقة ، وشيد المدائن العظيمة ، وكان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس اخوانهم بالمهدية ^(١) .

القضاء على بني رومان بسكرة

كانت ولاية بسكرة في آل رومان يتوارثونها بينهم تحت رعاية ونفوذ الحماديين فلما قتل بلكين بن محمد اعتلام التطاول على الناصر بن علناس فخرجوا عن طاعته فجهز اليهم الملك وزيره خلف بن حيدرة فقصى عليهم وعلى مناصرهم بمن آزرهم في هذه الثورة واسر رؤسهم فعملهم معه الى القلعة فصلبوا فيها جميعاً ، ويومئذ انتقلت ولاية بسكرة من بني رومان الى امرة عروس من بني سندي وبقيت هذه الامارة فيهم الى نهاية دولة بني حماد .

وقعة سيبيية والزحف الهلالي

لم يظهر لبني هلال اثر في الجزائر الى ان حالف الملك الناصر قبيلة الاثيج الهلالية سنة ٥٤٥٧ - ١٠٦٥ م وخرج لامتلاك تونس فيومئذ قالاً الحلفاء من الاثيج مع قوسهم رباح وزغبة وزنازة ايضاً ضد الناصر ، وخرجت جيوش تميم بن المزر لرد الحملة الناصرية فكان هؤلاء جميعاً بدأ واحدة على الناصر ، وكان اللقاء بفحص سيبيية غربي القيروان وعلى نحو الخمسين كيلومتراً جنوب الاريس فانهمزم الناصر وقتل من جيشه اربعة وعشرون الفا واستشهد اخوه القامم ، فاضطر الى التقهقر والرجوع الى الجزائر ونجا الى قسنطينة فقبه الهلاليون واقتحموا عليه المدينة فاستولوا

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٤ بولاق ١٣٨٤ هـ

عليها وعلى القلعة والمسيلة وطبنة وهم مع ذلك ينهبون ويخربون فتركوا البلاد بلاقع ! والديار خراباً ! ... ثم تلاحقت طوائف الاعراب باحلافهم الهلايين الى الجزائر من طريق سبية ودخلوا تبسة وانتشروا في جنوب اوراس وقرى الزاب ولسكوا طريقهم ما بين الاطلسين التلي والصحراوي حتى انتهوا الى وادي الساحل وجبال البيان واحدر منهم آخرون من نواحي باجة فظهروا بنواحي القالة وبونة وقسنطينة الى القل وجبال بابور ويومثذ احيطت مدينة بونة الحديثة (هي على ثلاثة اميال من القديمة) بسور ؛ وكيفما كان الامر فان اضطرار بني هلال بالجزائر لم تبلغ مبلغها بتونس وطرابلس وذلك حيث ان الجزائر لم تكن مقصودة من الحملة بالذات .

اخفاق المنتصر الزناتي في هجومه على الجزائر

ما كادت تلتئم جراحات حوادث سبية والمهجوم الهلالي على الجزائر حتى فاجأها المنتصر او المستنصرين خزرون الزناتي بهجومه ايضاً فخرج بقومه من طرابلس الغرب وحمل على المسيلة واشير طمعاً في استرجاع ما كان لاجداده من الملك والسلطان بالحضنة فاجلده الناصر يومثذ الى الصحراء ثم اعاد الزناتي هجومه على القلعة الحمادية واوغل بتلك النواحي فاكثر فيها الفساد ، فصالحه الناصر على تسليم مقاطعة الزاب وريفة لزنانة واوغز الى عامله على بسكرة عروس بن سندی باغتيال المنتصر فأقام العامل مأدبة في داره واستدعى اليها المنتصر وقتله بواسطة بعض الخدم عند انكبابه على الطعام وذهب برأسه الى الناصر فنصبه ببجاية ونصب الجثة بالقلعة سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٦٨ م وحمل الحماديون يومثذ على امارة زنانة فقتلوا عليها وقتلوا رؤساءها واحتلوا مدينة بني وارجلان - وارقلة - وحطموها .

انشاء مدينة بجاية

تشاءم الملك الناصر كثيراً لحوادث الهلايين بتونس والجزائر وخاصة ما اصبحت عليه عواصم القطر الجزائري باعمال القلعة وقسنطينة من التدهور

والانهار ، فكان كثير التفكير في انشاء مدينة حصينة لسلطانه ، وندم على ما فرط منه في محاربة ابن عمه تميم بن المعز الصنهاجي وهجومه على مملكته فسرعان ما اظهر رغبته في حقن الدماء وعقد الهدنة . فجاء يومئذ سفير تميم ووزيره محمد بن البعبع الى القلعة لابرام وثيقة الصلح ، وكان مروره في طريقه الى القلعة على ضيعة صغيرة كانت اصنهاجة تدعى « بجاية » وهو اسم للقبيلة البربرية التي تسكنها وهي على مقربة من مدينة « صلاي » الفينقية ، فاعجب بمركزها الطبيعي الجميل وموقعها الجغرافي الحربي المنيع ، فلما اتصل بالناصر اخبره بما رآه في طريقه من حسن موقع بجاية وحصانتها من هجوم العدو وانها صالحة لان تكون عاصمة ملك بني حماد نظراً لمناعتها واهمية خليجها الفسيح الذي يسع اسطولاً ضخماً ، فخرج الناصر حينئذ بنفسه الى هذه الناحية لتحقيق ما اشار به السفير فوجد فيها ضالته المنشودة فشرع في تأسيس العاصمة الحمادية الثانية « بجاية » بذلك المكان سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٦٧ م ثم انتقل اليها في السنة بعدها وسماها « الناصرية » باسمه واسقط عن سكانها الجباية والحراج ، وانشأ بها دارين لصناعة المراكب والسفن واساطيل القتال واقام بها من المهارات والصناعات والفنون ما جعلها قبة اهل الشرق والغرب .

ثورة هاملي المدينة والشلف

كانت ولاية أمال المدينة وشلف على عهد الناصر لرئيسين من بني سنجاس فالمدينة لابي الفتوح بن خنوش ، وشلف لمعنصر بن حماد فخرج الاول عن طاعة بني حماد فقتله الناصر وهجم الثاني على مدينة مليانة وقتل من بها من المشيخة والرؤساء من بني ورسيفان المغراويين ، فاستأذن يومئذ سكان مليانة في قتال معنصر فأذن لهم الناصر فقتلوه وبعثوا اليه برأسه وهو ببجاية فوضعه الى جنب المنتصر الزناقي .

امتداد المملكة الحمادية

كثر عيث الاعراب الهلايين بنواحي تونس فاضطر أهلها الى الالتجاء

الى اهل الدولة الحمادية بالقلعة الناصر بن علناس ، فوفد عليه سنة ٥١٤هـ - ١٠٥٩م وجوه اهل تونس وزعمائها مدعين اليه بالطاعة ومستغيثين به من هؤلاء الخراب ... فأقبل عليهم وأكرمهم وولى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان ، ومرعان ما جاهر هذا العامل بالعصيان والاستقلال عن دولة بني حماد ، فخرج الناصر الى ولاية تونس في حلفائه العرب سنة ٤٦٠هـ - ١٠٦٧م فاحتل مدينة (الاربس) وقتل عاملها ابن مكرز وأمن أهلها ثم نزل بالقيروان فكث بها سنة كاملة وأخيراً عاد الى الجزائر مخافة اضطراب جبل الرعية وفسادها عليه ، فتأسست حينئذ دولة بني خراسان بتونس ولم يكد يضي على انشائها مدة قرن واحد حتى قضى عليها الموحدون .

مصاهرة عاهلي صنهاجة

بعدما أتم الناصر تأسيس عاصمته الجديدة «الناصرية» - بجاية - واستقر بها واطمأن على بلاده خطب الامير تميم بن المعز ملك المهدية في بنته بلارة توثيقاً لعرى المودة والصداقة بين الملكتين المتجاورتين وتأكيداً لروابط الاوشاج العائلية بين الامرتين ، فزوجها أبوها منه سنة ٤٧٠هـ - ١٠٧٧م وجعل الناصر لها ثلاثين الف دينار صداقاً ، فلم يقبل منها الامير الا ديناراً واحداً كهر شرعي فقط ورد الباقي على الناصر ، وسار موكب العروس من المهدية الى بجاية في ابهة وهجة تحف به الجنود والسادة والاشراف يحملون معهم جهاز العروس الفخم من حلى وحلل ... وكان اقبال الموكب ببجاية اقبالاً باهراً ، وانزلت العروس بقصرها الخاص الذي انشأه الناصر باسمها «قصر بلارة» .

خبيّة عجبية في تمردهما

عجبية اسم لقبيلة من بربر الجزائر تسكن ما بين سطيف والقلعة ؛ كانت تتربّع مفترسة غفلة الملك لاعلان ثورتها ضد السلطة الحمادية ، حتى

سنع لها ذلك يوم خروج الناصر لتفقد مملكته ؛ فوثبت على القلعة برئاسة قائدها علي بن ركلان وكان الناصر يومئذ بالمسيلة ، فانبرى الى هؤلاء الثوار فدحرم وقضي عليهم ؛ وانتحر رئيسهم ابن ركلان .

المرابطون في الجزائر

ما كان لدولة المرابطين ان تتجاوز وتصفح عن حملة الحمادين على المغرب الاقصى سنة ٤٥٤هـ - ١٠٦٢ م وما كانت لتنسى كذلك انزام حكومة فاس يومئذ الى الصحراء فبقيت تعمل في الحقاء على الانتقام وتستعد للهجوم حتى تيسر لها ذلك في سنة ٤٧٢هـ - ١٠٧٩ م فنهض القائد الممتوني مزدلي بن بركلان على رأس عشرين الف مقاتل زاحفاً على المغرب الاوسط فبلغ تلمسان فعات بنواحيها ثم عاد الى مركزه من المغرب الاقصى ولم تمض سنة بعد ذلك حتى فاجأ المرابطون مدينة تلمسان فأخرجوا منها أمراء بني خزر الزناتيين واستولوا عليها وضربوا بها العملة .

وفي سنة ٤٧٤هـ - ١٠٨١ م زحف الامير يوسف بن تاشفين نحو الجزائر فابتنى محلة الشهيرة بتاقرارت في ضواحي تلمسان ليجمع فيها جنوده وعتاده ، ومنها توجه الى وهران ففتحها ثم الى تنس وجبال وانشريس وأعمال شلف متتبعاً مواطن زنانة حيثما كانوا حتى أتى على جميع أماكن مغراوة فبلغ الى جدران مدينة الجزائر ، ثم أحجم ورجع الى حضرته فدخل مراکش في ربيع الثاني ٤٧٥هـ - سبتمبر ١٠٨٢ م فكان ملك المرابطين يومئذ بافريقية من مدينة الجزائر شرقاً الى طنجة غرباً الى آخر جبال السوس الاقصى والى جبال الذهب من بلاد السودان ، وانحازت يومئذ المملكة الحمادية بالجزائر الى الشرق .

وفاة الناصر بن علناس

كانت وفاة الناصر يوم الجمعة سابع جمادي الاول ٤٨١هـ - فاتح شهر اوط ١٠٨٨ م وذلك بقصره خارج بجاية فعزل منه الى العاصمة

الحادية فدفن بها بعد ان قضى نحو ربع قرن على رأس المملكة الجزائرية ،
وكان عصره من ازهر ايام بني حماد .

الامير المنصور بن الناصر

نشأ المنصور عزيز النفس شهياً انوفاً ايباً ، محافظاً متسماً باوصاف
الكمال ذا خصال شريفة اديباً كاتباً يقول الشعر ويرويه ، تولى عرش
الجزائر بعد وفاة والده سنة ٤٨١ هـ - ١٠٨٨ م فساس الرعية بحكمة
وحصافة ، واتم ما اختطه اسلافه من برامج العمل لخير الحكومة والشعب
فاشاد المصانع والقصور واعتنى بالري والزراعة فاجرى المياه وامر بغرس
الساتين والحقول ، وكان من آثاره بالقلعة قصر الملك وقصر المنار وقصر
الكوكب وقصر السلام ؛ وبعد انتقاله الى بجاية سنة ٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م
انشأ بها قصر اللؤلؤة وقصر اميون ، وشيد جامعها الأعظم وهو مع
ذلك في نفسه يميل الى التشف والزهد يخفف نعليه ثارة بيده ويرقع
ثيابه بنفسه واليه يعود الفضل في تمدن مملكة بني حماد .

تورد عامل قسنطينة

كانت ولاية قسنطينة تحت ادارة بلباز عم المنصور ، فحدثته نفسه
يوماً بانتقاض العهد وخفر الذمة ؛ فرماه المنصور بقائده ابي يكنى فقبض
عليه ودفعه الى القلعة اسيراً وجلس هو مكانه وجعل اخاه ويغلان على
ولاية بونة - عنابة .

دلس الاندلسية

كانت ولاية المرية بالاندلس للمعتصم بن صمادح - احد ملوك الطوائف -
فلما بلغه استيلاء المرابطين على اشبيلية مات غماً وترك ولده معز الدولة
بن صمادح والياً على المرية فاستولى عليها المرابطون ايضاً سنة ٤٨٤ هـ -
١٠٩١ م ويومئذ ارتحل بن صمادح بأهله وماله من الاندلس ملتجئاً الى

الجزائر وذلك بعد ان اوفد احمد بن عبد العزيز بن عيشون الى المنصور
يخطب اليه جواره ففسح له في البلاد وخيره في اقطارها فنزل على الملك
المنصور بجبابة ؛ فاقطعه احوال مدينة دلس فاصبحت هذه المدينة بعد
ذلك بفضل عمل هذه الجالية الاندلسية مركزاً ثرياً ؛ فكان فيها كما
يقول الادريسي : الديار والقصور والمنتزهات ؛ وبها من رخص الفواكه
والاسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله ؛ كما يوجد بها
الكثير من البقر والغنم ؛ وتباع جملتها بالاسعار البسيرة ويخرج من
ارضها الى كثير من الافاق .

ثورة أبي بكى

هو ابو بكى بن محسن بن القائد بن حماد احد قادة المنصور وقرباه
تولى على قسنطينة بعد ظفريه بعم المنصور بلباز الثائر ؛ فاستبد بالامر
واعلن عصيانه سنة ٥٨٧ هـ - ١٠٩٤ م وبعث باخيه وبغلان عامل بونة
الى تميم بن المعز امير المهدي يستجيشه في مقابلة تسليم ولاية بونة ؛
فاستجاب له تميم وبعث معه ولده ابا الفتوح واخذوا معاً في استنصار
المرابطين ومن حولهم من الاعراب ؛ وبينما هم جميعاً في تدبير غزو
المنصور حتى فاجأهم جيوشه فاحاطت بمدينة بونة واحدقت بها من جميع
جهااتها طيلة سبعة اشهر ثم هاجتها وقبضت على ابي الفتوح فاعتقلته بالقلعة ؛
وتقدمت الى حصار قسنطينة ففر امامها ابو بكى الثائر مخفياً بقلعة في
جبل آوراس ؛ مستخلفاً عنه صليص بن الاحمر احد رؤساء قبيلة الاثبيج
العربية ؛ وسرعان ما نزل صليص عن قسنطينة مدعياً للمنصور ثم داخله
قلبي فتمكينه منها على مال يبذله ففعل ، وواصله باموال ولم تزل الجنود
الحمدية في اثر ابي بكى حتى ظفرت به في معقله فاقطعته عليه وقتلته
وجعلت ولاية قسنطينة يومئذ للحسن بن العزيز .

سقوط آشير بيد المرابطين

لم تزل دولة المرابطين تتروى غرة من حكومة بني حماد لاستكمال

الفتح بالجزائر حتى سنحت لها فرصة استغلالها بثورة ابي يكنى وتفرق جنودها في هذا المجال فاحتل المرابطون بومثد مواطن صنهاجة الغربية بالجزائر وتحصنوا بها فاجلأهم عنها المنصور ، ثم عقدت الهدنة والصلح بينه وبين يوسف بن تاشفين ؛

واعاد المرابطون بعد ذلك غزؤهم للجزائر بقيادة محمد بن تينهار فردم عنها عبد الله بن المنصور وكانت الوقائع حول مدينة الجزائر شديدة فعوضرت المدينة يومين ، ثم كان سقوط مدينة آشير بأيديهم سنة ٤٩٥ هـ - ١١٠١ م فدسروها تدميراً وبقيت كذلك الى ان اعاد اسادتها بنو حماد .

انكسار شوكة المرابطين بتلسان واخضاع العصاة

لم يكد بدأ روع المنصور بما اوقع بملكته المرابطون ، حتى خرج بنفسه لقتالهم في شوال سنة ٤٩٦ هـ - جويلط ١١٠٣ م وحمل عليهم حملة شعواء بتلسان في عشرين الف مقاتل ، فكثرو يومئذ عدد القتلى والجرحى وكسرت شوكة المرابطين فهزموا عن تلسان الى تسالة ودخلها المنصور في جنده فعات فيها جيشه وعظمت المحنة باهلها ، فخرجت يومئذ زوجة والي المرابطين مستعطفة المنصور ومستعبدة ، فتأثر الملك لمنظرها الحزين وانكبها على قدميه ، فتجافى عنهم وابقى عليهم . وتم السلم بين المملكتين المتجاورتين ثم قفل المنصور عائداً الى عاصمته . فخرج على القلعة فتنزل بها مشغناً في قتال زنانة بنواحي الزاب ؛ ثم انتقل الى وطن زواوة فناجز العصاة من بني عمران وبني تازروت واهل المنصورية وجمعة الصهريج والناطور . ثم لم يكن هناك من الاحداث بالجزائر ما يستحق الذكر الى وفاته سنة ٤٩٨ هـ - ١١٠٤ م .

الامير باديس بن المنصور

يكنى بابي معد ، تملك بعد وفاة والده في شهر ربيع الثاني ٤٩٨ هـ -

ديسمبر ١١٠٤ م ، واشتهر من بين ملوك هذه الدولة بشدة الشكينة والبأس
ومرعة الغضب والبطش وسفك الدماء ؛ ولم يصلنا عنه من الاعمال ما
يستحق التدوين الا ما كان من قبيل التولية والعزل ، فانه اكثر من
ذلك الى حد الاضطراب وعدم الثبوت . فعزل اخاه العزيز عن ولاية
الجزائر ونفاه الى جيجل وقتل وزير والده عبد الكريم بن سليمان ونكب
بمعامل مجاية ورمى ببعض الصالحين الى الاسود وتوعد امه بالقتل ! ...
الى غير ذلك مما شاكل هذه الاعمال السوداء .

ولم تطل مدته ، اذ توفي من سنته في الثالث عشر من شهر ذي
القعدة ٤٩٨ هـ ٢٧ اوط ١١٠٥ م . وتولى بعده اخوه العزيز الذي كان
مغرباً بمدينة جيجل معزولاً عن ولاية الجزائر .

الامير العزيز بالله بن المنصور

كان يلقب بالميسون لولادته ليلة ولاية ابيه المنصور ٨ جمادى الاولى
٤٨١ هـ ٢ اوط ١٠٨٨ م وبويع بالملك وهو في منفاه بجيجل آخر سنة
٤٩٨ هـ - ١١٠٥ وكان اول من بايعه هو قائد الاسطول الحمادي علي بن
حدون فتولى الملك يومئذ وسنه سبع عشرة سنة ، وكان حازماً ماهراً
جميل الصورة عارفاً بتسيير الدول والممالك . وكان من دهائه ان تزوج
من بيوتات خصائه زفانة ومن بيت الملك بالمهدية ، فبنى بيتاً ماخوخ
الزفاتي اولاً ، ثم بيدر الدجي بنت يحيى بن تميم ملك المهدية ، سنة ٥٠٩ هـ -
١١١٥ م فأمن لحينه ثورات زفانة المتوالية ، وعداوة دولة صنهاجة ، وكثيراً
ما كان يكتب ملوك عصره في الآفاق متودداً ، فانتشر الامن ببلاد
وساد الهدوء بين الناس ، ومن فرط شغفه بالعلم انه كان يحضر بنفسه
بجالس المناظرة بين العلماء .

وعلى عهد العزيز هذا كان مقدم مهدي الموحدين من الشرق الى مجاية
آمرأ بالمعروف ناهياً عن المنكر (٥١٢ هـ - ١١١٨ م) فسمى به بعض
الاقوام عند العزيز واتسموا به فلما شعر بذلك خرج الى بني (ورباكل)

من صنهاجة كانوا ساكنين بوادي بجاية فاجاروه ، ونزل عليهم بلالة واقام بها اشهرأ يدرس العلم ويعقد مجالس الوعظ فاجتمع اليه الناس ومالت اليه القلوب وطلبه العزيز فمزموه وقتلوا دونه الى ان رحل عنهم الى المغرب ، وفي المعجب للمراكشي قال : ان صاحب بجاية هو الذي أمره بالخروج عنها حين خاف عاديته ، قال وبضیعة (ملالة) هذه مسجد يعرف به وهو باق الى اليوم (٦٢١ هـ - ١٢٢٤ م) ولا ادري ابني على عهده او كان ذلك بعده (١) .

رد عادية الاعراب عن القلعة

اغار الاعراب الهلاليون مجلفاتهم على القلعة الحمادية سنة ٥١٢ هـ - ١١١٨ م فاقوموا باهلها واكنسوها المدينة فاهلكوها فخرج الى محاربتهم يحيى ولد العزيز ومعه القائد علي بن حمدون فكلا بالعدو ووثبا عليه فخضع ثم عادا الى بجاية وكان مما سجله التاريخ من حوادث هذه السنة انتشار الوباء والقحط الشديد بالمغرب فبلغ ربع الدقيق بتلسان عشرين درهما .

تعود والي تونس

كانت ولاية تونس خاضعة لدولة بني حماد يديرها ولاية من بني خراسان ، ففي سنة ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م هلك عبد العزيز الخراساني وتولى مكانه ولده احمد فاستمر على الطاعة للدولة الى اوائل القرن السادس الهجري فظهر شارة الملك والسلطان وخرج عن مألوف سيرة الولاة الى رفاهية الملوك والباطين غير مبال بالسلطة الحمادية ، فنازله العزيز سنة ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م حتى عاد احمد الى الطاعة والخضوع ، ويومئذ تقدم الاسطول الحمادي الى جربة فاحتلها ثم بعد ذلك بسنة كانت وفاة العزيز ٥١٥ هـ - ١١٢١ م فخلفه ولده يحيى .

(١) المعجب ص ١٢٩ ط ليدن ١٨٨١ م وابن خلدون ج ٦ ص ١٧٦ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

الامير مجي بن العزيز بالله

كان اول ما ضربت العملة في تاريخ هذه الدولة ان ضربت باسم هذا الملك سنة ٥٤٣هـ - ١١٤٨ م ولم يحدثها احد قبله تأدياً مع الخلفاء العبيديين وكان مضروباً على الوجه الواحد من الديار الذي احسنه العزيز الحمادي هذا ؛ ثلاثة اسطر ودائرة ، فالدائرة مكتوب فيها هذه الآية الكريمة : (واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) والاسطر : الشهادتان ، وبعدها يعتصم بحبل الله مجي بن العزيز بالله الامير المنصور ، وعلى الوجه الاخر دائرة مكتوب فيها بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاثة وأربعين وخمسة وفي سطوره : الامام ابو عبد الله المتقي لامر الله امير المؤمنين العباسي ^(١) . وكان مجي فصيحاً كاتباً اديباً رصيناً مفرماً بالصيد والاهو منهمكاً في شهوراته . وبه تم عقد ملوك بني حماد وانتهت دولتهم وتقلص سلطانهم .

غزو المهديّة

لقد اصبحت البلاد التونسية تتساقط وتهوي مثل الشهب بايدي النورمان ^(٢) الواحدة تلوى الاخرى ، فتحرك الامير مجي للذب عن حوزة الاسلام والمسلمين والدفاع عن جيرانه وبني عمه وجلدته فغزا البلاد بجيوش جرارة جعلها تحت قيادة ابن المهلب ، فحاصر المهديّة سنة ٥٢٢هـ - ١١٢٨ م ثم انصرف عنها من غير طائل .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٧ ط بولاق ١٢٨٤هـ .

(٢) م امة الشمال الاوروبي هاجوا اوروا الوسطى في القرن التاسع الميلادي واستولوا على قسم من شمال فرنسا الغربي لا زال ينسب اليهم الى يومنا هذا « نورماندي » ثم استولوا على جنوب ايطاليا ومقلىة على الاخص ، وغزوا فيما بين القرن الثالث والخامس الهجري سواحل بلاد المغرب ، واشهر ملوكهم رجاء الثاني (روجي) فانه حى الحضارة الاسلامية ورجالها بمقلىة فازدهرت في ايامه ايما ازدهار .

الاستيلاء على تونس

كان لاعتداء النورمان واستيلائهم على اطراف المملكة التونسية تدمير عظيم لدى سكان تلك النواحي ومنهم الاعراب المهاجرون ، فاجتمع لذلك وفد من هؤلاء وجاء الى الامير يحيى بن العزيز يشكو اليه حالة البلاد مع النورمان وسوء سلوك الامير الحسن بن علي الصنهاجي ، راغباً في بسط نفوذ سلطان بني حماد على تونس ، ووعدوه بالمدد والمساعدة على ذلك ان هو فعل ، وقد جاء معه بابنائه كرهائن توكيداً منه والخاصاً في الطلب ؛ فصادف ذلك من يحيى هوى في نفسه فاستجاب للوفد وأمر بتعبئة الجيش من مشاة وفرسان فارس عليهم كبير قادته مطرف بن علي بن حمدون واوصاهم بالتعفف عن الدماء .

خرج الجيش الحادي من بجاية حوالي سنة (٥٢٢ - ٥٢٩) ١١٢٩ - ٣٤ م فحاصر المهديّة ثم نكص عنها الى تونس فاحتلها ، وجلس على عرشها كرامة بن المنصور - عم الامير يحيى - وحمل صاحبها احمد بن عبد العزيز الحراساني باهله وولده الى بجاية ، وبقي كرامة بتونس والياً تحت اشراف دولة بني حماد الى وفاته بها ، فخلفه عليها اخوه ابو الفتوح بن المنصور ثم حفيده محمد فلم تحمد سيرته فمزله يحيى وولى مكانه عمه معد بن المنصور فبقي بها الى الزحف النورماني سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م فخرج منها معد الى بجاية .

وقعة زويلة

اعاد الحاديون غزو المهديّة سنة ٥٣٠ هـ - ١١٣٥ م فهاجموها براً وبحراً واقاموا حولها نيفاً وستين يوماً ، فردم عنها الاعراب حلفاء صنهاجة وكان ميدان القتال بينهم بظاهر زويلة - من ارباض المهديّة - فانتصرت يومئذ دولة صنهاجة واستولت على مركبين من الطرائد الحماذية بعد قتل رئيسهما فانهمزمت البقية الى الجزائر .

اعتداء النورمان على الجزائر

لقد اُحفظ النورمان ذلك المهجوم المتكرر من دولة بني حماد على ولايتي تونس والمهدية فانقبوا منها سنة ٥٣٧ هـ - ١١٤٢ م بغزو مدينة جيجل فانهبوا وبالقوا في خرابها واحرقوا دورها ، وكان من بين ما افسده النورمان بها قصر النزهة الذي اشاده الملك يحيى بن العزيز فوق جبل عيوف مشرفاً على المدينة تجاه البحر ، ولم ينج يومئذ من القتل والتلف بهذه المدينة سوى من اعتمص بقمم الجبال او آوى الى مكان سحيق ، ومنذ ذلك الوقت هجرت المدينة وابتنى اهلها بلدة حصينة باعلى جبل هنالك يبعد عنها بنحو ميل ، فاذا كان زمن الشتاء سكنوا الساحل واذا كان زمن الصيف وقت سفر الاسطول النورماني نقلوا امتعتهم وجملة بضائعهم الى الحصن الاعلى البعيد عن البحر .

واعاد النورمان غزو الساحل الجزائري سنة ٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م فاحتلوا في هذه المرة جيجل وبرشك وشرشال وتونس .

انهزام ملك المهدية الى الجزائر

ولما احدث الخطر بامير المهدية الحسن بن علي وشعر بالهزيمة امام النورمان وايقن بسقوط مملكته في ايديهم ارتحل عنها ودخلها العدو يوم الاثنين ١٢ صفر ٥٤٣ هـ - ٣ جولييط - ١١٤٨ م ، فرغب الحسن يومئذ في الالتحاق باهله الى الجزائر ورغب في الاتصال بابن عمه يحيى بن العزيز ملك بجاية ريثما يستعد للانتقال الى مقابلة ملك الموحدين بالمغرب الاقصى وبمعت ببنيه الثلاثة الى يحيى ببجاية يخبره بغرضه هذا ويستأذنه في النزول عليه ؛ وجاء ابنه الحسن الى بجاية ، فاقبلهم الوزير ميسون بن حدود بالتيابة عن الملك واذن لهم بذلك في كتاب سطره الوزير الى ابيهم يحثه فيه على الاعراض عن رأيه في مقابلة عبد المؤمن ملك الموحدين والاقتصار في نزوله على الجزائر فقط وذلك خشية ما ينشأ عن اجتماعه بخليفة الموحدين من تدبير حول المملكة الجزائرية .

ولما اقترب الحسن من ارض الجزائر ندب اليه السلطان وزيره ميمون لاقبالة فامتنع ، وحينئذ امر اخاه القائد بن العزيز بالاستعداد الى لقائه في مشيخة البلد واعيانها وارهم بالعدول به عن بجاية الى مدينة الجزائر فكان الامر كذلك فتزل الحسن بهذه المدينة في المحرم سنة ٥٤٤ هـ - ماي ١١٤٩ م ، وكان منزله فيها دون مقامه حيث جعل تحت الرقابة مضيقاً عليه الخناق ممنوعاً من التسرف مطلقاً ، واجريت عليه جناية طفيفة ، واستمر الحسن في معتقله هذا ، ولا نقول في موطنه الى ان دالت دولة بني حماد وسقطت بيد الموحدين سنة ٥٤٧ هـ - ١٢٥٢ م .

المذاهب والعقائد

كان عصر الحمايين اظهر العصور الاسلامية في تاريخ حرية الاديان واحترام العقائد بالجزائر منذ الفتح الاسلامي الى القرن الرابع الهجري ، اذ في عهدهم تأسست اول كنيسة بالقلعة سنة ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م يديرها قسيس من رتبة اسقف Evêque ، وفي سنة ٥٠٨ هـ - ١١١٤ م تأسست كنيسة مريم العذراء بادارة القسيس عزون المعروف عند العامة باسم الخليفة ، وقد ابنتى دار سكناه بجانب الكنيسة .

وبلغ الحمايين في التسامح الديني الى انهم كانوا لا يعترضون على المطارنة وكبار رجال النصرانية في توظيف من شاؤوا من القساوسة بمملكة الجزائر ، ففي سنة ٤٦٩ هـ - ١٠٧٦ م قدم مطران قرطاجنة قسيساً اسمه « سيرفاند » ليتولى اسقفية كنيسة بونة ، فلم يعترض عليه الناصر بل صادق على تعيينه وحمله رسالة ودية الى البابا « قريقوار السابع » وأصحه بطائفة من الاسرى المسيحيين الذين ظفر بهم الناصر بمملكته فأعتقهم وأكد للبابا في رسالته انه مهما ظفر بأسرى آخرين الا وسعى في تحريرهم ، وجاءت يومئذ بعثة من رجال الكهنوت من طرف البابا الى بجاية تردد آيات الشكر والثناء معترفة بفضل الناصر ومنته على المسيحية ونقل عن الاب « ميشون » انه قال : ان من المحزن للامم المسيحية

ان يكون التسامح الديني الذي هو أعظم ناموس المحبة بين الشعوب هو ما يجب ان يتعلمه المسيحيون عن المسلمين .

اما الرعية المسلمة فانها كانت على مذهب الامام مالك تدرس الموطأ والمدونة والتلقين لعبد الوهاب بن علي البغدادي ، وعقيدتها هي عقيدة أهل السنة والجماعة .

الا ما شذ يومئذ من سكان جبال بجاية من أهل كتامة فانهم على مذهب الشيعة يكرمون من مال الى مذهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم . كما ان أهل جبل اوراس وباغاية واحدى مدن « بنطيس » كانوا على رأي الخوارج ويعرفون بالواقعية المذهب ، اما أهل تهودة بالجنوب الشرقي من مدينة بسكرة فهم يومئذ على ما ذهب اليه أهل العراق من الأحناف واما أهل بسكرة نفسها فيقول عنهم البكري : ان بيلهم هذا علماء كثيراً وانهم على مذهب أهل المدينة (١) .

الثقافة والحضارة والعمران

ان من ينظر الى تاريخ الجزائر في ايام حكومة بني حماد يجده من احفل التواريخ ثقافة وحضارة وعمراناً .

فقد كانت المدارس والمعاهد العلمية والمساجد حافلة بدروس العلم والمجالس العلمية ، وكانت المنح والجوائز الدولية توزع على العباقره وأرباب القرائح المبرزين في كل علم وفن ، على مثال ما تصنعه الدول الراقية المعاصرة اليوم ، فازدهم يومئذ على معاهدها الكثير من العلماء والحكماء والاطباء والشعراء وأهل الفنون الرياضية والهندسية ، وأم عواصمها الكثير من جلة علماء الاندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم رغبة منهم في الاطلاع على تبحر عمراتها والاستيقاء من حضارتها كما استفادت الجزائر

(١) انظر البكري ص ٥٢ - ٧٢ - ٧٣ - ٨٢ - ١٤٤ - ١٤٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

منهم بدورها علمهم وثقافتهم الشرقية اللامعة ولقد بلغ من اقبال الناس على العلم يومئذ انه كان يجتمع على المدرس الواحد ما ينيف على المائة طالب ، ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره ، فتوى المدرس يتلقى طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب تأدية لامانة العلم ، قال شارل سنيوبس في كتابه تاريخ الحضارة Histoire de la civilisation : كان أهل ييزا الايطاليون ينزلون مدينة بجاية في الجزائر فتعلموا من مصانعها صنع الشمع ، ومنها نقلوه الى بلام الى اوروبا ، ولا يزال مسمى الشمع عندهم بوجي Bougie وهو اسم بجاية في نطقهم الافرنجي . وبها تعلم الرياضي والمهندس الايطالي العظيم «ليونارفيوتشي» المولود حوالي سنة ١٥٧١ هـ - ١١٧٥ م العلوم الرياضية وخاصة منها علم الجبر والمقابلة وأدخلها الى اوروبا^(١) .

ولقد عرف علماء الجزائر يومئذ منزلة الاختصاص في العلم فكانوا يجتهدون في التخصص في العلوم والتبريز فيها ، ولقد بلغ عدد المفتين في زمن واحد ببجاية تسعين مفتياً كما اشتهر فيها ابن النباش البجائي بالعلوم الفلسفية والطبيعية والحكمة والطب ، وكان يجيد المعالجة وتركيب الادوية .

واعجب من ذلك ! ان هناك من العوام واشباههم من كان يحفظ عن ظهر قلب امهات كتب الفقه والحديث كصحيح البخاري وموطأ مالك ومدونة سحنون وتلقين عبد الوهاب البغدادي ... فنشط العلماء لهذا التشجيع واقبال العامة عليهم فاكثروا من الكتابة في مختلف انواع العلوم والفنون^(٢) ، وبفضل هذه الحركة العلمية والنشاط الادبي تقلص ضل

(١) ان اول من ادخل هذه الارقام العربية Les Chiffres arabes الى اوروبا هو البابا سيلفيسترا الثاني (١٩٩٩ - ١٩٠٣ م) تلمها بجامع القرويين بفاس حيث تلقى معلوماته هناك .

(٢) يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : واذا رجعنا الى القرن التاسع والعاشر (اي هذا العصر الذي نؤرخه) يوم كانت المدينة الاسلامية زاهرة باهرة ، نرى ان المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد اوروبا كانت عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بانهم أميون لا يقرؤون ولا يكتبون ... وطال عهد الجهالة في اوروبا وعم تأثيره بحيث لم تعد تشر بتوحشها ، ولم يبد فيها بعض الميل للعلم الا في القرن الحادي عشر ، وبعبارة اصح في القرن الثاني عشر م (السداس الهجري) .



منبر الجامع الكبير بالجزائر

الغة البربرية الى الجبال والوهاد وانتشرت العربية في العوصم الجزائرية بين جميع طبقات الشعب^(١).

واذا نظرنا نحو الجزائر الفنية وجدناها كذلك غنية بمجال صناعاتها الفنية الرائعة وحسنها الرائق البهيج ، فلقد دلتنا النصوص التاريخية والآثار الحفرية على انتشار فن التصوير والتزويق والنحت والنقش على الجص الملون وعلى الحزف المطلي والزليج المزين بالصور والفسيفساء وصنع القرورات الزجاجية وشبهها من الاباريق البلارية وتطعيمها بالذهب وتزيينها بالخط العربي البارز الجميل ، ولا يخفى ما يتطلبه كل ذلك من الادوات والالات المتقنة والمواد المختلفة والخيال الواسع والذوق المرفه ...

كان بالقلعة خاصة معامل لنسج الاكسية والباييد والسجاجيد المزخرفة ، والملابس الفاخرة ؛ فكانت عمامة الملك وحدها دون بقية لباسه تبلغ قيمتها الى ستائة دينار فاذا وضعت على رأس صاحبها باتقان كانت كأنها تاج مذهب .

اجتهد حماد في تعمير القلعة واكثر فيها من انشاء المساجد والفنادق والاسواق ، فاستبحر بها العمران وارتحل اليها طلاب العلم وهواة الفن والتجارة من الثغور والبلاد القاصية ، واستوطنها ارباب الصنائع والحرف لنفاق اسواقهم بها ؛ فكانت الرحال تشد اليها من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب .

وفي بجاية من المصانع والمعامل كثير ، ففيها كان يصنع الاسطول وجميع المراكب البحرية ، وبها كان يصنع السلاح وعتاد الحرب واواني النحاس والذهب والفضة ...

وذكر صاحب (الاستبصار) مدينة بجاية فقال : وفي بجاية موضع يعرف بالؤلؤة وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون احسن منها بناء ولا

(١) راجع عنوان الدراية لغبريني ط الجزائر ١٣٣٨ هـ - ١٩١٠ م .

انزل موضعاً ، فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والابواب المحرمة المنحنية والمجالس المقرضة المبنية حطانها بالرخام الابيض من اعلاها الى اسفلها قد نقشت أحسن نقش وانتزت بالذهب الأزورد وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة وانتزت بالذهب وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من احسن القصور منزهاً وجمالاً^(١) .

وكانت تقدر مساحة مدينة بجاية على هذا العهد بـ (١٥٠ هكتار) اي ١٥٠٠٠٠ متراً مربعاً ، وهي مجزأة الى ٢١ حياً ، مشتملة على ٧٣ مسجداً وبواجهة الجامع الاعظم سبعة عشر قوساً او رواقاً ، وفيها من السكان ما يبلغ ١٥٠٠٠٠ نسمة ، وفيها من البناءات الضخمة والاستحكامات العجيبة والقصور المزخرفة والدور المروقة ما جعلها قدوة لمنشآت النورمان بصقلية وغيرها .

وكان من بين القصور التي احتفظ لنا التاريخ باسمها وصفاتها : قصر اللؤلؤة ببجاية وهو الذي يقول فيه ابن خلدون : كان من اعجب قصور الدنيا ! ... بني حوالي سنة ٨٤٧٠ - ١٠٧٧ م وموقعه كان بجذاه القشلة والمستشفى العسكري اليوم - على قمة البريجة - وقصر الحكومة بالقلعة ، وقصر النزهة الذي بناه يحيى بن العزيز بأعلى جبل عيوف بجيجل اقيم تجاه البحر والمدينة ، حطمه روجي الثاني النورماندي سنة ١١٤٣ - ١١٤٣ م وقصر المنار بالقلعة لا تزال تظهر منه بقايا اطلال وخرائب جدران سوره وقصر أميون الذي بناه المنصور قريباً من ضريح سيدي التواني ببجاية ، وقصر الكوكب بالقلعة حيث يوجد اليوم حصن « بارال » ، وقصر العروسين ، وقصر السلام بالقلعة وقصر الامراء وقصر بلالة زوجة الناصر ببجاية والرباض البديع غربي المدينة وهو الذي يقول في شأنه ابن خلدون « انه كان من آتق الرباض واحفلها ، حطمه المرينيون سنة ٧٠١ هـ - ١٣٠١ م والرباض الرفيع شرقي المدينة ، وكلها كانت آية في الفن والجمال يتألق حسنهما ويتلألأ نورهما ، فاسمع الى ابن حمديس كيف يصف لنا قصر المنصور ببجاية فيقول :

(١) الاستبصار ص ٢١ طينا ١٨٥٢ م .

امر بقصر الملك ناديك الذي
 قصر لو ائتكَ قد كحلت بنوره
 واستق من معنى الحياة نسيه
 نسي الصبح مع المليح ، بذكره
 ولو ان بالايوان قوبل حسنه
 أعيت مصانه على الفرس الألى
 ومضت على الروم الدهور وما بنوا
 أذكرتنا الفردوس حين اربتنا
 فالحنون تربدوا اعمالهم
 والمذنبون هدوا الصراط وكفرت
 فلك من الافلاك الا انه
 ابصرته فرايت ابداع منظر
 فظننت اني حالم في جنة
 واذا الولائد فتحت ابوابه
 عشت على حلقاتهم ضراغم
 فكأنها لبنت لتحصر عندها
 تجري الحواطر مطلقات اعنة
 برخم الساحات تحسب انه
 وعصير بالدر تحسب تربيه
 يستخلف الاصباح منه اذا انقضى

ثم شرع في وصف بركة القصر :

وضراغم سكنت عرين رئاسة
 فكأنما غشى النضار جوسها
 أسد كان سكونها متحرك
 وتذكرت فتكأنها فكأنما
 ونخالها والشمس تجلو لونها

تركت خروير الماء فيه زئيرا
 وأذاب من أفواهاها البلورا
 في النفس لو وجدت هناك مثيرا
 أقمت على ادبارها لثورا
 نارا وألسنتها اللواحيس نورا

فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه درعاً فقدر سردها تقديراً

وشرع في وصف الاشجار :

وبديعة الثمرات تعبر نحوها عيناى بحرَ عجائب مسجورا
شجرية ذهية نزعَت الى سحر يؤثر في النعم تأثيرا
قد صولج أغصانها فكأنما قنصت لمن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها ان تستقل بنهضها وتطييرا
من كل واقعة ترى متقارها ماء كلسال اللجين غيرا
'خرس' تعد من الفصاح فان شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة لانت فأرسل خطها مجرورا
وتربك في الصهريج موضع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤاً منشورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما 'جعلت' لها زهر النجوم ثغورا

وهنا أخذ يصف القصر وأبوابه :

ومصطح الابواب تبرأ نظروا بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت 'فلك' النهود من الحان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورسية شمس' ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ابصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها فأرتك كل طريدة تصورا
وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزييق والتشجيورا
وكأنما للآزوردٍ مخرمٌ بالخط في ورقِ السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه مُلادة تركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالك الارض الذي اضحى له ملك' السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للذوك تقدمت واستوجبت للقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاسة منها ودمرت العدا تدميرا

وهذه مقطوعة من قصيدة له أخرى نونية تحتوي على اثنتين وثلاثين بيتاً يصف فيها قصراً آخر من قصور المنصور بالناصرية - بجاية :

قصر بقصر وهو غير مقصر عن وصفه في الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة تعشي العيون بشدة اللمعان
لا يرتقي الرافني الى شرفاته الا بمعراج من الاعمطان
عرج بأرض الناصرية ، كي ترى شرف المكان وقدرة الامكان
في جنة غناء فردوسية محفوفة بالروح والريحان
وتوقدت بالجر من نارنجها فكأنما خلقت من النيران
وكأنهن كرات تبر أحر جعلت صوالجها من القضبان

قال ابن خلدون : فاتخذ المنصور - بجاية هذه معقلاً وصيرها داراً للملك وجدد قصورها وشيد جامعها ، وكان المنصور هذا جماعة مولعاً بالبناء ، وهو الذي حضر ملك بني حماد وتأتق في اختطاط المباني والمصانع واتخاذ القصور واجراء المياه في الرباض والبساتن ، فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر اميبون (١) .

ولا تزال الحفريات والبحوث الاركيولوجية تجري مجراها بواسطة علماء الآثار في كل من مدينة القلعة وبجاية وآشير وهي تطلعا في كل مرة على تحف فنية جميلة دالة على مبلغ الرقي الصناعي والفني الذي بلغته الجزائر في ذلك العصر الزاهر وما كان لها من التقدم في العلم والمدنية التي شاركت بها في سير ركب الحضارة بهذا المغرب العربي الكبير بل وفي اوروبا ايضاً ولاسيما ببلاد ايطاليا وجزرها وصقلية ومرسيليا ، وفي متاحف الجزائر وباريس نماذج من ذلك (٢) . وربما كان من بقايا هذه الدولة اليوم : الجامع الكبير بمدينة قسنطينة المنقوش تاريخه بداخل محرابه هكذا : « سنة ثلاثين وأربعائة » ، ومنبر الجامع الكبير بعاصمة الجزائر .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٤ - ١٧٥ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

(٢) راجع : G. Marçais : Manuel d'Art Musulman Ti P. 112 — 140 Paris 1926

وقد نقش عليه تاريخه بالخط الكوفي المشبك هكذا « سنة تسعين وأربعمائة » ،
وقراها مفتي الجزائر الشيخ سعيد قدوره المتوفي سنة ١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦ م
هكذا « سنة سبع وأربع مائة » ؟

واغلب هذه القصور التي كانت في مناعة الحصون قضى عليها الاسبان
ايام احتلالهم ببجاية كما قضاوا قبلها على تراث المسلمين ومجدهم التال بالاندلس ! ...

الحركة الاقتصادية

لا يفوتنا هنا ذكر سعة نطاق الحركة الاقتصادية بالجزائر ، فان طرق
القوافل بين اقطار الشمال الافريقي وارض السودان كانت لا تخلو من
السابلة غادية رائحة حاملة لانواع البضائع والسلع ، كما ان السفن كانت
تجري بانهار قسنطينة ووديانها وفي حوض هذا البحر الابيض المتوسط
للمواصلات والتجارة .

ومجدتنا الادريسي عن الحياة الاقتصادية بالجزائر في هذا العصر فيقول :
ومدينة بجاية في وقتنا هذا (٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م) مدينة المغرب الاوسط
وعين بلاد بني حماد ، والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافل منقطة والامتعة
اليها برآ وبحراً مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، واهلها يجالسون تجار المغرب
الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع
بالاموال المقنطرة ، ولها بواد ومزارع للفلاحة انواع الاثمار والاشجار وغراسة
القطن والكتان وبقية انواع المنتوجات الزراعية ، والحنطة والشعير بها
موجودان كثيراً والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من
البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحراي لان
الحشب في اوديتها وجبالها كثير موجود ، ويجلب اليها من اقاليمها الزيت
البائع الجودة والقطران ؛ وبها معادن الحديد الطيب موجودة وبمكنة كما
هي كذلك بعنابة ؛ وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة ^(١) .

(١) نزهة الشناق ص ٩٠ ط ليدن ١٨٦٤ م

ولقد عثر الاثريون من العلماء المعنيين بالحفر عن الآثار على بعض الاواني والقطع الخزفية المزخرفة الصينية الصنع وجدوها بالقلعة الحمادية ، وهذا ما يدل على سابقى المعاملة فى تبادل البضائع والاتصال التجارى الذى كان يجرى بين الجزائر والاقطار النائية عنها كالصين . وهذه القطع موجود بعضها اليوم بمتحف « ستييفان غزال » بعاصمة الجزائر .

وكان لدول اوروبا البحرية معاهدات تجارية وقنصلية دقيقة مع بجاية ولهم بها مراكز وفنادق خاصة .

واذا ذكرنا بجاية فانما هى النسبة لكونها عاصمة المملكة يومئذ ، والا فان فى القلعة وبوثة وقسنطينة وهران وتلسان من الحركة الاقتصادية يومئذ ما يشابه الحياة فى بجاية وان كانت هذه تفوقها ، فقد كان دخل مرسى الحرز - القالة - من تجارة بيع المرجان فقط عشرة آلاف دينار سنوياً ، وكان مستخلص بوثة عشرين الف دينار سنوياً وقس على ذلك ...

انهار الدولة الحمادية

ان اهم الاسباب الاساسية فى سقوط هذه الدولة وانتهاء ايامها هو ما لحق بها من داء الهرم وضعف العصبة القومية وتضعف الدعائم والقوى فى حروبها الداخلية وما تكبدته الحكومة من الخسائر الباهضة فى الاموال والانفس ايام الحملة الهلالية ؛ وما كان عليه الامير يحيى بن العزيز ايضاً من الانحلال فى الاخلاق والانهاك فى الشهوات والاستغفال باللهو عن الملك وتواكله وسخريته برجال دولته فان مباشرة تسيير دفة الدولة كانت بيد الوزير ميمون بن حمدون الذى كان الملك كثيراً ما يقبض افعاله ويسخر منه ويستنقصه ، فكان يدعو الشيخ الكذاب وهو مع ذلك عمده فى الادارة ! ...

امتعض الوزير ميمون يوماً بما لحقه به الملك من الخسف والهوان وابت له نفسه الابية الصبر على المذمة والاحتقار ، فخشي من ضياع نفوذه والذهاب بجمده وسمعته ، وقد راعه ايضاً ما رأى من تهالك النورمان

واحتكاكهم على المغرب الاسلامي ، فبادر الى مكاتبة خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي في شأن التملك على الجزائر ، فطار لها الخليفة فرحاً وبدت له بذلك فرصة طالما هف اليها قلبه وارتقبها خاطره فخرج من مراکش متوجهاً نحو الجزائر سنة ٥٤٦ هـ - ١١٥١ م سالكاً في طريقه سبيل التضليل والتورية ، فاوهم الناس انه يريد الاندلس حتى نزل بغتة بجيلة ورجاله بتغوم « سيوسيرات » المعروفة بفحص « سيق » وهي يومئذ حدود الجزائر الغربية ، وقد اخلاها الوزير ميسون من الجند والحامية فكانت الطريق الى الاستيلاء على مملكة بني حماد مهددة معبدة .

اقتحم عبد المؤمن الحدود الجزائرية بدون عناء ولا مشقة حتى بلغ المدينة واحتل الجزائر ففر عاملها القائد الى اخيه مجي ملك بجاية ، واخذوا معاً في الاستعداد لمقاومة غزاة الموحدين ، وما فتئ الملك الحادي يستعد للمقاومة حتى فاجأه عبد المؤمن بمجيوشه على ابواب بجاية ، تاركاً مدينة الجزائر تحت امرة الحسن بن علي آخر ملوك صنهاجة بالهدية ، وذلك ما خشيه ملك بجاية من قبل ... وكانت هنالك فتنة وهرج ومناوشات حربية وقف فيها الوزير ميسون بجانب الموحدين فانصر الموحدون من غير قتال كبير ، وفتح لهم ابو عبد الله بن الوزير المذكور ابواب مدينة بجاية فاحتلوها بعد يومين من الوقعة فكان دخولهم اليها في ذي القعدة ٥٤٧ هـ - فيفري ١١٥٣ م .

فخرج حينئذ مجي بن العزيز من بجاية فركب البحر منهزماً الى بونة فنزل على عاملها اخيه الحارث بن العزيز ، فاغلظ له هذا القول وانكر عليه تسليم العاصمة الحادية ، فاعرض عنه مجي وعدل متوجها الى قسنطينة فنزل على اخيه ايضاً الحسن بن العزيز فاحتفى به وادناه ونزل له عن هذه الولاية اكراماً وتمظيماً له .

واستتر عبد المؤمن في سيره زاحفاً فاحتل القلعة في وقعة عظيمة ضد الاعراب قتل فيها نحو الثمانية عشر الف نسمة من اهلها ؛ وكان فيمن قتل بها يومئذ عاملها جوشن بن العزيز اخو الامير مجي ؛ ثم كان بعدها

حصار قسنطينة وتضييق الحناق عليها حتى اضطر يحيى الى النزول عن عرشه والاستسلام الى الموحدين وتقدم بنفسه الى الخليفة عبد المؤمن فبايعه مستأنماً على نفسه فأمنه واخذه معه الى المغرب الاقصى فانزله مع ابن عمه الحسن بن علي آخر ملوك صنهاجة بقصر بني عشرة في مدينة سلا . وقد حاز يحيى عند الخليفة مقاماً رفيعاً ورتبة ملحوظة ، وبقي هنالك محترماً الجانب الى وفاته سنة ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م فدفن بمقابرها الجوفية - الجنوبية - بما يلي البحر . فكان هذا اخر العهد بملوك بني حماد .

واستمر الحارث بن العزيز اخو يحيى على رأس ولاية بونة غير ملتفت الى سلطة الموحدين على الجزائر مستنصراً بجيش النورمان الى سنة ٥٥١ هـ ١١٥٦ فسقطت هذه الولاية ايضاً بيد الموحدين وقتل الحارث صبراً وانتهت بذلك دولة بني حماد بالجزائر بعد ما اممرت ١٤٢ سنة . وقد تيسر لها في هذه المدة البسيرة من اسباب المدنية والحضارة والعلم ما لم يتيسر لغيرها من الدول في اكثر من هذا العدد من السنين . وتلك الايام نداولها بين الناس .

ولاية الجزائر وزعمائها

تنقلت رئاسة مملكة الجزائر الحادية بين مدن ثلاث : آشير ثم القلعة ثم بجاية ، فيها كان مستقر ملوك هذه الدولة وأمرائها من بني حماد الصنهاجيين وكان لهؤلاء من العمال والولاة ما هو منبث في كامل ام عوام القطر الجزائري ومدنه المختلفة كبونة وقسنطينة وبسكرة والجزائر الخ ...

فمن مشاهير رجال الحكم والوزارة في هذا العهد : خلف بن حيدرة وابو بكر بن ابي الفتوح ؛ فسعت صنهاجة بخلف الى الناصر فقتله واستوزر مكانه احمد بن جعفر بن افلع ، وكان عبد الكريم بن سليمان وزيراً للنصور ، وفي ايام يحيى انحازت الوزارة الى بني ميسون بن حمدون ، وكان اخوة الناصر وابناؤه ولاة على اعمال قسنطينة والجزائر ؛ فنههم اخوه بلباز بقسنطينة كما تولاهما ايضاً الامير سبع بن العزيز اخ يحيى ؛

وكان عبدالله بن الناصر على الجزائر ومرسى الدجاج واخوه يوسف على آشور ، وكباب على مليانة ورومان على حمزة - نواحي قصر البخاري - كما تولاهما ايضاً على عهد القائد بن حماد اخوه ريعلان ، وتولى خزر على نقاوس ، وكانت قيادة الجيش العامة على عهد حماد بن بلكين لعباد بن صادق وعبدالله بن سكر الصنهاجيين ، وكان على رأس قيادة الجيش المحارب للعرب من رباح وزغبة سنة ٤٥٧ هـ - ١٠٦٥ م القاسم بن علناس أخ الناصر ، ورئاسة بسكرة والزاب لبني رمان ومنهم الذين اقلعوا في حد الحملة الهلالية عن البلاد ، وقد ضل هؤلاء على ولايتهم لبني حماد الى نهاية دولتهم ؛ جعفر بن ابي رمان ، وقد حاول جعفر هذا ان يستبد بالامر فدفع بأهل بسكرة الى الثورة في وجه بلكين بن محمد فقمهم ، وانكسر جعفر وحزبه وفتحت بسكرة عنوة وادخل جعفر ومن معه من المتأمرين ضد السلطة الحاكمة سجن القلعة حيث قتل هناك ثم ادال منهم الناصر ببني سندي (او هندي) ؟ وكان على ولاية المدينة ايام الناصر ابو الفتوح بن حنوش من بني سنجاس ، وعلى ولاية شلف معنصر بن حماد وكلاهما قتل في ثورته على الناصر كما اسلفناه ، وكانت امرة بني توجين لمناد بن عبدالله ثم انتقلت الى آل عطية بن دقلان بن ابي بكر المقومشي .

وجاء يحيى بن وطاس الى الناصر موفداً من طرف اهل قسنطينة لاعلان طاعتهم فعقد الملك ليوسف بن خلوف الصنهاجي على هذه الولاية ، وعقد المنصور لابي يكتى بن محسن بن القائد بن حماد على ولاية قسنطينة وأذن له في غزو عمه بلباز ، فتمكن ابو يكتى من هذه الولاية واعلن سلطته عليها سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٥ م وجعل اخاه ويغلان والياً على بونة ، ثم حدث ما اضطر ابا يكتى الى الفرار من ولايتها فتولى مكانه صليصل بن الاحمر من رجالات ائبج ، ثم كانت ولايتها للحسن بن العزيز اخ الامير يحيى .

وكانت قيادة الجيش العليا ايام يحيى بن العزيز الى الفقيه مطرف بن علي بن حمدون وطاره بن كباب وهو الذي بعث به يحيى بن العزيز صاحب

بجاية لمناصرة تاشفين بن علي امير المرابطين في حروب تلمسان فاقوع به ويحيوشه الموحدون . ومن ولاية يحيى وعماله على الجزائر اخوته ، فالقائد كان على مدينة الجزائر والحسن على قسنطينة والحارث على بونة وجوشن على القلعة ، ومن رؤساء بجاية ومشيختها محمد بن تزال الريفي ، وكانت رئاسة صنهاجة في بني حسن ورئاسة مقرة في بني ابي واليل .

ولا احتل المستنصر الزناتي المسيلة واشير صالحه الناصر واقطعه ولاية نواحي الزاب وريغة ثم قتله غدرآ .

وكانت رئاسة مغراوة في بني ورسيقان المغراويين ورئاسة زناتة الى جهة المشرق بوادي میناس ومرات وما اليها من أسافل شلف لبني ومانو وكانت الرئاسة فيهم لبيت بني ماخوخ منهم واصهر المنصور بن الناصر الحمادي الى ماخوخ في اخته فزوجها اياه فكان المم بذلك مزید ولاية في الدولة .

واما رئاسة ناحية العدو الغربية من وادي شلف بالجمعات والبطحاء وسيدو وسرات وجبل هواره وبني راشد فانها كانت لبني يلومي وهم قوم من زناتة ايضاً ، وكلتا القبيلتين : بني ومانو وبني يلومي كانتا من اوفر بطون زناتة واشدم شوكة ، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الاوسط - الجزائر وكان من عمال بجاية على عهد باديس بن المنصور سهام ، فنكل به الامير ، وكان على مدينة الجزائر العزيز فعزله باديس ونفاه الى جيجل ، وكانت امرة تلمسان ورئاستها في بني يعلي المقرابن .

اما تونس الحمادية فانها كانت لكرامة عم الملك يحيى ، وبعد وفاته خلفه اخوه أبو الفتوح بن المنصور ، ثم بعده ابنه محمد فلم محمد سيرته فعزل بعنه معد ابن المنصور ، كما تولى هذه الولاية للحماديين عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان .

ملوك الدولة الحمادية

تاريخ التولية

حماد بن بلكين بن زيري	٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م
القائد بن حماد	٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م
محسن بن القائد	٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م
بلكين بن محمد بن حماد	٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م
الناصر بن علناس	٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م
المنصور بن الناصر	٤٨١ هـ = ١٠٨٩ م
باديس بن المنصور	٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م
العزیز بالله بن المنصور	٤٩٨ هـ = ١١٠٥ م
يحيى بن العزيز بالله	٥١٥ هـ = ١١٢١ م

من مشاهير الجزائر

أبو القاسم يوسف البسكري

٤٠٣ - ٤٦٥ هـ = ١٠١٢ - ١٠٧٢ م

هو العلامة الامام الرحالة المقرئ الشيخ أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل الهذلي المغربي البسكري ، ولد سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة ؛ أخذ العلم عن مشيخة بلده ثم ارتحل للطلب مستزيداً من العلم سنة خمس وعشرين فطوف بلاد الشرق والغرب فقرأ على المشايخ بأصبهان ، منهم الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني وغيره ودخل بغداد فقرأ بها على القاضي أبي العلاء محمد بن علي بن يعقوب الراسطي وورد نيسبور سنة ثمان وخمسين فحضر دروس أبي القاسم القشيري في الاصول وأبي بكر بن منصور وغيرهما .

انصرف الشيخ الى التذلل والاختصاص في علوم اللغة والقراءات فحاض عابها وتعمق في استخراج اسرارها ودقائقها وأكثر من الرحلة فيها حتى قال عنه امام القراء ابن الجزري : فلا أعلم أحداً في هذه الامة رحل في القراءات رحلته ، ولا في من لقي من الشيوخ ، قال الامير بن ماكولا : كان أبو القاسم البسكري يدرس علم النحو ويفهم الكلام ، وكان مقدماً في علوم اللغة وعلل القراءات وله ترجيحات واختيارات وآراء فيها خاصة ، وكان الامام القشيري يراجع في مسائل النحو والقراءات ويستفيد منه .

ذاع ذكر الشيخ على الافواه وقرع صيته الاسماع فاستدعاه الوزير نظام الملك سنة ثمان وخمسين وأربعمائة الى الاقراء بمدرسة نيسابور وقرره استاذاً فيها ، فكث فيها الشيخ ناشرأ علمه بها الى وفاته سنة خمس وستين وأربعمائة وقد ممي في آخر عمره رحمه الله .

وله من التأليف كتاب الكامل في القراءات الذي جاء فيها قوله :

فجيلة من لقيت في هذا العلم ثلاثائة وخمسة وستون شيخاً من آخر المغرب الى باب فرغانة ميماً وشمالاً جبلاً وبحراً ، ولو علمت احداً تقدم علي في هذه الطريقة في جميع بلاد الاسلام لقصدته : الى ان قال : والفت هذا الكتاب فجعلته جامعاً للطرق المتلوة والقراءات المعروفة ونسخت به مصنفاتي كالوجيز والمهادي ، وعلق ابن الجزري على هذا الكلام بقوله : كذا ترى مهم السادات في الطلب !

أبو محمد عبد الله الاشيري

٥٦١ هـ - ١١٦٥ م

الامام المحدث الفقيه الاديب الشيخ ابو محمد عبدالله بن محمد الاشيري نسبة الى بلدة « آشير » بالجنوب الشرقي من مدينة البراقية في سفح جبل تيطري من عمالة الجزائر .

كان رحمه الله امام اهل عصره في الفقه والحديث والادب ، انتقل الى الشام فمكن حلب الشهاء ففاق بها جميع علمائها كما قال ياقوت : امام اهل الحديث والفقه والادب بحلب خاصة وبالشام عامة ؛ يتسابق الناس الى الاخذ عنه والتشرف بالانتساب اليه ، ويتفاخر الوزراء والملوك بمجالسته والاسترشاد بعلمه وآرائه .

استدعاه الوزير ابو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد الى بغداد وطلبه من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي لاقراء الحديث وتدريس علومه بدار السلام - بغداد - فبيده الملك اليه محفوفاً بالاجلال والاکرام : فافرق هنالك كتاب « الافصاح عن شرح معاني الصحاح » بمحضرة الوزير مؤلف الكتاب نفسه ، وهو شرح يحتوي على تسعة عشر كتاباً شرح بها الوزير احاديث الصحيحين .

وقد جرت للشيخ مع الوزير منافرة فتقاطعا ثم ندم الوزير على موقفه هذا تجاه الشيخ فاعتذر اليه واغدق عليه بره واحسانه ، ثم سار الشيخ

من بغداد الى مكة ثم عاد الى الشام فمات رحمه الله ببغداد سنة
٥٦١ هـ - ١١٦٥ م .

ابن الرامة

٤٧٨ - ٥٦٧ هـ = ١٠٨٥ - ١١٧١ م

العلامة النظار والحكيم والفيلسوف الفقيه ابو عبد الله محمد بن علي المشهور
بابن الرامة ، ولد بعاصمة الجزائر الحمدية « قلعة بني حماد » في رجب سنة
٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م روى عن ابي الفضل بن النحوي بالقلعة وتفقّه به ،
وعن ابي محمد المقرئ ببجاية ، وابي اسحاق ابراهيم بن حماد ، وعن خاله
ابي الحسن علي بن طاهر بن محشوة بمدينة الجزائر .

ارتحل الى الاندلس تاجراً وطالماً للعلم فلقى بقرطبة الفيلسوف الحكيم
القاضي ابا الوليد ابن رشد و ابا محمد بن عتاب و ابا بجر الاسدي ؛ و ابا
الوليد بن طريف فاخذ عنهم ، ثم انتقل الى المغرب فنزل مدينة فاس
وتولى بها خطة القضاء سنة ٥٣٦ هـ - ١١٤٢ م وعكف هنالك على الدرس
والنظر في الاحكام فاخذ الناس عنه ، وكان يميل الى مذهب الشافعية .

له من التأليف كتاب تهليل المطلب في تحصيل المذهب وكتاب التقيي
عن فوائد التقيي وكتاب التبيين في شرح التلقين الخ وبذل همه ووسعه
في تحقيق كتاب البسيط للغزالي وتحرير نكته ومباحثه .

ومن اشهر من روى عنه واخذ عنه كتبه الحافظ ابو ذر الحشني
وابو الحسن بن الفضل وابو القاسم بن بقي وغيرهم ، وكانت وفاته رحمه
الله بمدينة فاس يوم الاثنين ١١ رجب سنة ٥٦٧ هـ - ١٠ مارس ١١٧٢ م .

كما اشتهر بالجزائر يومئذ العالم ابو زكريا يحيى بن علي - بكر - الوارقلي
صاحب كتاب « تاريخ أئمة الاباضية » . المتوفي رحمه الله سنة ٤٧١ هـ -
١٠٧٨ م . ولعل كتابه هذا هو المشهور بكتاب السير وهو جزآن يوجد
ببلاد مصاب بجنوب الجزائر وبجبل نفوسة من ارض طرابلس الغرب .

جَدْوَل تَارِيخِي

٤٠٥ - ٥٥٤٧ = ١٠١٤ - ١١٥٣ م

تَارِيخِ الْحَوَادِثِ	أَمُّ الْحَوَادِثِ وَابْرَزُ الْاِحْدَاثِ
٥٤٠٥ = ١٠١٤ م	تأسيس المملكة الحمادية .
٥٤١١ = ١٠٢٠ م	اشتداد القحط وكثرة الفناء في الناس من تاهرت الى سجلماسة .
٥٤٢٥ = ١٠٣٤ م	خراب بونة على يد الجنوز .
٥٤٣٠ = ١٠٣٨ م	انهزام حمامة بن زيري المغراوي عن الجزائر .
٥٤٣٢ = ١٠٤١ م	تلاعب القائد بالدعوة الشيعية .
٥٤٤٧ = ١٠٥٥ م	تشعب آل حماد وانشقاقهم على أنفسهم واغتيال الملك محسن .
٥٤٥٠ = ١٠٥٨ م	نكبة ولاية بسكرة من آل رومان على يد بلكين بن محمد .
٥٤٥٤ = ١٠٦٢ م	اغتيال بلكين وولاية الناصر بن علناس ؛ والاحتلاء على فاس ، وولاية آل عروس بن سندي على بسكرة .
٥٤٥٧ = ١٠٦٥ م	وقعة سيبة والزحف الهلالي على الجزائر .
٥٤٦٠ = ١٠٦٨ م	خية المنتصر الزناتي في هجومه على الجزائر وقته ، وفيها كان تأسيس مدينة بجاية وثورة أهالي المهديّة وسلف وفتح الاريس والقيروان .

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
٨٤٧٠ = ١٠٧٧ م	تزوج الناصر بيلارة بنت تميم ملك المهدية .
٨٤٧٥ = ١٠٨٢ م	فتح المرابطون لاهمال تلسان ووهران واحواز مدينة الجزائر .
٨٤٨١ = ١٠٨٨ م	وفاة الناصر بن علناس وولاية ولده المنصور .
٨٤٨٣ = ١٠٩٠ م	انتقال عرش المنصور من قلعة بني حماد الى بجاية .
٨٤٨٤ = ١٠٩١ م	اقطاع مدينة دلس لعز الدولة بن صمادح الاندلسي .
٨٤٨٧ = ١٠٩٤ م	ثورة أبي يكنى بقسنطينة وقتله وسقوط آشير بيد المرابطين .
٨٤٩٦ = ١١٠٣ م	فتك المنصور بالمرابطين وعقد الهدنة بين المملكتين .
٨٤٩٨ = ١١٠٤ م	وفاة المنصور وولاية ولديه باديس ثم العزيز .
٨٥١٢ = ١١١٨ م	خية الاعراب في اغارتهم على القلعة .
٨٥١٤ = ١١٢٠ م	اذعان تونس للسلطة الحمادية واحتلال جربة .
٨٥١٥ = ١١٢١ م	وفاة العزيز وولاية ولده يحيى .
٨٥٢٣ = ١١٢٩ م	حصار المهدية واحتلال تونس .
٨٥٣٠ = ١١٣٥ م	وقعة زويلة وحصار المهدية (مرة ثانية) .
٨٥٣٧ = ١١٤٢ م	اعتداء النورمان على جيجل واستيلائهم عليها .
٨٥٤٣ = ١١٤٨ م	سك النقود الحمادية ببجاية والتجاء امير المهدية الحسن بن علي الى الجزائر بعد سقوط مملكته بيد النورمان .
٨٥٤٧ = ١١٥٣ م	نهاية دولة بني حماد .
٨٥٥٨ = ١١٦٣ م	وفاة يحيى بن العزيز آخر ملوك الدولة الحمادية .

الدَّولة المِرابِطِيَّة

٤٧٢ — ٥٣٩ هـ

١٠٧٩ — ١١٤٥ م

الرِّباط والمِرابطة

الرِّباط لغة يطلق على الحِصْن الخِصْل فما فوقها وعلى المواضبة على الامر ، والمِرابطة ملازمة ثغر العدو ، واصلحه ان يربط كل واحد من الفريقين خيله ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً . قال السهروردي في كتابه عوارف المعارف : « واصل الرِّباط ما تربط به الخيول ثم قيل لكل ثغر يدفع اهله عمن وراءه رباط ، فالجهاد والمِرابط يدفع عن وراءه » .

ثم استعمل الرِّباط الى مسكن العباد واهل الطرق الصوفية وقيل لمن يقيم بمثل هذه الرِّبط المعدة للعبادة والطاعات مرابط للملازمة الرِّباط وانقطاعه فيه للعبادة وخدة الدين فهو في ذلك المكان قائم بطاعة الله حابس نفسه عن مخالطة الناس يدفع بداعته البلاء عن العباد والبلاد فاستحق اسم المِرابط (١) .

وان كل من درس تاريخ المغرب الاسلامي في هذا العصر يعلم انه كان معرضا للغارات البحرية المفاجئة من القسطنطينية او صقلية وجنوبي ايطاليا وسردانية ، فاعتبره المسلمون لذلك ثغرا يعد الرِّباط فيه جهادا في سبيل الله

(١) خطط القرطبي ج ٢ ص ٤٢٧ ط بولاق ١٢٧٠ هـ .

وقربة اليه ، فانشئت لذلك الرباطات والحصون بسواحل افريقية لحراسة المسلمين والتعبد لله رب العالمين ، ولقد نظم المقيمون فيها امور انفسهم تنظيمًا حسنًا مكنهم من القيام بواجباتهم كلها على وجه حسن ، واصبح الرباط مع الزمن نظاماً عسكرياً دينياً تحددت اصوله وقواعده شيئاً فشيئاً . وعلى هذا الاساس انشئت الرباطات والمخارس بكامل ساحل المغرب مثل رباط المنستير وسوسة وصفاقس وبنزرت وبونة ومرشال ومرسى مغيلة وارزاو ونكور ورباط الفتح الخ ...

ولقد بلغ من حماس اهل المغرب للرباط ان اصبح ذوو الحية من اهل قبائل الصحراء يقبلون الى ساحل البحر للرباط وحراسة المسلمين ، ثم عمت هذه الحركة شيئاً فشيئاً حتى شغلت روح الرباط قبائل باسرها واخذ المتشوفون للجهاد من اهل قبائل الصحراء يرباطون على احواز الصحراء لحماية ما يليهم من بلاد الاسلام من اخطار من يليهم من الجنوب ، وقامت « الربط » على حدود بلاد السودان ، وصارت هذه « الربط » الصحراوية مراكز للغزو والتوسع ونشر الاسلام في السودان وبلاد افريقية الغربية ، وما زالت هذه الحركة تقوى وتشد حتى قامت على اساسها دول ؛ اولها دولة المرابطين هذه ثم تلاها الموحدون والحفصيون كذلك والمرينيون ^(١) ...

وعلى ضوء ما قدمنا نستطيع ان نفهم وضعية الخوانق والزوايا الصوفية المنتشرة في مجاهل اطراف الشمال الافريقي ونجومه ، وما كان لهذه الزوايا او - الربط - من الاثر الجليل في خدمة الاسلام واهله خدمة سياسية واجتماعية ودينية ايضاً . ولا تزال بقايا اثار الاربطة القديمة التي انشئت منذ اواخر القرن الثاني للهجرة منتشرة على طول الساحل الشمالي الجزائري من مرسى القالة على الحدود التونسية شرقاً الى مرسى الغزوات على الحدود المغربية غرباً ، ومن اشهرها بالخط البحري رباط بونه او عنابة وبه ضريح أبي مروان البوني شارح موطأ مالك ثم رباط رجال الحمراء قرب عنابة ايضاً ويعرف عند الفرنسيين باسم « كاب دي فاردي » Coqs de garde ورباط بجاية

(١) انظر رياض النفوس ج ١ ص ٢٥٠ .

الخ ... كما توجد صفوف جبلية في الجبال و صفوف صحراوية في الصحاري
بما جعل الجزائر رقعة شطرنج من الأربطة^(١) . وبالمجمل فان الدور الرئيسي
الذي قام به اهل المغرب في التاريخ العام للاسلام هو دور رباط وحماية
لجناحه الغربي كله .

نشأة الدولة

تتسمي هذه الدولة الى قبيلة لمتونة احدى فصائل القبيلة البربرية الكبرى
صنهاجة . واشتهرت باسم دولة الملمين ايضاً لاتخاذ قومها الخطام شعاراً
تمتاز به ما بين مختلف الامم والقبائل البربرية المنتشرة بكامل هذا الشمال
الافريقي ، وهم يتلمثون بمعانهم وفي سبب اتخاذ ذلك التمام خلاف بين
المؤرخين^(٢) .

كان مستقر هذه القبيلة باعماق الصحراء فيما بين بلاد البربر والسودان
- السينيغال - وكان دينها الموحية الى ما بعد فتح الاندلس فاسلمت طوائف
منها وبقي الآخرون الى ما بعد المائة الثالثة ، ثم ظهر فيهم عبدالله بن ياسين
الجزولي الذي جاء به الامير يحيى بن ابراهيم الكدالي من سجلماسة فصار
يعلمهم الدين الاسلامي ، واسس رباطه بوادي النيجير - السينيغال - فلزمه
منهم جماعة عرفوا فيما بعد باسم المرابطين وهم الذين كان على يدهم تأسيس
هذه الدولة سنة ٤٣٤ هـ - ١٠٤٢ م ، ففتحوا بلاد الصحراء والمغرب الاقصى
وانتصروا على بلاد الاندلس ، وكان استفحال ملكهم على عهد الامير يوسف
بن تاشفين عاهل لمتونة ورافع عماد الدولة المرابطية ، قال ابن خلدون :
« وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان متفرقاً بالمغرب من كلمة الاسلام
ومسكوا بالسنة » .

(١) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ص ٧٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ وابن خلكان ج ٢ ص ٩١ ، والحلل الموشية ص ٨
ونحلة الزاوج ج ١ ص ٤٠

نظامها الحكومي

نشأت هذه الدولة في اول امرها سائرة سير الاقوام المتغلبة قهراً وقسراً الى ان نشأ فيها الامير يحيى بن ابراهيم الكدالي فأخذ قومه بتعاليم الاسلام ومبادئه فنشرها بينهم بواسطة عبدالله بن ياسين فتطور يومئذ دستور الدولة واصبح يسير على مقتضى الكتاب والسنة .

وجاء يوسف بن تاشفين ٤٦٥ هـ - ١٠٧٣ م فتشدد في التسك باهداب الاسلام مستنداً من الخليفة العباسي سلطته الروحية ، فقلده المقتدي ولاية المغرب والاندلس وكتب له تقويضاً لقبه فيه بناصر الدين وبعث اليه بالخلع والاعلام ، وكثيراً ما خرجت السفارات من المغرب الى المشرق حاملة الهدايا النفيسة الى امراء المؤمنين ، وكانت المراسلة بينهما مستمرة وتسمى يوسف يومئذ بامير المسلمين تأديباً مع الخليفة امير المؤمنين العباسي ، ثم جرى على هذا القرب كل من تولى امر هذه الدولة الى انقراضها .

وما تسامح العباسيون مع هذه الدولة كل هذا التسامح واطاعوها في رغبتها هذه الا عن قصد ايجاد منافس بجانب الخلافتين القائميتين بالمغرب يومئذ : خلافة بني عبيد الفاطمية ، وبني امية في الاندلس فجعل الخليفة من دولة المرابطين هذه مزاحماً لها يضعف من شأنها بالمغرب .

فاز صيت سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين في انحاء العالم الاسلامي كله فخطب له على اكثر من الف من منبر وقد اجمع المؤرخون على عدالة هذه الدولة وقيامها بحقوق الرعية والرعية كما يوجب الاسلام وبقتضيه فقه الامام مالك ؛ فقد كان الامراء لا يقطعون امراً دون مشورة الفقهاء فيه ؛ وكثيراً ما كان الامير يباشر بنفسه ماجريات الاحوال والمسائل العامة ؛ ولم يجر في عمل المرابطين طيلة ايامهم رسم مكس ولا ضريبة مفرم لا في الحضر ولا في البادية ؛ وانما هي اموال الزكاة والعشر والجزية والحراج واخماس المغانم ؛ وذكروا اسم الخليفة العباسي على تقودهم كرمز لطاعته .

وبلغ عدد جيش المرابطين في اوائل ابرم الى مائة الف جندي ، وهذا من غير المتطوعة من اعيان القبائل وزعمائهم الخاضعين لهذه الدولة ، وفي سنة ٥٤٦٤ - ١٠٧١ م ادخل في نظام الجندية نحو الالف فارس من عبيد السودان ثم اضيف اليهم نحو مائتين وخمسين من علوج الاندلس ، واتخذ علي بن يوسف بن تاشفين بالمغرب جيشاً من الروم في اوائل القرن السادس الهجري الحقبة بجيوش المسلمين وجعله لا يحضر في الجهاد خشية قتالهم مع العدو ، فكان يستعين به في قتال المنشقين عن الطاعة والمتخلفين عن الدولة فقط ، ثم كانت هذه سنة متبعة قلده فيها جميع ملوك المغرب ودوله فيما بعد ، وذلك ما يشبه الفرقة الاجنبية اليوم في الجيش الفرنسي ، ولقد تعرف هذا النظام العسكري من قبل في الامم السالفة ايضاً ، فقديماً جند حنبعل قوماً من الغاليين - سكان فرانسا - ، والسويسريون انفسهم كانوا يمثلون اقدر الفرق التي تترق بسيفها في ربوع اوربا وتحارب تحت اعلام مختلف ملوكها وامراتها .

وكان مما اثبتته التاريخ لهذه الدولة وسجله بمداد الفخر في ميدان الجندية انه لم يحفظ لجند المرابطين فرار من زحف قط ؛ وكان قتالهم رجالة صفوفاً ، بايدي الصف الاول القنا الطوال ويحمل الصف الثاني معه المزارق ، يتقدمهم رجل يحمل بيديه الراية السوداء فلا ينفكون عن الحرب والقتال ما قامت الراية فاذا ما امالها صاحبها الى الارض جلسوا ؛ واما الاسطول فانه بلغ الى مائة قطعة حربية كانت تجول على الدوام في طول هذا البحر الابيض وعرضه متروكة على جزائر الحالدات « كاناري » وكانت قيادته لبني ميمون رؤساء جزيرة قادس .

الحدود الجزائرية

يتمدد ملك المرابطين من تخوم المغرب الاقصى فيتخطى حدود ملوية الى أسوار مدينة الجزائر ، فكان غرب القطر الجزائري تقريباً كله تحت نفوذ المرابطين ، غير ان ايامهم لم تطل بهذا الوطن فلم تكن سوى ٦٧ سنة .

الاستيلاء على الجزائر

كنا ألعنا فيما تقدم الى ما كان بين دولة المرابطين وبني حماد ملوك القلعة وبجاية من التنافس والتزاحم على زعامة المغرب الاوسط وبسط نفوذهم عليه ، وكانت هنالك مهاجمات ومناوشات بين الحكومتين في كلا الطرفين : الجزائر والمغرب الاقصى كما مر تفصيله .

وفي سنة ٤٧٢هـ - ١٠٧٩م تحرك جيش المرابطين من مراكش بقيادة مزدي بن بكلان اللتوني وجاء غازياً للجزائر في نحو عشرين الف مقاتل فحل باحواز تلمسان فقاتلهم عنها عاملها يومئذ الامير العباس بن يحيى من بني خزر المغراويين الى ان سقط ميتاً في الميدان ؛ فانطلق جند ابن تاشفين يعيث بتلك النواحي ثم عاد الى مصدره .

ثم في السنة الثالثة بعدها خرج الامير يوسف بن تاشفين بنفسه ففزا مملكة الجزائر واقتنع منها عدة اماكن واستولى فيها على تلمسان وقضى على من كان فيها من اراء بني خزر - او يفرن - واختط بها محله المشهورة «تاككرات» ، تلمسان اليوم التي اتخذها مأوى له ولاشياعه ومعكراً لجيشه ، ومنها توجه الى وهران وتنس وجبال وانشرس وأعمال شلف فقضى على ممالك زناتة ومحا آثار مغراوة من جميع المغرب الاوسط ، ودخل متبعة موغلاً في سهولها الى أسوار مدينة الجزائر ، فردته عنها حصونها ؛ فانكفأ وارتد الى عاصمته مراكش فدخلها في ربيع الثاني سنة ٤٧٥هـ - سبتمبر ١٠٨٢م وأصبحت أعمال الجزائر الغربية كلها بيد المرابطين .

المذاهب والعقائد

ان أم ما ارتكزت عليه هذه الدولة في نشأتها السياسية ونهضتها القومية هو الدين ، فبأمم الدين رسخت قواعدها في الملك وتمكنت جذورها من الارض ، وذلك بفضل عبدالله بن ياسين ، وعبدالله هذا مالكي المذهب ، فكانت جميع أعماله وأقواله تجري على مقتضى قواعد

الفقه المالكي الا ما شذ فيه من بعض فتاويه وتشديداته ؛ وقلده في ذلك المرابطون حكومة وشعباً ؛ وبعدها التحق المرابطون بالاندلس وجدوا هنالك مذهب مالك منتشر بها أيضاً فتغلغت المالكية حينئذ في الامة وأصبحت الحكومة لا تقضي أمراً الا على وفق هذا المذهب ، فحاز فقهاء المالكية بذلك تقدماً عظيماً ومنزلة رفيعة عند الامراء وغيرهم من اتباع هذه الدولة ، ونبذ الناس يومئذ النظر فيها سوى ذلك من المذاهب والاصول وبالغت الدولة في التمسك بهذا المظهر حتى كاد ان ينسى النظر في كتاب الله وسنة رسوله ! ... ولم يكن لاهل المذاهب الاخرى مظهر بالجزائر الا في بنطيسوس من قرى بسكرة ، فانه كان بها مسجد واحد للاباضية ، وكان أهل قرية تهودة - سيدي عقبة - على مذهب أهل العراق . وقد جاء به يومئذ الى المغرب القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في اوبتهما من رحلتها الى المشرق . وتحدث ابن خلدون عن مباحث الحنفية في الفقه وعن مناظراتهم مع الشافعية فقال : وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاؤوا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله اليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتها^(١) .

ودان أهل ذلك الزمن بتكفير كل من ظهر عليه الخوض في شيء من علم الكلام ، وقرر الفقهاء بمحضر علي بن يوسف بن تاشفين تقييع الفلسفة وعلم الكلام والنظر فيها وكرهية السلف لها ؛ وهجروا كل من ظهر عليه شيء من ذلك بدعوى انه بدعة وقالوا بأن الاكثار منه يؤدي الى اختلال في العقائد ووهن في الايمان وحلوا الامير علياً على نشر أوامره في البلاد بذلك وكتابته في كل وقت الى الولاة والعمال بالتشديد والتوعد لكل من يشتغل بهذا العلم أو يوجد عنده من كتبه شيء منها ، واحرقت في ذلك كتب الغزالي وهدد من وجدت عنده بسفك دمه ومصادرة أمواله ... ولم يرتفع هذا الكابوس الا في عهد الموحدين فكان الامر على نقيض ذلك كله كما سنقصه عليك .

(١) المقدمة ص ٢١٩ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

الثقافة والحضارة والعمران

استند تعلق امراء هذه الدولة بعلماء الدين حتى كان بلاطهم لا يخلو من عالم او فقيه او اديب ، وكان من شغف يوسف بن تاشفين باهل العلم والفضل ان زوج ابنته بالعلامة الفيلسوف الكبير ابن باجة الاندلسي ، وفي ايامه كثر بالمغرب ذوو القرائح وارباب الحرف والصناعات والمهندسون ، وقد بلغ ذلك الغزالي فرعب في الهجر الى بلاط ابن تاشفين ، وصح منه العزم فانتقل الى الاسكندرية متوجهاً الى المغرب وبينما هو آخذ في الاستعداد للسفر اذ بلغه نعي امير المسلمين يوسف بن تاشفين فاحجم ، وكان ممن اشتهر في الجزائر يومئذ من اهل الثقافة العالية ابو عبد محمد بن سحنون الطيب الندرومي الكومي ، نسبة الى كومية باحواز تلمسان ، والاديب الكاتب البليغ محمد بن محرز الوهراني ؛ واكثر الناس يومئذ من اشتغالهم بالتقاريع الفقهية المالكية فنفتت في ذلك الزمن سوق كتب هذا الشأن .

ولقطة مكث المرابطين بالجزائر لم يكن لهم فيها كبير أثر في فن المعمار ؛ اللهم الا ما كان من محلة تلمسان - تاجرارات - والمسجد الجامع بتلمسان انشأه امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في جمادي الثانية سنة ٥٣٠ هـ - ايفريل ١١٣٦ م حسبا دل عليه ذلك النقش المزبور بقبة الجامع التي فوق المحراب وبعزى تأسيسه في اول مرة الى موسى بن نصير اقامه على الحدود بين المغربين : الاوسط والاقصى ، وهو كما يذكر صاحب كتاب الأدب المغربي (ج ١ ص ٧٢ ط بيروت ١٩٦٠ م) : يضاهي جامع القيروان ، قال : واستمر هذا المعهد يقوم بعمله الثقافي كمركز من مراكز الثقافة العربية الاسلامية في المغرب خلال القرون المتعاقبة كما انه كان عاصمة من عواصم العلم المالكي الى جانب جامع طينة وقسنطينة وبونة ووهران وتاهرت والجزائر وكذلك القول في تأسيس الجامع الاعظم بمدينة الجزائر ، ومسجد الجزائر بناء على شكله وهندسة بنائه الكثير الشبه بجامع تلمسان ، وهناك من يزعم ان

تاريخ جامع الجزائر هو ما جاء منقوشاً على منبره اي سنة سبع او تسعين واربعائة . وجامع ندرومة او ما كان من ابتداء تخطيط مدينة مستغانم حيث ابنتى فيها يوسف مركزه الحصين المشهور بمشئ غانم ؛ وهو المدعو بـبرج الاحمال المنشأة حوله مدينة مستغانم ؛ كما ان مدينة هنين - مرسي تلمسان - هي من منشآت هذا العصر ؛ ولا ندري أكان ذلك على يد المرابطين ام غيرهم ؟ ... وقد ذكرها البكري والادريسي وقالوا انها كانت مزدهرة الحضارة وفيها اسواق ودكاكين ذات تجارة ناشطة ؛ ومن غير بلاد الجزائر كانت للمرابطين آثار ضخمة بالمغرب الاقصى هي آية في فن المعمار لا يزال بعضها هنالك ماثلاً للعيان الى الآن ؛ وفي ايامهم ظهرت صناعة الكاغد بالمغرب .

انهار الجزائر المرابطية

استمر غرب القطر الجزائري تحت طاعة المرابطين الى ان نشأت بجانبهم دولة الموحدين بأقصى بلاد السوس ، وبنت دعوتها على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصادف ان كان أمر المرابطين في تدهور وانحطاط بسبب ما كان قد حدث بعد موت علي بن يوسف من الفتنة بين لمتونة قبيل الامير - ومسوفة وانضمام هذه الى دولة الموحدين مع ما كانت عليه الحكومة من اختلال في شؤون الادارة وسوء سلوك الولاة وتفريطهم في ضبط امور المملكة واخلادهم الى الدعة والراحة ، فادبر الناس عنهم يوم ان احكم الموحدون خططهم المجهوية على الجزائر بعد ما احتلوا نواحي كثيرة من اقصى المغرب فنزلوا باعلى الجبل المطل على تلمسان المعروف باسم كهف الضعاك بين الصخرين من جبل تيطرى ووصلت يومئذ كتابت بني حماد برسم الامداد والاعانة فهزمهم الموحدون بضاحية العباد .

ويومئذ كتب تاشفين بن علي الى الافاق يستدعي انصاره فجاءته سرايا من سجداسة وبجاية والتحق به ابنه ابراهيم من الاندلس ومعه من جند الروم نحو اربعة آلاف فارس فاجتمعت هذه كلها بتلمسان ،

واسر تاشفين بعرض الجيوش وسائر الوفود فعجب الناس من كثرة عددهم واحتفالهم في الزينة حتى زعموا انهم لم يروا مثل هذا الجند المقتشد حسناً وجمالاً وعدة وكالاً ، واصطفت العساكر من باب القرمدين الى الجهة المتصلة باصل الجبل ؛ وكان ذلك آخر جيش احتقل به المرابطون ^(١) ورغم ذلك كله فانه لم يغن عنهم احتفالهم ولا عدتهم امام جيش الموحدين شيئاً ، فسقط تاشفين بن علي ميتاً في الرقعة واحتلت تلمسان يوم ٢٩ رمضان سنة ٥٣٩ هـ - ٢٦ مارس ١١٤٥ م وانتهى يومئذ حكم المرابطين بالجزائر بعد ما قضوا بها ٩٧ سنة وانحصر ملكهم بالمغرب الاقصى الى ٥٤١ هـ - ١١٤٧ م حيث احتل الموحدون مراكش ايضاً بعد ما مكثوا نحو ثلاثين سنة في الحرب فانهار سلطانهم عن ملك المغرب وانقضت ايامهم به .

ولاية الجزائر وزعماؤها

كان فيسن تولى أعمال الجزائر على عهد المرابطين محمد بن تينعمر السولي ولاء يوسف بن تاشفين على تلمسان سنة ٤٧٥ هـ - ١٠٨٢ م ولم يزل محمد المذكور في ولايته هذه الى ان هلك في حصار مدينة الجزائر فتولى بعده اخوه تاشفين بن تينعمر فخرج هو ايضاً لحصار الجزائر ففتحها بعد قتال عنيف ، وافتتح آشير وحطها وكانت بينه وبين ملوك بني حماد فتنة أدت الى عزله عن منصبه سنة ٤٩٧ هـ - ١١٠٣ م فتولى بعده القائد مزدلي المستشهد في بلاد الروم سنة ٥٠٨ هـ - ١٠١٤ م ثم تركها أمير المرابطين الى محمد المدعو بالشيور فبقي بها الى ان سقطت بيد الموحدين . ومنهم محمد بن يحيى بن فانو المقتول يوم ان هجم الموحدون على تلمسان .

وفي ايام تغلب ابن غانية - من اشباع المرابطين - على الموحدين واستيلائه على بعض الثغور من القطر الجزائري ، اسندت ولاية تلمسان سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م الى يحيى بن أبي طلحة ، وعمل مليانة الى بدر بن عائشة .

(١) الحلال الموشية ص ١٠٧ - ١٠٨ .

امراء المرابطين

تاريخ التولية

١٠٧٣ = ٥٤٦٥ م

١١٠٦ = ٥٥٠٠ م

١١٤٢ = ٥٥٣٧ م

يوسف بن تاشفين

علي بن يوسف

تاشفين بن علي

مَنْ مَشَاهِيرُ الْجَزَائِرِ

ابو عبد الملك مروان البوني

٤٣٩ هـ - ١٠٤٧ م

هو العلامة الفقيه المحدث الصالح ابو عبد الملك مروان بن علي الاسدي القطان البوني - نسبة الى بونة ، عناية - احدى حواضر القطر الجزائري الشهيرة ؛ وهو خال ابي عمر القطان الفقيه .

سكن المترجم له مدينة قرطبة وفيها روى عن ابي محمد الاصلي والقاضي ابي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس وغيرهما وارتحل الى المشرق فاخذ هناك عن ابي الحسن القاسبي ؛ ولازم ابا جعفر احمد بن نصير الداودي خمس سنوات فاخذ عنه معظم تأليفه وما عنده من علم رواية ودراية .

ونجرد المترجم له بعد ذلك الى خدمة العلم بالتدريس والتأليف فكتب شرحه المختصر لموطأ الامام مالك ؛ وقد كان معول الناس يومئذ في دراسة الموطأ على هذا الشرح وتداول بينهم بكثرة وكان ممن اخذه عنه ابو عمر بن الحذاء ؛ وقال عنه انه كان رجلاً صالحاً عفيفاً عاقلاً حسن اللسان والبيان لقيته رحمه الله ببونة سنة ٤٠٥ ؛ وناولني كتابه في شرح الموطأ ثم خاطبته من طليطلة فوجه الي الديوان واجازته لي ثانية وكان قد زاد فيه بعد لقائي له .

وكان ممن حدث عنه ايضاً ابو القاسم بن محمد ؛ فقال لقيه بالقيروان
 وشهد معنا المجالس عند اهل العلم بها ، وكان رجلاً حافظاً ناكداً في الفقه
 والحديث ؛ وقرأت عليه بعض تفسيره للموطأ واجاز لي سائره وسائر ما
 رواه . قال ابو عمر توفي ببونة ؛ وذكره الحميدي فقال : كان فقيهاً محدثاً
 وله كتاب كبير شرح فيه الموطأ : مات قبل الاربعين واربعمئة .

الحسن بن علي التيهري

٥٥١ هـ - ١١٠٨ م

هو العلامة اللغوي الامام النحوي الحسن بن علي بن طريف التيهري
 تخرج على أئمة علماء الاندلس وكبار اساتذتها في القرن الرابع الهجري ،
 وكان فيمن اخذ عنهم الحجاج بن المأمون وابن سعدون ومروان بن عبد
 الملك والقاضي بن سهل وابو محمد بن قحافة وابو غلام القطيبي وغيرهم .
 وعنه اخذ علامة المغرب ابو الفضل القاضي عياض وذكره في فهرسته واثني
 عليه فقال : شيخ بلدنا في النحو مشهور بالصلاح درس عمره النحو واخذ
 عنه جماعة اصحابنا وجماعة شيوخنا توفي رحمه الله تاسع ذي الحجة سنة احدى
 وخمسمائة (٨ جولييط ١١٠٨ م) .

يوسف الوجلاني

٥٥٠ هـ - ٥٧٠ هـ

١١٠٦ - ١١٧٤ م

هو العلامة المتبحر ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوجلاني ، ولد بمدينة
 ورجلان - وارقلة - بالجنوب الجزائري حوالي سنة ٥٠٠ هـ - ١١٠٦ م اخذ

العلم ببلده ثم ارتحل عنها الى الاندلس طالباً الاستزادة فدخل قرطبة حاضرة العلم يومئذ فكان هنالك بين المتقنين مثلاً للتبوغ النادر والادب الجلم والاطلاع الواسع والعلم الغزير حتى كان الاندلسيون مع حدانة سنة يشبهونه بالجاحظ ، ثم عاد الى وطنه ووجد منه الرحلة ايضاً الى المشرق فدخل عواصمه العلمية الالامعة وتطلع فيها بجميع ما كان متعارفاً مشهوراً في وقته من العلوم الاسلامية معقوها ومنقولها ، واكثر من الرحلة في سبيل العلم فتوغل في اواسط افريقية حتى بلغ الى قريب من خط الاستواء قبل ما تبجح باكتشافه الاوروبيون بقرون ! ...

ذكر ذلك بنفسه في كتابه الجليل الجامع « الدليل لاهل العقول » وهو أحد كتبه الممتعة ، طبع بمصر سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨ م ، ولما عاد من رحلته لازم داره بورقلة منكباً على الدرس والتأليف مكرساً حياته لخدمة العلم ونشر الثقافة الاسلامية ، فلم يخرج من داره مدة سبعة أعوام ؛ ولم يكن يرى فيها كما قال الشماخي الا ناسخاً ، وللأقلام باريأ ، وللدراسة فاعلاً ، أو للعب طابجاً ، أو للدواوين مقابلاً ، أو للكتب مفسراً ...

والشيخ من التأليف تفسير القرآن يقع في سبعين جزءاً ، وصف البرادي جزءاً منه فقال : رأيت منه في بلاد ريغ سفرأ كبيرأ لم أرَ ولا رأيت قط سفرأ أضخم منه ولا أكبر منه ، حررت انه يجاوز سبعائة ورقة أو أقل أو أكثر ، فيه تفسير فائحة الكتاب والبقرة وآل عمران ... فلم أرَ ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر في لغة أو اعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو ساذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم منه الخ ... يقال انه يوجد من هذا التفسير اليوم جزء واحد باحدى خزائن رومة عاصمة ايطاليا ، كما ان له في التاريخ كتاب يسمى « فتوح المغرب » يوجد بخزائن المانيا ؛ وله كتاب « العدل والانصاف » في اصول الفقه يقع في ثلاثة أجزاء ؛ والقصيدة الحجازية نظم فيها رحلته العلمية الى تلك الديار تقع في ٣٥٠ بيتاً جمع فيها

كثيراً من فنون العلم ، وكتاب « مروج الذهب » في الفلسفة ترجم
الى أكثر لغات أوروبا نظراً لأهميته ؛ واشتهر له في خدمة كتب
الحديث « ترتيب مسند الربيع بن حبيب » وما رأيت له من كتبه
المطبوعة سوى كتاب الدليل الذي جمع فيه فنوناً من الحكمة والفلسفة
والإلهيات وعلم الكلام والمنطق والهندسة ومناقشة المذاهب والتفسير الخ ...
فهو أشبه بصورة مصغرة لدائرة معارف إسلامية . وتوفي رحمه الله بسقط
رأسه « وارجلان » سنة ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م .



جَدْوَل تَارِيخِي

٤٧٢ - ٥٣٩ = ١٠٧٩ - ١١٤٥ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
١٠٧٩ = ٤٧٢ م	استيلاء المرابطين على غرب القطر الجزائري .
١٠٨٢ = ٤٧٥ م	عودة يوسف بن تاشفين من الجزائر الى حاضرة مراکش .
١١٠٦ = ٥٠٠ م	وفاة يوسف بن تاشفين .
١١٠٨ = ٥٠١ م	وفاة الحسن بن علي التيهري شيخ القاضي عياض .
١١٤٥ = ٥٣٩ م	نهاية حكم المرابطين بالجزائر (٢٩ رمضان - ٢٦ مارس) .
١١٧٤ = ٥٧٠ م	وفاة يوسف الرجلائي .

المحتويات

صفحة	
٧	تقديم
١٢	رفع الكتاب
١٣	اهم مصادر الكتاب ومراجعته
١٤	طائفة من آراء مشاهير علماء الشرق والغرب في التاريخ
٢٣	ما هو التاريخ
٢٦	فيما يتعلق بالتاريخ
٣٠	اشهر سني ابتداء التاريخ
٣٢	جغرافية القطر الجزائري
٤٢	ما قبل التاريخ
٤٨	البربر
٦٦	الدولة الفينيقية
٨٢	<u>مشاهير ملوك الوطن الجزائري</u>
٨٣	من مشاهير الجزائر
٨٥	الدولة الرومانية
١١٣	<u>مشاهير ملوك الوطن الجزائري</u>
١١٤	اباطرة الدولة الرومانية
١١٧	<u>من مشاهير الجزائر</u>
١٢١	جدول تاريخي
١٢٢	الدولة الفاندالية
١٢٩	ملوك الفاندال بافريقية
١٣٠	جدول تاريخي

صفحة	
١٣١	الدولة البيزنطية
١٤٢	مشاهير ملوك الوطن الجزائري
١٤٣	باطرة الدولة البيزنطية
١٤٤	<u>من مشاهير الجزائر</u>
١٤٥	جدول تاريخي
١٤٨	الأمة العربية
١٥٦	العرب في شمال افريقية
١٦٠	فتح افريقية
١٧٥	امراء افريقية وحكامها
١٧٦	الخلفاء
١٧٧	جدول تاريخي
١٧٨	مواصلة الفتح
١٩٣	ملوك الوطن الجزائري
١٩٥	امراء افريقية وحكامها
١٩٦	الخلفاء الامويون
١٩٧	<u>من مشاهير الجزائر</u>
٢٠٠	جدول تاريخي
٢٠١	الحوارج بافريقية
٢١٢	امراء افريقية وحكامها - الامويون
٢١٣	الخلفاء الامويون
٢١٤	امراء افريقية وحكامها - العباسيون
٢١٥	الخلفاء العباسيون
٢١٦	<u>من مشاهير الجزائر</u>
٢١٨	جدول تاريخي
٢١٩	الدولة الرستمية
٢٤٠	ائمة الدولة الرستمية

صفحة	
٢٤١	<u>من مشاهير الجزائر</u>
٢٤٤	جدول تاريخي
٢٤٥	الدولة الادريسية
٢٥٦	أئمة الدولة الادريسية وخلفاؤها
٢٥٧	<u>من مشاهير الجزائر</u>
٢٥٨	جدول تاريخي
٢٥٩	الدولة الاغلبية
٢٧٧	امراء الدولة الاغلبية
٢٧٨	<u>من مشاهير الجزائر</u>
٢٨٠	جدول تاريخي
٢٨١	الدولة العبيدية « الفاطمية »
٣١٣	الخلفاء العبيديون بالمغرب
٣١٥	<u>من مشاهير الجزائر</u>
٣١٩	جدول تاريخي
٣٢٠	الدولة الزيرية « الصنهاجية »
٣٥٧	امراء الدولة الزيرية الصنهاجية
٣٥٨	<u>من مشاهير الجزائر</u>
٣٦٢	جدول تاريخي
٣٦٣	الدولة الحمادية
٣٩٧	ملوك الدولة الحمادية
٣٩٨	<u>من مشاهير الجزائر</u>
٤٠١	جدول تاريخي
٤٠٣	الدولة المرابطية
٤١٣	امراء المرابطين
٤١٤	من مشاهير الجزائر
٤١٨	جدول تاريخي